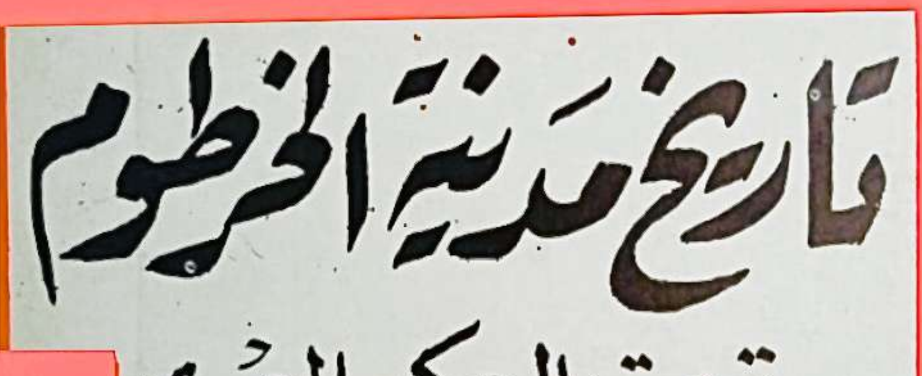
تاريخ المصريين

١٨٥



تاريخ مدينة الخرطوم

تحت الحكم المصرى

١٨٢٠ - ١٨٨٥

د. أحمد أحمد سيد أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠ م

Dr. Binibrahim Archive

● تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة :

د. سمير سرحان

رئيس التحرير :

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير :

محمود الجزار

Dr.Binibrahim Archive

تاريخ مدينة الخرطوم

تحت الحكم المصري

١٨٢٠ - ١٨٨٥

د. أحمد أحمد سيد أحمد

Dr.Binibrahim Archive

تقـــــديم

يسرني ان اقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب عن (تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٨٥) · وهو فى الأصل رسالة حصـــل بها صاحبها الدكتور احمد أحمد سيد احمد ، على درجة الدكتوراه من كلية الآداب قسم التاريخ ، تحت اشراف استاذين جليلين هما الدكتور محمد فؤاد شكرى والدكتور محمد أنيس ، وذلك فى عام ١٩٦٣ ·

ونظرا لاهمية الرســـالة رايت نشرها فى سلسلة تاريـــخ المصريين تكريما لصاحبها الذى لا اعرفه ولا اعرف ان كان حيا يرزق او صعد الى بارئه ! وانما الذى عرفنى على الرسالة أننى اشتريتها من سور الأزبكية بطريق الصدفة من نحو عشرين عاما ! وقرأتهـــا واعجبت بها ، ثم رايت أن أخرجهـــا الى النور باصدارها فى هذه السلسلة المجيدة !

والرسالة تحتوى على سبعة فصـــول ، تحدث فيها الكاتب عن عواصم السودان قبل الفتح المصرى ، وأســـماء السودان فى مراحل التاريخ المختلفة ، والعلاقات بين مصر والسودان فى العصور المختلفة · كما تنـــاول عواصـــم الســـودان بعد الفتح المصرى : سنار ودود مدنى ، واختيار موقع الخرطوم لاقامة العاصمة الجديدة واصل تسمية الخرطوم ، وطوبوغرافية مدينة الخرطوم ، وتأسيس الخرطوم على يد خورشيد بك ·

كما تحدث الباحث عن دور الادارة المصرية فى عمارة الخرطوم. وتكلم عن تقسيم مدينـــة الخرطوم من حيث التركيب الوظيفى • وتناول اثر قيام الخرطوم على المراكز التجارية ومحطات القوافل القديمة في السودان ، وتجارة الخرطوم مع خـــارج الســودان ، والمواصلات التى تربطها بخارج السودان •

وقد خصص فصلا للحديث عن مجتمع الخرطوم ، فتحدث عن العــرب ، والعبيد ، والترك ، والنصـــارى ، وعدد الســكان ، والصحة ، والتعليم ، وتناول التمثيل القنصلى فى الخرطوم •

كذلك تناولت الدراسة حكومة الخرطوم وادارة السودان فى عهد محمد على وعباس وسعيد ، وثورة « التاكة » وأثرها على النظام الادارى •

وتناولت الدراسة الثورة المهدية ، ومدى مسئوليـــة حكومة الخرطوم عن قيامها ، واقرار اخلاء السودان ، وحصار الخرطوم ، وســـقوط الخرطوم ، وتفكير المهدى فى فداء عـــرابى بغوردن ، وقيام أم درمان عاصمة المهدى •

وقد اعتمدت الرســـالة على عدد ضـــخم من المصادر مثل : الروايات الشـــفوية ، ووثائق دار المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بعابدين ، ودارة المحفوظات الانجليزية بلندن ، ودار محفوظات حكومة الســـودان بالخرطوم ، فضـــلا عن المخطوطات والمراجع العربية والأجنبية • ومن هنا فهى جديرة بالقراءة وبأن تحتل فى المكتبة العربية مكانا مرموقا •

والله الموفـق ؟

رئيس التحرير

أ • د • عبد العظيم رمضان

مدخـــــــل

يتناول موضوع « تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى : ١٨٢٠ ــ ١٨٨٥ » نشأة المدينة ، وما أصابها من تغير طوال العهد المصرى حتى تمام سقوطها وهدمها على يد الثورة المهدية ٠

ودراسة تاريخ المدن ليست بالأمر السهل ٠ فالى جانب أنه يجب أن يتــوافر فيها الالمـــام بالنواحى السياسية والاقتصــادية والاجتماعية فى البـــلاد ، وبالحوادث الكبرى التى تردد العاصمة بلا شك أفعالها فان تلك الدراسة لابد أن تجنح جنوحا معينا يؤدى الغرض المقصود من دراسة تاريخ مدينة بذاتها ٠

ويزيد من صعوبة الموضوع أن المقالات التى كتبت بشــــكل مباشر عن مدينة الخرطوم لا يتعدى عددها أصــــابع اليد الواحدة ، مما حمل على ضرورة التنقيب عما يتصل بالمدينة فى كل الكتب المعاصرة ــ وبخاصة كتب الرحالة والمكتشفين الذين زاروها وراوها رأى العين ، وجــاء ذكرهم لها ــ فى معظم الأحيان ــ ذكرا عفويا متناثرا غير مترابط ٠ وعلاوة على ذلك فان الموضوع لم تكن تستقيم معالجته دون الاستعانة بكثير من الروايات الشفوية التى استقيت من رجال مسنين من سكان القرى المحيطة بالمدينة رأوا المدينة بأعينهم قبل خرابها أو سمعوا أخبارها من ثقات ، وقد ساعدنى على هــذا الأمر وجودى فى الخرطوم خمس سنوات كاملة انتهت فى منتصف سنة ١٩٥٨ ٠ وما كان للموضوع أن تستقيم معالجته أيضا دون الاطــلاع على المحفوظات التاريخية القومية بعابدين ومحفــوظات

حكومة السودان ومحفوظات وزارة الخارجية بلندن ، وخير برهان على ذلك أنه لا يمكن دراسة النواحى الادارية لمدينة الخرطوم دون الاطلاع على كل ما ينظم ادارة البلاد ويوضح مركز المدينة فيها فى محفوظات عابدين ٠

ولما كان موضوع الرسالة يهدف أساسا الى ابراز صورة واضحة عن مدينة من خلق المصريين سار التغير فيها ـ هبوطا وصعودا ـ جنبا الى جنب مع الحكم المصرى فى البلاد فان منهج البحث وتقسيم الموضوع الى سبعة فصول أمر اقتضته طبيعة الموضوع نفسه ٠ ولـكى نتعرف على عواصم البلاد منذ أقدم العصـور حتى الفتح المصرى ، وعواصمها بعد الفتح حتى اختيار الخرطوم عاصمة للبلاد فقد أفرد لهذا كله الفصلان الأول والثانى ٠

ولابد بعد اختيار الخرطـــوم عاصمة أن تدرس طبوغرافيتها لبيان ما يمكن أن يكون من أثر للادارة المصرية فى الارتفاع بتلك الناحية فى بلاد لم تكن تعرف عن تخطيط المدن شيئا ، والى أى حد كانت استجابة السكان لتوجيهات الادارة ، والمحصلة التى انتهت اليها طبوغرافية المدينة نتيجة لهذا وذاك ، وهذا هو موضوع الفصل الثـــالث ٠

ولما كان التغيير الذى أصاب مدينة الخرطـوم لم يتبلور فى الناحية الطبوغرافية فحسب ، وكان لقيامها أثره الكبير فى المراكز التجارية القديمة فى البلاد فقد أفرد الفصل الرابع لدراسة هذا الأثر ، ودراسة المركز القيادى للمدينة الذى لعب دوره كاملا فى مجال تجارة البلاد : تسويقا وتوزيعا واستيرادا ٠ وقد استتبعت تلك الأهمية التجارية نزوح أعداد غفيرة من الناس اليها من كل الأجناس والألوان ، الأمر الذى نجد فيه تفسيرا لهذا التباين الكبير بين سـكانها : عادات وتقاليد ومراكز اجتمـاعية ، ولظهور صنف

جديد من الناس لم تكن تعرفه البلاد من الرحالة والمكتشفين الذين كان لهم كيانهم في المدينة ، وغيرهم • ونجد هذا كله عند دراسة « مجتمع الخرطوم » في الفصل الخامس •

ولما كان الهدف الأصلي من تأسيس المدينة في البقعة التي قامت فيها هو تسهيل ادارة البلاد فقد أفرد الفصل السادس لبيان الدور الذي لعبته مدينة الخرطوم في تلك الادارة ، والى أي مدى كان موقعها ذا أثر في هذه الناحية •

أما الفصل السابع والأخير فقد اختص « بنهاية الخرطوم » • ويعرض هذا الفصل لما ترتب على قيام الثورة المهدية في البلاد من حصار للمدينة ، وما كانت عليه من الداخل في ذلك الوقت حتى يوم سقوطها ، ذلك اليوم الذي كان نهاية الحكم المصري في البلاد •

الفصل الأول

عواصم السودان قبل الفتح المصرى

أسماء السودان فى مراحل التاريخ المختلفة ـ العلاقات بين مصر والسودان فى العصور المختلفة ، وعواصم السودان فى ذلك الوقت ـ السودان المسيحى والممالك التى قامت فيه ، وعواصمها ـ السودان العربى والقضاء على الممالك المسيحية •

السودان أيام مملكة الفونج : عاصمة الفونج فى اقليمى لل وسنار ـ العبد اللاب حلفاء الفونج وعواصمهم فى قرى واربجى وحلفاية الملوك ـ انتشار الفوضى فى أواخر أيام دولة الفونج ، وارتباط ذلك بالفتح المصرى للبلاد •

ان أول اســـم أطلقه المصريون القدماء أيام الدولة القديمة (حوالى ٣٢٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق‌م) على البـــلاد الواقعة جنوب مصر مباشرة هو (خنت) ، ومعناه الأراضى الجنوبية (١) • ويحدد ريزنر (٢) تلك الأراضى بالأقاليم الواقعة جنوب مصر والممتدة الى اواسط أفريقية وشرقها ، والتى تضم : النوبيين والزنوج فى الجنوب وسكان بلاد بنت وبدو الصحراء فى الشرق والليبيين فى الغرب •

وقد ظهرت على الآثار أسماء أخرى للأراضى الجنــوبية منها (تانسيو) وكان معناه قبل الأسرة الثامنة عشرة ـ كل الأقطار الواقعة جنوب مصر • ولكن ابتداء من تلك الأسرة ـ حينما دخل الزنوج بلاد النوبة لأول مرة واستوطنوا بعض جهاتها ـ أخذ هذا الاسم يعنى تدريجيــا وعلى وجه التحـديد (بلاد الزنوج) أو (بلاد السود) (٣) ، وهى تمتد بين الشلال الأول ومقرن النيلين الأبيض والأزرق (٤) •

ومن التسميات التى ظهرت أيضا على الآثار للأراضى الجنوبية (تاستى) ومعناه أرض النوبة أو أرض القسى ، وهو أقدم اسم لهذه الجهات (٥) ، ومع ذلك فقد أصبح أكثر شيوعا عند المصريين القدماء مع اسم (كاش) أو (كوش) (٦) الذى عرفت به تلك الجهات فى أوائل الدولة الوسطى ، وكان يعنى عندهم الاقليم الواقع جنوب الشلال الثانى بعاصمته نباتا (٧) •

ثم ظهر اسم (أثيوبيا) فى كتابات الكتاب القدماء للجهات الواقعة جنوب مصر ، وهو من خلق المؤرخين اليونان ، ولكن حدود البلاد عندهم لم تكن واضحة (٨) ، فهي تمتد حيث سودان وادى النيل والحبشة وأريتريا اليوم ، ومن طيبة (الأقصر) على النيل الى ما بعد منطقة مقرن النيلين الأبيض والأزرق ـ فى غير تحديد واضح (٩) ٠

وقد أطلق العرب اسم (السودان) على البلاد الواقعة جنوب الشلال الأول ، واتسع ما يعنيه هذا الاسم عندهم بعد الاسلام حتى وسع كل الممالك الافريقية الاسلامية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى والصحراء النوبية فيما بين البحر الأحمر والمحيط الأطلنطى (١٠) ٠ أما المحدثون منهم ومن المصريين فكانوا يحددون السودان ـ قبل الفتح المصرى ـ بالبلاد التى يقطنها السود جنوب مصر (١١) ٠

ومهما تكن التسميات التى عرف بها السودان فى التاريخ ، والحدود التي وسعتها تلك التسميات يمكن القول بأن تاريخ السودان القديم لا يمكن فصله عن تاريخ مصر ولا فهمه الا على ضوئه (١٢) ٠ فقد عرف المصريون القدماء بلاد النوبة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وثبتت اقامة بعض المصريين فى النوبة السفلى وبعض النوبيين فى مصر فى ذلك الوقت (١٣) ٠ وأول ملك سار بحملة منظمة الى بلاد النوبة الفرعون سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة (حوالى سنة ٣٧٦٦ ق م) ٠ ومنذ عهد الأسرة الخامسة كانت بمصر أعداد كبيرة من النوبيين العاملين فى الشرطة والجيش (١٤) ٠

فلما كانت الأسرة السادسة ازداد اهتمام ملوك مصر بكافة شئون الجنوب السياسية والادارية والتجارية(١٥)، وعهدوا الى حاكم

الحدود الجنوبية فى مصر بالاشراف عليها . وكان سلطان ذلك الحاكم يمتد جنوبا فى عهد الدولة القديمة حتى بلدة الفنتين (اسوان الحالية) وفيها مقامه ولكنه امتد فى أواخر الأسرة السادســة الى الشلال الثانى (١٦) أما مهمته فهى مراقبة الحدود وصد اغارات قبائل الجنوب عليها وقيادة القوافل التجارية والبعوث الكشفية فى ارض الجنــوب وتجنيد اللازمين لجيش مصر من رجـــال تلك الجهـــات .

وقد أهمل شأن الجنوب عندما أصيبت مصر بالانحلال السياسى فى اواخر أيام الدولة القديمة . ولكن ما أن وحدت البلاد ثانية على عهد الدولة الوسطى (حوالى ٢١٠٠ ـ ١٧٠٠ ق م) حتى قامت الأسرة الثانية عشرة بتامين الحدود الجنوبية لمصر ، وبناء المعاقل فى الأماكن ذات الأهمية الحربية فى بلاد النوبة وبجوارها المحطات التجارية (١٧) وكانت كلها ـ وعلى راسها (كرمه) عاصمة الجنوب على عهد الـدولة الوســطى مراكز للاشــعاع المصرى فى الثقـافة والحضـــارة (١٨) .

وقد قسمت البلاد منذ الدولة الوسطى الى اقليمين : الأول يمتد من أسوان الى الشلال الثانى ويسمى (واوات) ، والآخر من الشلال الثانى حتى مشارف الشلال الرابع ويدعى (كوش) .

وعند سقوط الدولة الوســطى ســادت الفوضى البلاد ، اذ احتلها الهكسوس نحو قرن ونصف قرن من الزمان حتى تم طردهم على يد احمس الأول ـ مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ـ حوالى عام ١٥٨٠ ق م . ثم اتجه أحمس بعد ذلك الى الجنوب ، فقضى على ثورة كانت قد قامت فى اقليم واوات ، وعين على البلاد حاكما عاما لم يتعد نفوذه هذا الاقليم فى ذلك الوقت . ولم تلبث بلاد كوش أن أخضعت أيام امنوفيس الأول فامتدت حدود اقليم حاكم الجنوب

حتى الشـــلال الرابع ، ولكن لما كانت منطقة نفوذه تضم أيضـا المقاطعات الجنوبية الثلاث من مصر فقد أصبح اقليمه الادارى يمتد من ادفو شمالا حتى مدينة نباتا جنوبا (١٩) ٠

وكان حاكم السودان العام على عهد الدولة الحديثة (حوالى ١٥٨٠ ـ ١١٠٠ ق م) يلقب (بابن الملك صاحب كوش) ٠ أما مقره ففى (نباتا) التى كان ينتقل منها واليها أحيانا تبعا لاحتياجات الادارة (٢٠) ٠ ولهذا الحاكم وكيلان ، يختص أحدهما بادارة ـ اقليم واوات والثانى باقليم كوش ٠

وابرز أثر للدولة الحديثة في البلاد ما ظهر عند السودانيين من تفهم لفوائد الحياة المستقرة ٠ ويرجع هذا التغير فى حياتهم أكثر ما يرجع الى انتقال أعداد كبيرة من المصريين الى البلاد ، فكان كل معبد ومحطة تجارية مركزا للمدنية المصرية يعمر بجالية من المصريين المتفقهين في الطب والقانون والدين وسائر الحرف (٢١) ٠ فاذا أضفنا الى ذلك الأثر الكبير الذى نتج عن اصهار المصريين الى أهل البلاد ـ وضح الى أى حد يصح الأمر القائل بأن بلاد النوبة فى آخر الدولة الحديثة قد مصرت تماما وأصبحت جزءا أصليا لا ينفصم عن مصر (٢٢) ٠

وعند قيام ثورة اخناتون الدينية هاجر كهنة آمون من طيبه الى الجنوب حيث كانت معابد آمون تنتشر فى طول البلاد بجوار المعاقل ، ولجاوا الى مدينة نباتا وأنشأوا فى جبل البركل ـ القريب منها ـ معبدا ضخما لهم ٠ وقد زادت هجرتهم الى الجنوب بعد ذلك فى عهد الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين وتمكنوا من التأثير على أهل البلاد واعلان أنفسهم ورثة شرعيين لعرش فرعون فى الجنوب والاستقلال بحكمه معتبرين نباتا عاصـــمتهم الجنوبية

وطيبة العاصمة الشمالية . وقد انتقل السلطان في أعقابهم حتى ارتقى الملك بعنخي العرش حوالى سنة ٧٥٠ ق م .

ولما كانت مصر تمر فى ذلك الوقت بعصر انحلال فقد سنحت الفرصة لقوتين ان تغزواها : الآشوريون من الشمال والنوبيون من الجنوب . وكان السبق من نصيب النوبيين ، فاحتل بعنخى مصر وكون الأسرة الخامسة والعشرين فيها . وهكذا أصبحت نباتا عاصمة لوادى النيل شماله وجنوبه ، ولكن ما أن وضح لبعنخى تعذر حكم الشمال والجنوب منها حتى نقل العاصمة الى طيبه لتوسط موقعها .

ولم يلبث ملوك نباتا أن اضطروا تحت ضغط الآشوريين – الذى كان مستمرا – الى الانسحاب من مصر ، الأمر الذى كان من نتائجه انقطاع العلاقات السياسية بين مصر وبلاد النوبة منذ حوالى سنة ٦٥٠ ق م (٢٣) .

ولم يحاول حكام مصر الاجانب من الفرس والبطالمة والرومان الذين سيطروا على البلاد بعد أن ضعفت السلطة المركزية فيها منذ اواخر العصر الصاوى (الأسرة السادسة والعشرين) اعادة العلاقات بينها وبين بلاد النوبة الى سابق عهدها .

أما ملوك نباتا فقد اتجهوا بدورهم عن مصر الى الجنوب وجعلوه متنفسا لهم ووصلوا فى هذا الاتجاه حتى منطقة السدود . وقد قامت بمدينة (مروى) (٢٤) نتيجة لذلك أسرة ملكية من نباتا كانت مهمتها حكم جزيرة مروى (٢٥) . وبمرور الزمن ازدادت اهمية تلك المدينة حتى أصبحت وسطا تجاريا مشهورا فى جميع اطراف العالم اليونانى والرومانى ، تمتد منه الطرق الى الاتبرة والأزرق ومناطق الذهب فى الصحراء الشرقية كما تمر به

قوافل الغرب وهي في طريقها الى موانى البحر الأحمر ، وهو فوق ذلك يقع في منطقة زراعيـة غنيـة تقترب من الجنوب بامكاناته الكبيرة (٢٦) ٠

اما نباتا فكان أمرها غير ذلك ، اذ ما أن نضب معين الذهب في مناجمها التى كان يقوم عليها رخاؤها المادى حتى أخذت تجنح الى ان تكون عاصمة دينية أكثر منها عاصمة سياسية ٠ وما أن حلت سنة ٣٠٠ ق م حتى ادعى ملك مروى الرياسة على ملك نباتا ولفترة من الزمن كانت هناك مملكتان وعاصمتان ، ولكن ملك مروى تمكن سنة ٢٢٥ ق م من اعلان نفسه ملكا على كل البلاد ، ومنذ تلك السنة أصبحت مروى عاصمة للمملكة التى عرفت بهذا الاسم ٠

والحد الشمالى لمملكة مروى أيام البطالمة كان يقع جنـــوب أسوان بحوالى مائة من الكيلومترات كانت تعرف باسم (دوديكا شينوس) ٠ وامتد هذا الحد أيام الرومان الى أســوان فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ م ــ ٣٠٥ م) (٢٧) ٠

وقد سقطت مملكة مروى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، عندما هاجمتها منافستها التجارية مملكة اكسوم الحبشية التى كان رخاؤها يقوم على التجارة المنقولة من داخل افريقيا والهند الى العالم الرومانى (٢٨) ٠ على أن سقوطها لم يكن فجائيا ، اذ ان سلطانها كان قد أخذ في الضعف منذ منتصف القرن الثالث الميلادى عندما أخذ النوباويون الآتون من الجنوب الغربى فى الاغارة عليها ٠ فاذا أضفنا الى ذلك أن عدم استقرار الأحوال في مصر وقتئذ واستيلاء البليميين (البجة) على اقليم دوديكاشنوس قد عرقلا تبادل المتاجر مع مصر ــ وضح الى أى حد أدى ذلك كله الى الانهيار الاقتصادى

في المملكة وضعف السلطة المركزية بها وعجزها عن صد هجوم اكسوم (٢٩) .

ويكتنف الغموض تاريخ السودان في المدة بين سقوط مملكة مروى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى ودخول المسيحية البلاد في منتصف القرن السادس الميلادى . أما بعد ذلك فالمعروف أنه عند دخول المسيحية كان بالسودان ممالك ثلاث قامت على انقاض مملكة مروى . وهذه الممالك المسيحية هى : مملكة النوباديين (أى نوباديا) وعاصمتها بخراش (فرس الحالية) وتمتد من مدينة القصر جنوب أسوان بخمسة أميال الى قرية عكاشة جنوب الشلال الثانى . ومملكة الماكوريين (أى مقره) وعاصمتها دنقله وتمتد من قرية عكاشة الى بلدة الأبواب (كبوشية الحالية) . ومملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodiae وهى علوه وعاصمتها سوبا وتمتد جنوب مقره حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض (٣٠) ، وكانت هذه المملكة تشمل أيضا بعض جهات الاتبرة والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقا وبعض جهات كردفان ودارفور غربا . وما بين سنتى ٥٨٠ م ، ٦٥٢ م اتحدت المملكتان الشماليتان نوباديا ومقره ـ في مملكة واحدة عرفت باسم مقره او النوبة ، كما عرف جزؤها الشمالى (نوباديا) باسم مريس (٣١) .

وحاكم مريس أعظم حكام مملكة مقره بحكم وقوع ولايته بين مصر ومملكة مقره ، وسماه المؤلفون العرب باسم (صاحب الجبل) (٣٢) ، ومقره مدينة فرس ، على انه كان يضطر أحيانا ـ لأسباب حربية وادارية ـ الى الانتقال من مدينة الى أخرى .

ودنقلة (٣٣) عاصمة مملكة مقره مدينة عظيمة « بها كنائس كثيرة ، ومنازل كبيرة ، وشوارع واسعة ، وبيت الملك شاهق به قباب عديدة مبنية من الآجر الأحمر ويشبه مباني العراق » (٣٤) ٠

ومملكة علوه أغنى وأوسع ثروة من مقره لاتساع واديها وخصوبة أراضيها (٣٥) ٠ وهي مقسمة الى ولايات أجلها ولاية الأبواب (٣٦) ، التي كان لحاكمها في المملكة منزلة كبيرة بحكم وقوع ولايته على حدود مملكة مقره ، وتحكمها في طريق المواصلات الى تلك المملكة وما يليها شمالا من البلاد ٠

وعاصمة ملك علوه سوبا الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأزرق غير بعيدة عن نقطة التقائه بالنيل الأبيض ٠ وهي أعظم مدن السودان المسيحي قاطبة ، « وفيها ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين » (٣٧) ٠

وترجع نشاة سوبا الى أيام الأسرة السادسة والعشرين في مصر ، حين قام نزاع بين الفرعون أبسماتيك الثاني وجماعة من جنده فهربوا الى منطقة مروى القديمة (٣٨) ٠ ويروى المؤرخ الروماني Bio (١٥٠ ق م) أن الجند الفارين أسسوا من المدن مدينة Sape (٣٩) ٠ ولما كان من المرجح أن اسم سوبا تحريف لهذا الاسم (٤٠) ٠ يتضح أن سوبا من انشاء هؤلاء الجند ٠ وحيث أن حادث الهرب وقع سنة ٥٨٦ ق م (٤١) ، لذلك يغلب على الظن قيام سوبا في تلك السنة أو بعدها بسنوات قليلة على عهد مملكة نباتا ٠

وأول ذكر لسوبا على الآثار جاء في لوحة أقامها أحد ملوك مروى سنة ٣٢٨ ق م – لتخليد ذكرى مباركة الاله آمون لجلوسه على عرش البلاد (٤٢) ، فقد عد فيها أقاليم مملكته ومن بينها علوه

بعاصمتها سوبا . واشتهرت سوبا فى عهد مملكة مروى كمدينة تجارية تحتل المركز التجارى الثانى بعد مروى العاصمة (٤٣) .

وقد شاعت فكرة الربط بين سوبا وسبا عند التصدى لتحقيق اصل تسمية المدينة ويغلب على الظن أن يهود الحبشة أول من قاموا بهذا الربط ، اذ نسج خيالهم اسطورة اشاعوها بين الأحباش بان بلقيس ملكة سبا حبشية وانها تزوجت من سليمان بن داوود عليه السـلام وولدت منه ولدا (٤٤) ، ولخوف الملكة على طفلها ارسلته الى السودان فربى فى مدينة سوبا التى كان اسمها سبأ وحرف الاسم لتقادم العهد (٤٥) .

ومهما يكن امر هذه الأسطورة ، فهى تدلنا على العلاقة القديمة بين الحبشة واهل سوبا وهى علاقة لا ينكرها التاريخ ، وتدلنا أيضا على أن شيوع فكرة الربط بين سوبا وسبا يرجع الى أساطير يهودية قديمـة (٤٦) .

والزراعة هى العمل الرئيسى لسكان السودان المسيحى ، ولكن الراجح انها لم تكن من الوفرة والتنوع بحيث يمكن استغلال فائض منها فى الأغراض التجارية . أما التجارة فيبدو أن دور السكان فيها كان دور الوسيط للحصول على عمولة أو رسوم حماية التجارة وطرق القوافل (٤٧) . ولم تعرف العملة الا فى منطقة مريس ، أما الى الجنوب منها فكان التبادل يتم عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشى والحبال والحبوب . وتقوم على طول النيل نقط كانت بمثابة محطات يتم عندها التبـادل التجارى ، منها مدينة بلاق (جزيرة فيله) الواقعة جنوب أسوان بأربعة أميال وتنتهى عندها مراكب النوبة شمالا وبلدة تقوى (وادى حلفا) الواقعة عند الشلال

الثاني وتنتهى عندها مراكب النوبة المصعدة من القصر الحد الشمالى لمريس (٤٨) ٠

وترجع صلة العرب بالسودان الى ما قبل الفتح العربى لبلاد النوبة ـ في منتصف القرن السابع الميلادى ـ بأزمان بعيدة (٤٩) ٠ ولما فتح العرب مصر أرسل عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) حملة لفتح بلاد النوبة الشـــمالية (مقره) ٠ وفى سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) قاد عبد الله بن سعد بن أبي السرح والى مصر حملة أخرى تمكنت من الاستيلاء على دنقله العاصمة ، وتم صلح بين الطرفين عرف باسم (البقط) (٥٠) ٠

واذا كان العرب لم يحتلوا البلاد بالرغم من النصر العسكرى الذي أحرزوه واذا كان من شروط البقط عدم السماح لهم بدخولها الا للتجارة ـ الا أن الجماعات العربية فى جنوب مصر أخذت فى التسرب السلمي الى شمالى مقره (اقليم مريس) وما جاورها شرقا من بلاد البجة ٠ وقد زاد التسرب بعد أن سيطر الترك على الدولة العباسية منذ عهد المعتصم بالله وأصبح حكام مصر من غير العرب منذ منتصف القرن التاسع الميلادى وبعد أن قاسى العرب الكثير من ضغط الحياة ووصلت الى أسماعهم ما تخبئه تربة بلاد البجة من نفيس المعدن (٥١) على أن طريق العرب الى بلاد البجة بعد الفتح العربى لمصر لم يكن مقصورا على طريق مصر ، فقد شـــقوا أيضـــا طريقهم اليها عبر البحر الأحمر ، وثبت بالأدلة القاطعة قيام مواطن عربية فيها منذ القرن الثامن الميلادى (٥٢) ٠

وقد حانت للعرب في مصر فرصة عندما أرسل أحمد بن طولون سنة ٨٦٨ م حملة الى بلاد النوبة ، فكان أغلب جندها منهم ، ونتج عنها استقرار الكثير منهم حول أسوان وفي بلاد البجة ٠ وما أن

وافى منتصف القرن العاشر الميلادى حتى كان خطر العرب قد زاد في بلاد النوبة لدرجة كبيرة ، فكان زعيم بنى ربيعة « يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة » (٥٣) • واستمرت هجرة العرب من مصر الى بلاد النوبة أيام الدولة الفاطمية (٩٦٩ م ـ ١١٧١ م) فقد اجتذبت مصر فى عهـدها الكثير من النـوبيين للعمل فى الجيش ، ولا يخلو الأمر من اصطحاب بعض عرب مصر للجند وهم رجوع الى بلادهم • فلما جاءت الدولة الأيوبية (١١٧١ م ـ ١٢٥٠ م) أرسل صلاح الدين سنة ١١٧٢ م حملتين الى بلاد النوبة (٥٤) ، واصطدم جنده ببنى كنز (٥٥) القائمين حول أسوان ـ وهم من ربيعة ، وكان سبب الحرب اعتقاد صلاح الدين أن زعيم بنى كنز يعمل على اعادة الدولة الفاطمية (٥٦) ، وقد انتقل كثير من بنى كنز بعد هزيمتهم الى بلاد النوبة وأقاموا فيها •

وأكبر اثر لهذه الهجرات العربية الى بلاد النوبة أن العرب اختلطوا بالنوبيين والبجة واعتنق كثير من هؤلاء الاسلام ، ولم يعد لملوك النوبة (مقره) فى منطقة مريس سوى نفوذ اسمى •

وقد سار سلاطين المماليك على خطة التدخل فى شئون الحكم فى بلاد النوبة ، واشتركت كثير من القبائل العربية فى مصر فى الحملات المملوكية عليها • ولم يؤد ذلك الى اخضاع مملكة مقره فحسب ، بل أدى أيضا الى استقرار معظم هذه القبائل فيها مما أدى الى صبغ البلاد وسكانها بصبغة عربية • ولعل بنى كنز كانوا أقوى العناصر التى اتيح لها أن تشارك فى حوادث هذه المملكة بانضمامهم الى معظم الحملات المملوكية المجردة عليها ، ثم بالتمكين لأنفسهم فيها عن طريق المصاهرة مع بيتها المالك ، وقد نتج عن ذلك أن ادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى ملك مقره عن طريق وراثة الأم مستعينا

فى ذلك بالعرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين فيها ، الأمر الذى تمكن معه فى النهـــاية من انتزاع ملك مقره واعلان استقلاله عن السلطنة المملوكة سنة ١٣٢٣ م (٥٧) ٠

وقد ازداد نفوذ بنى كنز بعد قيامهم فى الملك ، حتى لقد تمكنوا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر من مهاجمة أسوان وامتلاكها أحيانا ٠ وكان نتاج حركتهم هذه مع النزاع الذى كان يحدث بين القبائل العربية فى مملكة مقره لسبب أو لآخر ـ اشاعة الفوضى والاضطراب فى كل المنطقة الممتدة من عيذاب شرقا الى الواحات غربا (٥٨) وبخاصة فى جنوب مصر وبلاد النوبة ، مما دفع الكثير من العـــرب الى الهجرة من مصر الى بلاد النـــوبة أيام المماليك (٥٩) الذين كان من سياستهم أيضا دفعهم الى الرحيل ٠

واشد الهجرات العربية عنفا هجرة عرب جهينة الى بلاد النوبة فى أوائل القرن الرابع عشر (٦٠) ٠ وجهينة واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية فى ذلك الوقت ، على حين تجمع خليط آخر منها عقب سقوط دنقله فى أرض البطانة والجزيرة ٠ والراجح ان معاينة هذه الجماعات الأخيرة للمراعى الغنية ترامت أخبـــارها الى ذويهم فى الشمال ، فأخذت جموع هؤلاء فى الانتشار جنوبا منذ منتصف القرن الرابع عشر (٦١) ٠

وهكذا يتضح الى أى مدى عم خطر القبائل العربية ـ وعلى راسها جهينة ـ فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر فى بلاد النوبة الجنوبية (علوه) ، « فانتشروا ما بين صـــعيد مصر وبـــلاد الحبشـــة ، وكاثروا هنالك ســـائر الأمم وغلبوا على بـــلاد النوبة » (٦٢) ٠ وكانت وسيلتهم فى شق طريقهم فى البـــلاد

والاســـتقرار بهـــا بالانتشـــار الســـلمي ، « وذهب ملـــوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ، ثم ساروا الى مصـــانعتهم بالصهر فافترق ملكهم ، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم ، واستولى اعراب جهينة على بلادهم » (٦٣) ٠

ولكن هذا السلطان لم يتم للعرب فجأة ، لأن انتشارهم فى علوه استغرق في الواقع عدة قرون ، فقد كان للمترددين منهم عليها لأسباب التجارة وغيرها رباط في سوبا عاصمتها يرجع تاريخه الى القرن العاشر الميلادى على أقل تقدير (٦٤) ٠ ولابد أنهم استقروا في مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوه محافظين على نظامهم القبلى ، بل لابد أنهم كانوا يدفعون اتاوة الى هؤلاء الملوك (٦٥) ٠ حتى اذا كان منتصف القرن الرابع عشر بدأت هجرة جهينة من بلاد النوبة الشمالية الى الجنوب ، فزادت جموعهم وسقط سلطان ملوك علوه ولم يمض على سقوط مملكة مقره قرن من الزمان ، وكان ذلك فى أواخر القرن الرابع عشر أو السنوات الأولى من القرن الخامس عشر على أقل تقـــدير ، وهذا يتفق مع ما أثبته القلقشندى (٦٦) في ذلك التاريخ من وجود امارات عربية مستقلة فيما بين مصر والحبشـــة عد منها ثماني كانت بينها وبين ســـلاطين المماليك فى مصر مكاتبات رسمية ٠

واذا كانت حكومات الأقاليم قد سقطت في يد العرب بسقوط ملوك علوه ، الا أنهم لم يتمكنوا ـ فى نفس الوقت ـ من القضاء على سلطان ملك علوه الكبير في عاصمة سوبا بسبب عجزهم عن اقامة حكومة مركزية فى البلاد « للآفة التى تمنع انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد » (٦٧) ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون ملك علوه قد نقل عاصمته ـ تحت ضغط الهجرات العربية

التي زادت من حدتها الحروب الداخلية فى المملكة (٦٨) - الى مدينة تدعى (كوسه) (٦٩) فى الربع الأول من القرن الرابع عشر على الأقـــل ٠

ويبدو أن كوسه كانت تقوم على مقربة من بده وادى الملك ، الأمر الذى أثبتته الكشـــوف الأثرية التى اجريت فى تلـــك المنطقة (٧٠) ٠ واذا كانت المنطقة غير لائقة جغرافيا لقيام عاصمة جديدة ، حيث أن « أهلها قليلون وأرضها حارة جافة كثيرة الجفوف جدا » (٧١) - فان الغالب على الظن أن الهجرات العربية العارمة قد اضطرت ملك علوه الى الانتقال اليها ، وأن موقعها الجغرافى كان فى صالحه فى كفاحه مع العرب ٠

ومع أن سوبا قد فقدت مركزها كعاصـــمة لعلوه الا أنها استمرت لفترة طويلة بعد ذلك تقوم بدورها فى خدمة تجارة المملكة، فاذا كان الربع الأول من القرن الســـادس عشر كانت تبـــدو خرائب (٧٢) ٠

ومذ فتح طريق النيل - بعد سقوط مملكة دنقـــله - أمام هجرات القبائل العربية الى أرض علوه حتى قامت عدة مشيخات عربية فى حوض النيل الأوسط فى أواخر القرن الرابع عشر أو فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر على أقل تقدير (٧٣) ٠ أما النوبة فقد « تفرقوا وسط العرب المقيمين ببلادهم » (٧٤) واذا كانت شخصية تلك المشيخات غير واضحة فى ذلك الوقت الا أنها تمكنت بمرور الزمن من تثبيت أقدامها فى مواطنها ٠ وعلى أية حال ، لم يترتب على قيامهـــا استقرار اجتمـــاعى وســـياسى فى البلاد (٧٥) ، الأمر الذى تدهور معه اقتصادها وظهرت حاجة ملحة الى انشاء حكومة مركزية ترعى شئون الأمن والتجارة الخارجية

فيها ولما كان النزاع بين المشيخات يعجزها عن القيام وحدها بتلك المهمة فقد عقد حلف بينها وبين سلطان الفونج القائم باقليم (لمل) في ذلك الوقت • وقد تدرج هذا الحلف في عدة مراحل أخذت صورتها النهائية في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر في شكل اتفاق بين تلك المشيخات وشيخ العبد اللاب ـ وهو أقوى المشايخ ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بدوره في حلف مع سلطان الفونج (٧٦) • وقد تمكن الحلف من القضاء على مملكة علوه في معركة اربجي سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) •

وتقرر الروايات الوطنية أنه بعد سقوط علوه « توجه عبد الله جماع (شيخ العبد اللاب) واختط مدينة قرى الكائنة عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسي ملكه ، وكذلك عمارة (سلطان الفونج) اختط مدينة سنار وجعلها كرسي ملكه ، وذلك في سنة ٩١٠ » (٧٧) •

ولكن ما ترويه الروايات الوطنية عن سنة تخطيط سنار لا يتفق مع ما قرره الرحالة روبيني (٧٨) من أن عمارة كان يقيم في عاصمته باقليم لمل Lmicul عندما زاره أوائل سنة ١٥٢٢ م وامضى في صحبته عشرة شهور قضاها في التنقل معه في جهات مملكته المختلفة (٧٩) • ونضيف الى ذلك : أن القس البرتغالي الفاريز ـ الذى كان يزور الحبشة في ذلك الوقت ـ لم يذكر شيئا عن وجود سلطان في سنار في تلك السنة (٨٠) ، وأنه تجاء في تاريخ ملوك السودان (٨١) « أن ابتداء أمر الفونج كان بمحل يعرف بلولو Lulu وأن روايات الفونج أنفسهم تقول بأنهم كانوا يقيمون باقليم لمل (Lamul) قبل الانتقال الى حوض النيل الأزرق لبدء الجهاد ضد مملكة علوه » (٨٢) •

ويتضح من تلك القرائن أن الفونج كانوا يقيمون فى اقليم لل او لولو قبل الانتقال الى سنار . واذا كان من اختلاف بسيط بين هاتين الكلمتين وكلمة لل التى جاءت فى راوية روبينى الا أنه يمكن تفسيره بما يصيب الأعاجم من تصحيف للكلمات عند نطقها ومطابقة ما يكتبون لما ينطقون به . كما يتضح أن عمارة كان يقيم فى اقليم لل حتى سنة ١٥٢٢ م على الاقل قبل أن ينتقل الى حوض النيل الأزرق ويتخذ سنار عاصمة له .

واذا كان هذا صحيحا ، فمتى كان انتقال عمارة اذن من اقليم لل الى عاصمته الجديدة سنار ؟ . لا شك أن هذا الأمر قد تم بين سنة ١٥٢٢ م ـ حين تأكدت اقامته فى لل أثناء زيارة روبينى له ـ وسنة وفاته . ولما كان الغالب على الظن أن وفاته فى سنة ١٥٣٤ م (٨٣) فان انتقاله الى سنار يكون بين سنتى ١٥٢٢ ، ١٥٣٤ . ولما كان الثابت ان عمارة قد أمضى عدة سنوات فى المدينة قبل وفاته يتضح اذن أن الانتقال وقع سنة ١٥٢٥ م أو بعدها بسنوات قليلة ، الأمر الذى يترتب عليه عدم قبول الروايات التى تقدم الانتقال على تاريخ وقوع معركة اربجى سنة ١٥٠٤ م (٨٤) أو تؤخره الى ما بعد سنة ١٥٢٥ م (٨٥) .

ولكن اذا كان روبينى يذكر أن سنار هى مركز من دعاه « بأمين بيت مال عمارة » واذا كان الثابت عدم قيام حلة فى موضع سنار قبل عهد الفونج فهل يمكن أن يكون عمارة قد اختط سنار بعد انتصاره على علوه سنة ١٥٠٤ م ولكنه استمر مع ذلك فى الاقامة فى لل ، وأن أمين بيت ماله هو الذى كان يقيم فى سنار حيث المنطقة النهرية الغنية بالزراعة في حوض النيل الأزرق ليتسنى له جمع الضرائب منها ، حتى اذا كانت سنة ١٥٢٥ م لحق به السلطان ؟ .

من المحتمل أن يكون الأمر كذلك ، ولكن ما الذى يدعو عمارة الى تخطيط سنار ثم لا يقيم فيها ؟ ونتيجة لكل ذلك ، يمكن القول بأنه يبدو أن سنار قبل انتقال عمارة اليها لم تكن غير محط لأمين بيت ماله أثناء مرور روبيني بالمنطقة ، فاذا كانت سنة ١٥٢٥ م ـ أو بعدها بقليل ـ انتقل عمارة اليها واختط عاصمته فيها •

ولكن أين كانت عاصمة عمارة في اقليم لمل ؟

جاء في تاريخ ملوك السودان (٨٦) ، وفي أخبار الملك أونسه انه عندما انحرف عن جارة الملك « بلغت أخباره الى الفونج بالصعيد وهم جند لولو فصمموا على عزله ، لأنهم هم الذين يعزلون ويولون من يريدون في الملك بدون قتل ، فلما صمموا على ذلك حضروا من الصعيد حتى وصلوا بجبال الكبوش قريبا من سنار فعينوا الملك نول للتوليه » • وجند لولو في هذه الرواية هم جند دولة الفونج التي كانت عاصمتها في اقليم لمل تقوم في أوطانهم أو بالقرب منها ، والذين كانوا عضد الملوك في المحافظة على سلطانهم ، وكسبوا ـ بعد انتقال السلطنة الى سنار ـ قدرا من الاستقلال مكنهم من التدخل في شئون الحكم « وعزل وتولية من يريدون من السلاطين بدون قتل » •

وربما كانت كلمة (الصعيد) التي جاءت في الرواية كوطن لجند لولو هي التى حملت الدكتور مكي شبيكه (٨٧) على تحديد موقع عاصمة عمارة الأولى في مكان يقوم بين مدينتي كركوج والروصيرص الواقعتين جنوب مدينة سنار مستأنسا في ذلك بأن الصعيد هو ما كان جنوب سنار مباشرة على النيل • ولكن يبدو أن هذا الرأي لم تصادفه الصحة لأن الصعيد في الواقع اتجاه عام لناحية الجنوب ـ وقد يكون جنوبا بشرق أو جنوبا بغرب بل ولمسافات بعيدة ولأن الطريق بين عاصمة عمارة الأولى ـ كما حدد مكانها الدكتور شبيكة ـ وبين مدينة سنار لا تتفق طبيعته مع ما جاء

فى رواية روبينى عن معالم هذا الطريق : الذى به غابات وجبال وصحراوات وأراض تزخر بالأفيال يطعم لحومها ســـكان تلك الجهات ، ومجار مائية كثيرة من بينها نهر مختلط ماؤه بالطين غاصت فيه الخيل حتى بطنها وغرق فيه عدد منها ومن الرجال (٨٨) ، ولأن عاصمة عمارة الأولى ـ عند روبينى ـ تقع بالقرب من منبع نهر النيل الذى يسميه (نيل مصر) (٨٩) ٠

ونستنتج من عبارة روبينى الأخيرة أن عاصمة عمارة الأولى تقوم بالقرب من مجرى مائى كبير عند خروجه من الهضبة الحبشية الى السهول السودانية ، الأمر الذى يقول بوجوب التنقيب عن تلك العاصمة على جانبى الحدود الحبشية السودانية فى طول المسافة بين خور بركة والنيل الأزرق ٠ ولكن ليس من السهل العثور على ضالتنا فى تلك المنطقة الواسعة التى تتشابه فيها المظاهر الجغرافية وتتتابع على جانبى الحدود دون تغير ٠ ويزيد من الصعوبة وجود أماكن عديدة فى المنطقة تدخل فى تركيب أسمائها حروف كلمة (لمل) ، مما يؤدى الى عدم قبول قيام عاصمة عمارة فى أحدها دون وجود قرائن مادية كافية تعزز ذلك ٠

ويرى الشاطر بوصيلى (٩٠) أن عاصمة عمارة الأولى كانت تقوم محل البـــلدة المعروفة الآن بأم حجار (أوم هجر فى اللهجة المحلية) معتمدا فى ذلك على وقوع هذه البلدة بالقرب من نهر ستيت (فرع الأتبرة) عند خروجه من الهضـــبة الحبشية الى الســـهول السودانية وعلى الأهمية الجغرافية للمنطقة المحيطة بها مما يسمح بالسيطرة على طرق القوافل بين داخلية البلاد الأثيوبية وحـــوض النيل من جهـــة وموانى البحر الاريترى من جهـــة أخـــرى (٩١) ٠

ويرى كروفورد (٩٢) أن عاصمة عمارة الأولى كانت تقوم محل مدينة القلابات الحالية ذات الموقع الجغرافى الذى جعلها تسيطر على

طرق التجارة بين السهول السودانية والهضبة الحبشية ، علاوة على أنها مدينة حدودية ممتازة يسهل الدفاع عنها ، وأن الطريق بينها وبين سنار تعتوره تلك الصعاب التى قال بها روبينى فيه ٠

وبالنظر الى الموضع الذى حدده كل من بوصيلى وكروفورد لعاصمة عمارة الأولى نجد أم حجار بالقرب من نهر ستيت عند خروجه من الهضبة الحبشية ، والقلابات بالقرب من نهر اتبره عند خروجه من تلك الهضبة ٠ وفوق ذلك يتوافر فى كل منهما تلك الأهمية التجارية التى تسمح بالسيطرة على طرق القوافل بين السودان والحبشة ٠ الا أنه يبدو أن رأى ـ كروفورد أميل الى الصحة للأسباب الآتية :

اولا : أن المسافة بين القلابات وسنار اقصر نسبيا منها بين ام حجار وسنار (٩٣) ، مما يجعل القلابات أميل الى الصحة من ام حجار كعاصمة لعمارة ، وخاصة اذا وضعنا فى الحساب الصعاب التى صادفها روبينى فى طريقه بين عاصمتى عمارة فى اقليم لمل وسنار وأن المسافة بينهما مع طولها قد قطعت فى ثمانية أيام فقط ٠

ثانيا : أنه اذا كانت تتوافر فى الطريق بين العاصمتين ـ عند كل من بوصيلى وكروفورد تلك الصعاب التى قال بها روبينى فلا شك أن الطريق بين القلابات وسنار أكثر انطباقا على مواصفات تلك الصعاب اذ تقع حولها دار صيادى الفيلة المشهورين الذين يطعمون على لحومها (٩٤) ٠ أما نهر الطين الذى غرق فيه بعض صحب روبينى من الرجال والخيل فربما كان أعالى نهر الدندر أو نهر الرهد بما يتصرف اليهما من أخوار ، الأمر الذى يقول بأن رحلة روبينى كانت فى شهر اكتوبر أو نوفمبر أثر انتهاء فصل الأمطار فى الهضبة الحبشية مباشرة ٠

ثالثا : أنه يقوم فى أعالى نهر الدندر بالقرب من القلابات اقليم جانجر Ganjar الشهير بفرسانه (٩٥) ، ومن المحتمل أن سلاطين الفونج كانوا يحصلون على الفرسان منه • ويعزز ذلك ما جاء فى احدى روايات قبيلة الشكرية من أن الحرس الراكب لملك سنار كان يتألف من أبناء منطقة دنجر (٩٦) • فاذا عرفنا أن هذه المنطقة هى بعينها اقليم جانجر (٩٧) اتضح لنا أن فرسان اقليم جانجر ما هم الا فونج للصعيد وجند لولو ، الذين يعزلون ويولون من يريدون فى الملك بدون قتل ، كما جاء فى الروايات الوطنية •

والآن ما هى الحدود التى كان يمتد اليها سلطان الفونج من عاصمة فى اقليم لمل ؟ يقرر روبيني أن عمارة يحكم شعبا من البيض والسود ، وانه كانت تقام له ــ أثناء تنقلاته الدورية الشهرية فى انحاء المملكة ــ راكوبة (٩٨) عند الوصول الى مقصده ، وان عنده الكثير من الفرسان والخيل والجمال والماشية والأغنام ، ولديه من تراب الذهب مقادير كبيرة ومن الجهات التى تخضع له مملكة (الجعل) ، وأمين بيت ماله يقوم فى سنار •

ويمكن أن نستخرج من ذلك أن سكان البلاد كانوا بدوا كما أن بها بعض السود فى أعالى نهرى أتبرة والأزرق وجزيرة سنار ، وان لعمارة علاقة وثيقة باقليم الذهب فى أعالى الأزرق ، وسلطانه كان يمتد على حوض النيل الأوسط حيث أوطان الجعليين بين شلال سبلوكة جنوبا ونهر أتبرة شمالا • أما الحد الشمالى للمملكة فيبدو أنه كان يمتد على بلاد النوبة حتى حدود المحس شمالا (٩٩) •

ولكن اذا كان قد تسنى لعمارة ادارة مملكته هذه من عاصمة فى اقليم لمل فما هى الدوافع التى حملته ــ مع ذلك ــ على الانتقال الى حوض النيل الأزرق حيث اختار عاصمته الجديدة سنار ؟ لاشك أن

لمجريات الأحوال في شمال الحبشة في أوائل القرن السادس عشر أثر مباشر في هذا الانتقال ، حين وصلت العلاقات في تلك الناحية بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين الأحباش الى درجة كبيرة من السوء • ونضيف الى ذلك ما منى به الفونج من هزيمة في قتالهم مع قبيلتي البلى والأرتيقة (١٠٠) ، وامتداد نفوذ العثمانيين في ذلك الوقت الى حوض البحر الأحمر وعملهم على تعزيز سلطانهم على ساحله الافريقي ليتمكنوا من مطاردة البرتغاليين الذين كانوا يعملون على بسط نفوذهم على الحبشة •

والسؤال الآن : ما هي العوامل التي حملت عمارة على اختيار موضع سنار لاقامة عاصمته الجديدة ؟ • قد يقال أن التقاء عدة طرق تجارية في هذا الموضع ـ تنقل متاجر عديدة مصدرها أفريقية والشرق الأقصى ومصر ـ هو ما أدى بعمارة الى اختياره •

ولكن يرد على هذا بأن الدور التجاري الذى لعبه هذا الموضع ربما كان نتيجة وليس سببا لقيام عاصمة الفونج فيه • فاذا أضفنا الى ذلك أن سنار لا تتوسط مملكة الفونج (١٠١) وضح الى أي مدى كان وقوع الموضع بالقرب من منبع قوة عمارة في الجنوب حيث المعين من جند الفونج من أبناء دنجر ، وتوسطه للمنطقة الحيوية الزراعية في حوض النيل الأزرق ـ هما العاملان اللذان كان لهما قصب السبق في اختيار عمارة للموضع • ويؤازر هذين العاملين مزايا استراتيجية تتلخص في قيام الموضع على الضفة الغربية للأزرق ، مما يسهل معه الدفاع عنه ضد أى اعتداء مصدره الجنوب، فاذا كان الاعتداء آتيا من الشرق فان في اعتراض أنهار الرهد والدندر والأزرق معا لخير مانع من الوصول اليه من تلك الناحية •

وهكذا يتضح لنا من مناقشة النقاط السابقة عن مملكة الفونج اننا قد وضعنا النقاط فوق الحروف في المسائل الآتية : أين كانت تقوم عاصمة عمارة في اقليم لمل ، وما هي حدود المملكة وقتئذ ، والظروف التي أدت الى انتقال عمارة الى حوض النيل الأزرق ، والعوامل التي أدت الى اختيـــار موضع سنار لتأسيس العاصـــمة الجـــديدة (١٠٢) ٠

واذا تأملنا عبارة تاريخ ملوك سنار : (١٠٣) « وتوجه عبد الله جماع (شيخ العبد اللاب) واختط مدينة قرى الكائنة عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسي ملكه ٠٠٠ وذلك في سنة ٩١٠ « اي سنة ١٥٠٤ م ، وما جاء في مكان آخر من هذا التاريخ (١٠٤) من أن عبد الله جماع قبل معركة القضاء على علوة مباشرة لم يكن اكثر من « أنه من عربان القواسمة » ، وما ورد في مخطوطة تعاليج تاريخ العبد اللاب (١٠٥) من « أنه أول شيخ للعبداللاب ، وانه السبب في تأسيس مملكتهم » ـ فان التامل في هذا كله يوصلنا الى أن قيام مشيخة العبد اللاب وتخطيط قرى واتخاذها عاصمة حادثان متلازمان توقيتهما في سنة ١٥٠٤ م ٠ وهذا مما لا يتفق مع ما سنورده من مادة :

فانه لما كان من الثابت ان عبد الله جماع قد مات أيام ملك الفونج عمارة أبو سكاكين ، ولما كانت مدة حكم هذا الأخير ـ طبقا لتقدير جمهور المؤرخين ـ بين سنتي ١٥٥٤ م ، ١٥٦٩ م (١٠٦) ، ولما كانت مدة حكم عجيب الأول خليفة عبد الله جماع في المشيخة احدى واربعين سنة (١٠٧) وأن جميع الروايات تؤكد وفاته سنة ١٦١١ م مما ينتج عنه وصوله الى المشيخة سنة ١٥٧٠ م ـ يترتب على ذلك كله أن وفاة عبد الله جمـــاع كانت سنة ١٥٧٠ م أو ١٥٦٩ م ، وهي السنة الأخيرة من حكم عمارة أبو سكاكين ملك الفونج ٠

واذا كانت وفاة عبد الله جماع في هذه السنة أو تلك فكيف يتسنى له أن يكون سنة ١٥٠٤ م ـ أى قبل وفاته بخمس وستين سنة ـ شيخا للعبد اللاب وحليفا لملك الفونج في معركة القضاء على مملكة علوة ؟ . لا شك أنه كان في هذه السنة أصغر من أن يتحمل تلك المهام الجسام ، مما حمل كروفورد (١٠٨) على جعل سنة ١٥٣٠ م على الأكثر ميعادا لوصوله الى المشـــيخة وتخطط قرى معتمدا في ذلك على أن أربعين سنة هي الحد الأقصى المعقول لمدة شياخته . ومعنى ذلك أن عبد الله جماع هذا ليس هو عبد الله جماع حليف ملك الفونج في معركة القضاء على علوه ، كما أنه ليس امين بيت مال عمارة القائم في سنار سنة ١٥٢٢ م حسب راى هللون (١٠٩) .

واذا كان ما توصلنا اليه صحيحا، فمن هو اذن عبد الله جماع حليف عمارة في سنة ١٥٠٤ م ؟ . ليس أمامنا الا أن نفترض أنه عبد الله آخر من عائلة جماع ، وان ما ربط بين عمارة ملك الفونج وعبد الله جماع منشيء قرى في أمر الاشتراك في القضاء على مملكة علوه واقامة كل منهما عاصمة لملكه سنة ١٥٠٤ م ـ قد يكون مرجعه الى الدور الكبير الذى قام به كل منهما في تاريخ مملكته ومعاصرة كل منهما للآخر فيما بين سنة ١٥٣٠ م ـ وهي السنة التى افترضنا وصول جماع فيها الى المشيخة ـ وسنة ١٥٣٤ م ـ وهي سنة وفاة عمارة . وقد يكون مما ترتب على ذلك أن أصبح عبد الله جماع عند الرواة علما تنسب اليه كل المكاسب التي أصابتها مشيخة العبد اللاب في تلك المدة . فكمـا أنه هو الذى خلق من المشـيخة سنة ١٥٣٠ م قوة كبيرة في البلاد ، وكما أنه هو الذى اختط قرى التى اصبحت قاعدة للعبد اللاب منذ تلك السنة (١١٠) فما المانع من أن يكون في ذهن الرواة أيضا صاحب الفضل مع عمارة في القضاء على مملكة علوه سنة ١٥٠٤ م ؟ .

وان ما يحمل الروايات الوطنية على اجمـــال تلك الحوادث الكبيرة التي مرت بمشـــيخة العبد اللاب بين سنتي ١٥٠٤ م ، ١٥٣٠ م ونسبتها جميعا الى شخصية واحدة ـ انما هو تشابك تلك الأحداث في تلك الفترة وملازمة كل منها للآخر ، الأمر الذى يمكن القول معه أن تلك الأحداث ـ فى الواقع ـ حادث واحد كبير ذو أبعاد متعددة • ونضيف الى ذلك أن البعد الزمنى كان كبيرا بين الوقت الذى وقعت فيه والوقت الذى تم فيه تدوينها ، وأن الرواة يدركون الأحداث البعيدة ادراكا كليا ، ومدى اجمالهم لها يتفق مع البعد الزمنى الفاصل بين هذين الوقتين •

هذا ولا يعرف شيء عن قرى قبل انتقال العبد اللاب اليها بل لم تعد أن تكون قرية صغيرة بعد هذا الانتقال (١١١) ، فقد كانت أهميتها أيام الفونج ترجع قبل كل شيء الى موقعها الجغرافى : فهى تقع بالقرب من النقطة التى تلتقى عندها قوافل سواكن ومصر بالنيل ـ بعد عبور هذه الأخيرة لصحراء بيوضة •

واذا كانت قرى تتمتع ـ فى الواقع ـ بهذا الموقع منذ أزمان بعيدة ، فان الدور الكبير الذى وضح لها على أيام الفونج ـ بما كان لها من ميزة الموقع عند أقصى الحدود الشـــمالية لمنطقة الأمطار المدارية ـ انما هو قيامها كمعبر على النيل بين منطقة الأمطار فى الجنوب وصحراء بيوضة فى الشمال • وكان على العرب أن يسلكوا هذا المعبر الى الصحراء عند بداية سقوط المطر هربا بقطعانهم من مهاجمة الذباب ، فاذا انتهى موسم المطر فى الجنوب وغطى الكلأ الأرض بدأوا فى رحلة الاياب ، ولكن لن يكون ذلك الا بعد أن يبذلوا لسلطان قرى الضرائب اللازمة عن قطعانهم (١١٢) •

ولم تستمر قرى عاصمة للعبد اللاب ، اذ انتقلوا منها الى مدينة أربجى • فمتى تم هذا الانتقال ، وما هى الظروف التى أدت اليـــه ؟ •

جاء في الطبقات (١١٣) « وقدم المشايخ ... ، وقدومهم في دولة الملك بادى أبو رباط ، وفي قرى الأمر داير بين قنيص وعجيب ولدي عربي ولد عجيب » . فاذا كانت مدة حكم عجيب عربي بين سنتي ١٦٧٠ م ، ١٦٧٦ (١١٤) ، ولما كان أول ذكر لاربجي كمركز لحكم العبد اللاب سنة ١٧٠١ حين تم فيها ـ وليس في قرى ـ أخذ الضريبة من القافلة التي كان كرمب Krump مسافرا بها (١١٥) ـ فانه يتضح أن انتقال العبد اللاب من قرى الى أربجي كان في الربع الأخير من القرن السابع عشر .

وتتفق المراجع المختلفة على أن حجازى بن معين (١١٦) أسس اربجي عام ٨٨٠ هـ ـ (١٤٧٥ م ـ ١١٧٦ م) . ولكن اذا كان قد جاء في الطبقات أيضا (١١٧) ما يقول بذلك الا أنه ورد في مكان آخر منها (١١٨) ـ عند ترجمة تاج الدين البهارى البغدادى « أن قدومه أول النصف الثاني من القرن العاشر أول ملك الشيخ عجيب ... وسلك خمسة رجال منهم ... وحجازي بن معين باني أربجي ومسجدها » . ويتضح من ذلك أن تاج الدين البهارى بدأ رسالة في السودان في أول فترة حكم عجيب المانجلك (٩٧٨ هـ ـ ١٠١٩ هـ ـ ١٥٧٠ م ـ ١٦١١ م) . وأن حجازي بن معين قد درس عليه ، الأمر الذي يترتب عليه أن يكون بناء هذا لأربجي في النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى لا القرن التاسع كما أجمعت المراجع .

ولما كانت سنة ٩٨٠ هـ (١٥٧٢ م ـ ١٥٧٣ م) توافق السنة الثالثة من حكم عجيب المانجلك . أفلا يمكن القول بأن أربجي قد أسست في تلك السنة وليس في سنة ٨٨٠ هـ وأن ثمة خطأ حدث عند تسجيل الروايات عن قصة بنائها فأبدلت سنة ٩٨٠ هـ بسنة ١٨٠ هـ يحتمل أن يحدث ذلك ، ولكن تعوزنا القرائن المادية التي تجعلنا نختار بشكل قاطع بين السنتين .

واستمرت أربجي عاصـــمة للعبد اللاب حتى أواخر القرن الثامن عشر . ففيها قابل الرحالة بروس (١١٩) شيخ العبد اللاب سنة ١٧٧ م • فاذا كانت سنة ١١٩٨ هـ (١٧٨٤ م) _ حطمها الشيخ محمد الأمين أثناء حرب بينه وبين سلطان سنار بغية أن يفوت عليه تعيين أخيه في المشيخة بدلا منه « •••• وهجم (الشيخ محمد الأمين) على مدينة أربجي فاهلك مقاتلتها وما بقى تفرق بالجهات وتركها قاعا صفصفا • وهي كانت أحسن مداين الجزيرة ذات تجارة وعمارة ومباني شيقة أنيقة ومدارس علم وقرآن وأهلها ذات رفاهية وتفنن في الأطعمة ، ومن وقتها خربت » (١٢٠) •

ولما كان قد ثبت قيام العبد اللاب في حلفاية سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) فيما ترويه الروايات الوطنية عن قيام الثورة في سنار على الشيخ ناصر وزير الملك بادي ولد طبل وهربه والتجائه الى الشيخ عبد الله ولد عجيب في حلفاية (١٢١) فمعنى ذلك ان انتقال العبد اللاب من أربجي حلفاية كان بين سنتي ١٧٨٤ م ، ١٧٩٨ م ، وبالتالى ألا نقبل قول بعض المصـــادر التي تقع سنة ١٧٨٤ (٢٢) • واذا كان تقدم كروفورد (١٢٣) يقرر استمرار قيام العبد اللاب في أربجي بعد تحطيمها حتى تم الانتقال منها الى حلفاية سنة ١٧٩٨ م فليس ثمة قرينة مادية تؤكد ذلك •

ولم يكن الانتقال الى حلفاية مؤذنا بتأسيسها ، اذ أن قيامها يرجع الى قرنين من الزمان عندما « قدمت المشايخ وخطت مدينة الحلفاية ••• وجميع هؤلاء المشـــايخ المذكورين في دولة الشـــيخ عجيب ومدتها احدى وأربعون سنة ، ثم في سنة تسع عشرة بعد الألف توفى » (١٢٤) ويتضح من ذلك أن حلفاية قد أسست أيام العبد اللاب عجيب المانجلك ، وكانت لها بعض الأهمية عند انتقال العبد اللاب اليها بين سنتي ١٧٨٤ م ، ١٧٩٨ م • وقد عرفت المدينة

(بحلفاية الملوك) (١٢٥) مذ حلوا بها ، واستمرت اقامتهم فيها حتى آخر العهد بالمشيخة .

وتمتد مملكة الفونج من سواكن شرقا الى النيل الأبيض غربا . ومن الهضبة الحبشية جنوبا الى جنوب الشلال الثالث بثمانية أميال فقط شمالا .

وقد تقاسم ملوك الفونج ومشـــايخ العبد اللاب النفوذ فى المملكة . وكانت مدينة أربجى تفصـــل بين منطقتى نفوذهما على النيل الأزرق ، الا أن الحدود بينهمـــا أصبحت فى أوائل القرن التاسع عشر عند مقرن النيلين الأبيض والأزرق (١٢٦) .

وكان نفوذ العبد اللاب يمتد من البحر الأحمر شرقا الى كورتى غربا ، ويغطى أيضا دنقلة وشمال جزيرة مروى والمنطقة النهرية الواقعة بين حجر العسل وأقصى حدود منطقة نفوذهم فى الجنوب . كما كانوا يقومون بجمع الضرائب من البدو المقيمين شـمال خـط عرض ١٦° شمالا وهم البجة ، أما البدو جنوب هذا الخط ـ وهم التكارنة والضبانية والركابية فملك سنار هو المسئول عن جمع الضرائب منهم (١٢٧) .

أما منطقة نفوذ ملك سنار فكانت تمتد ـ فى حوض النيل الأزرق ـ من الحدود الجنوبية لسلطة العبد اللاب شمالا الى حافة الهضبة الحبشـــية جنوبا ، كما كانت تمتد على مناطق الجزيرة (جزيرة سنار) والبطـــانة (جنـــوب جزيرة مروى) والنيل الأبيض .

وفى داخل منطقتى نفوذ ملك سنار وشيخ العبد اللاب قامت المشيخات (١٢٨) وعلى رأس كل منها شيخ أومك يتمتع بشىء من

الاستقلال . ومن مظاهر سلطان ملك الفونج عليها أنه كان هو الذى يختار من بين عائلة الشيخ المتوفى من يخلفه فى المشيخة وأن يقدم كل شيخ اليه الضريبة المقررة عليه .

واذا كان حكم الفونج قد دام أكثر من ثلاثة قرون فانما يرجع ذلك أكثر ما يرجع الى أن سياستهم كانت تقوم على ترك أمور المشيخات فى أيدى مشايخها ، اذ كانت تنظيمات الادارة فى تلك المشيخات تقوم فى نطاق يكفل تامين المصلحة التجارية فقط وترك كل شيء عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة (١٢٩) .

وقد استمر هذا الحال فى شكله العام ، حتى كان عهد الملك بادى الرابع (أبو شلوخ) (١٧٢٤ م ـ ١٧٢٦ م) حين ارتفع شـــأن الفونج لدرجة كبيرة ازدادت معها شهرة سنار فى الأقطار الاسلامية ، فقصدتها الوفود من الحجاز والهند وصعيد مصر والمغرب الأقصى واستوطنتها (١٣٠) . ولكن الوزير محمد أبو اللكيلك لم يلبث أن عزل الملك ، ومنذئذ انهارت السلطة المركزية فى المملكة ، ولم يعد للملوك من السلطة الا أسمها أما السلطة الفعلية فكانت بيد وزرائهم من الهمج (١٣١) الذين كانوا يعزلون ويعينون الملوك طبقا لأهوائهم (١٣٢) ، مما أدى الى تعدد الملوك فى فترة زمنية قصيرة ، حتى لقد بلغوا تسعة بين سنتى ١٧٨٧ م و ١٨٢١ م ـ أى خلال أربعة وثلاثين عاما فقط .

وتمتاز تلك الفترة بالحروب الداخلية التى عمت كل جهات المملكة من أجل المنافسة على السلطة والحكم ، فانهار سلطان الفونج فى المشيخات وهزمت جيوشه حيثما التقت بجيوشها وتوقفت عن ارسال الضريبة اليه (١٣٣) . وزاد الأمر سوءا انتشار الأوبئة وحدوث الفيضانات العالية ، وهرب جماعة من المماليك ـ بعد مذبحة القلعة فى مصر الى شمال البلاد بما صحب ذلك من عنف نتيجة

عملهم على تثبيت أقدامهم فى تلك الجهات وكان نتاج ذلك كله اصابة البلاد بالانحلال ، وتعطل مرافق الحياة فيها ، وكثرة هجرة القبائل ـ وبخاصة فى السودان الأوسط ـ الى التخوم ، فاصيبت نظم الجمهورية التجارية بضربة قاصمة . ولعل السبب الأول فى ذلك يرجع ـ قبل كل شيء ـ الى أن ملوك الفونج لم يحاولوا اقامة وحدة قومية تخضع فيها المشيخات لقانون عام يطبق على المملكة كلهـــا (١٣٤) .

وقد أدت هذه الأحوال بالسودانيين الى تمنى الخلاص منها على يد محمد على والى مصر ، الأمر الذى احتل تفكيرهم وتضـــمنته رواياتهم (١٣٥) ، مما دفع بعض زعمائهم للسعى الى مصر راجين أن يســـاعدهم الوالى فى اصلاح حال البلاد والقضاء على الحروب الداخلية فيها وارجاعهم زعماء فى مشيخاتهم لقاء الاعتراف بسيادته عليهـــم (١٣٦) .

ولم يكن استنجاد مشايخ السودان بمحمد على كل ما دفعه الى ارســال حملة الســودان . فان هناك أسبابا عديدة دفعته الى ارسالها . ولعل التقاء هؤلاء المشايخ بمحمد على الى جانب خطر المماليك ـ الذين كانوا قد استقروا فى دنقلة فى ذلك الوقت ـ هما العاملان اللذان حددا وقت ارسال الحملة التى كان من أهدافها تحرير السودان من الفوضى واعادة الهدوء اليه ، الأمر الذى يبشر بعهد جديد فى تاريخ البلاد .

الهـــــوامش

(١) Budge, E.A.W. : A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, p. 1.

(٢) Reisner, G. A. : « Outline of the ancient histiry of the Sudan », SNR., I, No. 1, 1918, p. o3.

(٣) سليم حسن : مصر القديمة ، جـ ١٠ ، ص ٨١ .

(٤) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, its history and monuments, I, p. ٤06.

(٥) سليم حسن : نفس المصدر .

(٦) Reisner, G. A. : Op. cit.
SNR., I, No. 1, 1918, p. 3.

(٧) سليم حسن : نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(٨) Russell, M. : nubia and Abyssinia comprehending their civil history, antiquities, arts, religion, literature and natural history, p. 71.
Arkell, A. J. : A history of the Sudan to AD. 1821, p. 113.

(٩) Kumm, H. K. W. : Khont-Hon-Nofer : The lands of Ethiopia, p. 165.

(١٠) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ ١ ، ص ٢١٧ ـ ٢٠ .
محمد مهري كركوكي : رحلة مصر والسودان ، ص ٢٣١ ٢٢ .

(١١) Browne, W. G. : Travels in Africa, Egypt and Syria, 1792-1798, p. xxv.

(١٢) Reisner. G. A. : Op. cit.
SNR., I, No. 1, 1918, p. 4.

(١٣) Ibid., p. 6.
SNR., I, No. 1, 1918, p. 6.

(١٤) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan ..., I, p. 516.

(١٥) Reisner, G. A., : Op. cit.
SNR.,I, No. 2, 1918, p. 11.

(١٦) سليم حسن : المصدر السابق •

(١٧) Reisner, G. A., : Op. cit.
SNR.,I, No. 2, 1918, p. 57.

(١٨) سليم حسن : نفس المصدر ، ص هـ •

Reisner, G. A., : Op. cit.
SNR.,I, No. 2, 1918, p. 87.

(١٩) سليم حسن : المصدر السابق ، ص ز ، ح

(٢٠) Reisner, G. A., : Op. cit.
SNR.,I, No. 2, 1918, p. 236.

(٢١) Budge, A.E.W. : The Egyptian Sudan ..., I, p. 588.

(٢٢) Reisner, G. A., : Op. cit.
SNR.,I, No. 2, 1918, p. 236.

(٢٣) Reisner, G. A. : op. cit,
SNR., II, No. I, 1919, p. 67.

(٢٤) تقع مروى القديمة فى منطقة شندى بالقرب من كبوشيه الحالية •

(٢٥) جزيرة مروى هى الأرض التى تحيط بها انهار الاتبره والابيض والازرق •

(٢٦) Arkell, A. J. : op. cit., p. 149.
Kumm, H. O. W. : op. cit., p. 166.
Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan, pp. 42 f.
Chataway, J.D.P. : « Notes on the history of the Fung »
SNR, XIII, No. II, 1930, p. 247.

وانظر ايضا : مرجريت شنى : موجز لتاريخ السودان الى ١٥٠٠ م ، ص ٦ •

(٢٧) Arkell, A. J. : op. cit., p. 171.

(٢٨) Arkell, A. J. : op. cit., p. 171. & 180.
Budge, E.A.W. : A history of Ethiopia ..., I. pp. 255-58.

(٢٩) Trimingham, J. S. : op. cit. pp., 44 f.

(٣٠) John of Ephesus : Ecclesiastical history, partII,
p. 319.

(٣١) دكتور مصطفى محمد سعد :
« امتداد الاسلام والعروبة الى وادى النيل الاوسط (مملكة علوه) » •

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ العدد الثامن ، ١٩٥٩ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

(٣٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ٠

(٣٣) تعرف دنقلة هذه الآن بدنقلة العجوز ، وهى تقع على الشاطىء الشرقى للنيل جنوب مدينة حلفا بثلاثمائة وسبعة وأربعين ميلا وجنوب دنقلة الجديدة الواقعة على الشاطىء الغربى للنيل بثمانية وثمانين ميلا ٠ وتعرف دنقلة الجديده بدنقلة الاوردى أو العرضى ، وقد انشأتها مصر بعد الفتح ٠ ولفظة (أوردو) فارسية الاصل ومعناها المعسكر ٠

(٣٤) Ab Salih Al Armani : The churches and ;onastries of

(٣٥) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ، وانظر ايضا :

Egypt and some neighbouring countries, p. 265.
Quatremere, E. : Memoires geographiques et historiques sur L'Egypte et sur quelques contrées voisins II p. 23.
Butcher, The Story of the Church of Egypt, II, p. 3.

(٣٦) تقع ولاية الابواب فى منطقة مروى القديمة ، والمقصود بالابواب الثغور والمداخل ٠

(٣٧) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ٠ ٠

اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ١٧٤ ٠

Abu Salih Al Armani : op. cit. pp. 263-64.

وتقع سوبا على بعد اثنى عشر ميلا من مدينة الخرطوم ٠ ويبدو فى وصف ابن سليم لها كما أورده المقريزى ـ المبالغة ، اذ قال انها تمتد من مكانها هذا على طول ضفة الازرق حتى منطقة مقرن النيلين ٠ كما بالغ ابو صالح فى وصف كنيستها ، اذ قال انها أوسع من جميع كنائس علوه مجتمعة والبالغ عددها أربعمائة كنيسة ٠

(٣٨)
Palmer, Sir S. : The Bornu Sahara and Sudan, p. 137.
Ibid., p. 140.
(٣٩)

(٤٠) عبد المجيد عابدين : ميلاد سوبا ٠

مجلة الجمعية التاريخية السودانية ـ المجلد الاول ، الجزء الثانى ، ص ٢ ٠

(٤١) Palmer, Sir S. : ip. cit., p. 137.
Budge, E.A.W. : The Egyp.ian Sudan ..., II, p. 98.

(٤٢) Arkell, A. J. : op. cit., pp. 155 f.

(٤٣) Ib.d., pp. 151 f. & p. 304.
Sarsfie.d Hall, E. G. & Wallis E.J.N. : Handbook of Khart. Prov.

(٤٤) عبد المجيد عابدين : المصدر السابق ، ص ٧ ٠

(٤٥) محمد عبد الرحيم : محاضرة في العروبة في السودان ، ص ١٤ ٠

(٤٦) كانت فكرة الربط بية سوبا وسبا شائعة حتى العصور الحديثة ، اذ نجد الرحالة اليهودي روبيني الذي زار السودان سنة ١٥٢٢ يطلق على سوبا اسم سبا كما يطلق على عمارة سلطان الفونج والذي قامت دولته على املاك سوبا (علوه) اسم سلطان سبا ٠

Alder, E. N. : « David Reubeni », in : Jewish travellers, pp. 251-56.

على أن هناك تفسيرات اخرى لاسم سوبا – انظر :

Palmer, Sir oR. : op. cit., p. 140.

Crawford, O.G.S. : op. cit., p. 25.

وانظر فيما تعنيه الروايات الوطنية باسم سوبا في :

Shataway, J.DP. : Notes on the history of the Fung. SNR., XIII, No. 2, 1930, p. 248.

على ان هناك اكثر من موضع في منطقة النيل الازرق يعرف بسوبا – انظر :

Chataway, J.D.P. : « Archeology in the Southern Sudan, (I) Some ancient si'es near Rossires », SNR. XIII, Nl. 2, 1930, p. 260.

(٤٧) الشاطر بوصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، ص ٧ ٠

(٤٨) دكتور مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٠٣ ٠

وتقع القصر جنوب فيلة بميل واحد ٠

(٤٩) MaMichael, H. A. : A history of the Arabs in the Sudan, I, pp. 3-4.

(٥٠) انظر شروط البقط :

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٦ .

البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٨١ .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ٢٩ ـ ٤٠ .

بكر (Becker, C.H.) : دائرة المعارف الاسلامية (مادة بقط) .

(٥١) MacMichael, H.A. : op. cit., pp. 148-49.
Bloss, J.E.F. « The story of Suakin ».
Combe, E.T. : « Four Arabic inscriptions from the Red
SNR., XIX, No. 2, 1936, p. 279.

(٥٢) Paul, A. : A history of the Beja tribes of the Sudan,
SNR., XIII, No. 2, 1930, pp. 268-91.
p. 73.

(٥٣) المسعودى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٣٢ .

(٥٤) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الاول القسم الأول ، ص ٥٢ .

وقد تحدث المقريزى فى أخبار سنة ٥٦٩ هـ عن قصد صلاح الدين من غزوة النوبة ، فقال : « وفى تلك السنة سار الامير شمس الدين تورانشاه اخو السلطان صلاح الدين الى اليمن ، وذلك لشدة خوف صلاح الدين واهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل مصر وينتزعهم منها ، فاحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون اليها . وكان اختيارهم قد وقع على النوبة ، فلما سار اليها لم تعجبه وعاد ..

(٥٥) انظر فى تاريخ بلى كلر حول اسوان وفى بلاد النوبة .
Macmichael, H. A. : op. cit., pp. 148-51.

(٥٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٨ .

ابن شداد : كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٣٧ .

(٥٧) الدكتور مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ١٤٢ ـ ٦٩ : امتداد الاسلام والعروبة الى وادى النيل الاوسط ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٥٨) MacMichael, H.A. : A history of the Arabs ..., I,
pp. 150 f.

(٥٩) MacMichael, H.A. : A history of the Arabs, I, p. 188.

(٦٠) الدكتور مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ١٧٥ ·

(٦١) الدكتور مصطفى محمد مسعد : نفس المصدر ، ص ١٩١ ــ ١٩٢ ، ص ٢٠١ ·

وانظر أيضا :

MacMichael, H.A. : « The ciming of the Arabs in the Sudan », in : The Angol-Egyptian Sudan from Within edited by J. A. de C. Hamilton, p. 49.

(٦٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ·

(٦٣) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ ·

(٦٤) اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ١٩٤ ·

ــ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١١ ·

(٦٥) الدكتور مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ٣١١ ·

(٦٦) صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ٥ ــ ٦ ·

(٦٧) ابن خلدون : المصدر السـابق ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ ·

(٦٨) انظر : Trimingham, 1J.S. : Op. cit. p. 74.

(٦٩) الدمشقى : كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٦٦ ·
الادريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٤ ·
وانظر أيضا :

Lyden, J. : Historical account of discoveries and travels in Africa, 2, p. 514.

(٧٠) Newbold Sir D. : D. : « Extracts from his letters 1922 - 23 ».
SNR., XXVI, 1945, pp. 231-28.
Penn, A.E.D. : « The ruins of Zankor ».
SNR., XIV, 1931, pp. 179-84.

(٧١) الادريسى : نفس المصدر ، ص ١٩ ·

(٧٢) Adler, E. N. : op. cit., p. 255.

(٧٣) انظر ص ١٢ ــ ١٣ ·

(٧٤) احمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان ، ص ٢ ·

(٧٥) MacMichael, H. A. : The comming of the Arabs in the Sudan. pp. 55 f.

(٧٦) الشاطر بوصيلي عبد الجليل : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٧٧) احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ١ .

(٧٨) داود روبيني الرحالة اليهودي الاصل هو اول زائر لمملكة سنار .

انظر رحلته في :

Adler, E. N. : « David Reubeni », in : Jewish travellers, pp. 351-328.

Hillelson, S. : « David Reubeni, an early visitor to Sennar, » SNR., XVI, 1933, pp. 55-66.

Hillelson, S. : « David Reubeni's journey ». SNR., XVIII, 1935, pp. 153-54.

Crawford, O.G.S. : The Fung Kingdom of Sennar, p. 134-42, p. 287.

(٧٩) انظر : Adler, E.N. : Op. cit., p. 252.

(٨٠) Alvarez, F. : Narrative if the Portuguese Embassy to Abyssini., during the years 1520-27, p. 352.

(٨١) احمد كاتب الشونة : ص ٥ من تعليقات الدكتور مكي شبيكة .

(٨٢) Robinson, A.E. : « The Fung drum or nehas ». SNR., IV, 1921, p. 212.

Nadler, L.F. : « Fung origions » SNR., XIV, 1931, p. 64.

احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ٢ .

(٨٣) Bruec, J. : Travels to discover the source of the Nile

(٨٤) يقرر تريمو أن الفرنج اقاموا في سنار قبل سقوطها سويا بقليل) .

Tromadx, p. : Le Sudan, p. 192 & p. 84.

(٨٥) تحدد بعض الروايات نشأة سنار بسنة ١٥٤٤ م .

Jackson H. G. : Tooth of fire, footnote if p. 18.

(٨٦) احمد كاتب الشونة : ص ٥ .

(٨٧) نفس المصدر : ص ٥ من التعليقات .

(٨٨) انظر : Elkan E. N. : op. cit., pp. 254-55.

(٨٩) انظر : Crawford, O.G.S. : op. cit., p. 135.

(٩٠) المصدر السابق : ص ٣٦ .

ويرى بوصيلي ان عاصمة عمارة الاولى وبلدة أم حجار الحالية قامتا محل مدينة هجر التى جاء ذكرها فى (عقد الامان) الذى اعطاه قائد المأمون العباسى الى عظيم البجة عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) ، والذى كان من شروطه « ·· ان يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من ارض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون ·· على ان لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر ··· » : ص ٢٢ ·

وقد حدد اليعقوبى (فى تاريخه) ممالك البجة بخمس هى : نقيس وبقلين وبازين وجارين وقطعة ، وهجر المذكورة عاصمة مملكة نقيس : ج ١ ، ص ٢١٧ ـ ١٩ ·

ويقول بوصيلي ان ما اشترط قائد المأمون ملكيته من ارض فى العقد ينطبق على مملكة نقيس ، مما يسمح لولى الامر فيها بالسيطرة على قوافل التجارة التى تسير بين حوض النيل والحبشة ، الامر الذى يترك اثره بلا شك فى عاصمتها · وقد استمرت المنطقة محافظة على هذه الميزة حتى جاء عمارة عاصمته فى هذا المكان الهام ·

وهذا ولكل من كروفورد وبول رأى اخر فى تحديد مكان هجر عاصمة نقيس · انظر :

Crawford, O.G.S. : op. cit., pp. 104-106.
Paul A. : op. cit., p. 70.

(٩١) الشاطر بوصيلي عبد الجليل : المصدر السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ·

(٩٢) Op. cit., p. 147.

(٩٣) المسافة بين القلابات وسنار حوالى ٢٥٠ ميلا ·

(٩٤) Baker. Sir S.W. : The Nile Tributaries. J. Abyssinia, and the sword hunters of Harman Arabs, p. 290-97.

(٩٥) انظر : Bruce, J. : Op. cit. pp. 57 f.

(٩٦) Hillilson, S. : « Historical pooms & traditions of the Shukriya », SNR., III, 1920, p. 39.

(٩٧) Hillelson, S. : « David Reubeni, an early visitor to Sennar » SNR., XIV, 1933, p. 62.

(٩٨) الراكوبة هى الخص من فروع الشجر والقش ·

——————— : « David Reubeni's Journey », SNR., XVIII, 1935, p. 154.,

Paul, A. : op. cit., pp. 76 f. (١٠٠)

انظر ايضا : الشاطر بوصيلي : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(١٠١) تبعد سنار عن حدود الحبشة في الشرق مائة وخمسين ميلا ، وعن الحدود الشمالية للمملكة عند الشلال الثالث بما يزيد على ثلاثة امثال هـذه المسافة ٠

(١٠٢) انظر في وصف مدينة سنار :

Poneet, Charles : A voyage to Ethiopia made in the years 1698, 1699 and 1100, pp. 18-29.

Krump, Theodore : « Hoher und Fruchtbarer Palm-Baum (etc.), » in : Crawford, O.T.S. : op. cit., pp. 321-23.

Bruce, J. : Op. cit., pp. 362 f.

English, Q. B. : Narrative of the expedition to Dingolg and Sennar under the command of His Excellence Ismail Pasha, pp. 161-65.

Caillieud, F. : Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, au del et Fazogl dans le midi du Riyaume de Sennar, a Syouah et dans uniq Oasis, 2, p. 263.

Trepeux, p. : op. cit., pp. 153 f .

Jackson, H.C. : op. cit., pp. 82 ff.

(١٠٣) أحمد كاتب الشونة : ص ٥ ٠

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٢ ٠

(١٠٥) نفس المصدر : ص ٢ من التعليقات ٠

(١٠٦) نفس المصدر : ص ٢ ٠

(١٠٧) محمد ضيف الله : الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ـ ص ٥ وانظر ايضا :

MacMichael, H.A. : A history of the Ar... ..., 2, p. 431.

Budge, E.A. : The Egyptian Sudan ..., 2, p. 201.

(١٠٨) Op. cit., p. 136 and p. 164 and p. 166.

(١٠٩) Hillelson, S. : « David Rebeuni, an early visitor to Sennar », SNR., XVI, 1930, p. 60.

(١١٠) كانت اربجى عاصمة للمعبد قبل انتقالهم الى قرى :

Bruce J. : ip. cit, p. 371.

(١١١) Krump, Theodoro : op. cit., (in : Crawford, O.G.S. : op. cit., p. 66).

(١١٢) Bruce, J. : op. cit., p. 370 and p. 385.

(١١٣) احمد كاتب الشونة : ص ٥ ـ ٦ ٠

(١١٤) Crawford, O. Y. S. : op. cit., p. 334.

(١١٥) Ibid., p. 67 f.

(١١٦) Jackson, H.C. : op. cit., pp. 17-18.

Trimingham, J.S. : op. cit., p. 74.

وانظر ايضا : الخاطر بوصيلى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠ ٠

(١١٧) محمد ضيف الله : ص ٥ ٠

(١١٨) نفس المصدر : ص ٤٤ ٠

(١١٩) Bruce, J. : op. cit., p. 423.

(١٢٠) محمد ضيف الله : المصدر السابق ، ص ٩ ٠

وانظر ايضا :

Bruce, J. : op. cit., p. 416.

Jackson, H.C. : op. cit., p. 63.

(١٢١) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ١٢ ، وانظر ايضا :

MacMichael, H. A. : A history of the Arabs ..., 2, p. 214 & 374.

(١٢٢) Hand book of Ghardoum Rovince

Pann, A.E. : « Traditional stories of the Abdullah Tribe », SNR., XVIII, 1934, p. 67.

(١٢٣) Crawford, O.G.S. : op. cit., p. 68.

(١٢٤) محمد ضيف الله : نفس المصدر ، ص ٩٠ ٠

Bruce, J. : op. cit., p. 423.

(١٢٥) Krump, Theodore : op. cit., (in : Crawford, O.G.S. . op. cit., pp. 68 f.)

Gilljaud, F. : op. cit., 2, pp. 194 f.

(١٢٦) محمد ضيف الله : نفس المصدر، ص ٩٠ .

وانظر ايضا :

Bruce, J. : op. cit., p. 423.

Cailliaud, F. : op. cit., 2, p. 98.

(١٢٧) Dehérain, H. : Le Soudan Egyptian sous Mehemet Ali, pp. 61-62.

(١٢٨) انظر هذه المشيخات في :

Bruce, J. : op. cit., pp. 390-91 & Passim. p. 102.

Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, 2, pp. 204 - 6.

Crawford, O.G.S. : op. cit., pp. 130-33 .

نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

Jackson, H.C. : op. cit., p. 20 & pp. 89-90.

وانظر ايضا : الشاطر بوصيلى : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٢٩) Fuller, W. : Egypt and the hinted land, to the re-opening of the Sudan, p. 154.

(١٣٠)

Peel, S.C. : The binding of the Nile & the new Soudan, p. 141.

Jackson, H.C. : op. cit., p. 58.

(١٣١) انظر من هم الهمج في :

Reid, J.A. : Notes on the tribes and prominent families of the Blue Nile, p. E.

(١٣٢) Bruce, J. : op. cit., p. 356 & p. 583.

Browne, W.G. : op. cit., p. 307.

Jackson, H. C. : op. cit., p. 58 & p. 60.

(١٣٣) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٨ – ٢١ .

عبد المحمود نور الدايم : ازاهر الرياض فى مناقب العارف بالله تعالى الاستاذ الشيخ احمد الطيب ، ص ١٨٣ .

(١٣٤) Dehérain, H. : op. cit., p. 65.

(١٣٥) عبد المحمود نور الدايم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ·

(١٣٦) من هؤلاء المشايخ : الزبير احد امراء دنقلة ، ونصر الدين الصادق الميرغانى من بربر ، وادريس ود· ناصر من سلالة العنج فى سنار ، وادريس ومحدلان من قاروقلى ، وابو مدين من عائلة سلطان دارفور ، وود هاشم من كردفان وبشير العقدى من شندى :

محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ٢٠ ·

محمد عبد الرحيم : النداء فى دفع الافتراء ، ص ٨٥ ·

القبانى : السودان المصرى والانكليز ، ص ١٣٧ ـ ٣٩ ·

Burckardt, J. L. : Travels in Nubia, p. 72.

Deherain, H. : op. cit., p. 41.

Robinson, A.E. : « Nimr, the last king of Shendi, » SNR., VIII, 1925, p. 109.,

Pallme, I. : Travels in Kordofan, pp. 535-64.

الفصـــل الثـــانى

عواصم السودان بعد الفتح المصرى

اسباب حملة السودان ـ حوادث الفتح ٠

عواصم السودان بعد الفتح : سنار وود مدنى ـ اختيار موضع الخرطوم لاقامة العاصمة الجديدة للادارة المصرية ـ مدى صلاحية هذا الموضع لقيام العاصمة ٠

دراسة طبوغرافية للبقعة التى قامت عليها الخرطوم ـ مدينة الخرطوم خلق مصرى ٠

صلاحية منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق للسكنى منذ القدم ـ اثر العرب فى تعمير المنطقة ، وملامحها العمرانية عند قدوم الحملة المصرية ٠ اصل تسمية الخرطوم ٠

كانت الظروف التي تمت فيهـــا ولاية محمد على على مصر والصعاب التي واجهته في أول عهده بها كفيلة بصقل مشاعره ضد المخاطر التي تهدد مركزه في البلاد الأمر الذى حتم عليه ان يأخذ اهبته للتمكين لنفسه فيها حتى يقدر على الوقوف في وجه الذين يودون القضاء على مكاسبه ، وعلى رأسهم الســـلطان العثمانى والانجليز • وقد ترتب على ذلك أن أخذ محمد على ـ منذ أول عهده بالولاية ـ فى العمل على تقوية مركزه الســـياسى والعســـكرى والاقتصادى فى البلاد •

على أن هذا العمل كان يقتضى منه امكانات جبارة تعجز عنها طاقة مصر • واذا كان قد حاول عـــلاج الأزمة باحتكار الزراعة والصناعة والتجارة فان هذا الاجراء لم يكن كافيا ، وخاصة أنه كان فى حاجة شديدة الى جيش حديث يقدر به على مقاومة أعدائه فى كل مكان •

وهكذا تتضح حاجة محمد على الملحة الى المال الذى كان قد رصد فى سبيله كل جهده • وهذا ما دعا جمهور المؤرخين الى اعتبار المكاسب المادية الهدف الأول الذى كان يستهدفه من كل مشروعاته واعماله ، وهو ما قالوا به ايضا عند مناقشـــتهم لأسباب حملة الســـودان •

وانا لنجد ما يؤيد قول المؤرخين فيمـــا أدلى به محمد على نفسه ـ فى نوفمبر سنة ١٨٢٠ ـ الى (هنرى صولت) قنصل عام انجلترا فى مصر حين قال فى اسباب الحملة : بفتح السودان وقلب

افريقية للتجارة الحرة والحصول على الذهب ، ومضيفا الى ذلك امـــله في التخلص من جنـــده غير النظاميين وكشـــف النيل الأبيض (١) ٠

ومما لا شك فيه أن تنظيم التجارة وانعاشها بين مصر من جهة والســـودان وداخل أفريقية من جهة أخرى من أهم أسباب حملة السودان ، فلقد كانت التجارة من أبرز الخصائص التي تميزت بها العلاقات بين البلدين طوال التاريخ ٠ واذا كانت سياسة المماليك التجارية قد أدت الى اتجاه تجارة السودان عن طريق مصر الى البحر الأحمر فانه ما أن حلت الحملة الفرنسية في مصر حتى اهتم نابليون باعادة فتح طرق التجارة بين البلدين لكي يتسنى للفرنسيين في مصر تقوية صفوفهم بشراء العبيد من قوافل سنار ودارفور (٢) ٠

ولكن مد المنازعات والحروب الداخلية في سنار في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه كان عاليا ، فاستمر ركود التجارة المشروعة بين البلدين ركودا ساعد عليه تصدى الشايقية والعبابدة وغيرهما من القبائل لقوافل التجـــارة في الوقت الذي ازدهرت فيه تجارة الرقيق لدرجة كبيرة (٣) ٠

ولم تكن انجلترا بعيدة عن الأحداث التجارية في المنطقة ، اذ كانت تعمل على تحويل طرق التجارة في شرق أفريقية تجاه الموانى التي تقوم فيها وكالات تجارية لها وبوجه خاص توجيه تجارة الحبشة وشواطىء البحر الأحمر في السودان الى ميناء مخا اليمني وهذا بعينه كان هدف رحلة الانجليزى (هنرى صولت) الثانية الى الحبشة في سنتي ١٨٠٩ ، ١٨١٠ ، كما كان الهدف من اتصالاته برجالات الحبشـــة أثناء عمله قنصـــلا عاما لانجلترا في مصر منذ سنة ١٨١٥ (٤) ٠

ولقد نجح الانجليز فى اقامة وكالة تجارية لهم في ميناء مصوع سنة ١٨١٦ ، وأصبحوا سادة تجار المحيط الهندى ٠ وقد ترتب على ذلك ازدياد ورود سفنهم التجارية الى البحر الأحمر ، وعقدهم اتفاق مع محمد على يتيح لهم تأسيس محطة تجارة فى ميناء السويس لتشارك زميلاتها فى الموانى الأخرى فى تامين تجارتهم في هذا البحر (٥) ٠

وكانت سياسة انجلترا فى البحر الأحمر مما يتعارض مع أماني محمد على التجارية القائمة على جذب تجارة هذا البحر الى ميناء جدة ـ أهم ميناء تجاري تحت سلطانه في ذلك الوقت (٦) ٠ وكان من خططه للوقوف فى وجه السياسة الانجليزية فى المنطقة فتح الحبشة الذى كان أحد أهداف حملة السودان ، وهو ما أفضى به الى هنرى صولت (٧) ٠ فلما اعترضت انجلترا على ذلك اتجه الى محاولة ضم اليمن الى املاكه فى الحجاز ، وهو ما وقفت انجلترا أيضا دون تحقيقه (٨) ٠ وذلك كله فى وقت كانت سياسة انجلترا التجارية فى البحر الأحمر ، وما أصاب مملكة سنار من عدم استقرار داخلي قد لعبا دورهما بنجاح فى انتكاس تجارة السودان مع مصر ، لدرجة أنه لم يتعد ما وصل الى مصر ـ بين سنتى ١٨١٠ ، ١٨٢٠ ـ الا قوافل صغيرة ، فى حين اتجهت المتاجر الى ميناء سواكن ومصوع حيث كانت تنتظرها سفن انجلترا وأمريكا (٩) ٠

ومع أن محمد علي قد بذل جهدا كبيرا منذ سنة ١٨١٠ على الأقل ـ لتذليل كل الصعاب أمام قوافل دارفور الا أنه لم يحرز أى تقدم فى سبيل بلوغ أربه (١٠) ٠ وبالرغم من ذلك اشتدت به الرغبة فى أن يعيد الى التجارة بين البلدين سابق سيرتها (١١) ، وخاصة أن القوافل القليلة التي وصلت الى مصر حينئذ أطالت الحديث عن عظم ثروة البلاد من الغلات الطبيعية وكبر عدد سكانها

الذى يضمن سوقا واسعا لتصريف مصنوعات مصر وبضائع أوربا التي ستتخذ من مصر مخزنا ومن حكومتها وتجارها وسطاء لتوزيعها في السودان (١٢) ·

لهذا كله ، وضحت أهمية السـودان لمصر كمصدر لتجارة رائجة ، وكطريق الى الحبشة التى كانت لفتحها أهداف تجارية كذلك · وهذا مما ترتب عليه أن قامت بين سنتي ١٨١٠ ، ١٨٢٠ حالة استلزمت ضرورة ارسال حملة السودان (١٣) خاصة وقد صقل مشاعر محمد على تجاه تلك الحالة وصول عدد من مشايخ السودان الى مصر ودعوتهم اياه لارجاع الاستقرار الى البلاد ، وكذلك ما وضح لمحمد على من خطر المماليك المستقرين فى ذلك الوقت فى شمال دنقلة (١٤) ·

وكان المماليك فى تلك الجهة يعملون فى دأب على تقوية صفوفهم بامدادات جديدة · ولكن لما كان قد سد فى وجههم طريق صعيد مصر بسبب يقظة محمد على فلم يعد امامهم الا أن يحاولوا الاستيلاء على ميناء من موانى البحر الأحمر ـ ومصوع خير ميناء يصلح لذلك أو يحاولوا فتح الحبشة ، وهو الأمر الذى يرجحه بركارت (١٥) فاذا تم لهم النجاح فى أحد المشروعين فيما لو حاولوا القيام به أصابوا بغيتهم فى تعزيز قواتهم بالامدادات وانفتح فى نفس الوقت منفذ تجارى جديد أمام التجارة الانجليزية ·

واذا افترضنا أن امكانات المماليك تعجز عن تنفيذ هاتين المحاولتين فهلا تخشى مصر أن يتعاونوا مع الحبشة على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط ، وتنفذ الى ساحل البحر الأحمر وتنشىء فى هذا الجزء من وادى النيل مشيخات وزعامات تخضع فى صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون بشكل ما مع

دولة اوربية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية (١٦) ؟ وتلك الدولة هي انجلترا بلا شك • وهذا يوضح ما بين المماليك والانجليز من مصالح مشتركة لا تتفق مع مصالح محمد على فى المنطقة ، ويبين في نفس الوقت قيام خطر مستقر في جنوب مصر •

وليت خطر المماليك يقف عند هذا الحد ، فانه لما كانت دنقله لا تبعد عن سواكن أكثر من رحلة عشرة أيام الى ستة عشر يوما فقد خاف محمد علي — من زمن — أن يحاولوا التقهقر الى هذا المرفا ويتحالفوا مع الوهابيين في بلاد العرب عليه (١٧) وقد ثبت له — علاوة على ذلك — أن بعضهم — نتيجة للصدام الذى لم يكن ينقطع بينهم وبين الشـــايقية قد غـــادر دنقـــله الى كردفان ودارفور (١٨) ، ولابد أنهم سيثيرون الحقد والكراهية بين أهل تلك الجهات ضده ، الأمر الذى لا شك في خطره وهو مقبل على ارسال حملة السودان •

ولقد كان الذهب والعبيد وكشف منابع النيل من بين أسباب الحملة أيضا • أما عن الذهب ، فقد أبان محمد علي للقنصل هنرى صولت أن غزوه للحبشة أمر مؤكد ، حيث أنهـــا تطفح بالذهب والمعادن الثمينة • ولما اعترض القنصل على غزوها — معتمدا فى ذلك على أن بلاده تعتبرها منذ بعثته الأخيرة اليها (سنة ١٨٠٩ — ١٨١٠) تحت حمايتها — أعلن محمد علي تخليه عن مشروعه (١٩) • وان ما هون عليه هذا الأمر أنه كان متأكدا من وفرة المعادن الثمينة فى الســــودان الذى كانت تسعى اليه الحملة المصرية منذ أربعة شـــهور •

وفي الحقيقة لقد كان من أهم ما شغل بال محمد على مذ أصبح واليا على مصر هو عنايته بالتنقيب عن المعادن (٢٠) ، وكان من واجبات اسماعيل بن محمد على قائد حملة السودان عند وصوله

الى سنار أن يقوم بالبحث عن الذهب في سنار وأعالي النيل الأزرق وفي كل مكان ويتفق هذا مع ما قرره كايو ـ الذي كان يصحب الحملة والخبير في التنقيب عن المعادن ـ من أن تفكير اسماعيل وهمه أثناء الحملة كانا لا يتعديان البحث عن الذهب (٢١) ، ويفسر أيضا كيف أن البحث عن الذهب كان عاملا أساسيا في قيام محمد علي برحلته الى السودان سنة ١٨٣٨ (٢٢) .

واذا كان محمد علي قد أفضى الى هنري صولت بأن من أسباب الحملة العمل على التخلص من جنده غير النظاميين الذين أبوا الانصياع للنظام الجديد (٢٣) ، فانه لم يفصح له عن المورد الذي سيستمد منه جنده بعد ذلك ، ولعله تعمد الا يشير الى أن عبيد السودان هم المصدر الجديد .

واستخدام العبيد في مصر ليس بدعا ، فقد كان فيها في القرن الثامن عشر سود من بين المماليك . وأثناء الاحتلال الفرنسي لمصر اشترى القواد الفرنسيون في الصعيد بعض العبيد وضموهم الى قواتهم (٢٤) . وكان الضباط الترك في مصر يباعون صغار العبيد في الصعيد ويربونهم في بيوتهم ، حتى اذا شبوا ألبسوهم لباس الجند وقلدوهم السلاح وسلكوهم في فرقهم التي يقودونها واستلموا رواتبهـــم (٢٥) .

ولقد جاء في كتابات كايو ـ وعلى لسان محمد علي وولديه اسماعيل وابراهيم قائدي حملة السودان ـ ما يفيد أن قنص الرقيق كان من الأهداف الأساسية للحملة (٢٦) ، كما جاء في كتابات محمد علي الى قواد الحملة أن الهدف من ارسالها ينحصر في « مسألة جلب المقادير الكثيرة من العبيد » (٢٧) .

ولم يكن الهدف الوحيد من قنص الرقيق ضمه للجيش ، بل كان الى جانب ذلك ـ سلعة تجارية تشكل مصدرا مهما للدخل في

حكومة الباشا (٢٨) • ومما يوضح أهمية العبيد كعامل أساسى لارســـال الحملة ما ترويه الروايات الوطنية من أن الملك بادى السادس قد أرفق ولاءه للحكم المصرى بهدية قدرها ٧٧٦٤ عبدا كانت النواة الأولى للجيش المصرى الحديث (٢٩) •

ومن أهداف حملة السودان أيضـــا الكشف عن منابع النيل الأبيض • وهذا الأمر عظيم الأهمية من حيث ارتباطه ارتباطا وثيقا بمستقبل مصر ، وهو خطوة ضرورية لتأمين سلامة البلاد وضمان الوحدة الســـياسية لوادى النهر الذى يروى مصر والســـودان معا (٣٠) • وكشف النيل وان كان أقل أهداف الحملة أهمية ؛ الا أنه من الضرورى والطبيعى أن يكون العمل على تقصى خبايا النهر ـ بعد الاستيلاء على مجراه موضعا للاعتبار عند محمد على •

غادرت حملة السودان القاهرة فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ ، وكانت بقيادة اسماعيل كامل بن محمد على • وفى أغسطس من تلك السنة كانت تشق طريقها من أسوان الى بلاد النوبة • وقد اصطدمت بالمماليك لأول مرة عند جزيرة ســـاى • وما أن سمع باقترابها من دنقله العرضى (دنقلة الجديدة) عاصمتهم حتى فروا منهـــا •

وفى هذا المكان كان الاتفاق بين اسماعيل والشايقية على أن يدفعوا ضريبة بسيطة لاسماعيل ويقدموا خيلهم للحملة • وتذكر الروايات الوطنية أن الشـــايقية توقفوا عن تنفيذ شروط الاتفاق ونادوا بالجهاد (٣١) ، وتصدوا لكوكبة من فرسان الحملة كانت مهمتها ـ البحث عن الخيل وقتلها • وهكذا تهيأت الظروف لقيام معركة كورتى الكبيرة (فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠) التى لم تغن فيها شجاعة الشايقية أمام أسلحة الحملة الحديثة (٣٢) • وانتهى الأمر « بأن كل رجل يمتلك حصانا يؤخذ جنديا فى الحملة وتصرف

له جامكية كفرســـان الترك ، ومنح الملك جاويش ـ أحد ملوك الشايقية ـ رتبة سرسوارى على جنود الشايقية ، (٣٣) ٠

وتقدمت الحملة بعد ذلك جنوبا ٠ وعند وصولها الى بربر ارجمت أحد المشايخ زوار محمد علي في مصر ، وأحد دعاته لفتح السودان الى عرشه المسلوب (٣٤) ٠ وفي بربر أيضا قدم نمرمك شندى ولاءه لاسماعيل ، ورافق الحملة كمستشار له في المسائل المحلية (٣٥) ٠ وعند وصول الحملة الى محاذاة حلفاية الملوك عبر مك العبد اللاب النيل وقـــدم خضوعه لاسماعيل (٣٦) ٠ وعند أم درمان بدأت الحملة ـ في ٢٨ مايو سنة ١٨٢١ ـ في عبور النيل الأبيض الى جزيرة سنار ، ودام العبور أياما ثلاثة عانت الحملة فيها أشق المتاعب (٣٧) ٠

وتقدمت الحملة بعد ذلك الى سنار حيث أدت المنافسة على السلطة فيها بين الوزراء من الهمج الى تسهيل مهمة اسماعيل ، فقد تقدم بادى السادس ملك الفونج الى ودعدنى وقدم له ولاءه ٠ وفى ١٣ يونيو وصل اسماعيل الى مدينة سنار ، وتنازل بادى رسميا عن مملكته للسلطان العثماني ، وأعلنه اسماعيل شيخا عاما على بلاد الفونج (٣٨) ٠

وفى ٢٢ أكتوبر وصل ابراهيم بن محمد علي بالامدادات الى سنار ، وعسكر جنوب المدينة (٣٩) وكانت تعليمات والده اليه تقول بتنظيم فتوح السودان قبل القيام بفتوح جديدة (٤٠) ٠ وكان ابراهيم على ما يبدو يود كشف النيل الأبيض ، ثم يتجه غربا بعد ذلك الى دارفور ، ثم يواصل السير الى برقو فطرابلس فمصر (٤١) ٠

وبعد تنظيم ابراهيم لقوات الحملة « وتدبير المصلحة حسبما يستدعيه الواجب » (٤٢) قصد في أوائل ديسمبر الى بلاد الدينكا على النيل الأبيض · وبعد ذلك بيومين غادر اسماعيل سنار الى أعالى النيل الأزرق ، وداوم تقدمه الى منطقة الكماميل على الحدود الحبشية السودانية حيث أجرى تجارب استخراج الذهب،ولما كانت النتائج غير مجدية فقد رجع الى سنار في أوائل فبراير سنة ١٨٢٢ · أما ابراهيم فقد عاد الى مصر مريضا ، ولكن قواته استمرت فى تقدمها الى النيل الأبيض ، ولم تلبث ان عادت الى سنار حوالى ـ منتصف فبراير ·

وهكذا تم اخضاع كل الجهات التي كانت تخضع لمملكة سنار · ولم يبق بعد ذلك الا جماعات بدوية قليلة فى البطانة ، وهؤلاء ستجرد عليهم حملات أخرى ·

وكان محمد علي قد أرسل صهره محمد بك الدفتردار على راس حملة أخرى الى كردفان غادرت أسوان في أبريل سنة ١٨٢١ ، وهزمت المقدوم مسلم ـ حاكم كردفان من قبل سلطنة دارفور ـ شرق باره التي دخلها الدفتردار في أوائل أغسطس (٤٣) · وقد خاض الدفتردار معركة أخرى فى أوائل سبتمبر قبل أن يتسنى له دخول الأبيض التى اتخذها مركزا لادارته ·

ومع ذلك ، فان سلطان دارفور لم يتوقف عن الاستعداد لطرد الدفتردار من كردفان ولذلك كان لابد لهذا من تحطيم قوته ، وخاصة أن الكثير من سكان كردفان قد هاجر الى دارفور بعد فتح كردفان (٤٤) ، وأن ضم دارفور كان أمرا مرسوما بعد أن يتم للدفتردار فتح كردفان (٤٥) · الا أن محمد علي ـ مع ذلك ـ رأى تأجيله الى وقت أكثر ملاءمة ، حيث أن « ادارة حكومة سنار لا تكفى

بالعساكر المامورين لتلك الجهات وأن حكومة دارفور تحتاج ادارتها الى عساكر أكثر » (٤٦) ، وعلاوة على ذلك كانت ثورة اليونان قد بدات وكان محمد علي يتوقع اتساع لهيبها بما يرتبط بذلك من اسناد مهمة اخمادها اليه · وهكذا ترك موضوع اخضاع دارفور مؤقتا ، وهو ما لن يتم الا فى عهد الخديو اسماعيل (٤٧) ·

ولم تكن حملة السودان ـ فى الواقع ـ أكثر من قوة بوليسية مهمتها القضاء على الفوضى والاضطراب فى البلاد ، واعادة عجلة العلاقات بين مصر والسودان الى سابق دورانها · وهذا يتمشى مع سياسة اسماعيل الذى كان يتقدم في البلاد محررا لأهلها من سيطرة الشايقية ، ومعاملا مشايخها بالاحترام وتقديم الهدايا اليهم (٤٨) · وتقرر الروايات الوطنية أن الحملة سارت فى البلاد « كسير السائح لا كسير الفاتح » (٤٩) ، وانها لم تصطدم الا بالشايقية ونائب سلطان دارفور فى كردفان وببعض المقاومة من جهة المجاذيب فى الـدامر (٥٠) ·

اتخذت الادارة المصرية مدينة سنار مركزا لهـا منذ حل بها اسماعيل في ١٣ يونيو سنة ١٨٢١ · على أنه اذا كانت هناك ظروف معينة أدت بالفونج الى اختيار عاصمتهم في حوض النيل الأزرق فى هذا المكان (٥١) ، فان هذا يجب ألا يخفى مساوىء الموضع الذى قامت فيه المدينة · فسنار تقع مباشرة على ضفة النيل الأزرق ، ويكاد سطحها لا يرتفع عن مستوى سطح الماء فيه ، فاذا جاء فصل الأمطار تسربت مياهه الى داخل المدينة وحطمت المبـاني وكونت المستنقعات · ويزيد من تلك المخاطر أن سطح المدينة عديم المسام وممسك للماء ، مما ينتج عنه ارتفاع نسبة الوفيات عند الانسان والحيوان على السواء (٥٢) · وهذا ما كان يدعو ملوك الفونج الى الانتقال فى فصل الأمطار الى (المصايف) فى الداخل (٥٣) ·

ومع أن اسماعيل كان مطلعا على ما كتبه بروس عن مساوىء موضع سنار (٥٤) الا أن هذه المدينة بعينها كانت وجهته والعاصمة المرتقبة للحكومة الجديدة ، فقد كان والده يلزمه « بالسعى بكل سرعة فى الوصول واللحاق الى بندر سنار خطوة خطوة من غير مكث فى محل » (٥٥) ، حيث أن « أقدم مطلوبنا (مطلوب محمد على) هو اقامتكم فى سنار واجراؤكم الحكومة ... من مقامكم بدل أن تنتقلوا من محل لمحل » (٥٦) .

ومن عوامل اختيار سنار عاصمة للادارة المصرية « ان القرى التابعة للحلفاية وسنار تبلغ ثلاثة آلاف قرية ، (فى حين أن) القرى التابعة لاقليم فيض أوغلى تبلغ الفا ، والقرى التابعة لكوردفان تبلغ خمسماية والفا (٥٧) » . ويدل هذا على أن منطقة حلفاية وسنار أكثر مناطق السودان عمرانا ، وأن قيام العاصمة فى وسطها أمر ضرورى . وزيادة على ذلك ، فان تلك المنطقة قريبة من مناطق الذهب فى أعالى النيل الأزرق . وهكذا أصبحت مدينة سنار عاصمة للادارة المصرية (٥٨) ، « وعين لها المعمار أمين أفندى .. لاجراء الكشف على الأبنية » (٥٩) .

وقبل أن يمضى على اسماعيل وجيشه فى سنار ثلاثة اشهر كان ثلث الجيش يشكو من الحمى والدوسنطاريا (٦٠) . وفى أواخر سبتمبر كان عدد صرعى المرض ستمائة جندى وعدد المرضى ألفين . كل ذلك فى جيش تعداده ثلاثة آلاف جندى . ومما ساعد على استشراء الخطر عدم كفاية الطعام والملابس للجند وعدم ملاءمة بيئه سنار لهم (٦١) . وفى منتصف أكتوبر لم يكن يليق للعمل غير خمسمائة جندى فقط ، فى وقت كان ينذر بثورة السكان الذين لم تفتهم معرفة هذا الحال السيىء (٦٢) . ولم ينقذ الموقف – فى الواقع – الا وصول ابراهيم الى سنار فى أواخر شهر أكتوبر .

وبعد ان قام الاخوان باتمام الفتوح في البـــلاد التام شمل جندهما في سنار في فبراير سنة ١٨٢٢ . ولكن اسماعيل لم يرد ان يمر بالتجربة القاسية التي مر بها اثناء فصل الأمطار ، وكان عليه ان ينقل مركز ادارته الى مكان آخر غير بعيد عن مناطق الذهب في اعالي النيل الأزرق ، فكانت ودمدني العاصمة الجديدة (٦٣) .

وتقول الروايات الوطنية - بعد أن اصبحت الاقامة في سنار مستحيلة - أن محمد علي انتدب لجنة من الأطباء الأجانب لاختيار مكان عاصمة البلاد ، فجابت اللجنة البلاد واختارت مدني وشندي ، الا أن محمد علي فضل الأولى لتوسطها العمران وقربها من حدود الحبشة « ولأن هوى ود مدني أحسن من هوى سنار » (٦٤) وقد شيد قصر لاسماعيل بالمدينة ، وقامت ثكنات الجند ودور الضباط والمستشفى الى جواره (٦٥) .

ولا يعرف على وجه التحديد متى تم الانتقال الى مدني . ولكنه تم بلا شك قبل حلول شهر يوليو سنة ١٨٢٢ ، حتى لا يدرك فصل المطر الجند مرة أخرى وهم في سنار ، ولأن محمد علي أرسل في ذلك الشهر رسالة الى اسماعيل يستفاد منها أنه مقيم بود مدني وأنه « قد شرع في بناء ثكنة بها من تسعين غرفة » (٦٦) .

ولكن بعد أن أمضى اسماعيل في ودمدني عدة شهور حدث وباء شديد بالمدينة مات به كثير من الجند والضباط وذلك حسبما تشير الروايات الوطنية (٦٧) ، مما دعا الى نقل العاصمة مرة أخرى . وكانت العاصمة الجديدة هي شندي المعروفة في ذلك الوقت بطيب جوها ، فقد هرب اليها المعلم حنا المباشر مدعيا المرض عندما لمس ما يعتمل في نفوس أهالي سنار ضد الحكومة الجديدة (٦٨) ، كما نزل بها اسماعيل باشا لتغيير الهواء في آخر آكتوبر سنة ١٨٢٢

وهو في طريقه الى مصر · وتؤكد الروايات الوطنية أنه لولا حادث حرق اسماعيل فيها لما عدل محمد علي عن اختيارها عاصمة (٦٩) ·

وكان قتل اسماعيل اشارة بقيام ثورة عامة في البلاد تعاون حكام سنار وبربر وكردفان على اخمادها بكل ما أوتوا من قوة ، وكان الدور الذى لعبه الدفتردار في اخمادها كبيرا · وقد التجأ على اثر ذلك كثير من الثوار ـ وعلى رأسهم نمر مك شندى وعمه المساعد ـ الى البطانة · ومن أجل ذلك خرج اليهم الدفتردار فى حملة ثانية انتهت بهزيمتهم جميعا ، وهرب نمر في قلة من أتباعه الى الحبشة · وهكذا قضى على الثورة التي هددت السلطة المصرية في السودان أكبر تهديد (٧٠) ·

وبعد أن صرف النظر عن اختيار شندى عاصمة اختير الموضع حيث قامت مدينة الخرطوم لبناء العاصمة الجديدة · ومع أن ذكرى انشاء الخرطوم كانت ماثلة في أذهان كثير من الموظفين والمواطنين في السودان أيام الحكم المصرى الا أن الرحالة والكتاب المعاصرين قد اختلفوا فيمن له الفضل في اختيار موضعها ـ وان كان معظمهم ينسبه الى خورشيد باشا حكمدار السودان بين سنتى ١٨٢٦ ، ١٨٣٨ (٧١) ·

وهناك لفيف من هؤلاء يرجع الفضل الى محمد على (٧٢) ، بل ان منهم من يؤكد أنه بنفسه قد جاء الى السودان ـ وبمعيته قنصلا انجلترا وفرنسا ـ وان اختيار موضع الخرطوم ما هو الا نتاج لتلك الزيارة (٧٣) · كما أن هناك جماعة تختلف بين اسماعيل ابن محمد على (٧٤) وابراهيم بن محمد على (٧٥) ومحمد بك الدفتردار صهر محمد على (٧٦) « وأبناء محمد على » (٧٧) ·

وقد قام الاختلاف أيضا على الوقت الذى تم فيه اختيار موضع الخرطوم لاقامة العاصمة فبينما نجد من يؤخره الى سنة

١٨٣٥ (٧٨) تجد من يقدمه على حوادث الفتح ، ويحدد سنة ١٨١٩ – ١٨٢٠ ميعادا له (٧٩) • ومهما يكن الاختلاف فان الأمر السائد عند جمهور الرحالة والكتاب أن الاختيار قد تم سنة ١٨٣٠ من سنى حكم الحكمدار أحمد خورشيد •

وفى الحقيقة ، ان الفضل فى اختيار موضع الخرطوم يرجع الى عثمان بك خليفة الدفتردار فى حكم السودان ، والذى وصل الى منطقة النيلين في منتصف سبتمبر سنة ١٨٢٤ ، فاعجب بالمكان واتخذه مركزا لادارته ، « وأقام عثمان أغا الخربطلى ناظر تعيينات الجهادية وكيلا عنه في مدنى (٨٠) » • وقد أقر محمد على الاختيار ، ومن بين ما كتب فيه الى عثمان بك – حوالى منتصف يناير سنة ١٨٢٥ – رسـالة جاء فيها « علمنا بوصـولكم الى الخرطوم وأنكم ستستقرون فيها وستبنون بها حصنين في جهتى الشرق والغرب ، وأنكم ستقيمون الأورطة الخامسة بها وباقى الجند فى الجهات التى بينهما وبين سنار » (٨١) •

من الطبيعى أن نتسـاءل عن مدى صلاحية موضع الخرطوم لاقامة عاصمة البلاد • وقد يكون كثير مما سنقوله لم يعلق بخاطر عثمان بك ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان للمكان انطباعات فى ذهنه مذ طالعه لأول مرة • ومن هذه الانطباعات وجود معسكرين دائمين من خلق اسماعيل فى منطقة الالتقاء وفى بر أم درمان المواجه له • واقامة الدفتردار رياسته فى المعسكر الثانى أثناء معارك تثبيت السلطان التي تلت قتل اسماعيل وبناؤه قلعة فيه (٨٢) • ومن هذه الانطباعات أيضا أن جند المعسكرين كانوا يجدون حاجتهم من الطعام وأعلاف الخيل فى المنطقة ، وأنهم لم يصابوا باصابات مرضية شاملة كما حدث فى سنار ومدنى ، كما أن ثمة تفاهم روحى – كهذا الذى يقوم عادة بين الفرسـان فى كل مكان – كان يربط بين فرسان الحملة وفرسان الجموعية فى هذا المكان •

ومهما تكن تلـك الانطباعات ، فان الموضـــع الذى قامت فيه الخرطوم مناسب كل المناسبة فهو على أبعاد متساوية تقريبا من الأقاليم المفتوحة : سنار وكردفان وبربر وشندى (٨٣) ، وفى منتصف المســـافة بين أقصى منـــابع النيل الاستوائية ومصـــبه عنـــد الاسكندرية (٨٤) · كما أنه ينبىء بمستقبل تجارى باهر ، اذ تلتقى عنده ستة طرق برية تصل اليه : من دنقله عبر صحراء بيوضة ، وجنوب السودان عن طريق ضفة النيل الأبيض ، ومصر والنوبة وشندى عن طريق الشمـــال ، وسنار عن طريق ضفة الأزرق ، والحبشة ومصوع عن طرق مختلفة ، وتلتقي فيه ـ فوق ذلك ـ ثلاثة طرق مائية (٨٥) ·

والمكان اذ يقوم عند التقاء النيلين ـ يؤدى بالعاصمة الى داخلية البلاد في اتجاهين مختلفين فتتصل عن طريق النيل الأزرق بالحبشة وبلاد الجالا حيث الذهب والحديد وفير ، وعن طريق الأبيض بالجنوب الغنى بالعاج والصمغ (٨٦) · ويساعد العاصمة على بلوغ ذلك أن النيل الأزرق صالح للملاحة من مصبه حتى الروصيرص لمســـافة خمسمائة من الكيلو مترات فيها على ضفتيه أهم جهات السودان ، كما أن الأبيض صالح من نقطة التقائه بالأزرق حتى الرجاف لمسافة قدرها ١٧٦٠ من الكيلو مترات (٨٧) ·

ووقوع المدينة على ضفة الأزرق يسمح لها بالشرب من مياهه التى تفوق مياه الأبيض نقاء ، وهى أحلى مياه في السودان مذاقا على الاطلاق (٨٨) · والمنطقة المحيطة بالمدينة وفيرة الطعام لدرجة كبيرة ، وبخاصة : أرض الجزيرة القريبة ، والجزر العديدة التى تقطع النيل الأبيض فى منطقة الالتقاء ، وضفاف النيلين بعد موسم الفيضان ، كما أن أوطان الحلويين فى أرض الجزيرة ـ وهم أكثر أهالى الســـودان عناية بزراعة الذرة على المطر ـ غير بعيدة الى الجنوب (٨٩) · وعلاوة على ذلك ، ففى القبائل البدوية العديدة

القائمة حول المدينة متنفس لمطالبها من اللحوم واللبن ومستخرجاته وفى ضفاف النيلين الطويلة المجاورة ثروة وفيرة من السمك ·

وللموضع الذى قامت فيه الخرطوم أهمية استراتيجية تتضح فى امكان استغلال موقعها بين نهرين في الدفاع عنها ، بل ويمكن ـ وقت الخطر ـ تحويل البرزخ الذى تقوم فيه الى جزيرة بشق قناة في جنوبها تمتد بين النيلين (٩٠) · وزيادة على ذلك فان قيام المدينة على ضفة الأزرق الجنوبية وعلى المجرى الذى يفصل بين تلك الضفة وجزيرة توتى له ميزته أيضا ، اذ ان المخرج الشمالى لذلك المجرى عند مقرن النيلين يواجـه بالضـبط معســكر بر أم درمان (٩١) ، كما أن ذلك المجرى عميق يسمح برسو السفن ·

وغير تلك المزايا الاقتصادية والاستراتيجية لموضع العاصمة كـان أهـــالى منطقـة التقـــاء النيلين ـ ومعظمهـــم من المحس ـ مسالمين ، فهم ناس دين وعلم وليسوا ناس سياسة (٩٢) مما يجعل العاصمة فى منطقة أمينة ، وخاصة بعد قيام الشـــايقية ـ حلفاء الادارة المصرية · كحراس لها من ناحية الشمال منذ انتقلت اليهم ملكية بلاد العبد اللاب فى حلفاية الملوك وقرى بعد أن فشل هؤلاء فى ثورتهم على الادارة المصرية أثر مقتل اسماعيل ·

ويضاف الى تلك المزايا جميعا وجود مصادر غنية لمواد البناء بجوار المنطقة فى بقايا مدينة سوبا وغيرها من مدن العهد المسيحى فى حوض النيل الأزرق · كما أن ضفة الأزرق الجنوبية عالية على وجه العموم وطويلة كذلك ، مما يسمح باتجاه المدينة ناحية الشمال فتلطف الرياح الشمالية من جوها ، وبامتدادها ما شاء لها الامتداد على طول الضفة · كما أن طبيعة السهل الذى قامت عليه العاصمة يسمح بتوغلها نحو الداخل فى الجنوب والجنوب الغربى ·

ويمتاز هذا السهل ببساطة شكله الطبوغرافى - فارتفاعه عند ضفة الأزرق ٣٨٠ مترا وينخفض تدريجا كلما اقتربنا من الأبيض

حتى ضفته الشرقية ٣٧٥ مترا • وتقطعه عدة أذرع من المنخفضات – أو الخيران – تمتد من النيلين نحو الداخل في مسافات قصيرة وتمتلىء بالمياه في موسم المطر والفيضان (٩٣) • ويتكون السهل من مساحات رسوبية (تربة نهرية) ، فاذا تقدمنا من ضفة الأزرق الى الداخل ونحو الغرب تظهر بعض الكثبان الرملية ومساحات من الحصـــا (٩٤) ، وفـوق تلـك الأراضي المرتفعة – والتي تعرف بالقيزان – أقام الأهالي حلالهم لاتقاء فيضان النيل الأبيض ذي الضفة المنخفضة ومن تلك الحلال القوز والرملية والكلا كله – وكلها أسماء تعني عند الأهالي المكان الرملي قليل الارتفاع •

ومن الملامح الطبوغرافية المهمة لمنطقة التقاء (رأس الخرطوم) ، وهي المنطقة التي تقع مباشرة خلف نقطة مقرن النيلين ، وتبتدىء في الظهور قبل تلك النقطة بحوالي ثلاثة أو أربعة كيلو مترات ، ويظهر ذلك في اقتراب ضفتي النيلين تدريجا حتى يتم اقترانهما في نقطة موقعها عند قمة الرأس (٩٥) •

هذا ويلتقي النيلان عند نقطة المقرن في زاوية قائمة ، اذ أن اتجاه النيل الأزرق في منطقة الالتقاء شرقي غربي،ويمتد على هذا الشكل من نقطة الالتقاء لحوالي عشرة كيلو مترات قبل أن يغير اتجاهه ليصير جنوبيا شرقيا • وفي هذا الجزء من النيل الأزرق – ذي الاتجاه الشرقي الغربي – الذي سمح باتساع السهل فيما بينه وبين النيل الأبيض ، وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات من نقطة المقرن – قامت مدينة الخرطوم على الضـفة اليسرى أو الجنوبية للنهـر حتى تتقي شر فيضـــان النيلين في المنطقـة القريبة من مقرنهمـــا •

وعند انحسار مياه الفيضان عن ضفاف النيلين تظهر مساحات رسوبية من الأرض تعرف (بالجروف) وتزرع موسميا بالمحاصيل

الغذائية ، كما تظهر عدة جزر بعضها في دور التكوين ، والبعض الآخر تم تكوينه نتيجة لالتقاء مياه النيل الأزرق السريعة المحملة بالرواسب بمياه الأبيض البطيئة القليلة الرواسب · ومن هذه الجزر الأخيرة : أم شجيرة وأم بطيخ ، وتوتي وهي اهمها جميعا ·

وللنيل الأزرق على ضفته الجنـــوبية حيث قامت الخرطوم جرف واسع يزرع بعد الفيضان ، كما أن تلك الضفة كانت تنخفض عما هي عليه الآن بحوالي ثلاثة أقدام على الأقل (٩٦) · وفي الواقع ، كان مستوى سطح البقعة التي قامت عليها الخرطوم لا يكاد يرتفع عن أعلى مستوى لسطح الماء في النيلين أثناء الفيضانات العالية · ويزيد من تلك المخـــاطر الخيران التي تمتلىء بالميـــاه في موسم الفيضان ، وانسياب مياه النيل الأبيض في الفيضانات العالية في منخفض كبير يمتد في جنوب المدينة ، وسقوط الأمطار في نفس الوقت الذي يظهر فيه خطر الفيضان · ويتوج تلك المخاطر خلو المكان من منصرف طبيعي الى النيل الأزرق ·

ويتضح من كل ذلك أن العيب الأول في موضع الخرطوم قائم في طبيعة سطحه (٩٧) ، وهذا ما أدى بأحد الرحالة زوار الخرطوم الى ان يقرر « أنه ليس هناك من بقعة غير ملائمة تماما لقيام عاصمة أكثر من البقعة التي قامت فيها الخرطوم » (٩٨) · وفي الواقع ، انه من الأفضل لو كان موضع العاصمة قد اختير الى الداخل قليلا بعيدا عن ضفة الأزرق ، أو الى الشمال على الضفة الشرقية العالية للأبيض ، ويؤكد صحة هذا الرأي أن عواصم المشيخات التي قامت على تلك الضفة في حلفاية الملوك وقرى وشندي وبربر — والتي تخلو البقع التي قامت فيها من عيب موضع الخرطوم — لا تشكو البتة من آثار سيئة لذلك العيب على صحة سكانها (٩٩) ·

ومع تلك العيوب التي شابت موضع الخرطوم قامت المدينة في ذلك الموضع بعينه نتيجة لما يحدث عادة في الشرق من تأسيس الحكومة للعاصمة في أي مكان تختاره مادام يغطي حاجتها الادارية بصرف النظر عن الاحتياجات الأخرى التي يجب مراعاتها عند اقامة العواصم (١٠٠) ، ونمت وتقدمت وهي في موضعها لم تتحرك . وهذا يتفق مع قول علماء تخطيط المدن من أنه « من النادر أن تنشأ مدينة بقصد أن يكون مقدرا لها مستقبل عظيم ، بل الغالب أن تبدأ المدن صغيرة متواضعة ، ثم يلعب الزمن دوره حتى تأخذ الوضع الذي قدر لها أن تكون عليه » (١٠١) .

ومع أن مدينة الخرطوم خلق مصري الا أن التاجر الخرطومي برون روليت يقرر انها قديمة ، وأنها كانت حتى قبل الفتح بنصف قرن مدينة عظيمة عندما هاجمها الشلوك سكان النيل الأبيض ذات ليلة من ليالي سنة ١٧٧٢ وقتلوا أهلها ودمروها ، فانتهى وجودها في ذلك التاريخ حتى جاء المصريون وأعادوا تأسيسها (١٠٢) .

وهذا الذي يقرره روليت يتنافى - في الواقع مع ما تقرره عمد الخرائط التي رسمت لافريقيا وحوض النيل في السنوات السابقة لسنة ١٧٧٢ . فقد ظهرت تلك الخرائط (١٠٣) خالية من أية مدينة أو قرية كبيرة في موضع الخرطوم ، في الوقت الذي ظهرت فيه مدن أخرى وحلات في منطقة التقاء النيلين والجهات المحيطة بها ، منها : حلة جزيرة توتي وحلة قبة خوجلي والحلفـــاية وقرى والعيلفون . كما أن كتابات كايو - الذي كان يرافق حملة الفتح - خالية من وجود أية مدينة أو حلة في موضع الخرطوم (١٠٤) .

وربما كانت الهجمات العنيفة التي يســـددها سكان النيل الأبيض الى جزيرة سنار ومنطقة التقاء النيلين بغية السلب والنهب ،

والتى استمرت حتى الفتح المصرى ، وكان سكان المنطقة يتناقلون أخبارها ـ هو ما حمل برون روليت على تصور وجود مدينة كبيرة فى موضع الخرطوم ، وأن نهايتها كانت نتيجة حتمية لاحدى تلك الهجمـــات (١٠٥) ٠

ولكن ليس معنى خلو موضع الخرطوم من مدينة أو قرية قبل الفتح المصرى أن منطقـة التقـاء النيلين كانت خـالية من مواطن الاستقرار ٠ فقد قامت حلال فى المنطقة منذ التاريخ القديم ، وأثبتت ذلك الحفائر التى قامت فيها (١٠٦) ٠ كمـــا كشف فى منطقة (شجرة محو بك) ـ المجاورة للخرطوم عن حلة ترجع آثارها الى ما بين سنتى ٤٠٠ م ، ٥٠٠ م (١٠٧) ٠ وقد ثبت قيام عدة قرى فى العصر المسيحى فى المنطقة ، منها واحدة بالقرب من قرية برى الحالية يرجع تاريخها الى القرن السابع الميلادى (١٠٨) ، وأخرى فى جزيرة توتى (١٠٩) ٠

أما ما كانت عليه منطقة الالتقـــاء من الناحيتين الطبوغرافية والديموغرافية عند وصول الحملة المصرية اليها فهو من نتاج العرب فى المنطقة مذ حلوا بها فى القرن الرابع عشر على الأقل (١١٠) ٠ وتتمثل هجراتهم الى السودان الأوسط ومنطقة الالتقاء فى مجموعة الجعليين والـكواهلة وهم من العـدنانيين ، ومجموعة جهينـة من القحطانيين ، والمحس الذين حلوا بالمنطقة متأخرين عن هـــاتين المجمـوعتين ٠

وقد تركز الجعليون على نهر النيل فيما بين مقرن النيلين جنوبا وبلاد النوبة شمالا ثم انتشروا من هذا المركز العظيم فى شعب وفروع نحـو البطانة والنيلين الأزرق والأبيض (١١١) وللكواهلة كذلك أثرهم الكبير فى الاستقرار العربى على ضفاف النيل من خط

عرض ٩٢ جنوبا حتى جنوب مقرن النيلين بقليل شمالا ، ومنهم الكواهلة الأصليون الذين يقيم جزء كبير منهم حول جبل أولى غبر بعيدين عن المقرن (١١٢) ٠

أما جهينة ، فأهم ما يسكن من قبائلهم السودان الأوسط قبيلتا الشكرية ورفاعة ٠ ويعيش أكثر الشكرية في البطانة وينتقلون فيها بابلهم شمالا حتى شندى وجنوبا حتى النيل الأزرق ٠ أما رفاعة فتمتد مواطنهم على جانبي النيل الأزرق في السودان من السفوح الجبشية حتى مقرن النيلين ، ومن عواصم مشيخاتهم سنار واربجى ، وقد نشأت مدينة رفاعة في وقت متأخر بعد أن أخذ المقيمون منهم في النصف الشمالى من النيل الأزرق ينزعون الى حياة الاستقرار فى قرى يعملون فيها بالزراعة والتجارة (١١٣) ٠ واذا كان عدد قليل من الشكرية أو الجمليين أو الدناقلة يشاطرون رفاعة العيش فى تلك القرى ، فان رفاعة ومعهم المحس هما ـ فى الواقع ـ أصحاب الديار الأصليين على ضفتى الأزرق (١١٤) ٠

أما من أعطى منطقة التقاء النيلين الملامح العمرانية التى كانت لها عند وصول الحملة المصرية فهما بلا شك : الجمليون والمحس ٠

أما الجمليون فمنهم الجموعية والجيماب وفروعهم المختلفة ، ويقيمون الى الغرب من النيل الأبيض والنيل الرئيسى بين جبل أولى جنوبا وشلال سبلوكة شمالا ، وكذلك على الضفة الشرقية للنيل الرئيسى بين نقطة الالتقاء جنوبا ومدينة قرى شمالا ٠ ويحكمهم مكوك من بينهم ، الا أنهم جميعا خاضعون لتلك الجموعية القائم بالقرب من جبل حنيك والذى تمتد سلطته من حجر العسل شمالا الى حجر البصل جنوبا (١١٥) ٠

والمعروف أن الجمليين أقدم السكان العرب فى منطقة الالتقاء ٠ ومن آثارهم فيها حلة الفتيحاب (١١٦) التى قامت على يد الفتيحاب

منهم ، وحلة المقرن (١١٧) التى نشأت منذ القرن السادس عشر على ضفة الأزرق الجنوبية جنوب نقطة الالتقاء على يد الصواردة والدرايسة منهم . وكانت جزيرة توتى آهلة أيضا بالجعليين ، وبخاصة الفتيحاب .

والمحس هم شركاء الجعليين فى تعمير منطقة الالتقاء . وقد انتقلوا اليها والى غيرها من جهات السودان من وطنهم الأصلى عند الشلال الثالث بسبب فقر ذلك الوطن ، وغارات بدو الصحراء الغربية ، ومزاحمة بعض القبائل المغربية لهم (١١٨) .

ويرجع سرسفيلد هول (١١٩) تاريخ وصول المحس الى منطقة الالتقاء الى النصف الثانى من القرن السادس عشر . أما ماكمايكل (١٢٠) ، فيرجعه الى السنوات الأولى من ذلك القرن . ولكن اذا كان الشيخ ادريس الأرباب ــ وهو أقدم من أمكننا العثور عليه من المحس المشهورين فى المنطقة ــ قد ولد سنة ٩٦٠ هـ (١٥٠٤ م) (١٢١) بجهة حلفاية الملوك ، وعاش والداه أيضا وماتا فى المنطقة ، بل وينسب الى والده محمد الأرباب تأسيس مدينة العيلفون حوالى سنة ١٥٠٠ م (١٢٢) ــ يتضح أن وصول المحس الى المنطقة كان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر على أقل تقدير (١٢٣) .

ولما كان المحس شعبا زراعيا ــ الأمر الذى يثبته الكثير من تقاليدهم فى الزراعة (١٢٤) فقد اقتنصوا فرصة جهل قبائل رفاعة والفتيحاب وغيرها من سكان منطقة الالتقاء وما حولها بالرى الصناعى واحتقار العمل اليدوى ووضعوا أيديهم على الأراضى الزراعية الجيدة فى المنطقة . ومما ساعدهم على ذلك ورفع شأنهم فى نفس الوقت عند ملوك الفونج والقبائل التى تخضع لهم ــ قيامهم بدور الفقهاء

والمعلمين أصحاب الخلاوى والمعجزات ، واعتقاد الناس فيهم وفى شفاعاتهم ، ولهذا كثيرا ما منح ملوك الفونج مشايخهم الأراضى ، الأمر الذى تثبته الكثير من الوثائق (١٢٥) ٠

وعند وصول المحس الى منطقة الالتقاء نزلوا أول ما نزلوا فى نقطة شمبات ، شمال مقرن النيلين بقليل ٠ ولم يلبث أن تقدموا بحذاء الضفة الشرقية للنيل الأبيض حتى وصلوا تجاه جزيرة توتى ، فعبر فرع منهم الأزرق الى الجزيرة ، وساعدهم على ذلك أن مجراه فى تلك المنطقة يضيق لدرجة كبيرة وقت التحاريق (١٢٦) ٠ أما الفرع الآخر فقد واصل السير على الضفة الشمالية للأزرق لمسافة بسيطة حتى وصل الى منطقة (السويقيات) واستقر فيها (١٢٧) ٠ ومن جزيرة توتى عبر المحس الأزرق الى ضفته الجنوبية وأسسوا قرية برى المحس ٠

وهكذا يتضح أن المحس أصبح لهم المركز الأول فى تعمير منطقة الالتقاء ٠ وكان ذلك على حساب الفتيحاب أكثر من غيرهم من فروع قبيلة الجموعية ، فعند وصول المحس الى جزيرة توتى كان الفتيحاب يقيمون فيها ويزرعون جروفها (١٢٨) ، ولكن لم يلبث أن أصبحوا على قدم المساواة معهم فى امتلاك الأرض ثم سرعان ما سبقوهم فى تلك الناحية ومما ساعد على ذلك أن الخلوة والتدريس ـ وهما أهم ما ارتبطت به حياة المحس حيثما حلوا ـ كانا قد صهرا سكان منطقة الالتقاء فى المحسية (١٢٩) ، وأن كثيرا من الفتيحاب قد تزوجوا من محسيات ٠

وبعد أن استقر المحس فى منطقة الالتقاء حينا تقدموا جنوبا حتى وصلوا الى شمال مدينة الكاملين حيث أقاموا حلتى البشاقرة على ضفتى الأزرق ، وملأوا الضفتين فى طول تلك المسافة بحلالهم (١٣٠) ٠

وقد ظهر في المحس فقها، كبار كان لتقواهم وورعهم واقامتهم خلوات العلم تاثير كبير في تعمير الجهات التى أقاموا فيها : فمن الفردقاب نجد الفكي (الفقيه) المشهور ادريس ود الأرباب الذى أسس والده مدينة العيلفون التي اتسعت على أيام ولده بعد أن أقام فيها وجذب كثيرا من المحس اليها (١٣١) . ومن الخوجلاب الشيخ خوجلي عبد الرحمن الذى تنسب اليه حلة خوجلي . واشتهر البداناب بتأسيس برى المحسن . أما نسل زيد بن عجم فقد عمروا منطقة شمبات وما حولها . ويرجع الفضل الى العوناب فى تعمير منطقة البشـــاقرة ، وقد ظهر فيهم الشـــيخ الكبير أرباب العقائد ابن عون الذى شدت اليه الرحال في علم التوحيد والتصوف ، وبلغ عدد طلبته الف طالب ونيفا من دار الفونج الى دار برنوا : تلامذته وتلامذة تلامذته (١٣٢) .

وكان لأرباب العقائد مسيد (مسجد) وخلوة بجزيرة توتي استمر قائما بالتدريس فيهما حتى انتقل الى بر الخرطوم ، حيث اقام مسيدا وخلوة كذلك كانا فى أول الأمر من الرواكيب ثم بنيا باللبن . ويرى وركلى (١٣٣) أن هذا كان سنة ١٦٩١ م . ولكن لما كان أرباب العقائد قد توفي سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩٠ م ١٦٩١ م)، ولما كانت الروايات الوطنية تؤكد أنه ظل بعد انتقاله الى بر الخرطوم ينتقل فترة من الزمن بين هذا البر والجزيرة قبل أن ينتقل نهائيا الى الخرطوم ـ يتضح أن الانتقال كان قبل سنة ١٦٩١ بسنوات .

ولكن ما هى الأسباب التي ادت بارباب العقائد الى الانتقال من جزيرة توتي ـ وفيها بيته وخلوته ـ الى بر الخرطوم ؟ . يمكن أن يقال فى ذلك بعمله على توفير مشقة عبور الأزرق الى الجزيرة أمام الجعليين والمحس المقيمين في بر الخرطوم وفيهم عدد كبير من تلاميذه . ولكن هذا السبب وحده لا يكفى .

ويغلب على الظن أن الانتقال كان نتيجة للمنافسة بين فرعى المحس من العونات ـ الذى ينتمى اليهم أرباب العقائد ـ والفردقاب فى جزيرة توتى (١٣٤) . فقد كان الفقيهـــان عبـــد الرحمن ابن ابراهيم (١٣٥) وموسى الضيق زميلين لأرباب فى الخلوة . وعند وفاة الفكى عبد الرحمن تزوجت أرملته من موسى الضيق . ولما كان أهالى توتى ـ وبخاصـــة الفردقاب ومنهم موسى الضيق ـ يعتقدون لدرجة كبيرة فى الفكى عبد الرحمن فقد أدى هذا الزواج الى اجتماعهم حول موسى ، مما أشعر أرباب بأن الجو لم يصبح خاليا له فى الاعتقاد والتدريس ، فانتقل الى بر الخرطوم حيث التف حوله المحس البداناب فى برى المحس ـ وهم أقرب اليه منهم الى الفردقاب . فاذا اضفنا الى ذلك أن للمحس الفردقاب فى توتى المركز الأول فى امتلاك الأرض والمشيخة ، وأن مركز العوناب الرئيسى فى قرية البشاقرة بعيد عن الجزيرة ـ اتضحت الظروف التى أدت الى انتقال أرباب الى بر الخرطوم ، حيث ساعده المحس البداناب على اقامة مسيد وخلوة بجوار حلة المقرن .

ووجه الأهمية فى هذا الانتقال أن أرباب ـ بعد أن استمر فترة من الزمن ينتقل بين الجزيرة وبر الخرطوم ـ استقر نهائيا بهذا البر ، وبنى لنفسه منزلا من اللبن بجوار الخلوة ، ولم يلبث أن انتقل بعض مريديه من الجعليين والمحس وبنوا منازلهم حول منزله فظهر الى الوجود (محل أرباب) الذى كان على شىء من الأهمية العمرانية بالقياس الى محلات الاقامة التى تجاوره باكواخها المقامة من القش وجلود البقر ، والتى كانت تتكون منها أيضا حلة المقرن . وهذا ما حمل البعض على القول بأن (محل أرباب) ربما كان يعرف باسم (الخرطوم) ، وبالتالى هو الذى أعطى مدينة الخرطوم اسـمها (١٣٦) .

وفي الواقع لا يمكن اعتبار محل أرباب أو حلة المقرن بلدة قديمة أعيد تأسيسها فى شكل الخرطوم ، ويعزز هذا الرأى أن منازل اللبن بمحل أرباب كانت محدودة العـــدد ولم تكن تتعدى ما لاولاد الفقيه حمدنا الله وأولاد القاضي وبعض محس برى وأحد المجاورين من صعيد مصر (١٣٧) • كمـــا أنه لا يمكن اعتبارهما المقصودتين بقول برون روليت عند حديثه « عن المدينة العظيمة التى كانت تقوم في موضع الخرطوم ، وكانت نهايتها على يد الشلوك سنة ١٧٧٢ م » (١٣٨) • ويؤازر هذا التخريج أن الروايات الوطنية لا تذكر شيئا مطلقا عن هذا (الحادث الكبير) ، وما كان يفوتها تسجيله لو كان حقا قد وقع،وخاصة أنها سجلت كثيرا من الأحداث اقل اهمية وأبعد زمنا •

ولم تكن منطقة التقاء النيلين خالصة للجمليين والمحس ، بل كان يوجد فيها غيرهم من المريوماب • ومنهم الشيخ حمد ود أم مريوم تلميذ الشيخ أرباب العقائد (١٣٩) ، وكانت اقامته أول الأمر فى جزيرة توتي ، ثم أقام لفترة من الزمن مع أستاذه في بر الخرطوم • ولم يلبث أن هجره مغاضبا الى توتى ثم الى الضفة الغربية للنيل الابيض في مواجهة نقطة المقرن (١٤٠) حيث أقام خلاوى لقراءة القرآن ولجأ اليه بعض أفراد قبيلة بني جرار فى تلك المنطقة ودرسوا عليه • وقد انتقل الشيخ حمد قبل وفاته الى ضفة الأزرق الشمالية في مواجهة جزيرة توتي ، ودفن فيه عند وفاته سنة ١١٤٢ هـ ، وقام تلاميذه ببناء قبة فوق قبره • وبمرور الزمن قامت حول القبة عدة بيوت بسيطة العمارة لعائلة الشيخ حمد وبعض تلاميذه ، وهى ما لا يمكن اعتبارها حلة (١٤١) •

ومن آثار سكنى المريوماب لمنطقة الالتقاء أيضا ديم عبد القادر ود أم مريوم القائم جنوب حلة الفتيحاب فى برام درمان (١٤٢) ،

وكذلك أراضى (اللقد) (١٤٣) التى تمتد على ضفة النيل الأزرق الشمالية من مقرن النيلين الى جنوب حلة الجريف شرق مجاورة من الداخل لأراضى المحس ، والى الداخل من أراضى اللقد تقوم أراضى (الخوجلاب) وتمتد من المقرن شمالا الى حد يعرف (بدرب الجمل) جنوبا . وقد آلت ملكية أراضى المريوماب والخوجلاب الى كل من الشيخين حمد وخوجلى عبد الرحمن عن طريق منح وهبات ملوك الفونج ، ثم توارثها نسلهما من بعدهما . وعند وفاة الشيخ خوجلى بجزيرة توتى (سنة ١١٥٥ هـ ١٧٤٣ م) نقل جثمانه الى شمال قبة حمد حيث وورى التراب ، وأقيمت فوق قبره قبة وحوله مسجد ، ومنذئذ ابتدأت حلة قبة خوجلى فى الظهور (١٤٤) .

والى الشمال من تلك الحلة مباشرة تقوم حلة الصبابى ، وهى من انشاء المحس ، ومكانها معروف بأنه كان مصيفا لملوك العبد اللاب لجودة هوائه وكثرة أشجاره ، الأمر الذى ينسب معه البعض اسمها الى (ريح الصبا) . وشمال الصبابى تقوم شمبات ، وهى أول مكان حل به المحس فى منطقة الالتقـــاء بعد مغادرتهم أوطـــانهم فى الشـــمال .

ومن معالم الضفة اليمنى للنيل الأزرق فى منطقة الالتقاء — غير ما سبق ذكره — مقبرة (أبو تجيلة) ، وهى تطل على جزيرة توتى وتقع بين قبة حمد فى الجنوب وحلة قبة خوجلى فى الشمال ، وتاريخها بعيد ومجهول ، وتذكر الروايات الوطنية أنه قد عثر فيها على قبر يرجع تاريخه الى سنة ٥٥٠ هـ (١٤٥) .

هذا ، ويعرف المواطنون المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيلين عند منطقة الالتقاء وما حولها (ببر الحلفاية) نسبة الى (حلفاية الملوك) عاصمة العبد اللاب .

ومن استعراض الشكل الطبوغرافي للضفة اليسرى أو الجنوبية للنيل الأزرق في الموضع الذى قامت فيه العاصـــمة الخرطوم عند وصول عثمان بك اليها ـ نجد أولا سواقي المحس وهي الأراضي الزراعية التي تسقي بالسواقي وتمتد علي طول الضفة في مواجهة جزيرة توتي • وكان محس توتي يزرعون أيضا ضفة الأزرق المجاورة بعد نزول مياه الفيضان عنها • وعلي طول الضفة كانت أكواخ صيادى السمك من الجعليين تمتد متباعدة من حلة المقرن شرقا الى مقرن النيلين غربا • ولكنهـــا تزداد عددا كلما اقتربت من نقطة المقـــرن •

والمعالم العمرانية علي ضفة الأزرق مرتبة من الغرب الى الشرق هي : حلة المقرن ومحل أرباب ، ومحل امام ، وبرى المحس • واهم تلك المعالم ـ بلا شك ـ هي حلة المقرن ومحل أرباب (١٤٦) • ويجاور (المحل) (الحلة) من ناحية الجنوب الشرقي • وكان هناك طريق يخترق سواقي المحس ويمتد من مشرع أرباب ـ وهو مرسى قوارب توتي في بر الخرطوم ـ الى محل أرباب • والى الشرق يقوم (محل امام) (١٤٧) ، ويقيم فيه أولاد وتلاميذ الامام ود حمد ، وهو فكي محسي كانت له خلوة في ذلك المحل وعند وفاته دفن به • والى الشمال الشرقي من محل امام نجد (برى المحس) (١٤٨) وكانت بعض بيوتها من الطين ، وقد انتقل منها بعض أهلها الى محل ارباب عند قيامه •

وعند وصول الحملة المصرية الى ضفة الأزرق الجنوبية قام للتو ـ جنوبي شرق حلة المقرن ومحل أرباب ـ معسكر للجند من الخيام التي لم تلبث أن قوضت وحلت محلها التكل وهي أكواخ دائرية من القش تنتهي بأسقف مخروطية ، فأصبح المعسكر منذئذ اثرا عمرانيا ثابتا • والى جوار المعسكر قام سوق للقش كان جند

الحملة يجدون فيه الأعلاف لخيلهم ، وسرعان ما أصبح صلة الوصل بينهم وبين الأهالى فى كافة المعاملات التجارية (١٤٩) .

ويعرف لسان الأرض المحصور بين النيلين والذى تقوم عليه تلك المعالم العمرانية عند الأهالى (بالخرطوم) وعند سكان جزيرة توتى بخاصة (بخرطوم توتى) ــ اذ تقوم فيه سواقيهم وأرضهم الزراعية . أما نقطة التقـــاء النيلين فتعرف : بمقرن البحور أو المقـــرن (١٥٠) .

وتجمع ســـائر المصـــادر والروايات الوطنية على أن مدينة الخرطوم أخذت اسمها من شكل هذا اللسان الشبيه بخرطوم الفيل . ولكن تفسير اسم الجهة على أساس التخريج اللغوى ــ وهو ما نجد له مثيـــلا عنـــد المواطنين عند تفســـيرهم لأسماء جهـات مختلفة بالبلاد ــ (١٥١) كثيرا ما يكون بعيدا عن الصواب .

وهناك من يربط بين اسم (الخرطوم) وبين قبيلة الدينكا التى تعيش فى جنوب السودان على أساس أنه يتكون عند تلك القبيلة من مقطعين معناهما معا (نقطة التقاء مجريين مائيين) . وعلاوة على ذلك ، يربط هؤلاء بين تسمية جزيرة (توتى) ولفظ (توت) ، ومعناه عند القبيلة (الجزيرة الكبيرة المواجهة للحلة الكبيرة) (١٥٢) . فهل يمكن أن يكون هذا الأمر من قبيل المصادفة ؟ ، أو أن الدينكا عاشوا فترة من الزمن فى منطقة التقاء النيلين وأطلقوا اسمى الخرطوم وتوتى على هذين المكانين ؟ .

المعروف أن الجنس الزنجى اقدم فى افريقيا وبالتـــالى فى السودان من العناصر القوقازية ، وأن حوض النيل ظل زمنا مفتوحا أمام هذا الجنس دون غيره من الســـلالات والأجناس ، وأن هذا

الجنس اختلط فى منطقة أعالى النيل بالاجناس التى كانت قائمة فى تلك الجهات ، فنتج عن ذلك (النيليون) الذين يجمع الكتاب على حداثة هجراتهم الى السودان ـ ومنهم الدينكا والشلوك وغيرهم ·

وتشير المراجع الى أن منطقة مقرن النيلين تقع طوال العصور القديمة فى وطن النيلين (١٥٣) وهو الأمر الذى أثبتته القرائن المادية القاطعة · فقد كشفت الحفائر سنة ١٩٤٥ عن موطن للنيلين فى الطرف الجنوبى لمدينة الخرطوم الحالية ترجع حضارته الى عصر ما قبل الأسرات ، كما ثبت أنه كان ماهولا فى العصر النباتى والمروى (٧٥٠ ق‌م ـ ٣٥٠ م) ـ وقد عثر ايضا على أكثر من اثنى عشر موضعا حول مقرن النيلين لسكنى هؤلاء النيلين (١٥٤) ·

ونجد فى روايات محس توتى أن اجدادهم عندما وصلوا من مواطنهم الشمالية الى منطقة التقاء النيلين وجدوا (الجانقية) فى بر الخرطوم ، وأن هؤلاء منذئذ أخذوا فى الانسحاب الى الجنوب تدريجا · والجانقية كلمة معروفة عند الدينكا ، وهى عندهم اسم عام يشمل كل فصائلهم ، وقد حرفها عرب كردفان ودارفور الى (دينكا) بعد ابدال الجيم بحرف الدال ، وأصبح الدينكا الآن يعرفون بهذا الاسم عند عرب البلاد جميعا ·

فهل يمكن اعتمادا على هذا ، واعتمادا على قرب مواطن النيلين من منطقة الالتقاء حتى وقت متاخر ـ وهو بداية العهد المصرى (١٥٥)، وعلى معرفة النيلين لجزيرة سنار ومنطقة (الخرطوم) ـ كما وضح فى هجماتهم المستمرة التى كانوا يشنونها عليها بغية السلب والنهب ، وعلى قيام قسم من الدينكا اليوم فى جزيرة من الأرض تقع على الضفة الشرقية للنيل الأبيض ـ فيما بين خطى عرض ٩°/٤٠ ، ١٠°/٥٠ ـ وسط محيط من الشلوك وتتصل اتصالا

مباشرا بمنطقة الالتقاء عبر جزيرة سنار ، وعلى ما تقول به روايات الدينكا أنفسهم من أن أجدادهم كانوا يسكنون فى المنطقة (١٥٦) ، وعلى أن لفظة (الخرطوم) تطلق على عدة أماكن فى أوطان الدينكا بمعنى التقاء المجارى المائية (١٥٧) ٠

هل يمكن اعتمادا على هذا كله أن نقرر أن منطقة (الخرطوم) كانت وطنا للدينكا قبل مجيء العرب اليها ، وأن الدينكا هم الذين أعطوها هذا الاسم ، وأن تلك الجزيرة من الدينكا الواقعة على ضفة النيل الأبيض الشرقية تضم الآن نسل الدينكا الذين انسحبوا من منطقة الخرطوم جنوبا عند وصول العرب اليها ؟ ان هذا الرأى يبدو مقبولا ، وخاصة ان اقوال علماء التاريخ والروايات الوطنية وروايات الدينكا أنفسهم كلها تعززه ٠ ولذلك فان تفسير اسم (الخرطوم) على الأساس (الدينكاوى) يبدو محتملا ، وهو الأمر الذى نميل اليه أكثر من تفسير التسمية على أساس التخريج اللغوى ٠

الهـــــوامش

(١) Sabry, M. : L'Empire Egyption sons Mohamed Ali et la question d'orient (1811-849), p. 67.

(٢) Robinson, A.E. : « The Mamelukes in the Sudan », SNR., Vol. V, No. 2, 1922, p. 90.
Deherain, H. : op. cit., p. 32.
Sabry, M. : op. cit., p. 68.

(٣) Shukry, M. F. : The Khedive Ismail and slavery in the Sudan (1863-79), pp. 48 51.

(٤) Driault, E. : La formation de l'Empire de Mohamed Ali de l'Arabic au Soudan (1814-23), p. 19 & 23 & 28.

قام صولت برحلة الى الحبشة فى سنتى ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، وكان هدفه منها السعى لدى ملك الحبشة فى اقامة قاعدة بحرية فى ارض الدناكل لتتمكن من غزو مصر فى حالة عودة فرنسا اليها : وقام صولت برحلة ثانية الى البـلاد سنتى ١٨٠٩ ، ١٨١٠ لمد النفوذ الانجليزى اليها وتحويل تجارتها الى ميناء مخا اليمنى الذى كان لانجلترا فيه وكالة تجارية ٠ وعمل صولت بعد ذلك قنصلا عـاما لبلاده فى مصر بين سنتى ١٨١٥ ، ١٨٢٧ حيث استمر فى العمل على بلوغ تلك الأهداف ، انظر :

Salt, H. : A voyage to Abyssinia, London, 814.

(٥) Driault, E. : op. cit., p. IV & p. 29.

(٦) Deherain, H. : op. cit., p. 14.

(٧) Sabry, A. : op. cit., pp. 44-67

(٨) Driault, E. : op. cit., pp. 44-67.

(٩) Driault, E. : op. cit., pp. 23132.
Deherain, H. : op. cit., p. 33.

(١٠) Ibid., p. 33.

(١١) Ibid., p. 82.

(١٢) Ibid., p. 89.
Cailliaud, F. : op. cit., III, p. 119.

(١٣) Burckhardt, J.L. : op. cit., p. 309.

(١٤) Waddington, G. & Hambury, B. : Journal of a visit to some parts of Ethiipia, p. 54.
Robinson, A.E. : « The Mamloukes in the Sudan, SNRè, pp. 90-94.

(١٥) Burckhardt, J. L. : op. cit., p. 62.

(١٦) الشاطر بوصيلي : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ٠

(١٧) مر فعلا بميناء سواكن احد كشافي المماليك قاصدا مكة سنة ١٨١٢ . وعرف أمر اجتماعه مرات بسعود أمير الوهابيين :
Burckhardt, JI. ; op. cit., p. .452.

(١٨) Hamilton, J. : Sinai, the Hedjaz, and Soudan, p. 370.
وللمماليك معرفة بتلك الجهات ، فقد حاول بعض افرادهم ممن هربوا من مصر بعد دخول الفرنسيين البلاد الاستيلاء على عرش دارفور ولكنهم فشلوا في ذلك :

التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، ص ١١١ ــ ١٤ ٠

(١٩) Sabry, M. : op. cit., p. 67.

(٢٠) Bonela Bey, Dr. F. : l'Egypte et la geopraphie, pp. 811.

(٢١) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 126-27 & pp. 340-41.

(٢٢) رفاعة بك رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، ص ٢٥٥ ٠

سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ٠

(٢٣) Sabry, M. : op. cit., p. 68.

(٢٤) Cailliaud, F. : op. cit., III, p. 271.

(٢٥) Deherain, H. : op. cit., p. 32.

(٢٦) Burckhardt, J.L. : op. cit., pp. 341-42.
p. 327.

(٢٧) دفتر ٧ معية تركى ــ المكاتبة رقم ٢٠٠ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٣٦ ٠ الى ابراهيم باشا ٠

دفتر ۱۰ معية تركى - الكاتبة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع الاول ، سنة ١٢٣٧ ·
الى الدفتردارباك ·

(٢٨) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 324-25 & p. 332 — III,

(٢٩) محمد عبد الرحيم : النداء فى دفع الافتراء ، ص ١٠٠ ·

(٣٠) Chelu, A. : Le Nil, le Soudan, L'Egypte, p. 161.

(٣١) محمد عبد الرحيم : نفثات اليراع ، ج ١ ، ص ١٧ - ١٨ ·

(٣٢) Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien, tome I : L. Penetration (1820-22), pp. 98 ff.
Waddington, G. & Hanbury, B. : op. cit., pp. 97-102.

(٣٣) محمد عبد الرحيم : النداء فى دفع الافتراء ، ص ٩٦ ·

(٣٤) Robinson, A.E. : « Nimr, the last king of Shendi, « SNR... » p. 109.

والشيخ المذكور هو الملك نمر الدين الميرفابى ·

(٣٥) English, G. B. : Narrative of the expedition to Dongola and Sennaar under the command of his Excellence Ismail Pasha, p. 117 & p. 158.

(٣٦) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 398.

(٣٧) محفظة نمرة ١٩ - وثيقة رقم ١٨ فى ١٦ رمضان ١٢٣٦ ·
من اسماعيل الى ولى النعم ·

(٣٨) Ribinson, A.E. : « The conquest of the Sudan by the Wali of Egypt Muhammad Ali Pasha - 1820-24. » Part II : JAS., vol. XXV, No. XCV III, Jan. 1926, p. 164.

(٣٩) يقوم المكان الذى عسكر فيه ابراهيم جنوب سنار القونج بخمسة أميال ، وهو مكان سنار الحالية · اما سنار القونج فهى محل محطة (سنار التقاطع) اليوم ·

(٤٠) دفتر ٧ معية تركى - الوثيقة رقم ٢٩١ فى ٥ ذى الحجة ١٢٣٦ ·

(٤١) Douin, G. : op. cit., pp. 219-25.

(٤٢) دفتر ١٠ معية تركى - الوثيقة رقم ٥٦ فى ٢٣ ربيع الاول ، ١٢٣٧ ·
من محمد على الى ابراهيم ·

(٤٣) Driault, E. : op. cit., p. 231.

(٤٤) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 316.
Pallme, J. : op. cit., p. 16.

(٤٥) وقد سار الدفتردار فعلا فى طريق فتح دارفور ، ومن بين اجراءاته فى تلك الناحية أن أرسل كتابا الى سلطانها يدعوه فيه الى الطاعة ، ولكن السلطان رد عليه بكتاب قوى مشهور ـ طالع الكتاب فى : محمد طلعت : غرائب الزمان فى فتح السودان ، جـ ١ ، ص ٩٠ ـ ٩١ ، ابراهيم فوزى : السـودان بين يدى غردون وكتشنر ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

(٤٦) دفتر معية تركى ، الوثيقة رقم ٣٠٠ بتـاريخ ١٩ ذى الحجة ١٢٣٦ الى ابراهيم باشـا .

(٤٧) Douin, G. : Histooire du regne du Khedive Ismail, tome III, 3e partie, (fascicule B), pp. 351-99.

(٤٨) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 193-94.

(٤٩) محمد عبد الرحيم : النداء فى دفع الافتراء ، ص ١٠١ .

(٥٠) Lorimer, F.C.S. : « The Meghadib of El Damed », SNR., Vol. XIX, No. 2, 1936, p. 339.

(٥١) راجع الفصل الأول) ص ٢٠ .

(٥٢) Bruce, J. : op. cit., pp. 380-84.

(٥٣) من هذه المصايف / العيرة التى تبعد عن سنار بحوالى أربعـة أميال وشانلى الواقعة على بعد اثنى عشر ميلا عن سنار الى الداخل .

(٥٤) Crawford, O.G.S : op. cit., 279.

وقد فسر اسماعيل كتابة بروس بأن هذا قد اخطأ التقدير لقصر اقامته فى المدينـة :

Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 309.

(٥٥) دفتر ٧ معية تركى ـ الوثيقة رقم ١٩ بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٣٦ .

(٥٦) دفتر ٧ معية تركى ـ الوثيقة رقم ١٩٨ بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٣٦ .

نفس الدفتر ـ الوثيقة رقم ٢٠٠ بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٣٦ .

(٥٧) دفتر ١٠ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٢٢ بتاريخ ٢ صفر ١٢٣٧ . من محمد على الى الدفتردار بكردفان .

(٥٨) انظر : احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٥٩) دفتر ٦ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٥٩٩ بتـاريخ ٢٨ شوال ١٢٣٦ . من الجناب العالى الى البك الكتخدا .

(٦٠) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 309 & III, p. 318.
Driault, E. : op. cit., p. 237.

ولقد قاست الادارة المصرية في المنطقة من تلك الامراض أيضا أيام الحكم الثنائي للبلاد · انظر)
Jackson, . H.C. : Sudan days and ways, p. 77.

(٦١) Weygand, le Gen. : Histoire militaire de Muhammed Aly et de ses fils, I, pp. 129-30 & p. 132.

(٦٢) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 317.

(٦٣) يرجع تاريخ نشأة ود مدني الى القرن السابع عشر ، وهي تنسب الى الشيخ محمد مدني الفقيه المشهور الذى مات ودفن بها حوالى سنة ١١٠٠ هـ (١٦٨٩ م) :
Compilation Matters for the Blue Nile Handbook, Vol. 1 : SA., civsec, file X - 362 - B - 13.

(٦٤) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٢ ·

(٦٥) محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ، ص ١٠٤ ·

(٦٩) محمد عبد الرحيم : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ ·

وتقوم المدرسة الوسطى الآن محل القصر ، اما الثكنات فمحل حي المدنيين الحالي ·

(٦٦) دفتر ١٠ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٢٤٧ بتاريخ ٢٩ شوال ١٢٣٧ ·

(٦٧) محمد عبد الرحيم : نفس المصدر ، ص ١٠٤ ·

(٦٨) شبيكة : السودان في قرن (١٨١٩ ـ ١٩١٩) ، ص ٢٣ ·

(٦٩) محمد عبد الرحيم : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ ·

والمعروف أن سبب حرق اسماعيل هو مطالبتـه مك شندى بعدة مطالب باهظة عجز الملك عن تقديمها له · على أن هناك بعض المراجع التى تقول بغير ذلك السبب

انظر : القباني : المصدر السابق ، ص ١٤٠ ·

الشاطر بوصيلي : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ـ ٢٥ ·

Artin, Q. Pasha : England in the Sudan, pp. 23-24.

ولا تذكر الوثائق الرسمية شيئا عن الحادث واسبابه · وأول ذكر له كان في خطاب محمد على الى الدفتردار ينقل اليه فيه امتنانه لتدابيره الحاسمة للانتقام من قتله ولده ·

(٧٠) انظر حملة الدفتردار الانتقامية الأولى ، وحملته الثانية ضد عمه المساعد فيما يأتي على الترتيب :

دفتر ١٠ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٥١٢ بتـاريخ ٨ جمـادى الاخرة ، ١٢٢٨ · دفتر ١٤ معية تركي ـ الوثيقة رقم ١٩٤ ، بتـاريخ ١١ محرم ١٢٢٩ · دفتر ١٤ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٢٥٥ بتاريخ ٤ ربيع أول ١٢٢٩ ·

وهذه المكاتبات الثلاث من محمد علي الى الدفتردار بكردفان ·

(٧١) Jomard, F. : « Etudes Geographiques et historiques sur L'Arabie, dans : Mengin, F. : Histoire sommaire de l'Egypte sous le gouvernment de Mohammed Aly, p. 459, Werne, F. : Expedition to discover the sources of the white Nile, I, p. 55.

Abbate, Dr. O. Pasha : « Khartoum Omdourman et la chute du Mahdisme », in : Aegyptiace, p. 288.

Tremaux, P. : Le Soudan, p. 21 & 210.

(٧٢) Muska, Prince P. : Travels and adventures in Egypt with anecodetes if Mehemet Ali, II, p. 293.

Junker, Dr. W. : Travels in Africa (1875-78), p. 173.

Low, S. : Egypt in transition, p. 18.

Abbate, Dr. O. Jasha : « Khartoum Revue apres cinquante ans, 1856-1906 », in : Aegyptiaca, p. 387.

(٧٣) Weygand, le Gen. : op. cit., p. 128.

(٧٤) Taylor, B. : 8 journey to central Africa, p. 275.

(٧٥) Boulgar, D.C. : The life of Gordon, I, p. 141

(٧٦) Petherick, J., Egypt, the Soudan and Central Africa, p. 121.

(٧٧) Budge, E.A. : Cook's handboik for Egypt and the Egyptian Sudan, p. 785.

(٧٨) Leijean, G. : Voyage aux deux Nils, p. 31

(٧٩) Grant, J.A : A Walk across Africa, p. 401.

(٨٠) احمد كاتب الشونة ، المصدر السابق ، ص ٢٩ ·

(٨١) دفتر ١٦ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٤٢٧ بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر ١٢٤٠ ·

(٨٢) Robinson, A.E. : « The conquest if the Sudan ... », JAS. : Part II ..., p. 179.

(٨٣) Taylor, B. : op. cit., p. 276.

(٨٤) المسافة بين الخرطوم والبحر المتوسط ٣٠٨٠ كم وبينها وبين منابع النيل الاستوائية ٣٥٠٠ كم ·

(٨٥) Von Callo's, E. F. : « Reise Durch Kush und Habesch » in Zurnerr.Ichkeit des Sudans by Iao Frobenius, & F. Bleber, pp. 149-50.

(٨٦) Langley, M. : No woman's Country, Travels in the Anglo Egypt. S., p. 20).
Fr. Dal Bosco's letter (1858).

(٨٧) Peel, W. : A ride through the nubian de art, pp. 66-67.
Hurst, H. E. : A short account of the Nile and its Basin, pp. 2-4.

(٨٨) Hurst, H.E. & Phillips P. : The Nile Basin, I, I, pp. 11
Hoskins, G.A. : Travels in Ethiopia above the second cataract of the Nile, p. 119.
Me''y, A. : Lettres d'Egypte et de Nubie, p. 128.
De Cosson E.A. : The cradle of the Blue Nile, II, p. 226.
Baker, Sir S.W. : The Albert Nyanza : Great Basin of the Nile, p. 30.

(٨٩) Johns'on, K. : Stanford's conpendium of geigraphy and trave's, Africa, pp. 224-25.
Fr. Martini, G. : To Gadaref, Gallabat and Fazugli in 1876.
Pront, H. G. : General report of the province of Kordofan, p. 62.
Stanton, E.M.E. : « The Peoples of the Anglo-Egyptian Sudan », JAS. : Vol. of 1902-3. No. VI, Jan. 1903. pp. 121-31.
Gleichen, Count : The Anglo-Egyptiin Sudan, I, p. 117.

(٩٠) Pensa, H. : L'Egypte et le Soudan Egyptien, p. 231.
Fr. Luigi Mintouri's letter (1843).

(٩١) Boulgar, D.C. op. cit., I, p. 141.

(٩٢) ثمة دليل على ان الحس ليسوا ناس سياسة وادارة انه لم يقم من بينهم طوال الحكم المصرى ناظر الخرطوم مع عظم عددهم فى القسم :
Sarsfield Hall & Wallis, E. : Handbook of Khartoum province.

بل اكثر من ذلك ان الحس فى مواطنهم فى دنقلة كان قبيل الفتح المصرى من الجوامعة وليس من الحس :
Burckhardt, J.L. op. cit., p. 64.

(٩٣) تقرر الروايات الوطنية ان من بين هذه الخيران واحد كان يمتد من الازرق بين السراى ووزارة المالية الحالية ، واخر بين متحف الاثار ومستشفى =

ـ النهر وثالث غرب المدينة مباشرة في منطقة حديقة الأوقاف • وقد ضاعت معالم هذه الخيران الآن بسبب رفع سطح المدينة :

عن روايات لابراهيم صديق ناشر طبقات ود ضيف الله ومن أهالي حلة خوجلي وعبد العزيز بن الزبير باشا رحمت ومن أهالي خرطوم بحري ، وغيرهم .

(عدة زيارات في سنة ١٩٥٨) •

(٩٤) Maclean W. H. : « The Planning of Khartoum and Omdurman », in : The Royal Institute of British Architects, Town Planning Conference, London 10 - 15 Oct. 1910, p. 576.

(٩٥) Fothergill, E. : Five Fears in the Sudan, p. 42.

لم تكن « قمة » راس الخرطوم قديما على ما هي عليه الآن ، فقد أصابتها العمليات الهندسية التي انتهت باقامة كوبرى الابيض سنة ١٩٢٩ بتغيرات كبيرة ، فأصبح لها الآن شكل مربع لا مدبب •

(٩٦) Stanton, A.E. : The Sudan : Memorandum on the re-occupation.

ويقول ستانتن مدير الخرطوم (في سنة ١٩٠٨) أن سواقي العهد المصري كانت ترى داخل النهر وبعيدة عن ضفته الجنوبية بحوالي خمسين الى ستين قدما ، وان شوارع الخرطوم الحالية المجاورة للضفة قد رفعت ثلاثة أقدام على الأقل منذ اعادة بناء المدينة بعد سنة ١٩٠٠ •

(٩٧) Maclean, W.H. : op. cit., p. 576.

Maclean, W.H. : op. cit., p. 576.

Schweinfurth, Dr. G. : The heart of Africa, II, p. 481.

Fr. Dal Bosco's letter (1858).

(٩٨) Shomaker, M.M. : Islam Lands, p. 350.

(٩٩) Fr. Dal Bosco's letter (1858).

(١٠٠) Dodwell, H. : The founder if modern Egypt, p. 53.

(١٠١) Chabat, G. : Les Villes, p. 101.

(١٠٢) Rollet, B. : Le Nil et le Soudan, p. 103.

(١٠٣) من اهم تلك الخرائط : خرائط الهولنديين والالمان التي رسمت اعتمادا على نتائج كشوف البرتغاليين في شرق افريقيا ورحلات رجال الجزويت منهم الى الحبشة والمناطق المحيطة بها (ا) ، وخريطة دانفل الفرنسي Danvilles التي نشرت لاول مرة سنة ١٧٢٩ وكانت احدث طبعة لها سنة ١٧٧٢ (ب) ، وخريطة رحلة براون كما جاءت في كتاب رحلته في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر (ج ، وخريطة وليمز الانجليزى لافريقيا سنة ١٨٠٠ (د) ، وخريطة بوركهارت لرحلته في السودان في اوائل القرن التاسع عشر (هـ) :

(D'Anvilles) mfrhmfh mfh drs dré mfh bgkbgkbgkhgbg

A) Leyden, J. : op. cit., II, between, pp. 370-71.,
Johnston, Sir, H. : The Nile quest, faces p. 59 & 69.

B) Ibid : faces p. 71 and between, pp. 70-72.
Walkley, C.E.J. : « The story of Khartoum ». SNR., Vol. XVIII, No. 2, 1935, p. 227.

C) Browne, W. G. : op. cit., faces, p. 80.
Leyden, J. : op. cit., I, at the beginning of the book. Jonstin, Sir H. : op. cit., faces, p. 90.
Burchardt, J. L. : op. cit., faces, p. 163.

(١٠٤) Caillaud, F. : op. cit., II, p. 202.

(١٠٥) كان الاهالي يسمون الغارة التي يقوم بها النيليون (المكلبتة) ، وربما ادت قوة الشلوك وهجماته التي روعت سكان منطقة الالتقاء حتى ايام زيارة بروس للبلاد الى ان يشكل عليه — عند حديثه عن اصل الفونج — فيتصور ان هؤلاء الاقوياء العتاه هم مؤسسو دولة الفونج ، وان ذلك قد تم لهم بعد هزيمة العبد اللاب سنة ١٥٠٤ :

Bruce, J. : op. cit., pp. 370-71.

(١٠٦) انظر ص ٥٩ — ٦٠ .

(١٠٧) Addison F. : « Antiquities found near Gordon's Tree », SNR. Vol. XIV, No. 2, 1931, p. 147.

(١٠٨) Addison, F. : « A christian site near Khartoum », SNR. Vol. XIII, No. 2, 1930, pp. 285-87.
J.W.C. : « Travels if Worne ».

(١٠٩) SNR., Vol. II, No. 1, 1919, p. 70.,
Von Callois, E.F. : op. cit., p. 149.

(١١٠) راجع الفصل الاول ، ص ١٢ _ ١٣ .

(١١١) الدكتور محمد عوض محمد : السودان الشمالي ، ص ١٦٤ .

(١١٢) Reid, J. A. . « Some notes on the tribes of the white Nile. SNR., Vol. XIII, No. 2, 1930, p. 150.

وجبل اولى معروف عند الوطنيين بجبل اوليـا وعندنا بجبل الاولياء ، وهو يقع جنوب الخرطوم بحوالى ثمانية واربعين كيلومترا .

(١١٣) Macmichael, H. A. : A history of the Arabs, I. pp. 240 f. & II, p. 237.

وتبعد رفاعة عن الخرطوم عن طريق الضفة الشرقية للأزرق خمسة وتسعين ميلا .

(١١٤) MacMichael, H. A. : op. cit., I, p. 240.

(١١٥) MacMichael, H.A. : op. cit., II, p. 387.

ويقع حجر العسل شمال شلال سبلوكة وحجر البصل جنوب القطينة على النيل الابيض .

(١١٦) كانت تلك الحلة طوال تاريخها تقوم فى منطقة فرقة المهندسين العسكرية الحالية فى مواجهة كوبرى النيل الابيض فى بر ام درمان . وفى سنة ١٩٠٠ انتقلت جنوبا الى مكانها الحالى محل ديم قديم يعرف بديم عبد القادر ود ام مريوم .

(١١٧) حلة المقرن اقدم اثر عمرانى عربى فى منطقة الالتقاء . وهذا ما جعل جمهورا من السودانيين المثقفين يقرر ان الروساب _ وهو فرع من العواردة _ هم الملاك الأوائل للضفة الجنوبية للنيل الأزرق حيث قامت مدينة الخرطوم .

(١١٨) Burckhardt, J.L. : op. cit, p. 92.

(١١٩) Handbook of Kkartium Province.

(١٢٠) A history if the Arabs in the Sudan, I, p. 341.

Jackson, H.C. : « The Mahass of Eilafun », SNR., Vol. II, No 4, 1919, p. 287. (١٢١)

Ibid : p. 285. (١٢٢)

(١٢٣) يتفق هذا التقدير – الى حد ما – مع ما يقرره ثقات الرواة من أن وصول المحس الى المنطقة كان سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م – ١٣٩٨ م))

عن روايات الشيخ ابراهيم صديق وعبد الرحمن جميل الله واحمد الاحمر (الزيارة سنة ١٩٥٨) .

Crofoot, J. W. : « A local Nile gauge» SNR., Vol. I, No. 4, 1918, pp. 295-96. (١٢٤)

Jackson, H.C. : « The Mahass of Eilafun », SNR., p. 283. (١٢٥)

وكان اقطاع الملوك الاراضى للمحس تسجله عادة ترويها الروايات الوطنية : وهي أن يمتطى احد المحس حصانا ثم يلكزه ويجرى به شوطا واحدا حتى يقف الحصان من نفسه . والمسافة التي رمحها تحدد مساحة ما يقطع من الأرض للمحس .

ويقولون (ان فلانا دفر حصانه فجرى حتى وقف عند كذا) .

Gleichen Count : Handbook if the Sudan, p. 2 (١٢٦)

(١٢٧) تعرف هذه المنطقة حتى اليوم بهذا الاسم ، وهى تنسب الى السويقة (تصغير سانية) ، وتقوم جنوب الخرطوم بحرى بقليل مجاورة لمزرعة عزيز كافورى .

(١٢٨) لا يزال المعمرون فى الجزيرة يذكرون اراضى الفتيحاب بها وحدود هذه الاراضى واصحابها الذين منهم : الملك المهوسك وقصة والعسيلى واولاد فتلوب . ومن آثار امتلاك الفتيحاب لضفة الازرق الجنوبية قبل المحس انه مازالت لهم حتى اليوم فى الجريف غرب جنوب الخرطوم ارض تعرف (بسواقى القراجيج) ، والقراجيج فرع من الفتيحاب .

(١٢٩) كان الفتيحاب وغيرهم من فروع الجموعية يعتمدون فى كل ما يتصل بكتاباتهم ورسائلهم على محس توتى . وقد حاول احد المحس تعليم احد الفتيحاب القراءة والكتابة ، فرفض الفتيحابى وقال « انى انما اعرف فقط :

ازرب الكر على امات حبر واعرف ليلة يحلبونى البكر

أى أنه لا يعرف الا عمل الزريبة (من الشوك) حول الخيل ، وتقديم اللبن الى الزوجين ليلة الزفاف : عن رواية لعبد الرحمن جميل الله من حلة خوجلى .

(١٣٠) MacMicnael, H. A. : A hisiory of the Arabs ..., 1, p. 341.

وتبعد الكاملين عن الخرطوم واحدا وستين ميلا .

(١٣١) Jackson, H.C. : « The Mahass of Eilafun », SNR., p. 285.

(١٣٢) محمد ضيف الله : الطبقات ، ص ٢١ .

(١٣٣) Walkley, C.E.J. : « The story of Khartoub », SNR. : Part II : Vol. XVIII, 1935, p. 225.

(١٣٤) روى لى هذه الرواية الأستاذ عبد الله عبد الرحمن من أم درمان بعد أن أمهلنى فترة من الزمن حتى يناقش المعمرين والمثقفين فى توتى فى اسباب رحلة ارباب الى الخرطوم . والأستاذ هو مؤلف (العربية فى السودان ـ الخرطوم ١٩٢٢) ، ومن عائلة علم ، وهو حفيد الفكى الضرير قاضى القضاة فى العهد المصرى .

ولا يميل الكثير من الثقات الى هذه الرواية . ويرى الأستاذ ابراهيم عبد الرازق أن المنافسة بين الفريقاب والعوناب كانت قائمة فى جزيرة توتى ، وأنها كانت مستمرة طوال العهد المصرى لدرجة أنه كان من المتعارف عليه طوال ذلك العهد أن :

« توتى زريبة خشم بابا الفريقاب » .

أى أن القوة والمنعة فى الجزيرة انما للفريقاب وحدهم .

(١٣٥) عبد الرحمن هذا والد الشيخ خوجلى الذى تنسب اليه حلة خوجلى : انظر الطبقات : ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(١٣٦) Walkley, C.E.J. : « The story of Khartoum », SNR ..., 1935, p. 225.

(١٣٧) محمد ضيف الله : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

عبد المحمود نور الدايم : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ ـ ٤١ .

(١٣٨) انظر : Rollet, B. : op. cit., p. 103.

(١٣٩) ينصب المريوماب الى الشيخ يعقوب بن الشيخ مجلي الذى يرجع بنسبه الى الخليفة ابى بكر الصديق ، وقد جاء الى السودان من مدينـــة اســـنا بمصر فى بداية عهد الفونج ويعرف نسله فى البلاد بالزنارخة او المشايخة :

(١٤٠) تقوم فى هذا المكان الآن مقبرة بر ابو ليتول حفيد الشيخ حمد الذى قام على تعمير خلاوى جده فى تلك الجهة بعد وفاته ٠

(١٤١) لم تقم حلة حول قبة حمد الا بعد سنة ١٨٩٩ ٠ وكانت أول أمرها صغيرة تمتد من حديقة البلدية بالخرطوم بحرى حتى كلية كمبونى بجوار النيل ٠ ولم تتسع الحلة الا بعد سنة ١٩٢٤ ٠

(١٤٢) عبد القادر هذا هو حفيد الشيخ حمد ، وقد هجر وأهله الديم الى قرية الكلاكلة والى جزيرة توتي وقبة حمد ٠ وحوالى ١٩٠٠ انتقلت حلة الفتيحاب محل الديم ٠

(١٤٣) اللقد هى الاراضى التى تزرع على المطر ولا تشرب من مياه النيل لبعدها عنه ٠

(١٤٤) انظر ترجمة خوجلى عبـد الرحمن ابو الجـازفى : الطبقـات ، ص ٧٤ ـ ٨ ٠

هذا ويطلق المواطنون على حلة حمد اسم الحلة ، وعلى حلة خوجلى اسم حلة قبة خوجلى أو قبة خوجلى او القبة او حلة القبة ٠ وملازمة لفظ (القبة) لحلة خوجلى ترجع الى أن الشيخ خوجلى انتقل من توتي الى مكان الحلة جنازة (اى ميتا) ٠ وقد اينعت هذه الحلة طوال العهد المصرى ٠

(١٤٥) محمد ضيف الله : المصدر السابق ، ص ٦٩ (الهامش) ٠
عثمان حمد الله : سهم العروبة ، ص ١٤٧ ٠

(١٤٦) مكان حلة المقرن محل حديقة الحيوان اليوم (فى اقصى الطرف الغربى للخرطوم الحالية) ٠ وعند قيام مدينة الخرطوم انتقلت الحلة الى الغرب فى المنطقة الواقعة اليوم محل سكة حديد (الاسكلة) ٠ وفى الاربعينات من القرن العشرين انتقلت الحلة قليلا الى الجنوب الغربى :

من زيارات للشيخين احمد البدرى من القوز ويوسف النور من ام درمان سنة ١٩٥٨ ٠ اما محل ارباب فموضعه الآن محل مبانى شركة النور خلف حديقة الحيوان ٠

(١٤٧) يقوم (محل امام) حيث تقوم مقبرته الآن غرب شارع القصر الجمهورى عند التقائه بشارع عباس · وقبل سنة ١٩٠٠ كانت المقبرة شرق محلها الحالى مباشرة ·

(١٤٨) كانت (برى المحس) قبل مجيء الحملة المصرية محل جامعة الخرطوم فى خرطوم اليوم · وبعد قيام مدينة الخرطوم انتقلت الى الشرق محل مبانى وزارة المعارف الآن · وحوالى سنة ١٩٠٠ انتقلت الى الجنوب الشرقى حيث مكانها الحالى فى شرق الخرطوم ·

(١٤٩) Houghlin, M. TH. V. : Reise in des Gebeit des Weissen Nil und Seiner, Westlichen Zufflisse in den Jihren, 1862-1864, p. 2.

(١٥٠) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 201.

ويعرف اكثر من مكان يلتقى عنده مجريان مائيان او اكثر (بمقرن البحور) او (المقرن) ·

Werne, F. : African Wanderingal, pp. 28-29.
Gleichen, Count : Handbook of the Sudan, p. 4.

(١٥١) مثال ذلك ان المواطنين ينسبون مدينة سنار الى امرأة عرفت (بسن النار) ، ومدينة العيلفون الى سكانها من (عيلة الفونج) ، وكررك الى (كر المدعو كورج) والكر هو الزريبة ، وكترانج الى (قطر العنج) · ومثال ذلك ايضا ما قاله ج · جرانت عن نسبة اسم الخرطوم الى حبوب القرطم الذى كان يزرع بكثرة فى البلاد فى ايامه ·

op. cit., p. 401.

(١٥٢) سمعت هذا الرأى من بعض المثقفين فى البلاد ، منهم : نصر الحاج على مدير وزارة المعارف ، وابراهيم عبد الرازق الموظف بالوزارة ، ومحمد بر من سكان جزيرة توتى والمدرس بمركز التونج فى بحر الغزال (فى وطن الغيلكا) ·

(١٥٣) سليم حسن : المصدر السابق ، ص ٨٠ ·

(١٥٤) Arkell, 8. J. : Early Khartoum, p. 7 & p. 8.
Arkell, A. J. : A history of the Sudan ..., pp. 24-28. ,

وانظر ايضا :

اركل (ا· ج) : مقترحات لبعض طرق البحث العلمى فى السودان (مترجم) · ص ٧ – ٨ ·

الدكتور احمد فخرى : مؤلف اركل عن الخرطوم ـ المجلة التاريخية المصرية ..
عدد مايو ١٩٤٩ ، ص ٢٠٧ ـ ١٥ ، ص ٢ ٠

مرجريت شنى : المصدر السابق ، ص ٢ ٠

ويقع موطن الفيلين فى خرطوم اليوم شمال شرق محطة السكة الحديد ، ومحل المستشفى الجديد فى مواجهة كوبرى المسلمية ٠

(١٥٥) كان الشلوك حتى اول الفتح المصرى للبلاد يقيمون عند الليس (كاوة) التى لا تبعد عن الخرطوم باكثر من مائة وثلاثين ميلا :

Brown, R. : The story of Africa and its explores, II, p. 31.

وقد عرف العرب الشلوك ايام الفونج جيدا فى الليس ، التى كانت تقوم بها احدى مشيخات الفونج الهامة :

Bruce, J. : op. cit., p. 390.

(١٥٦) وروايات الدينكا هذه ليست وقفا على الكبار منهم ، فقد قال بها تلاميذ مدرسة التونج لاستاذهم (محمد بر) وهم فى مجل التعارف عند أول عمله بالمدرسة وعند معرفتهم أنه من (تونج) ٠

(١٥٧) Schweinfurth, Dr. G. : The Heart of Africa, I, p. 178.

الفصــــل الثــالث

الخرطوم عاصمة الســودان

طبوغرافية مدينة الخرطوم

الخرطوم قبل عهد خورشـــيد بك ـ خورشيد بك يؤسس الخرطوم ، ونمو المدينة فى عهـده ـ طبوغرافية المدينة بعـد عهد خورشـــيد .

دور الادارة المصرية فى عمارة الخرطوم ـ اثر انخفاض سطح المدينة فى طبوغرافيتها ، وارتباطه بالتفكير فى نقل العاصمة الى جزيرة توتى ـ مجهودات الحكمدارين جعفر مظهر واسماعيل ايوب فى تحسين عمارة المدينة .

تقسيم مدينة الخرطوم من حيث التركيب الوظيفى :
المبانى الحكومية والثكنات ودار الصناعة ـ اماكن العبادة ـ المدافن ـ الاسواق ـ الحدائق ـ مناطق الصناعة .

عندما وصل عثمان بك فى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٨٢٤ الى موضع الخرطوم لم يكن به من آثار الحكومة الجديدة الا المعسكر وسوق القش . ولقد أدى قصر عهده كحاكم لسنار ، والذى انتهى فى مايو سنة ١٨٢٥ بوفاته ـ الى جانب انه كان استمرارا لفترة حكم الدفتردار بك من حيث العمل على تثبيت سلطان الادارة الجديدة بما صاحب ذلك من العنف ـ الى خلو ذلك العهد من وسائل الاصلاح .
كما كان من نتائج تحطيم الدفتردار لجامع أرباب العقائد وقتل عثمان بك للفكى أرباب ود كامل خليفة الجامع (١) أن توقف سيل المريدين الذى كان ينصب على جامع وخلوة أرباب العقائد وقضى على سكنى هؤلاء الى جانب الجامع ، وهى التى كانت قد أعطت محل أرباب وحلة المقرن الشكل العمرانى الذى كانا عليه قبل الفتح المصرى .

ومع ذلك فان فترة حكم عثمان بك كانت بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد من خصائصه العمرانية قيام مدينة الخرطوم نتيجة لتوجيه الادارة بدلا من تاثير الجامع والخلوة ، فقد نقل عثمان بك أقلام الحكومة والمخازن من ود مدنى اليها وأقام بها بعض المنازل للموظفين . وأكثر من ذلك ، كسبت المدينة فى عهده بعض الأهمية التجارية بين مدن السودان (٢) .

وبعد وفاة عثمان بك بالخرطوم خلفه فى ادارة اقليم سنار محو بك (مايو ١٨٢٥ ـ يناير ١٨٢٦) ، وكان حاكما (لرباطاب ، وبربره ، وشندى) . « فحضر بجميع العساكر وأقام بالخرطوم

والعساكر بالقبة » (٣) ومن مآثره منعه الجند من التعدى على الأهالى ، ومع ذلك فلم تسلم حلة قبة خوجلى من تعديهم ٠

ومع قصر عهد محوبك الذى لم يتجاوز الشهور الثمانية فقد أقام بناء من اللبن خصصه لأقلام الحكومة ولسكنه فى نفس الوقت ٠ واذا كانت يد التغيير قد أصابت هذا البناء طوال الحكم المصرى فان وجه الأهمية التي ظلت له أن سراى حاكم البلاد طوال هذا الحكم ـ وحتى الآن ـ قد قامت محل هذا البناء ٠ وحتى آخر عهد محوبك ، لم تكن الخرطوم قد ظهرت بمظهر المدن بسكانها الستمائة ـ علاوة علي الجند (٤) ٠ وتوفي محوبك بالخرطوم ، ودفن في منطقة (شجرة محوبك) (٥) ٠

ويرجع الفضل الى خورشيد بك فى تأسيس مدينة الخرطوم ٠ وان في طول مدة حكمه (يناير ١٨٢٦ ـ ابريل ١٨٣٨) وهمته ونشاطه ما أخرج (الخرطوم) الى حيز الوجود ، بل ان هذا الأمر لم يستغرق ـ في الواقع ـ الا السنوات الثمان الأخيرة من تلك المدة ، اذ كان علي خورشيد قبل أن يشمر ساعده لتأسيس العاصمة أن يمسح عن سكان البلاد ما خلفه فيهم حكم الدفتردار وعثمان بك من آثار عنيفة ، حتى يرجعوا الى أوطانهم بعد أن هرب الكثير منهم الى حدود الحبشة ٠ وقد أمضى خورشيد السنوات الأربع الأولى من حكمه في العمل لبلوغ هذا الأمر ، وفرق الخطابات الى سائر الجهات بالأمان ، فرجع كثير من الأهالى الى أوطانهم ، وكان من وسائل خورشيد فى ذلك سماحه لكبارهم عن الضرائب المفروضة على أراضيهم الزراعية ، « فكان اذا سمح مثلا لواحد من الفقهاء والرءوس عن عشر جدعات يسمى المسموح له فى تطمين الأهالى ورجوعهم الى أوطانهم فتؤخذ منهم مائة جدعة أو مائتان أو ازيد » (٦) ٠

ولم يكن بالخرطوم قبل أن يمد اليها خورشيد عصاه السحرية أكثر من ثلاثين منزلا من اللبن الى جوار باقى المساكن التى كانت من القش ، وثكنة تضم ثمانمائة جنــدى وســوقا وسراى للحكومة ، ولم يكن بها شجرة واحدة تظلها · والسراى من انشاء محو بك ، وقد وصفت فى ذلك الوقت بأنها « منزل مربع من الطين » (٧) ·

وقد بدىء فى بناء الخرطوم عندما شرع خورشيد فى اقامة الجامع أواخر سنة ١٨٢٩ ، ومنذئذ « شرع أهل البلد فى العمارة وحضرة خورشيد أغا يمدهم بالألواح والأخشاب ترغيبا لهم فيها ، وأمر بازالة بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (٨) · وبعد مضى سنة ونصف سنة كانت المدينة لا تعدو أن تكون ـ على حد وصف فون كالوت ـ مجموعة من الأكواخ (٩) · وقد أسهم خلو السهل الذى تقوم عليه من مواد البناء فيما أصاب عمارتها من جمود فى تلك الفترة ، الأمر الذى دفع خورشيد الى اصدار أوامره الى الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة فى حلة كوكو بحفر الآجر من بقايا مدينة سوبا القديمة ونقله على المراكب الى الخرطوم ، فاستدعى هذا أهله أحرارا وعبيدا وقاموا بالمهمة المطلوبة ومن ثم قامت المبانى فى الخرطوم بأسرع ما يكون (١٠) ·

وقد استعان خورشيد بطوب سوبا فى اقامة مبنى المديرية الواقع غرب السراى مباشرة ، وكذلك الجامع · ولم تلبث أن قامت مبانى الحكومة حــول السراى من جميع الجهات فيما عدا الجهة الشمالية حيث يجرى النيل ، وقد أضفى ذلك على تلك المنطقة تدريجا اسم (حى المبانى الحكومية) · وعند الطرف الغربى من ذلك الحى قامت منازل موظفى الادارة وعرفت تلك المنطقة بعد عهد خورشيد (بمحل موسى بك) (١١) والى الغرب من (المحل) كان العمل جاريا فى بناء الجامع ، وحوله قام السوق ، وهذا هو (سوق الدكاكين) كما يسميه الأهالى ، وذلك للتفريق بينه وبين (سوق

الشمس) الواقع جنوب الشكنة القديمة والخالى من المبانى والذى يجرى البيع فيه تحت (الرواكيب) القائمة من اغصان الأشجار المغطاة بحصير أوراق نخيل الدوم أو البلح ، ولم يكن بالخرطوم فى أول عهد خورشيد سوق غيره • برواكيبه التى لا تعدو العشرين » (١٢) • وفى ظل تلك الرواكيب اينعت المعاملات التجارية فكان الجند يبادلون مصنوعات مصر بما يأخذون من السكان من الطعام والمصنوعات المحلية (١٣) •

وهكذا ظهرت المنطقة الممتدة من حى المبانى الحكومية شرقا الى السوق غربا بمثابة القلب للمدينة ، وهى المنطقة التى بدأ فيها العمران بالخرطوم وقامت فيها اقدم أحيائها وعرفت فى أواخر الحكم المصرى (بقسم الجامع او الخرطوم) (١٤) • وأقدم حى فيها هو (محل موسى بك) ، ولذلك يسميه ليجان (الخرطوم القديم) او (خرطوم سنة ١٨٣٠) (١٥) •

وقد امتدت مبانى السكان فى حركة مزدوجة : أولاهما من الحلقة الخارجية للقلب نحو الخارج ، والثانية من أطراف المدينة نحو الداخل • وقد مر وقت قبل أن تلتقى كتل المبانى وهى فى حركتى تقدمها ، فتكون بذلك ما عرف (بالفرق) (١٦) التى كانت متباعدة فى أول الأمر وتفصلها مساحات من الأرض الفضاء ، ولكنها تلاقت فى أكثر من موضع مع الحلقة الخارجية للقلب فى آخر عهد خورشيد •

ومما تجب ملاحظته ان هذه الحركة المزدوجة لم تكن متساوية فى جميع الجهات لطبيعة السهل الذى قامت عليه المدينة ، فقد كان الامتداد من القلب الى ناحية الجنوب يحدده منخفض كبير يمتد من ضفة النيل الأبيض فى الغرب نحو المدينة وتنساب فيه مياه النيل الأبيض فى الفيضانات العالية ، وكان يعرف (بالمواطى) ـ وهى عند الأهالى الجهات المنخفضة عموما •

وامتداد القلب لم يتم دفعة واحدة ، فقد امتد أول الأمر جنوب أراضي سواقي المحس في محل موسى بك بالقدر الذي يتمشى مع احتياجات الادارة الحكومية وموظفيها من مكاتب ومساكن ، وكذلك حول الجامع والسوق • ثم حل الامتداد الثاني بعد ذلك عندما قامت بطانة للحكم الجديد من كافة الأجناس والالوان ببناء منازل لها جنوب منطقة مبـــاني الادارة ، فامتدت بالقلب جنـــوبا حتى اطل على منطقة المواطي (١٧) •

وقد سمحت طبيعة السهل الذي قامت عليه المدينة بامتداد المباني من القلب ناحية الشرق • فالى الشرق من السراى وعلى ضفة الأزرق أقام خورشيد المستشفى العسكري والى شرقه ــ بعيدا عن الضفة بقليل ــ بنى تكنة جديدة وبذلك أصبح الجند يقومون حول السراى من الغرب والشرق • ففي الجنوب الغربي منها نجد التكنة القديمة ، وكان لخورشيد فضل اعادة بنائها واستبدال (التكل) بمنازل اللبن بعد ثبوت عدم جدواها أمام النيران (١٨) ، وهي مستطيلة الشكل تقريبا ، وتبعد عن النيل الأزرق بحوالى خمسمائة متر ، ويمتد بينهما طريق يخترق أراضي سواقي المحس التي تمتد بين الضفة والداخل لمسافة قدرها مائتا متر • وفي الطرف الشرقي للمدينة تقوم التكنة الجديدة على بعد حوالى خمسمائة متر من السراى والى شماليها الشرقي مخزن الذخيرة ، وقد اقامه خورشيد أول الأمر في (الشونة) الواقعة جنوبي غرب السراى مباشرة ، ولما كان قد انفجر في أواخر أيامه واصاب الكثير من الجند والأهالي بالضرر فقد نقله الى خارج المدينة ، ويقرر ليجان (١٩) أن حفرة كبيرة كانت لا تزال ظاهرة في الأرض في مكان المخزن الأول حتى وقت زيارته للخرطوم سنة ١٨٦٠ •

وقد توالى اتساع التكنات في الشرق على يد خورشيد بعد أن نقل اليها نقاط الحراسة التي كانت تكتنف حي المباني الحكومية

وبعد ازدياد عدد الجند في البـــلاد في آخر عهده (٢٠) ، وانه ما منعها ـ في الواقع ـ من التقدم شرقا أكثر مما امتدت اليه هو وجود حلة برى المحس الى جوارها من تلك الناحية • وقد عرف الحي (بالعرض) أو حي المعسكرات •

وبينما كان الامتداد من القلب نحو الشرق مجهودا حكوميا كانت حركة التعمير على يد السكان قائمة حول القلب من ناحية الجنوب والغرب • ففي الجنوب الشرقي امتدت المباني حتى منطقة المواطي ، ومعظم سكانها من الدناقلة الذين يعملون بالتجارة التي كانت تتسع كلما تقدم الزمن بالحكم المصري ، وعرفت تلك الجهة (بحلة المراكبية) نسبة الى المهنة التي اشتهروا بها ـ وهي مهنة قيادة الســـفن • وجنوب منطقة المواطي كانت حركة البناء قائمة في اتجاه الحلقة الخارجية للقلب ، ونحو الجنوب في نفس الوقت • وعرفت تلك الجهة (بسلامة الباشا) اعترافا بما أسداه الباشا لسكانها من تسـهيلات في وسائل التعمير ، وهم من غير المقيمين أصـلا حول الخرطـــوم وخاليي الوفاض من امكانات البنـــاء ، وهو نفس حال الكثيرين ممن هجروا أوطانهم وفقدوا ثرواتهم أثناء فترة الفتح •

وقد ساعد السهل جنوب منطقة المواطي على امتداد (سلامة الباشا) الى اقصى درجة ممكنة • وهذا ما أصاب أيضا حلة المراكبية، فقد امتدت من مكانها حتى التقت بحي العرضى في الشرق ، ولم يلبث الاثنان ـ بعد الالتقاء ـ أن ضربا معا الى الجنوب لمسافة كبيرة في آخر عهد خورشيد مهتدين في ذلك بتفادى الطرف الشرقي لمنطقة المواطي وتوخي تقصير المسافة ـ الى اقصى درجة ممكنة ـ بينهما وبين قلب المدينة •

وكان يقف دون سكنى المنطقة الواقعة غرب القلب تعرضها لفيضانات النيل الأبيض ذى الضفة المنخفضة • ومن أجل ذلك أقام

خورشـيد سـدا ترابيا في تلك الجهة حتى يمنع انسياب المياه الى المدينة ويوفر الاقامة للجماعات المتفرقة التى كانت تعمل بالزراعة على السواقى فى (المعالى) ـ أى الجهات العالية ـ فيما بين النيل الأبيض والحافة الغربية للمدينة • ولما كان المواطنون يعرفون السد (بالترس) فقد سميت تلك الجهة (بفريق الترس) حيث كانت الاقامة على طول حافته الداخلية المواجهة للمدينة •

وسكان (الفريق) من الجعليين وبخاصة الفتيحاب • وكان على الادارة أن تسهل اسكانهم بعد أن ظلوا زمنا موضع تعديها أيام الفتح وأثناء رحلة الدفتردار الانتقامية ، وخاصة بعد أن انتقلت حلة المقرن التى كان يقيم فيها عدد كبير منهم ـ بعد اقامة الترس ـ الى مكانها الجديد فى منتصف المسافة تقريبا بين نقطة (المقرن) والطرف الغربى للمدينة • ولقد كان من آثار اقامة (الترس) أيضا القضاء على (محل أرباب) وتفرق سكانه بين حلة المقرن وفريق الترس والمدينة الجديدة بعد أن قام القسم الشـمالى من الترس فـوقه •

وبالقرب من الحافة الشمالية للترس كان يقيم عدد من القبط العاملين فى الادارة المالية الحكومية ، وقد عرف محل اقامتهم بعد عهد خورشيد ـ حينما زاد عددهم ـ (بحس القبط) •

ومما سبق ايراده عن الخرطوم في عهد خورشـيد نجد أنها امتدت من النيل الأزرق فى الشـمال الى (سـلامة الباشـا) فى الجنوب ، ومن (حى العرضى) فى الشرق الى (فريق الترس) فى الغرب • كما يمكن القول انها امتدت الى جوار النيل طبقا للخطة المستطيلة ، وأن أراضى سواقى المحس والحدائق التى ألحقت ببعض مبانى الضفة فى أواخر عهد خورشيد تحتل الثلث الشمالى من هذا المستطيل • ويكمل صورة المدينة قيام رأس كبير من المبانى

جنوب غرب منطقة المواطن يحتله حي سلامة الباشا ويضرب في السهل لمسافة تماثل البعد بين النيل الأزرق شمالا ومنطقة المواطي جنوبا ، كما يقوم رأس آخر أصغر مساحة في الطرف الجنوبي المقابل ، وهو امتداد لحلة المراكبية وحي العرضي • ونضيف الى ذلك ، أن كتلة مباني المدينة المستطيلة لم تكن تمتد امتدادا متصلا ، بل كانت تقوم في كتلتين يفصل بينهما منخفض يتعامد على منطقة المواطي ويلتقي معها عند ربعها الغربي تقريبا •

وقد امتدت الخرطوم في آخر عهد خورشيد على طول الضفة لمسافة قدرها ميل في عمق الى الداخل قدره ثلاثة أرباع الميل • وكانت تضم حوالى خمسمائة منزل غير الثكنات والمخازن والمستشفى (٢١) • ومع أنها كانت وقتئذ تبز مدن السودان القديمة قاطبة(٢٢) الا أن مظهرها عن كثب لم يكن ينبىء بعلو شأن ، اذ كانت عمارتها من الطين ، وجدران منازلها بغير طلاء لندرة الجير في المنطقة المحيطة بالمدينة • وكانت السراى من الطين أيضا ، وتشبه الحصن في عمارتها ، والبناء الوحيد ــ الى جانب منزل قائد الحامية ــ الذى كان الزجاج مستعملا في نوافذهما ، كما وصفت الثكنات والمستشفى بالقذارة (٢٣) وكانت زينة المدينة المسجد والسوق ، وهما البناءان الوحيدان المقامان من الآجر المنقول من مدينة سوبا القديمة •

واذا كانت خرطوم خورشيد قد امتدت في آخر عهده الى الحدود الخارجية التي أصبحت عليها تقريبا في آخر الحكم المصرى ، فليس معنى ذلك أن عمارتها لم يصبها التغيير منذ ذلك العهد ، فقد قامت عدة عوامل دفعت عجلتها الى الأمام طوال ذلك الحكم ، منها السياسة العمرانية للادارة المصرية في البلاد ، وشخصية بعض الحكمدارين اللامعين العاملين على الوصول بالمدينة الى مستوى المدن الكبيرة ، والتقدم التجارى الذى كان في تطور كلما تقدمت السنون بالعهد المصرى •

ولما كان قيام المنازل فى معظم انحاء المدينة عشوائيا فقد أدى ذلك الى تداخل اسوارها وافنيتها ، كما أصبحت المدينة تقطعهـــا المناطق الفضاء هنا وهناك وتمتد على مســـاحة من الأرض كبيرة بالنسبة لما تضمه من وحدات طبوغرافية وسكان (٢٤) . وهذا مما جعل الفرصة سانحة لقيام عمارة مستمرة فيها من الداخل بعد عهد خورشيد : فبينما نجد منزلا جديدا من الآجر يقوم محل آخر قديم من اللبن في محل موسى بك وقسم الجامع ، وبينما نرى منزلا من اللبن قد انهار فى غير هذين الحيين ولاحظ صاحبه تعليمات الادارة عند اقامة البديل الجديد ـ اذا بمنازل جديدة أخرى تظهر هنـــا وهناك فى المســاحات الفضـــاء وفى الأحياء التى سمحت ظروف سكانها الاقتصادية والاجتماعية بذلك ـ كما فى حركة المراكبية على سبيل المثال .

وقد أصاب التغيير تلك الحلة بعد عهد خورشيد . فانه اذا كانت مصالح سكانها من الدناقلة ـ بعد أن نزحوا الى الخرطوم من شندى وبربر وغيرهما من مدن الشمال التجارية ـ قد ارتبطت بتجارة العاصمة الجديدة فان اتساع الحلة قد سار خطوة بخطوة مع اتساع تلك التجارة . واخذ التوسع شكلا راسيا يرفع كفاية ما تسعه ارضها من مساكن ، وتم ذلك باختصار الكثير من أفنية المنازل واقامة مبان جديدة فى المساحات الفضاء . وقد بلغ اتساع الحلة ـ على هذا الشكل ـ الى أقصى مداه حوالى سنة ١٨٦٠ حينما سجلت تجارة الخرطوم أعظم تقدم لها مع الجنوب . كما أدى نقل الحكمدار غردون (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) دار الصناعة من مكانها غرب الخرطوم الى شرق السراى بالقرب من الحلة الى اقامة كثير من عمالها فى الحلة . على انه تجب ملاحظة انه لم تظهر بالحلة طوال تاريخها منازل كبيرة او من طابقين ، لان الدناقلة كانوا فى معظم رحلاتهم التجارية مشغولين بالسعى وراء العمل والكسب ، مما جعل

اقامتهم فى الخرطوم لا تطـول عن المدى اللازم للاستعداد للرحلة الجـديدة ٠

ولقد أصـــاب حى العرضى تغيير كبير من الداخل بعد عهد خورشيد فى شكل اعادة بناء الثكنات وانشاء أخرى جديدة كذلك ، وسار ذلك التغيير مع اتســاع حجم القوة العسـكرية فى البلاد ، وأصاب الحى أكثر ما أصاب منذ سنة ١٨٥٠ حين بدأ امتداده الى اقصى حد له ناحية الجنوب الغربى ٠ ويرجع ذلـك الى أن جيش السودان بعد تلك السنة أصبح معظمه من الزنوج (٢٥) والى سكنى (الحريمات) نساء هؤلاء الجند بجوار الثكنات ـ وهو الأمر الذى كان يحرص عليه الجند ايما حرص ٠

وقد ترتب أيضا على التوسع فى استخدام الزنوج فى الجيش أن ظهر بأقصى جنوب الحى ـ فى مواجهة حلة سلامة الباشا ـ قسم كان يعرف (بفريق النوبا) ويقيم فيه (الزنوج المرافيت) ـ وهم الذين تركوا خدمة الجيش ، ومعظمهم من النوبا سكان جنوبى شرق كردفان ٠

وفى سنة ١٨٦٥ ابتدأ فى الظهور بالعرضى قسم آخر عرف (بفريق الطوبجية) ٠ فقبل تلك السنة ـ وهى السنة التى قامت فيها ثورة عسكرية فى كسلا هددت بانفصال شرق السودان عن حكومة الخرطوم ـ كان ملحق بكل آلاى من مشاة الجيش قوته من جند المدفعية ٠ وبعد الثورة فصلت قوات المدفعية عن جميع ألوية الجيش ، وأصبحت تكون منذ ذلك التاريخ تشكيلا قائما بذاته : بضــباطه من الترك أو المصريين ، وقاعدته الكائنة فى الخرطوم ، وآمره الذى لم يكن غير الحكمدار أو نائبه أو أحد الضباط العظام الموثوق فى كفايتهم واخلاصهم (٢٦) ٠ وقد اتسع فريق الطوبجية

تدريجا بازدياد قوة المدفعية في الجيش ، ووصل الى أقصى اتساع له في السنوات الأخيرة من الحكم المصرى ٠

وقد حافظت حلة سلامة الباشا على مظهرها العام طوال الحكم المصرى ، وكانت أقل الأحياء تقدما في العمران وأكثرها من حيث سيطرة عشوائية البناء وتشابك الطرق والمسالك ٠ ومع ذلك فقد اصابها القليل من التغيير في منطقتين : الأولى عند الحافة الشمالية المطلة على (سوق الشمس) حيث كانت تحل منازل جديدة من الآجر محل القديمة أو المهدمة منها ، والثانية في الطرف الجنوبي الشرقي حيث كانت تقيم بعض (حريمات) الجند الزنوج في أواخر الحكم المصرى ٠

ولاستطالة الحلة وتطرفها ناحية الجنـــوب قامت في الجهة الجنوبية الغربية منها منطقة (عصارات السمسم) ، ومن الطبيعي قيامها في هذا المكان بما تستلزمه من زرائب للجمال التي تديرها ٠ كما قام مجزر المدينة أيضا في أقصى جنوب الحلة ٠

وظل محل موسى بك طوال تاريخ المدينة محل سكنى الطبقة الراقية من الموظفين والأجانب والترك ٠ وقد أصابه الكثير من التغيير والتنظيم بعد عهد خورشيد ، فأصبحت الطرق التي تشقه أكثر طرق المدينة استقامة وتخطيطا ، وأبدلت منازل اللبن الأولى فيه بمنازل الآجر المحاطة بالأفنية الخضراء والحدائق الزاهرة التي تستمد ماءها من الآبار المحفورة بها ، وكانت تقوم به بعض القنصليات الأجنبية ودار الارسالية الكاثوليكية ٠ وظل المحل طوال عهد خورشيد يفصله منخفض كبير عن حي المباني الحكومية ومساكن (الذوات) الواقعة جنوبه ، ولكن ــ حوالى سنة ١٨٦٠ ــ احتلت المباني المنطقة الوسطى من هذا المنخفض بعد أن رفع مستواها ٠

ولم يأخذ الحى القبطى (٢٧) صورته العمرانية النهائية الا بعد عهد خورشيد حينما زاد عدد الموظفين القبط العاملين فى الادارات المالية والأعمال الكتابية الحكومية • وظل الحى طوال العهد المصرى حيا صغيرا مع رقى عمـــارته اذا قورنت بعمـــارة فريق الترس المجاور له •

ويرجع الفضل فيما أصاب فريق الترس من اتساع بعد عهد خورشيد الى الحكمدار اسماعيل أيوب (نوفمبر ١٨٧٣ ـ فبراير ١٨٧٧) الذى قام بارجاع الترس الى الخلف قليلا ـ أى الى ناحية الغرب (٢٨) • ولا تعرف المسافة التى رجعها الترس على وجه التحديد ، ولكنها لا تعدو بضع عشرات من الأمتار على أية حال ، كما أنها كانت تتسع هنا وتضيق هناك بسبب امتداد الترس فى خط غير مستقيم •

وقد قام الترس نتيجة لحفر المنطقة الواقعة خلفه مبـــاشرة وتجميع الأتربة أمامها من ناحية المدينة • وكانت قاعدته عريضة فى جزئه الشمالى ـ وهو أكثر الأجزاء تعرضا لغارات الفيضان ، فاذا سرنا ناحية الجنوب أخذت فى الضيق ، وهذه المنطقة تقع على حدود (سلامة الباشا) الغربية • ومن أجل درء أخطار الفيضانات العالية أقام اسماعيل أيوب الترس فى بعض أجزائه من خطين أو ثلاثة ، كما كان يداوم على تقويته باستمرار ويوجه عناية خاصة للجهات الضـــعيفة فيه • وكانت دوريات الجيش تقوم فى موسم الفيضان بملاحظاته من الخلف ليل نهار ، فاذا لاحظت خطرا يهدده أعلنته بين أهالى الفريق الذين كانوا يبادرون توا الى درء الخطر برمى كل ما يقع تحت أيديهم فى مواطنه ، وقد يصل الأمر الى تحطيم جدران المنازل من أجل ذلك ، فاذا زال الخطر عاينت الادارة مدى ما أسهم به كل مواطن فى درئه وعوضته ، وقد وضع اسماعيل أيوب خطوطا عريضة كريمة فى هذا المجال (٢٩) •

وفيما بين محل موسى بك من ناحية الشرق وفريق الترس من ناحية الغرب يقوم قسم الجامع ، ومن المعالم الطبوغرافية المهمة فيه السوق (سوق الدكاكين) والجامع وبعض المنازل الواسعة لكبار الموظفين والتجار . وقد ظل القسم طوال الحكم المصرى القلب التجارى للمدينة وموضع عناية الادارة التى التقت مع امكانات أهله الكبيرة فى ميدان البناء والتعمير . وكانت الطرق تتقاطر اليه من جميع أنحاء المدينة وتلتقى فى ميدان الجامع ، ومن أهم تلك الطرق طريق جنوبى شمالى كان يمتد من سوق الشمس الى ميدان الجامع ، وآخر غربى شرقى يصل حى القبط وفريق الترس بالسوق .

ويتضح مما سبق عرضه ان الخرطوم المستطيلة قد أصاب عمارتها الكثير من التغيير بعد عهد خورشيد لدرجة بدت معها المدينة - منذ سنة ١٨٥٠ - مركزا للمدنية كبيرا وسط محيط لا نهائى من الصحراء القفر . وكانت أبرز علامات هذه المدنية السوق الكبيرة ومئذنة الجامع العالية وسراى حاكم البلاد الضخمة الملفوفة فى بياض الجير (٣٠) . وقد وصفت المدينة فى ذلك الوقت بأنها اكبر وانظف من كل مدن مصر العليا ماعدا اسيوط (٣١) ، على أنه يجب ملاحظة أن اتساعها كان هو العامل الأول فى اطلاق اسم المدينة عليها وجعل طلعتها من الضفة الشمالية للأزرق خادعة للبصر أكثر من رؤيتها عيانا (٣٢) .

وحوالى سنة ١٨٥٥ ظهرت بالمدينة معالم معمارية لم تكن معروفة فى البلاد ، تتضح فى اقامة بعض منازل الثراة من طابقين وظهور الشرفات وقيام البوابين على أبواب تلك المنازل فى قسم الجامع وبخاصة فى محل موسى بك (٣٣) .

وعلى وجه العموم كانت منازل المدينة المتجاورة تفتقر الى التناسق من حيث الضخامة والفخامة والدخول والبروز بالنسبة

للشـــوارع المقامة فيها ، كما كانت غالبيتها من اللبن وخالية من النوافذ وبخاصـــة فى ســلامة الباشـا وحلة المراكبية وفريق الترس (٣٤) • وهذا الأمر تختلف عنه المنـازل فى قسم الجـامع ومنـازل الأثرياء على وجـه العموم ، اذ تتوافر فيهـا كل وسائل الراحة والنوافذ الواسعة والأبواب العالية •

ومنازل الطبقة الممتازة (٣٥) من الســكان كبيرة ذات غرف واسعة وسقف مرتفع تنتهبه أعشـاش العصـافير وأحيانا الطيور ، وأفنية واسعة تشغل الحدائق واجهتها البحرية وأحيانا الفناء كله ، وتقوم فى أطرافها دورات المياه والمطابخ والمخازن • والقـاعدة فى عمارة تلك المنازل أن تستقل غرف الأضياف وتنعزل عن مساكن أهل المنزل ، الأمر الذى نجده أيضا فى بيوت الأوربيين التى لم تكن تختلف عنها الا فى أثاثها الأوربى (٣٦) •

وكان الزجـــاج قليل الاستعمال فى تلك المنازل لغلو ثمنه وصعوبة نقله من مصر ، ولذلك لم يكن يستعمل حتى آخر العهد المصرى الا فى بعض منازل القادرين من السكان وبخاصة الأوربيين ، كما كان مستعملا فقط فى دار الارسالية الكاثوليكية فى الكنيسة وحجرة واحدة أو حجرتين من بقية الدار ، والقماش هو بديل الزجاج فى غير هذه المنازل (٣٧) •

أما منازل الطبقة الفقيرة من المواطنين ، وأبرز صورة لها فى سلامة الباشا ـ فهى مربعة الشكل ذات أفنية ضيقة متربة تحيط بها أسوار منخفضة من الطين تتوارى تدريجا تحت وطأة المطر،الأمر الذى يستلزم اصلاحها سنة بعد أخرى • أما الغرف فضيقة مظلمة سقوفها منخفضة لا تتعدى محتوياتها فى معظم الأحيان أدوات الطبخ• وكانت واجهات المنازل تطل على جميع الجهات ولا يفصـــلها عن بعضها الا مسالك ملتوية •

ومادة البناء الرئيسية فى المدينة الطين • وحتى سنة ١٨٤٤ لم يكن يصنع فى البلاد الا اللبن ، اما الآجر والحجارة فكان يؤتى بها من بقايا مدينة سوبا والمدن الأخرى الواقعة الى جنوبها والتى ترجع الى العهد المسيحى ، وقد استمر استخدامها فى عمارة الخرطوم لأكثر من ثلاثين سنة منذ بدء تأسيس المدينة (٣٨) • وبعد سنة ١٨٤٤ قامت قمائن حرق اللبن فى القرى المحيطة بالخرطوم ، فى تمانيات وكررى والحلفاية وبرى المحس والجريف ، وكانت الخرطوم وحدها المستهلكة لانتاجها • ومع أن تكاليف الآجر لم تكن تتعدى ضعف تكاليف انتاج اللبن الا أن وفرة هذا الطوب وعمله على ترطيب الجو داخل المنازل جعل منه مادة ضرورية واساسية فى بناء المنازل بسيطها وعظيمها على السواء وكانت العادة أن يستعمل فى مبانى الآجر من الداخل •

وقد لعبت المستعمرة الأوربية بالمدينة دورا كبيرا فى تعريف الأهالى بصناعة الآجر وقطع الأحجار وحرق الجير ، كما ابرزت لهم بالدليل القاطع انه مهما استفحلت سوءات المكان الطبيعية فان من الممكن توفير كل وسائل الاقامة الطيبة فيه اذا صلحت نية كل فرد وتكتلت جهود الأفراد لبلوغ هذا الأمر ، ولقد كانت الارسالية الكاثوليكية المعلم الأول فى هذا الشأن (٣٩) •

ومما أسهمت به الادارة فى الارتفاع بعمارة المدينة سماحها للأوربيين بالتنقيب عن مواد البناء فى المنطقة المحيطة بها • وكان من نتيجة ذلك التوصل الى استخراج الأحجار من تلال أم درمان على يد المبعوثين الكاثوليك واستخدامها فى البناء منذ حوالى سنة ١٨٥٠ (٤٠) • كما أخذ عدد المنازل المطلية بالجير فى الزيادة تدريجا بعد تلك السنة ، فاذا كانت سنة ١٨٧٠ أصبحت كل المنازل الجديدة وعدد كبير من القديمة تطلى به بالرغم من ارتفاع ثمنه لقلة محاجره فى المنطقة (٤١) •

وكانت أخشاب البناء تستنزف القسط الأكبر من تكاليف المباني ، حيث أن الخشب الناتج محليـــا كثير الالتواء وذو أطوال قصيرة على وجه العموم ، ولم يكن يصلح الا فى منازل العامة من الأهالى لقصــوره عن تغطية حاجات الثراء وبخاصــة من الألواح والنوافذ والأبواب ، مما أدى الى استيراد الأخشاب لحساب هؤلاء • واذا كان جنوب البلاد تغطيه غابات واسعة تزخر ببديل للأخشاب المستوردة فانها أبعد ما تكون عن الاستغلال الاقتصادى ، مما حمل الغالبية العظمى من الأهالى على أن يجدوا كفايتهم فى الأخشـــاب المحلية ، ومنهم أصحاب المبانى الجيدة من الآجر الذين كانوا يعملون جهدهم على الاقلال من عيوبها بضم عدة عروق للاستعاضة بها عن العوارض اللازمة لحمل السقف ، ثم تمد هذه العوارض فوق الجدران وتفرش فوقها الحصر التى تغطى بالطين بعد ذلك ، وهكذا يمكن الاستغناء عن الألواح الخشبية اللازمة للسقف (٤٢) •

واذا كان من سمات المدن في السودان تقطيع المناطق الفضاء بين أجزائهـــا المختلفة (٤٣) فان هذا الأمر كان أوضح ما يكون بالخرطوم فى سلامة الباشا أولا ثم فى حلة المراكبية • ويرجع ظهور تلك المناطق الى العشوائية فى اقامة المبانى ، والى أن المواطن كان يجد في الفضاء القريب من المنزل الذى يقيمه مصدرا للأتربة اللازمة للبناء ، أما الحفرة الناتجة فكانت لا تردم مما جعل سطح المدينة تتخلله الحفر هنا وهناك • وغير مناطق الفضاء هذه توجد منطقتا (المواطى) الطبيعيتان الواقعتان جنوب المدينة المستطيلة ، وبين حى المبانى الحكومية ومحل موسى بك • وأولاهما أوسع مناطق الفضاء قاطبة بالمدينة ، فلها من العرض حوالى مائة متر فى طول غربى شرقى قدره سبعمائة متر ، وكان سوق الشمس يحتل أقصى طرفها الغربى ثم يتلوه الى ناحية الشرق (الميدان) (٤٤) ــ وهو محل اقامة الاحتفالات الرسمية ومحل ازهاق أرواح المجرمين ، ثم تأتى مقبرة المدينة فى نهايتها الشرقية •• وكانت مناطق الفضاء على

وجه العموم خالية من الأشجار ، وتتلبد بالوحل في موسم المطر وتثير الأتربة في فصل الجفاف ٠

وبالمدينة عدد من مناطق الفضاء جاءت نتيجة لتخطيط الادارة وهي الميادين ، وكانت غير معروفة قبل العهد المصري ٠ وأهمها ميدان المديرية الواقع جنوب السراي مباشرة ، وميدان الجامع القائم حول الجامع ، وميدان تدريب الجند الكائن جنوب الثكنة القديمة مباشرة ٠ وقد عرف ميدانا الجامع والمديرية بعض زينة الميادين من الأشجار والزهور ٠

واذا كانت العشوائية في اقامة المباني قد أدت الى قيام التنافر بين أنحاء المدينة المختلفة من حيث التنظيم والتخطيط فليس معنى ذلك أن المدينة قد خلت من الطرق أو الشوارع كما نعرفها اليوم ٠ وكانت الطرق في أحياء فريق الترس وسلامة الباشا وحلة المزاكبية تتعرج بين المنازل وتنتهي عند فضاء كبير أو سور منزل في تتابع غير منتظم ، وتتردى هنا في حفرة وترتفع هناك نتيجة منزل منهار ٠ أما في الخرطوم المستطيلة فالأمر جد مختلف وبخاصة في حي المباني الحكومية وقسم الجامع ، فانه لما كان النيل الأزرق من الأهمية بمكان عند الأهالي : اذ منه زادهم من المياه وسقي بعض حدائقهم ، وتجاهه تطل واجهات منازلهم ، وعلى ضفته تقوم (المشارع) حيث محاط العابرين له من بر أم درمان والحلفاية وجزيرة توتي الى بر الخرطوم ٠ ولما كانت المدينة قد قامت منذ أول أمرها طبقا للخطة المستطيلة فاستطالت على طول الأزرق الى أقصى ما مكنتها ضفته ـ فقد ترتب على ذلك كله أن أصبحت الطرق تقطع المدينة من الشمال الى الجنوب مبتدئة من ضفة النيل حيث تقوم (المشارع) ومتجهة بعد ذلك جنوبا الى داخل المدينة ٠ وقد عرفت المدينة تلك الطرق منذ بدء تأسيسها على يد خورشيد ٠

وكانت هذه الطرق تعبر ـ وهي متجهة الى المدينة ـ منطقة سواقى المحس فى خطوط مستقيمة ، حتى اذا تم ذلك التقت بشارع رئيسى شرقى غربى (٤٥) وضع فى خطة المدينة منذ عهد خورشيد . وهذا الشارع يبتدىء في عهد خورشيد من جنوب السراى شرقا الى آخر المدينة غربا ، ولــــكن بعد ذلك العهد وفى سنة ١٨٦٠ على الأكثر ـ كمل امتداده من ناحية الشرق حتى أقصى طرف المدينة . والنصف الغربى من هذا الشارع يقع فى قسم الجامع ، وتمتد الطرق منه الى ميدان الجامع والسوق • وهذا الشارع أطول شوارع الخرطوم وأكثرها استقامة واتساعا ، وتقوم به الكثير من منازل علية القوم من الوطنيين والترك والقبط (٤٦) • وبعد التقاء طرق المشارع بهذا الشارع تكمل امتدادها داخل المدينة حيث تستقيم هنا وتلتوى هناك ، ولكنها تمتد على وجه العموم فى استقامة فى الجزء الأوسط من الخرطوم المستطيلة حيث حى المبانى الحكومية ومحل موسى بك •

وأقدم طرق المشارع الطريق الممتد من مشروع ارباب(٤٧)وهو أول طريق يدخل المدينة من ناحية الغرب وطريق سكان جزيرة توتى الى جامع أرباب قبل الفتح المصرى ، وظل طوال العهد المصرى أحد الطرق التى توصلهم الى قسم الجامع حيث الجامع والسوق •

ويقوم طريق مشرع التبيداب (٤٨) الى شرق الطريق السابق• وسمى المشرع بذلك الاسم نسبة لجماعات (التبيداب) الذين كانت مساكنهم في فريق الترس ومحلاتهم فى سوق الخرطوم ، وكانوا أمهر صياغ للذهب والفضة فى البلاد • ولعل من مميزات هذا الطريق انه يوصل الى محلاتهم •

ويقع طريق مشرع القاضى (٤٩) الى الشرق من الطريق السابق• ويمثل هذان الطريقان اقصر الطرق التى توصل أهالى جزيرة توتى

الى سوق الخرطوم والجامع ، وقد كبر دورهما وتفوقا على طريق مشرع الارباب فى تلك الناحية كلما تقدم العهد بالحكم المصرى •

ويقوم طريق مشرع موسى بك (٥٠) الى الشرق من الطريق السابق ، وهو أول طريق شقته الادارة المصرية فى المدينة فى عهد خورشيد ويمتد من النيل الأزرق الى الثكنة القديمة فى خط مستقيم ولعل العامل الأول فى شقه هو نقل المياه من النيل الى الثكنة وربط محل موسى بك بضفة النيل •

ويقوم مشرع الشونة (٥١) الى الشرق من الطريق السابق وهو يوصل بين ضفة النيل ومخازن الحكومة حيث الشـــونتان الكبيرتان كما يربط أيضـــا بين الضفة وجنوب المدينة فى خط مســـتقيم •

ويقوم طريق مشرع المديرية (٥٢) الى الشرق من الطـــريق الســـابق ، وهو يمر بين مبنى الحكمدارية والسراى الى ميـــدان المديرية ، ويمتد بعد ذلك فى خط مستقيم الى منطقة (المواطى) فى الجنوب ، وينتهى عند (الميدان) •

ويقوم طريق مشرع المستشفى (٥٣) الى الشرق من الطريق السابق ، وهو طريق أهالى بر حلفاية الى الخرطوم بعد ان يعبروا النيل عند المشرع والطريق الذى يوصل بين ضفة النيل الأزرق وحلة المراكبية بعد أن يمر بالجانب الأيسر من المستشفى العســـكرى والحدائق الواقعة خلفه ، كما انه طريق عمال دار الصـــناعة الى مساكنهم فى حلة المراكبية وما وراءها بعد أن انتقلت دار الصناعة الى شرق السراى فى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى •

وآخر طريق يدخل الخرطوم من ناحية الشرق هو طريق مشرع المحس (٥٤) • وهذا المشرع هو محط عبور محس برى وجند حى

العرضي الى بر حلفاية ٠ وقبل سنة ١٨٦٠ كان أهالى حلة برى المحس يأخذون طريق ضفة النيل عند انتقالهم الى الخرطوم ٠ وبعد تلك السنة ــ وبعد امتداد الطريق الرئيسى الشرقى الغربى الى أقصى شرق المدينة واتصاله فى تلك الناحية بطريق مشرع المحس ــ أصبح دخولهم الخرطوم بهذا الطريق الشرقى الغربى ، مما كان يوفر عليهم بعض الوقت وخاصة أن ارتباطهم بسوق الخرطوم كان قويا ٠

وقد وصفت طرق القطاع الأوسط من الخرطوم المستطيلة أيام خورشيد بأنها اعرض وأكثر استقامة مما يتوقع أن تكون عليه فى ذلك الوقت ، كما وضعت بعد ذلك فى مصاف شوارع مدن الدرجة الثانية فى مصر (٥٥) ٠ ولم تعرف هذه الطرق الرصف أو الدك ، وأن كانت الادارة تعتنى بنظافتها وبخاصة ما هو منها بالسوق ــ فقد كانت تكنس وترش بالماء صباح كل يوم ٠ وقد وصلت نظافة بعض الطرق حدا دعا بايارد تيلر (٥٦) الى أن يتمنى أن تكون طرق روما وفلورنسه فى مثل نظافتها ٠ وبينما هذا أمر الطرق كانت المناطق الفضاء تفتقد عناية الادارة ، وتمتلىء بالقاذورات التى ينقلها السكان اليها ٠

وكانت طرق الخرطوم حتى آخر العهد المصرى تخلو من الظل والأشجار ويختلف عن ذلك الطريق المطل على النيل ، وهو الطريق الوحيد فى المدينة الذى تظله أدغال النخيل فى حدائق منازله ٠ وهذا الطريق ضيق لا يصل عرضه الى أكثر من عشر خطوات ، ويزداد ضيقا فى بعض أجزائه بسبب انهيار أسوار بعض الحدائق أثناء الفيضانات العالية ، وهو يطل على النهر فى غير موسم الفيضان من جرف عال (٥٧) ٠

ويتألق طريق النيل بالسراى التى تبرز للناظر من الضفة الشمالية للنهر متوسطة كتلتين عظيمتين من الأشجار تمتدان الى

يمينها ويســـــارها حتى أقصى طرفي المدينة (٥٨) · ويقوم مبنى الحكمدارية الى الغرب من السراى مباشرة ، ويليه الى الغرب اثنا عشر مبنى من بينها المكاتب الحكومية ودار القنصل النمسوي وعدة منازل للتجار اليونان ، ويلي ذلك حديقة الارسالية الكاثوليكية التى تقوم شمال دار الارسالية ، وبعدها تتوالى الحدائق حيث أن المساكن ابتداء من الارسالية حتى أقصى غرب المدينة تطل على المدينة فى حين تقوم حدائقها بينها وبين النيل (٥٩) ، ويرجع هذا الى أن أصحاب تلك المساكن أرادوا الاستفادة بالوضع الذى تســـتقى عن طريقه حدائقهم عندما اشتروها من المحس حيث كانت السواقى القديمة على طول ضفة النيل تقوم بالمهمة خير قيام ·

وقد ارتفعت قيمة الأراضى المطلة على النيل ، اذ كانت مرغوبة أول الأمر لغرس البساتين لسد حاجة سكان المدينة من الفاكهة والخضراوات · وعندما كثر عدد الأجانب من ثراة الأوربيين انقلبت الرغبة في هذه الأراضى الى تشييد المنازل ، فبذل هؤلاء الأجانب أثمانا عالية لأصحاب البساتين حتي بلغت قيمة المتر الواحد منها جنيهين الى ثلاثة جنيهات (٦٠) · ومن أجل ذلك كان ايجار منازل شارع البحر ضعف ايجار مثيلاتها في داخل المدينة (٦١) · وكانت بعض منازل هذا الشارع من طابقين وذات شرفات ·

وللادارة فى بناء الخرطوم أياد بيضاء ، وخورشيد باشــا هو أول من كتب الصفحة الأولى فى هذا المجال · وقد سارت الادارة من بعده على نهجه فى تقديم أقصى ما يمكن تقديمه للسكان مساعدة منها فى اقامة منازلهم ، فعلاوة على بيعها الأراضى لهم فى سلامة الباشا والحي المقابل له في الشرق (فريق النوبا) بسعر قرش صاغ للمتر الواحد كانت تعاونهم بتقديم الأخشاب اللازمة للسقوف، كما كانت تشـــدد فى تعميق أسس المباني وزيادة عرض الجدران ولا تسمح فيه بأقل من ذراع معمارى ونصف ذراع (٦٢) ·

وقد اهتمت الادارة منذ عهد سعيد باشا بتنظيم خطة البناء في المدينة • ويتضح بعض ذلك فيما تضمنته (المراسيم الأربعة) التي اصدرها هذا الوالي في الخرطوم أثناء رحلته في السودان سنة ١٨٥٧ ، ووجهها الى حكام البلاد بانا فيها الرسائل التي يمكن باتباعها الارتفاع بمستوى البلاد في جميع النواحي • فمن بين ما اهتم به المرسوم الأول من هذه المراسيم وضعه القواعد والأحكام التي يجب أن تسير عليها عمارة البلاد ، وقد جاء فيه « انه مما يوطد الرخاء في بلد ما بناء المنازل في المدن ، ولكن عليكم أن تنتبهوا حتى لا تبنى في الطرق من غير نظام بارزة أو مختفية كما هو الحال اليوم ، بل الواجب أن تكون البنايات الجديدة في صف واحد ودون أن تضطروا لهدم المنازل الموجودة ، فالبنايات الجديدة فقط هي التي يجب أن تشيد وفقا لهذه القاعدة الجديدة • كما يجب أن يكون لكل منزل حديقة ذات اتساع كاف تستقى من مياه ساقية أو شادوف أو ما هو أقل من ذلـــك اذا لزم الأمر ، حتى تكون الأمور بهذه الواسطة منظمة تنظيما طيبا والهواء أنقى وأحسن » (٦٣) •

وكانت الادارة تهتم دائما بحماية ضفة النيل من نحت النهر وغارة فيضاناته العالية بتحصين الضفة بسيقان الأشجار التي تثبت فيها هنا وهناك بلا نظام هندسي في المناطق الضعيفة قبيل موسم الفيضان (٦٤) ، ثم ترمى وراءها من ناحية المدينة الحجارة والأتربة وبقايا الزروع • ويشترك سكان الضفة في هذه الأعمال فيما يواجه منازلهم من منـــاطق ، وكثيرا ما يقـــدمون خدمات عبيدهم في تلك الناحية ، بل كانوا احيانا يدفعون أجور عمـــال الحكومة اللازمين لتلك الأعمال •

وقد اهتم محمد بك راسخ مدير الخرطوم (يونيو ١٨٦١ ــ مايو ١٨٦٢) بعمل رصيف للمدينة لوقايتها من غارات النيل ، وذلك « بما أنه من عدم وجود ذلك (الرصيف) حصل بعض اتلاف

فى زمن نيل هذا العـــام (١٨٦١) لبعض المحلات التى بالقرب لشاطىء البحر » (٦٥) • واستجابت القاهرة لطلب المدير بارسال مهندس متخصص الى الخرطوم ، ولكن يبدو أن الرصيف قد تمت اقامته فى عهد الحكمدار جعفر مظهر (ديسمبر ١٨٦٥ ـ سبتمبر ١٨٧١) ، وكان كما عاينه كل من شوينفرث وشاليه لونج جيد البناء (٦٦) • ولقد كانت تقوية ضفة النيل ورأم الصدوع التى تصيب الرصيف موضع عناية الحكمدارين بعد جعفر مظهر وبخاصة الحكمدار اسماعيل أيوب •

ويقوم ميناء الخرطوم على ضـــفة الأزرق فى أقصى غرب المدينة (٦٧) ، وهناك سلم حجرى ينزل من الضفة الى الســفن الراسية على طولها •

ومهما يكن أمر التقدم الذى كانت تحرزه عمارة المدينة كلما تقدم العهد بالحكم المصرى فان العيب كل العيب الذى استمرت تشكو منه المدينة طوال ذلك الحكم هو انخفاض سطحها وما ينتج عنه من تجمع مياه الأمطار فى المنخفضات التى تقطعه • وكان الأهالى يســتعدون لاستقبال فصل المطر بطـــلاء منازلهم من الخـــارج (بالزبلة) (٦٨) • ومع ذلك ، وبالرغم من أن المطر لم يكن يسقط على المدينة سوى خمس أو ست مرات فى السنة كان كثير من أسقف المنازل البسيطة البناء يسقط ، وهذا مما يجعل الأهالى يفزعون عند الأمطار ، اذ كان من المحتمل أن يتحول المنزل بعد المطر الى بقايا بناء • ومما يزيد من متاعب الأهالى أن الأمطار كانت تسقط فجأة بلا مقدمات •

وتبدو المدينة بعد المطر كأنها خارجة للتو من طوفان • وعلى الفرد ألا يغادر منزله أثناء المطر ، فاذا كان وقتئذ فى منزل آخر

فعليه الا يغادره قبل ثلاثة او اربعة أيام (٦٩) خشية على حياته من التردى فى حفرة ضاعت معالمها وسط خضم المياه ، ونفس الخطر قائم اذا امتطى حمارا ٠ فاذا آثر الفرد أن ينتقل الى منزله مع تلك الصعاب فعليه أن يستعين فى رحلته بعصا متينة وأقدام عارية حتى لا يفقد حذاءه فى قاع فجوة عميقة (٧٠) ولا تقف متاعب المطر عند حد الأفراد ، فكثيرا ما تغلق محلات السـوق والمصالح الحكومية أبوابها بعد أول بادرة منه (٧١) ٠

واذا كانت مدن السودان التى قامت فى بقع لها نفس طبيعة السهل الذى قامت عليه الخرطوم قد مرت بتجربة الخرطوم القاسية مع الأمطار ـ فانها قد برأت من انخفاض سطحها نتيجة لما تعوده الأهالى من اقامة منازل جديدة بدلا من منازلهم القديمة التى تحطمها الأمطار ، وما يترتب على ذلك من ارتفاع سطح تلك المدن كلما تقدم بها الزمن بسبب تراكم بقايا المنازل الهاوية (٧٢) ٠ وهذا الأمر لا نجده فى الخرطوم المدينة الجديدة التى لم يتسن بعد لسطحها ان يرتفع على هذا الشكل ٠

وثمة أثر طبوغرافى لفعل الأمطار فى المدينة وهو امتداد سلامة الباشا كثيرا الى الجنوب لسقوط المنازل البسيطة البناء فى تلك الناحية واقامة منازل جديدة بديلة بجوار حطامها ٠

ولقد سقط على الخرطوم مطر قوى فى أغسطس سنة ١٨٦٦ أدى الى اصابتها بكثير من الأضرار ، ومما زاد الطين بلة غرق المدينة بفيضان النيل فى هذا الشهر نفسه ٠ ففكر الخديو اسماعيل فى نقل العاصمة الى جزيرة توتى التى تتمتع بمميزات موقع الخرطوم ، بل تزيد عليها بأنها عالية لا تصل مياه الفيضان مهما زاد خطرها الى وسطها ، كما أن ارتفاعها يسمح دائما بتسرب مياه الأمطار الى النيل ٠ ومن أجل ذلـك كتب الخـديو الى الحكمدار جعفر مظهر

(ديسمبر ١٨٦٥ ـ سبتمبر ١٨٧١) بنقل العاصمة تدريجا الى الجزيرة » اذا كان هذا من الهين وفيه فوائد جمة ، وكانت الجزيرة المذكورة تصلح أكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزا » (٧٣) ٠ ولكن الحكمدار رأى أن دواعى النقل غير كافية مادام قادرا على اصلاح ما أفسدته الطبيعة وتجديد المبانى الأميرية فيها ، وخاصة وأنه يمكنه الاستعانة فى تنفيذ برنامجه بمحاجر اكتشفت وقتئذ على ضفاف النيلين بالقرب من الخرطوم وباستخدام عمال الحكومة فى اقامة المباني الأميرية ، حتى اذا أتموها أسهموا بعد ذلك فى اقامة مباني الأهالى (٧٤) ٠ وقد كتب الحكمدار بوجهة نظره هذه الى الخديو الذى جازها والتقت أفكارهما حول وسائل اصلاح (بندر الخرطوم) ، وعلى رأس تلك الوسائل التى تضمنتها توجيهات الخديو للحكمدار « الا يدع مياه الأمطار تتراكم فى المدينة بل عليه أن يجعل لها مصارف تسـيل منها الى البحر ٠٠٠٠ وانشاء قوة من القواصة الضبطية برياسة مأمور للاشراف على نظافة المدينة » (٧٥) ٠

وكانت توجيهات الخديو نقطة البدء في سياسة تنظيم المدينة على أسس جديدة ، الأمر الذى أضاف اليها فى سنوات قليلة كثيرا من الاصلاحات المعمارية والمبانى الجديدة ٠ وقد افتتح جعفر مظهر تلك السياسة سنة ١٨٦٧ ، وداوم طيلة السنوات الثلاث التالية يعمل فى جد لاستيفائها ، ومن وسائله فى ذلك اعادة بناء المنشآت الحـكومية بالآجر والجير ، وشق طرق جديدة وتوسيع الطرق القائمة ، وردم الحفر التى تقطع سطح المدينة (٧٦) ٠ وقد لمس الرحالة شوينفرث (٧٧) سنة ١٨٧١ آثار الحكمدار فى اصـلاح العاصمة وشهد بحدوث تغيير كبير أصاب عمارتها ، وكان قد غادرها منذ ثلاث سنوات فقط ، وعند رجوعه اليها وجد مبانى جديدة عديدة ، بل كان العمران قد امتد الى الضفة الشمالية للنيل الأزرق المواجهة للخرطوم ٠

وكان عهد الحكمدار أحمد ممتاز (سبتمبر ١٨٧١ - نوفمبر ١٨٧٣) والحكمدار اسماعيل أيوب (نوفمبر ١٨٧٣ - فبراير ١٨٧٧) امتدادا لعهد جعفر مظهر من حيث العناية ببندر الخرطوم . ومن اعمال اسماعيل أيوب في تلك الناحية توسيع طريق الترس وشوارع العاصمة - وبخاصة طريق مشرع القاضي الذى يصل ضفة النيل بوسط المدينة ، وتجديد بناء الحكمدارية الذى بدأه ممتاز باشا ، وتحويل ميدان (المديرية) الى حديقة مليئة بالأزهار والرياحين . على أن اهم ما قام به الحكمدار عمله على ردم البرك داخل المدينة وشقه القنوات لتصريف مياه الأمطار الى النيل (٧٨) .

ومن وسائل اسماعيل أيوب للاستمرار في مشروعه الخاص بتنظيم بندر الخرطوم « ربطه عوايد على الأملاك الكائنة بالبندر » (٧٩) . كما كان من وسائله فى اصلاح ما تفسده الطبيعة فى قطاع المبانى الأميرية عمله على الحصول على الاذن باجراء الاصلاحات فيها قبيل موسم الأمطار ، ثم قيامه بعد ذلك باخطار المالية بما تم من اصلاحات بدلا مما كان جاريا من الاستئذان من المالية أولا ، حيث أنه « اذا تأخر الاجراء لحين العرض والاستحصال على أمر الاجراء يمضى شهور . وفى خلال ذلك يتكاثر نزول الأمطار ويترتب عنها حصول الضرر والتلف لمهمات المسيرى وأدواته »(٨٠) .

ومن اتجاهات الحكمدار فى زيادة عمران المدينة وترغيب أهلها فى بناء منازلهم بالآجر « وعلى حسب أصول التنظيم » عمله على أن يسهل لهم عمليات شراء الأراضي الفضاء داخل المدينة من الميرى . ومن أجل ذلك استأذن من المالية فى مصر أن ترخص له ببيع هذه الأراضى بالمزاد ودون الرجوع اليها أولا بأول كالمعتاد ، حيث أن « عدم الترخيص بمبيع شيء منها الا باستئذان المالية ، وكونهم (الأهالى) رأوا بأن فى ذلك طوله وعدم اسعاف لهم فى اتمام مبانيهم واتلاف لأدواتهم من نزول الأمطار - صاروا الآن يتأخرون عن

مشتري الأراضي الفضاء من الميري وفضلت تلك الأراضي بورة والميري لم ينتفع بشيء من اثمانها » (٨١) • وقد استجابت القاهرة لطلب الحكمدار ورخصت له ببيع أراضي الميري الفضاء الى الأهالي مباشرة وبمعرفته (٨٢) • وقد استفاد الحكمدار بهذا الأمر في الشهور الثمانية الأخيرة من حكمه ، وكان بعض وسيلته في زيادة العمران بالمدينة والارتفاع بها الى مستوى العواصم الكبيرة ، وخاصة انه كان متحمسا جد التحمس ويتوقع لها مستقبلا عظيما (٨٣) ، كما استفاد الأهالي بهذا الأمر من بعده •

والخلاصة ان الخرطوم كما ظهرت في آخر العهد المصري كانت نتاج مجهودات الحكمدارين جعفر مظهر واسماعيل أيوب على وجه الخصوص • وكان لهذين الحكمدارين الفضل كل الفضل في اعطائها الصورة التي أصبحت عليها وقتئذ ، والتي أفاض في وصفها الرحالة زوار الخرطوم في السنوات الأخيرة من الحكم المصري (٨٤) • وقد بلغ العجب بتقدم عمارة المدينة عند بعضهم حدا قال فيه ان المدينة بمرور الزمن سوف تصبح لا محالة (قاهرة) ثانية : بأحيائها التي تضم مبان حديثة يسيطر عليها التخطيط والنظام الهندسي ، وأحيائها ذات المباني من الطراز القديم الذي لم يصبه أي تغير منذ انشاء المدينة (٨٥) •

وحقا ، فقد ظهرت الخرطوم سنة ١٨٨٠ بمظهر المدن الكبيرة ، فبينما كانت سنة ١٨٣٠ لا تضم غير ثلاثين منزلا من الطين وباقي مساكنها من أكواخ القش (٨٦) اذا بها تصبح حوالي سنة ١٨٤٤ وكل منازلها من اللبن ، وليس بها من تلك الأكواخ الا كوخا واحدا (٨٧) ـ وكانت الادارة قد منعت بناءها لتفادي خطر الحريق (٨٨) ، فاذا كانت سنة ١٨٨٠ أصبحت المدينة تضم ثلاثة آلاف منزل (٨٩) •

ويتبين مما سبق من دراسة طبوغرافية مدينة الخرطوم اختلاف نسب صـــور استغلال الأرض من حى الى آخر • ويمكن ملاحظة ما يأتى فى تلك الناحية :

١ ــ انخفاض نسبة الأراضى المستغلة فى المبانى ، وارتفاع نسبة الأراضى المستغلة بالحدائق الملحقة بالمبانى فى الجهة الممتدة على طول النيل الأزرق ، علما بان هذه المبانى الأميرية والمنازل الكبيرة التى تضم أفرادا قلائل ، مما جعل تلك الجهة لا تضم الا نسبة ضئيلة للغاية من سكان المدينة الثراة وبخاصة الأجانب •

٢ ــ ارتفاع نسبة الأراضى المستغلة بالبيوت البسيطة العمارة فى سلامة الباشا وحلة المراكبية وبخاصة فى الجزء الجنوبى من كل منهما ، مما رفع من عدد سكان هذين الحيين اذا قورن بمجموع سكان المدينة •

٣ ــ ارتفاع نســبة الأراضى المســـتغلة بالثكنات فى شرق المدينـــة •

٤ ــ ارتفاع نسبة الأراضى الفضاء التى يتعذر استغلالها فى البناء بسبب انخفاضها فى وسط المدينة ، وبخاصة حول (محل موسى بك) فى الشمال والجنوب •

هذا ويمكن تقسيم مدينة الخرطوم ــ كما ظهرت فى السنوات الأخيرة من العهد المصرى ــ من حيث التركيب الوظيفى الى منطقة المبانى الحكومية والثكنات ، والأماكن الدينيـــة والمدافن ، وقلب المدينة التجارى ، ومناطق الصناعة •

وتمتد المبانى الحكومية والثكنات على ضفة النهر حول السراى من الغرب والشرق • فغرب السراى تقوم مبانى الحكمدارية والمديرية

وادارة البوستة والمالية ومصلحة الصحة ، وشرق السراى توجد مخازن الغلال ودار الصناعة ، ثم المستشفى الذى كان يحتل مكانا فى أقصى شرق المدينة غير هذا الذى أقامه فيه خورشيد • وتقوم شـــون الحــكومة جنـوب السراى وحول ميدان المديرية من الغرب والجنـــوب •

أما الثكنات فتتركز فى شرق المدينة مذ حددت لها هذه الجهة على عهد خورشيد ، وعلى الأطراف الشرقية للمدينة نجد مخازن السلاح ومصانع الذخيرة حول الثكنات كالحلقة •وهى عبارة عن مخزنين أحدهما للأسلحة الصغيرة وذخيرتها والآخر لذخيرة المدفعية ومصنعين لقذائف الأسلحة الصغيرة • وعند قيام الثورة المهدية نقل الحكمدار غردون سنة ١٨٨٤ مخازن الذخيرة من مكانها ـ حيث كانت عرضة للانفجار بسبب هجمات الثوار على ذاك الطرف ـ الى داخل المدينة فى مبنى الارسالية الكاثوليكية الحجرى ، وكان أمتن مبانى العاصمة وقتئذ •

ويعيب الثكنة القديمة قيامها وسط المدينة ووقوفها حائلا دون امتداد قسم الجامع وسوق الدكاكين الى ناحية الجنوب • وكان من الخير نقل جند هذه الثكنة الى الشرق واستغلال مكانها فى زيادة عمارة المدينة ، أسوة بثكنة كانت قد قامت بعد عهد خورشيد فى أقصى الطرف الجنوبى للمدينة وبعيدا عن سلامة الباشا ولكنها هجرت وانتقل جندها الى حى العرضى قبل سنة ١٨٦٠ •

وكانت السراى مكان اقامة الحكمدار وأسرته مذ نقل خورشيد مكاتب الادارة منها الى مبنى المديرية الذى أقامه غربها مباشرة (٩٠) • وقد وصفت أفخم قاعة فيها فى ذلك الوقت ـ وهى قاعة الاستقبال ـ بأنها واسعة وذات سقف مرفوع فوق عروق خشبية غير مهذبة ، أما أرضـــها فمن التراب المدكوك وقد خصص عبد لرشه مرة كل

ساعتين ، ويحيط بجوانب ثلاثة منها ديوان مقام من الطين ومغطى بألواح من الخشب ، وبينما كان هذا الديوان مفروشا بالسجاد الناخر ومساند الحرير المتعدد الالوان كان الحصير من أوراق شجر الدوم يغطى أرض القاعة . أما محتويات القاعة فلا تعدو (زيرين) كبيرين يرشح منهما الماء المأخوذ من النيل فى وعاءين كبيرين موضوعين تحتهما ، وعدة (قلل) كبيرة من الفخار فوق رف بجدار القاعة يصب فيهما الماء المأخوذ من هذين الوعاءين . كما وصفت حجرات النوم بانها منفرة للغاية ، وأنها أقل من مثيلاتها عند اكثر سكان أوربا بؤسا فى ذلك الوقت (٩١) .

وقد هدم الحكمدار عبد اللطيف باشا (أكتوبر ١٨٤٩ - ١٨٥١) مبنى اللبن - الذى أقامه محوبك وادخل عليه خورشيد بعض التحسينات - وأعاد بناء السراى من جديد مستعينا بالآجر المنقول من بقايا مدينة سوبا وبعض المبانى القديمة فى أبى حراز التى ترجع الى العهد المسيحى ، وتم له ذلك فى تسعة أشهر فقط (٩٢) . وكانت السراى أعجوبة أهل الخرطوم ومشايخ العرب من زوارها الذين كانوا لا يصدقون أنها من عمل الانسان وحده (٩٣) ، ومع ذلك فقد كان السور الذى يحيطها من اللبن .

ولم تكن السراى كما ظهرت فى آخر العهد المصرى هى سراى عبد اللطيف ، فان أحمد ممتاز باشا أدخل فى بنائها الكثير من العمارة التى لم تتم فى الواقع الا فى عهد خلفه اسماعيل أيوب (٩٤) .

والسراى بناء ضخم من طابقين ومكحل بالحجارة ، وبه أجنحة خاصة بالحريم وجناح للزوار . وهو يطل على النيل من الأمام وعلى ميدان المديرية من الخلف ، وتحيط به الأشجار من الشرق والغرب

والجنوب الذى تحتله حديقة كبيرة تعج بالنخيل والأعناب ، ويقوم بجواره من الجهة المواجهة للمدينة حصين مزود ببعض المدافع (٩٥)، يقف بينه وبين شـــارع المديرية ـ الذى يفصل بينه وبين مبنى الحكمدارية ـ حائط حجرى ضخم ·

ويصف القبـــانى مبنى الحكمدارية (٩٦) بأنه من الحجارة البيضاء الجميلة المنحوتة وذو منظر يضارع أعظم مبانى القاهرة بنوافذ شمالية تطل على النهر وحولها أشجار باسقة ، ويرتفع عن سطح الأرض بأكثر من ثلاثة أمتار · ومدخل ايوان الحكمدار من الجهة الجنوبية بثلاثة أبواب كبيرة يدخل منها الأهالى لمقابلته · وفى شرق الايوان رواق مستطيل تصطف الغرف على جانبيه ، وله باب شرقى يدخل منه الحكمدار من والى السراى ويعرف (بباب السر) ، والغرف التى بجانب هذا المدخل احدها مكتبة والأخرى مكاتب القلمين الأفرنجى والتركى · وفى المبنى جناح غربى يضم غرفة وكيل الحكمدار والأقلام العربية ·

وقد أقام محمد راسخ بك مدير الخرطوم (يونيو ١٨٦١ ـ مايو ١٨٦٢) بناء لسكنه على الضفة الشمالية للأزرق لطيب جو تلك الجهة ، فقد « كان صاحب حظ وانشراح ···· ، ولم يشتغل بشىء سوى انشاء القصر الكاين على شاطىء البحر النيل بالجانب الشرقى فى اتجاه قصر الحكمدارية » (٩٧) · وعرف هذا البناء طوال الحـــكم المصرى بقصر راسخ بك ، وكانت تقوم به محطة العاصمة للارسال البرقى ، بل اشتهر بها فى السنوات الأخيرة من ذلك الحكم ·

ومن أهم المبانى الحـــكومية فى الخرطوم دار الصـــناعة (أو الترسانة) · وهى من العلامات الكبيرة المميزة للمدينة فى العهد المصرى (٩٨) ، فان السودانيين لم يكونوا يعرفون بناء السفن

قبل ذلك العهد • وكانت الترسانة مسـئولة عن صيانة أسطول الحكومة (٩٩) الذى كانت له أهمية فى بلاد واسعة يشقها النيل وفروعه لمسافات بعيدة ، كما كانت تقوم باصلاح سفن الأهالى (١٠٠)• وقد زادت أهميتها عند مجيء حملة صمويل بيكر لاكتشاف منابع النيل بما صحبته من سفن ، وعندما امتدت الامبراطورية السودانية فى جنوب السودان على عهد اسماعيل ، وهذا مما أكبر من واجبها نحو مؤازرة الادارة في ربط جهات البلاد المختلفة •

وكانت الترسـانة تعرف حتى حكمدارية غردون (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) (بادارة النيل الأبيض) حين غير الاسم الى (ترسانة الخرطوم) (١٠١) • وكان الاسم الغالب عليها عند الأهالى (المنجرة) نسبة لنجارة السفن •

ويرجع الفضل فى اقامة الترسانة الى خورشيد باشا ، فقد كانت صناعة السفن فى البلاد للأغراض الحكومية ضمن البرنامج الذى وضـعه كل من محمد على باشا وخورشـيد باشـا لتعمير البلاد (١٠٢) • وقد تضمن قرار مجلس المشورة الصادر فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ « أن يشرع خورشيد أغا فى انشاء المراكب بسرعة ويجمع الأنفار تحت التعليم » (١٠٣) ، كما تضمن « وجوب ترشيح ناظر على العمال المرسلين من مصر من الجلفاطين والنجارين والحدادين لزوم ترسانة سنار » (١٠٤) • وقد شمر خورشيد بعد اقامة الترسانة عن ساعد الجد لانجاز السفن التى كانت مكاتبات الوالى لا تنفك تطالبه بارسالها الى مصر •

وقد اختلف في المكان الذى قامت فيه الترسـانة عند أول انشائها • ومع من تصدوا لبحث تلك النقطة قد اتفقوا على وقوعه على النيل الأبيض فيما بين جزيرة أبا جنوبا والقطينة شمالا الا أنهم اختلفوا فى تحديده (١٠٥) • ومما أشكل عليهم التحديد وجـود

محطات حكومية واهلية لقطع الاخشاب فى هذه المنطقة طوال العهد المصرى ، بسبب وفرة أشجار السنط الصالحة لبناء السفن كما أن بها نقاطا لاصلاح سفن الأهالى السابحة بين الخرطوم والجنوب ٠

ويغلب على الظن أن الترسانة كانت تقع عند ود شلعى على النيل الأبيض ، فان لورد بردهو (١٠٦) ـ الذى زار السودان والخرطوم سنة ١٨٢٩ ـ يقرر وجود ترسانة للحكومة فى تلك الناحية ٠ ويؤيد ذلك ما تضمنته مكاتبة أرسلها الوالى الى خورشيد تفيد أن المحل الذى أسست فيه الترسانة والأماكن التى تقطع منها الأخشاب تحيط بها المياه مدة شهرين فى العام ، وأن هذا المحل يبعد عن الخرطوم بنحو سبع مراحل (١٠٧) ٠

ولما كانت الترسانة فى مكانها على النيل الأبيض تعمل ثمانية شهور فقط بعد انحسار الماء عنها وقطع الأخشاب اللازمة لها ، ولما كان العمال تصيبهم الأمراض فى فصل المطر ـ وهما أهم الأمور التى برر بها خورشيد موقفه عند اتهام محمد على له بالتقصير فى انتاج السفن المرسلة الى مصر ـ فقد حاجه محمد على الحجة فى مكاتبة طويلة كان من بين ما جاء فيها « انك لا علمت بمصلحة مصر ولا سمعت بها ، وأن المصلحة التى هى تحت نظارتك لم تتقدم لأن الترسانة فى محل يحيط به الماء ٠ والحال انه يلزم أن تكون فى محل لا يستولى عليه الماء بأن يكون مرتفعا لا يغمره ماء المطر وأن يكون قريبا٠ولأجل شغل العمال يعمل لهم عنابر كبيرة تغطى بشئ مناسب فيعملون تحتها ، وحينئذ يسهل الذهاب للترسانة والعودة منها ، ويكون العمال مصونين من الأمطار والماء ٠٠ » (١٠٨) ٠

وبالاضافة الى هذا التقصير فى انجاز السفن اللازمة لمصر داوم محمد على على الشكوى من عدم متانتها ، فقد جاء فى احد شكاويه « انه بوصول القياسات (نوع من المراكب) الى ترسانة بولاق اخرجت الى البر وغير منها كثير من الآلات الموضوعة فيها كأنها

قوارب مرت عليها ثلاث سنوات ووضعت لها ألواح غير ألواحها ، وأوجب ذلك العمل كلفة كأنها أنشئت من جديد ، وان حصول هذه المصروفات المضاعفة انما تنشأ ولا شك من عدم العناية والاهتمام وقت انشائها » (١٠٩) · ويبدو أن ذلك (المرسوم) المرسل الى خورشيد قد حمله على نقل الترسانة الى مدينة الخرطوم لتكون تحت نظره واشرافه وكان ذلك سنة ١٨٣١ أو ١٨٣٢ ·

أما مكان الترسانة الجديد ففى غرب الخرطوم فيما بينهما وبين حلة المقرن ، وان كانت أقرب الى الحلة منها الى المدينة · وغرب الخرطوم مباشرة ـ فيما بين الترسانة والمدينة ـ قامت حلة لعمال الترسانة عرفت (بحلة الريس عمر) ، ولعل عمر هذا كان رئيسا للترسانة عند أول انشائها (١١٠) · ومكان هذه الحلة مناسب ، ويساعد عمال الترسانة على سد مطالبهم من المدينة ، كما يسهل عليهم الذهاب والعودة من الترسانة كما أراد محمد على ·

والترسانة مجهزة تجهيزا تاما بالمدقات والمخارم وغيرها من الآلات التى تساعدها على القيام بمهامها خير قيام ، ووقود آلاتها البخارية من الخشب (١١١) · وقد جاء فى كتابات بعض الرحالة الأجانب أن بعض الفرنسيين والانجليز كانوا يعملون بها (١١٢) . ولكن هذا الأمر غير مؤكد وان كان مدير الترسانة فى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى هو المهندس سبادا Spada الايطالى · وقد نقلت الترسانة أيام حكمدارية غردون (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) الى شرق السراى (١١٣) ، ولأنها كانت تغمر بمياه الأزرق فى الفيضانات العالية ·

وتتكون اماكن العبادة فى الخرطوم من الجامع ، والكنيسة القبطية ، ودار الارسالية الكاثوليكية ·

وقد شرع خورشيد في بناء الجامع سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ - ١٨٣٠) • « ولما زادت العمارة في الخرطوم وكثرت الخلايق هدم من أساسه » (١٤) ، وذلك سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٧) ، وأنشأ محله جامعا أوسع منه استعمان في بنائه بالآجر المنقول من بقايا مدينة سوبا • ولما كان خورشيد قد غادر البلاد قبل الانتهاء منه فقد أكمله الحكمدار أحمد أبو ودان ، ولكن يبدو أن المئذنة لم يتم بناؤها الا حوالى سنة ١٨٦٠ (١١٥) • وقد قام الحكمدار اسماعيل أيوب ببعض الاصلاحات في عمارته (١١٦) • وفي سنة ١٨٨٠ هدمه الحكمدار محمد رءوف حين وجده لا يليق بعاصمة البلاد ، وبدأ في بناء آخر أوسع في نفس المكان ، ولكن قيام الثورة المهدية وحصار الخرطوم حالا دون قيامه وخلفائه باتمام البناء • وقد أسماه غردون سنة ١٨٨٤ (بجامع السودان) بعد أن كان رءوف باشا قد أطلق عليه اسمه (١١٧) •

ويحيط بالجامع ميدان جميل من معالمه (سبيل) ومجموعة من أشجار اللبخ ، ويتجه بناؤه نحو الشمال الشرقي (نحو الكعبة) ، مما يجعله يختلف عن كل مبـــاني المدينة التي يتفق اتجاهها مع الجهـــات الأصلية • وهو نظيف حسن التهوية كاف لمن يؤمه من المصـــلين في يوم الجمعة ، وان كان خاليا من فضـــيلة معمارية كبيرة (١١٨) •

وجامع الخرطوم الجامع الوحيد بالمدينة طوال الحكم المصرى • وكانت تقام فيه الصلاة ، كما أنه موئل للعلم ومقام للذكر ، وقد قام بالتدريس فيه كثير من كبار المشايخ المقيمين في الخرطوم (١١٩) • ومع أن مســجد أرباب العقــائد استمر متداعى البنيان مذ هدمه الدفتردار حتى قام الحكمدار موسى حمدى باشا (مايو ١٨٦٢ - مايو ١٨٦٥) بعمارته من جديد (١٢٠) الا أنه بعد اعادة بنائه لم يكن يصيب من المصلين الا القليل من أهالى فريق الترس ، لقربه من ديارهم ولكونه في الواقع خلوة للتعليم أكثر منه مسجدا •

ومنذ حوالى سنة ١٨٦٠ كان يقوم جنوب المدينة وفى منطقة المقبرة الجديدة (١٢١) بيت للأضياف من أبناء السبيل به (سبيل) وجامع صغير • وكان هذا البيت يعرف (بسبيل عبده أفندى) (١٢٢) •

أما عن الكنيسة القبطية ، فانه ما ان فتح السودان حتى رسم البطريرك بطرس السابع المعروف بالجاولى سنة ١٨٢٣ الأساقفة له (١٢٣) • وأثناء رحلة محمد على الى السودان أمر ببناء كنيسة للمسيحيين من سكان الخرطوم ، ولكنهم رأوا استمرار اجتماع كل طائفة منهم أينما تشاء حتى يتم بناء كنيسة لكل طائفة (١٢٤) • ولا نعرف متى أقام القبط كنيستهم ، ولكن يغلب على الظن أنها اقيمت بين سنتى ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ (١٢٥) • ويقرر جرانت أن الكنيسة كانت ضرورية فى ذلك الوقت ، حيث أن عدد القبط بالمدينة كان خمسمائة (١٢٦) • ومع أن الكنيسة أهم ما يميز الحى القبطى وذات قباب ثلاث الا أن مظهرها كان متواضعا وتبدو منخفضة بين المنازل المجاورة لها (١٢٧) •

أما دار الارسالية الكاثوليكية (١٢٨) فتبدأ قصتها فى سبتمبر سنة ١٨٤٣ حين بدأ الأب الرسولى الايطالى لويجى منتورى ــ الذى كان محل ارساليته فى الحبشة وكان يقيم فى السودان بين سنتى ١٨٤٣ ، ١٨٤٥ ــ فى تأسيس ارسالية كاثوليكية فى الخرطوم واقامة كنيسة صغيرة فيها • وكان البناء يضم خمس حجرات صغيرة غير الكنيسة (١٢٩) • ولكن أمر الارسالية انتهى برجوع منتورى الى مقر ارساليته فى الحبشة سنة ١٨٤٥ •

وفى ابريل سنة ١٨٤٦ أصدر البابا جريجورى السادس عشر قرارا بتأسيس (النيابة الرسولية لأفريقيا الوسطى) • وأهداف تلك النيابة رفع مستوى الأهالى علميا وصحيا ، ومساعدة المسيحيين

العاملين في القطاع التجارى في السـودان ، والقضاء على تجارة الرقيق • أما الحدود التي وضعت لنشاطها فكانت واسعة تمتد من مصر والجزائر شمالا ، والحبشة والبحر الأحمر شرقا ، وجبال القمر جنوبا ، والصحراء الكبرى وبلاد غينيا غربا (١٣٠) • ولم يكن لدى محمد على مانع من قدوم الارسالية الى السودان ، فتجمع أعضاؤها فى ربيع سنة ١٨٤٧ فى الاسكندرية حيث أدلى اليهم سليم قبطان بطل رحلات كشوف النيل (١٣١) وزميله المهندس الفرنسي دارنو بمعلومات قيمة عن مناطق أعالى النيل •

وفى فبراير سنة ١٨٤٨ وصل رجال البعثة الى الخرطوم التى وقع عليها الاختيار لتكون قاعدة لهم ، حيث أنها أصلح مكان لتأمين مواصلاتهم الى افريقيا الوسطى وتعلم لغات قبائل تلك الجهة ونقل عاداتهم • وقد اشترت البعثة قطعة من الأرض غرب المبنى الذى أقامه منتورى ، وبذلك كانت أقرب الى وسط المدينة منه •

ولقد كان للثورات التى شبت فى أوربا سنة ١٨٤٨ أثرها على البعثة ، اذ كانت نذيرا بتأخير المساعدات المالية التى تاتيها من أوربا ، مما حمل رجالها على الاحتياط للمستقبل فحولوا الأرض الواقعة شمال البقعة المزمع اقامة مباني الارسالية عليها والممتدة نحو النيل الأزرق بعرض قدره خمسـمائة ياردة ـ الى بسـتان يمدهم بحاجتهم من الطعام •

وبدأ البناء فى دار الارسالية سنة ١٨٥٠ وانتهى فى يوليو سنة ١٨٥٢ على يد عمال من الآباء الايطاليين • وهذا البناء هو البناء الحجرى الوحيد فى المدينة ، ويضم كنيسة صغيرة مؤقتة يشـغل الرجال مقاعدها الأمامية والنسـاء مقاعدها الخلفية ، ومدرسة من غرفة واحدة تلاميذها من الأطفال الزنوج القاطنين حول النيل الابيض والمشترين من سوق النخاسة (١٣٢) •

ولم يتوقف البناء فى دار الارسالية طوال الحكم المصرى • ففى سنة ١٨٥٣ بدىء فى اقامة العمارة الضخمة للدار ، وكان بطلها البناء الايطالى بيترو أجاتى الذى جمع مواد البناء فى كميات ضخمة أربت على حمولة الف مركب من أم درمان وبقايا مدينة سوبا وضفاف النيل الأزرق (١٣٣) • وبلغ طول البناء حوالى سنة ١٨٥٦ مائة وأربعة من الأقدام • وفى سنة ١٨٥٨ كانت تكاليفه قد زادت على نصف مليون فرنك • وفى تلك السنة كان البناء يمتد بشكل شرقى غربى بطول قدره مائة وأربعة عشر قدما وعرض قدره ثلاثون قدما ، وبه - غير المطبخ وحجرة الطعام - سبع حجرات مفرطة الاتساع للاقامة والنوم والمدرسة والمخازن ، أما الكنيسة فتحتل حجرتين يضمهما الجناح الشرقى للبناء الذى يمتد ناحية الشمال وينحصر بينه وبين الجناح الغربى - الذى يقل عنه فى الطول - الحديقة التى تفصلهما معا عن النهر • ويطل بناء الارسالية من الجنوب على الشارع الشرقى الغربى الرئيسى فى المدينة ، والذى يخترق محل موسى بك فى تلك الناحية (١٣٤) •

وحتى سنة ١٨٨٠ لم يكن بناء الارسالية قد تم كما هو مصمم له ، بل كان أساس الكنيسة الجديدة لا يزال يوضع فى تلك السنة ، ولكن كان قد استجد على البناء مدخل فخم يستطيل بممر يتوسطه بهو من الأعمدة (١٣٥) • ومعظم المساعدات المالية التى ساعدت المبعوثين على اقامة بناء الارسالية كانت تقدمها اليهم (الجماعة النمسوية لترقية الارساليات الكاثوليكية فى وسط أفريقيا) ومركزها فى فينا •

وكانت مدافن سكان المنطقة المحيطة بالخرطوم قبل الفتح المصرى فى منطقة مقبرة الشيخ امام بن محمد الفقيه المحسى الذى عاش ومات ودفن بها فى أيام الفونج • فلما تم الفتح المصرى وأسست الخرطوم استمر الدفن فى هذه المدافن (١٣٦) ، التى لم تلبث أن

امتدت الى الشرق قليـــلا بازدياد اتساع المدينة وقامت فى طرفها مدافن للموظفين مصريين وسودانيين ، ومن معالم هذا الطرف قبتان كبـيرتان دفن تحتهما بعض حــكمدارى الســـودان المتـــوفين بالخرطوم (١٣٧) • ثم انتقلت المدافن الى مكانها الجديد جنوبى شرق المدينة ، ولا يعرف متى تم هذا النقل ، ولكنه كان قبل سنة ١٨٦٠ على أية حال •

ولقد قامت المقبرة المســيحية سنة ١٨٤٣ جنوب المدينة عند اقصى الطرف الجنوبى الشرقى لحلة سلامة الباشا على يد الأب منتورى المبعوث الايطالى • وكانت مساحتها حينئذ لا تتعدى أربعمائة قدم مربع (١٣٨) ، ولكنها اتسعت بزيادة عدد الأوروبيين فى المدينة، كما قامت بها كنيسة صغيرة • وممن دفن فيها أراكيل بك مدير الخرطوم (يناير ١٨٥٧ ـ فبراير ١٨٥٩) • وعند قيام الثورة المهدية وسقوط الخرطوم حطمت الكنيسة ، كما عبث بقبور الموظفين التى تحت القبتين الكبيرتين وما حولهما •

وقد بالغ الرحالة والكتـــاب الأجانب لدرجة كبيرة فى شرح الاهمال الذى يلقاه العبيد عند دفنهم ، وقالوا ان جثثهم كانت ترمى فى النيل او خارج المدينة وسط الحشــائش أو فى حفرة مهملة بلا طقوس دينية (١٣٩) • والواقع غير ذلك ، فقد كان العبد يدفن بنفس الطقوس التى يدفن بها سيده •

ومن المدافن التى كان لأصحابها شهرة فى العهد المصرى (١٤٠)، والذين عرفوا بالتقوى ومنح البركة فى حياتهم قبر الشيخ امام ابن محمد • وقد أثر عن الشيخ أن جنديا سودانيا اغتصب فتاة بالقرب من قبره ، فعاقبه الشيخ بأن عاش بقية حياته مجنونا يذرع شوارع الخرطوم ذهابا وايابا •

ومن هذه المدافن قبر الشيخ محمد المبارك الذى مات حوالى سنة ١٨٧٦ ودفن فى حلة برى شرق الخرطوم . ومن مآثر صاحب القبر ابتداء أهل برى فى دفن موتاهم فى الحلة بعد أن كان محل الدفن مقصورا على مقبرة أبو نجيلة على ضفة الأزرق الشمالية فى مواجهة جزيرة توتى .

ومن المدافن أيضا قبر الشيخ فايد (١٤١) الذى أتى الى السودان من قليوب فى مصر أيام الحكم المصرى ، وقتل عند دخول الثوار المدينة سنة ١٨٨٥ . وكان له فى مكان قبره كوخ وخلوة وحجرة للضيفان . وكان هؤلاء المشايخ جميعا يعملون بالتدريس فى حياتهم فى خلوات أقاموها لهذا الغرض ودفنوا بجوارها عند وفاتهم .

وقد جرت العادة عند تقسيم المدن حسب التركيب الوظيفى أن تعتبر نواة المدينة قلبها التجارى ، وهو فى الخرطوم عبارة عن منطقة السوق (سوق الدكاكين) . وقد نشأ السوق عند اول تأسيس المدينة حول الجامع على عهد خورشيد ، ثم امتد بعد ذلك فى كافة الاتجاهات . ولكن لم تلبث مبانى (محل موسى بك) والتكنة القديمة ومبانى فريق الترس وحى سلامة الباشا أن وقفت حائلا دون امتداده أكثر مما امتد اليه ناحية الشمال والشرق ، والجنوب والجنوب الشرقى ، والغرب والجنوب الغربى على الترتيب . وقد ترتب على ذلك انحصار السوق فى رقعة محددة من الأرض طوال الحكم المصرى ، وثبات حدوده الخارجية منذ سنة ١٨٦٠ على الأكثر .

واذا كان قيام التكنات وحلة المراكبية واتساعهما كلما تقدم العهد بالحكم المصرى قد أدى الى امتداد المدينة كثيرا ناحية الشرق

والجنوب الشرقي وفقدان السوق صفة التوسط والمركزية في المدينة ـ فان مما خفف كثيرا من تلك الحقيقة أن السوق كان يقع وسط محل موسى بك وقسم الجامع والحى القبطى وفريق الترس وحى سلامة الباشا ، وهى أكثف المناطق بالسكان ، كما كان في نفس الوقت غير بعيد عن حلة المراكبية .

وقد خلا السوق من مخازن التجارة الكبيرة منذ أول انشائه حتى سنة ١٨٥١ . فقبل تلك السنة ـ ومنذ فتح النيل الأبيض للتجارة سنة ١٨٤١ احتكر حكمدارو السودان تجارة الصادرات بالبلاد . ومع ذلك كانت مباني السوق في تلك الفترة في توسع مستمر بسبب نشاط التجارة في الواردات اللازمة لسد مطالب مجتمع الخرطوم الكبير ، مما أدى الى اضافة محلات جديدة الى مباني السوق سنة ١٨٥١ على عهد الحكمدار عبد اللطيف باشا (اكتوبر ٤٩ ـ ديسمبر ٥١) (١٤٢) . وما أن أعلنت حرية التجارة في النيل الأبيض في تلك السنة حتى رددت صداها في طبوغرافية السوق التي اتخذت شكلها النهائي سنة ١٨٦٢ ، حين قدر عدد محلاته بألف محل (١٤٣) ، وذلك عندما وصلت علاقات الخرطوم التجارية مع جنوب السودان ـ بخيراته المديدة ـ الى أقصى درجة من التقدم .

ومن آثار نمو تجارة الخرطوم مع الجنوب ، واتساع حلة المراكبية في ذلك الوقت أن قام بالحلة سوق يسد مطالب أهلها من الطعام ولوازم الحملات عموما وحملات الجنوب على وجه الخصوص . وقد عرف هذا السوق بسوق (بت عينة) ، ويبدو أن هذا الاسم لأول سيدة عملت فيه بالتجارة .

واذا كان نظام الحكم المركزي الذى أعلنه سعيد باشا سنة ١٨٥٧ ـ والغى فيه الحكمدارية وقسم السودان الى مديريات

منفصلة تتصل كل منها بالقاهرة مباشرة (١٤٤) ـ قد ترتب عليه اغلاق ثلث محلات السوق فانه ما أن رجعت اللامركزية على عهد الحكمدار موسى حمدي (مايو ١٨٦٢ ـ مايو ١٨٦٥) ورجعت معها الى الخرطوم أنـــواج الجند والموظفين الذين كانوا قد انتقلوا الى المديريات ـ حتى رجع الى الســـوق رونقه واكتمل افتتـــاح كل محـــلاته (١٤٥) ٠

ويقوم السوق حول الجامع الذى تخرج من ميدانه (قصيريتان) احداهما تعرف بالقصيرية الكبيرة والأخرى بالقصيرية الصغيرة ، وكل منهما تضم ثلاثة أو اربعة ممرات مغطـــاة أسقفها بالحصر والقش واغصان الأشجار الجافة والقماش الســـميك ٠ وتضم القصيرية الكبيرة المحلات الفاخرة التي تزخر ببضائع مصر والهند وتركيا بل وامريكا ، ومن هذه البضائع المنسوجات والملابس الجاهزة والأحذية والاوعية من الصينى والأدوية ٠ ويسيطر الهدوء على تلك القصيرية، ويجرى فيها الهواء الطلق المعطر بالبخور ٠ أما القصيرية الصغيرة ، فاكثر محلاتها تتاجر فى البقالة بجميع أصنافها وكذلك الخمور ، وهى أكثر حياة وصخبا من زميلتها الكبيرة لتردد الكثير من الأسر المتوسطة والفقيرة عليها (١٤٦) ٠

ومحلات السوق صغيرة بشكل عام ، وهى تتجاور على كلا جانبى الممرات وأمام كل منها مصطبة ارتفاعها حوالى قدمين ٠ وكان صاحب المحل يجلس على عتبته وحوله البضائع مكومة فى داخل المحـــل وعلى المصـــطبة ، ممـــا كان يزيد من ضـــيق ممرات الســـوق (١٤٧) ٠

ومن سمات التجارة فى السوق أن البضائع المستوردة غالية الثمن ومن نوع ردىء فى معظم الأحيان ، وأن المضاربين يستغلون فرصة نضوب معينها من الســـوق ـ وخاصة فى موسم المطر ـ

ويرفعون اسعارها بدرجة جنونية (١٤٨) ، وان اليونان هم سادة تجارة البقالة ، وكانت محلاتهم تتقدمها صالات مسقوفة يسمرون فيها مع الأصدقاء ويتعاطون الخمر (١٤٩) .

والى جنوبى شرق (سوق الدكاكين) ، وشرق الثكنة القديمة وجنوبها ، وفى مكانه الذى قام فيه منذ الفتح المصرى يقوم (سوق الشمس) . وفى الجزء الغربى من هذا السوق ، وجنوب الثكنة القديمة تماما يقوم (سوق القش) فى العراء بلا ظلالات ، ومما يباع فيه القش - وهو كل طعام للحيوان - وأخشاب التطيب والحريق ، والتمر الهندى على شكل أقراص للحريق ، والصمغ والجلود .

وتخرج من سوق الشمس أربعة مسالك على جانبيها رواكيب من فروع الشجر تظللها الحصر والأبراش التى يغير اتجاهها تبعا لحركة الشمس الظاهرية (١٥٠) . وهذا السوق المظلل يعرف (بسوق البقالة) ، وفيه تباع الأطعمة من الأسماك مطبوخة وغير مطبوخة وزبد ولبن وحلوى ومشروبات منها المريسة والعرقسوس وكذلك الدهن لتمشيط الشعر ، والأدوات المنزلية الخشبية والحديدية والنحاسية ، والحبال ، ولوازم المرأة من الأقراط والخواتم والأساور والخضاب والكحل .

وأهم ما يباع فى سوق البقالة - بلا شك - الخضراوات والحبوب واللحوم والفاكهة . وكلها متوافرة دائما وتسد مطالب مجتمع الخرطوم الكبير . ومصدرها حدائق المدينة والمنطقة الزراعية الواقعة فى زمامها ، وقرى ضفتى النيلين غير البعيدة عنها ، وظهيرها الزراعى فى منطقة الجزيرة .

ومن مآثر العهد المصرى تعريف السكان بأصناف كثيرة من الخضراوات (١٥١) ، ونشر زراعتها فى حدائق المنازل التى تتسع

لدرجة كبيرة في غرب المدينة • ومن المصادر الأخرى التي تمد سوق الخرطوم بالخضراوات جزر النيل الأبيض بالقرب من الخرطوم ـ وجروف النيلين الأبيض والأزرق التي تزرع بعد الفيضان ـ وبخاصة النائمة منها بجوار النيل الأبيض في منطقة المقرن وعلى الضفة الشمالية للنيل الأزرق فيما بين جزيرة توتي من ناحية وحلة خوجلي وحلة الصبابي من ناحية أخرى • كما أن القرى جنوب الخرطوم ـ كالجريف وغيرها ـ تزرع الخضراوات من أجل سوق الخرطوم •

ومن الحبوب في سوق الخرطوم الذرة والقمح والشعير والسمسم • والذرة أهمها جميعا لأنه طعام السكان الرئيسي ، ويزرع في الأراضي الزراعية بزمام المدينة : في منطقة المقرن بالسواقي ، وفي أرض الصفاري (١٥٢) على يد سكان حلة المقرن وفريق الترس بعد الفيضان بالسواقي والآبار ، وفي جنوبي غرب المدينة على المطر (١٥٣) كما ينقل الذرة الى سوق الخرطوم من أراضي الظهير الزراعي على ضفتي النيلين ، والذي يمتد بعيدا الى الجنوب في أرض سنار حتي الجهة الشمالية الغربية من ود مدني حيث وطن الحلاويين أعظم زراع للذرة على المطر في البلاد ، ثم يتعمق بعد ذلك نحو الجنوب الى منطقة مدينة سنار التي كان نقل الذرة منها الى الخرطوم لا ينقطع على مدار السنة سواء بالسفن أو القوافل (١٥٤) •

واذا كانت التنظيمات الضرائبية قد ساعدت أحيانا على عدم انتظام نقل الأطعمة الى سوق الخرطوم ، واذا كانت الزيادة التي وضعها الحكمدار جعفر مظهر على ضرائب السواقي تعد مثالا في هذا المجال (١٥٥) فان معين الذرة مع ذلك لم يكن لينقطع عن الخرطوم ، حيث أنه ـ علاوة على انتاجه الكبير ـ كانت معظم الأراضي المنتجة له في جنوب المدينة تزرع على المطر لا السواقي بما في ذلك أراضي الظهير الزراعية •

وتتوافر اللحوم فى سوق الخرطوم ، وهى تنقل اليه حية من القرى المجاورة وبخاصـــة من الجريف التى تتركز ثروة أهلها فى القطعان الكبيرة من الأغنام ، كما تأتى من مناطق بعيدة أيضـــا . ومما أسهم فى توفير اللحوم لســوق الخرطوم على الدوام توقف حكومة مصر منذ حوالى سنة ١٨٣٥ عن استيراد الماشية من كردفان لموت معظمها أثناء الرحلة الى مصر (١٥٦) . ولقد كان من المناظر المألوفة مطالعة القطعان الكبيرة من الماشية والأغنام آخذة طريقها من كردفان الى الخرطوم (١٥٧) .

ويقوم مجزر الخرطوم فى أقصى جنوب (سلامة الباشا) ، وقد بنى بين سنتى ١٨٤٠ ، ١٨٦٠ . وقبل بنائه كانت الماشية تذبح على ضفة الأزرق فى أقصى شرق المدينة ليتسنى امداد (العرضى) باللحوم دون أى بذل فى نقلها . ونتيجة لقيام المجزر فى مكانه الجديد قام سوق صغير للماشية والأغنام بجواره . أما سوق الماشية الكبير فكان الى الغرب من سلامة الباشا فيما وراء الترس ، ويعرف (بسوق الأربعاء) لأنه يعمر فى ذلك اليوم من كل أسبوع . وفى سوق القش أيضا مكان صغير مخصص لبيع الأغنام .

وتتوافر الألبان فى سوق الخرطوم ، وهى ترد اليه من القرى الجنوبية القريبة من المدينة كما يتوافر فيه الجبن الذى عرف السكان صناعته بعد الفتح المصرى (١٥٨) ، وكان معروفا فقط حيثما يعيش الترك والمصريون والأجانب .

واذا كانت الفاكهة تكثر فى سوق الخرطوم فان فى حدائق المدينة مصدرها الأول . وهذه الحدائق علامة بارزة من علاماتها ، فبينما المنطقة المحيطة بها صحراء قفر اذا بالأمر يختلف تماما فى المدينة . وكانت البلاد لا تعرف حدائق المنازل بأشجارها المثمرة قبل الفتح المصرى . ويرجع الفضل فى تعريف السكان بها وبفوائدها

الى خورشيد باشا الذى أرسل الى مصر يطلب من أشجارها المثمرة ما يمكن غرسه في جزيرة سنار ، ووجد أمله صدى عند محمد على الذى أمر المختصين فى مصر باجابته دون تأخير ، اذ كان يرى أنه « بما أن طلب الأغا المومى اليه أمر خيرى فاجمعوا ما يمكن جمعه من الأشجار المثمرة من جنينة شبرا ومن غيرها ، وضعوها فى قارب واعتنوا فى وضـــعها وسلموها لجـــانب الأغا المومى اليه وفقـــا لمطلوبنا » (١٥٩) .

وقد شجع سعيد باشا اقامة الحدائق بالبلاد وزراعة أصناف جديدة من الأشجار المثمرة ، ومن وسائله في ذلك اعفاء الحدائق من الضرائب ، حيث « أنه من البديهى فى حالة اعفاء الحدائق الموجودة بالأراضى السودانية من الأموال سيرغب كل شخص فى غرس تلك الأشجار ، وسيكون ذلك سببا فى ازدياد الحدائق يوما فيوما ، وفى انتظام وعمران الأقاليم الســـودانية ، والاكثار من اصـــلاحها ومدنيتها (١٦٠) . كما طلب سعيد باشا من حكام السودان تشجيع الأهـــالى على زراعة الأشـــجار فى الطرق وعلى ضـــفاف النيل ، ليستفيدوا أولا بانتاجها وثانيا بالأثر الطيب الذى تحدثه بامتدادها على طول الطرق والشواطىء (١٦١) . وقد ظهرت الخرطوم بعد عهد سعيد ـ نتيجة لذلك ـ وحدائق المنازل والمبانى الحكومية تمتد على طول ضفة الأزرق ، فاذا كان المساء وعندما تهب على المدينة ريح الشمال العليلة ـ انتقل معها الى المدينة أريج حدائقها (١٦٢) . وقد أفاض الرحالة زوار الخرطوم فى الحديث عن ثمار حدائقها من حيث أصنافها ورتبها وفصول أثمارها . وأضافوا الى ذلك أنه لم يكن يخلو فصل م نفصول السنة من بعض أصنافها ، وأن بعضها يتوافر فى المدينة على مدار السنة ، وأن أشجار الموز والبرتقال والعنب ونخيل البلح تثمر مرتين فى العـــام : مرة فى كل من الصيف والشتاء (١٦٣) . ولقد وصل الأمر بالرحالة هاملتن (١٦٤) الى القول

بأن القمح ـ وكان يزرع في بعض الحدائق ـ ينبت أربع مرات في السنة الواحدة ·

ومما كان يزرع في حدائق الخرطوم الدخان والبطيخ ، والثمار الأخيرة تينع في الجزر وبخاصة جزيرة توتي ، وهي دواء للسكان في شهور القيظ (١٦٥) ·

وعلى راس حدائق الخرطوم حديقة دار الارسالية الكاثوليكية، وتختلط فيهـا المزروعات الأوربية بالمزروعات المدارية ، فقد كان الرهبان يأتون بالبذور من خارج البـــلاد في كل الفرص الممكنة وينبتونها فيها ، وقد تمكنوا نتيجة لذلك من زراعة بعض الخضراوات الأوربية وان كان الوليد الجديد قد تغيرت طبيعته ـ الى حد ما ـ عن طبيعة أمه (١١٦) · وسار في هذا الطريق أيضا كبار الأجانب في المدينة ، مما جعل من حدائقهم حقول تجارب زراعية في الواقع · وكانت حدائق دار الارســـالية وبعض كبار الأجانب تبز حديقة السراي ، كما كانت محط زيارة الأجانب النازلين بالمدينة ·

وتســتقى حدائق ضفة الأزرق بالســواقي القائمة على طول الضفة على أبعاد طولها حوالى مائتي خطوة · وترفع تلك السواقي الماء من النيل الى قنوات ضيقة مكشوفة تقطع الضفة الى الحدائق · فاذا كانت مياه النيل منخفضة ، وعجزت ساقية واحدة عن رفعها ركبت ساقية أخرى فوقها أو (شادوف) أو أكثر من (شادوف) واحد حتى يمكن رفع المياه الى الضفة (١٦٧) · أما الحدائق التي تبعد عن الضفة فتستقى بالآبار المحفورة فيها ، والتي كانت تعمل عليها السواقي كذلك ·

وكانت حدائق الخرطوم مسرحا لدراسة طبيعة الحيوان والطير، وهو الأمر الذى كان يهتم به الكثير من الأوربيين وبخاصة الرحالة

منهم ، ومن اجل ذلك كانت ميدانا لجمع حيوانات وطيور البيئة المحيطة بالخرطوم وما يمكن أن تتطاول اليه امكانات هؤلاء الأوربيين من بيئات البلاد (١٦٨) ٠

ومن فضل الادارة المصرية على البلاد تعريفها الأهالى بحدائق الميادين ، وكان ذلك عندما أنشأ اسماعيل أيوب حديقة فى ميدان المديرية وصفت بغنى أشجارها وزهورها واستقامة مسالكها ، كما كانت موسيقى الجيش تعزف فيها كل مساء (١٦٩) ، فكانت الأولى من نوعها فى البلاد ٠

واخيرا ، انه مما يؤكد أن حدائق الخرطوم كانت سمة مهمة من سمات المدينة فى العهد المصرى أن بعض أهالى الخرطوم وضواحيها من المعمرين الآن يعرف – على وجه الدقة – ترتيب تلك الحدائق واسماء ملاكها على طول ضفة الأزرق ٠

ولم تكن متاجر سوق الشمس تقتصر على ما سلف ذكره من الاعلاف والأخشاب وأصناف الأطعمة والفاكهة فقد كان من هذه المتاجر أيضا المصنوعات المحلية ، وأكثرها يباع فى سوق القش : وكانت تلك المصنوعات قليلة للغاية (١٧٠) ، لقلة حاجة الأهالى الى المصنوعات عموما ٠ فبينما المواطن السودانى – فى معظم الأحيان – فى غير حاجة الا لعدة أوعية من الفخار لطهى طعامه ، وعدة أوان من لحاء ثمرة القرع لأغراض أخرى ، والقليل من الاقمشة القطنية الخشنة والحصر والأسرة وأدوات الزراعة – كان المصريون والترك والأجانب يعتمدون اعتمادا كليا على المصنوعات المستوردة ، ولم يكن يسعفهم – الى جانب ذلك – الا خدمات بعض صناع الأحذية والثياب من المصريين وخياط المانى وساعاتى سويسرى استوطنا الخرطوم منذ مدة طويلة (١٧١) ٠

وأهم الصناعات التى قامت فى القرى المحيطة بالخرطوم وكذلك فى حى سلامة الباشا ـ وكان سوقها المختار هو الخرطوم ـ صناعة الأقمشة القطنية الخشنة المعروفة بالدمور ، وكانت النســاء يقمن بصناعتها فى البيوت على أنوال بسيطة بعد غزل خيوط القطن الذى تنتجه الأراضى المطرية بالبلاد (١٧٢) . وقد حاول اسماعيل أيوب ادخال صناعات القطن الآلية فى كسلا والخرطوم ، ووصلت فعلا الآلات اللازمة لتلك الصناعات الى هاتين المدينتين ، ولكن لما كان وقود الآلات من الأخشاب المحلية فقد توقفت عن العمل بعد سنوات قليلة بعد استنفاد الأخشاب فى المنطقتين ، علاوة على عدم توافر امكانات الصيانة (١٧٣) .

ومن الصناعات التى قامت فى المنطقة الريفية المحيطة بالخرطوم صناعة الحصر التى منها الحصير الخشن المستعمل فى الرواكيب والظلالات والحواجز ، والحصير الدقيق ذو الألوان العجيبة المستخدم فى تغطية الأسرة . وصناعة السلال من أوراق شجر الدوم بعد تقطيعها الى شرائح رفيعة ، وقد برعت فيها المرأة السودانية لدرجة أنه كانت تحمل فيها الألبان والمياه دون أن ترشح . وصناعة الأوعية من الفخار ، والأدوات الزراعية ، ورؤوس الجراب والسكاكين من الحديد ، والشباك (الحنقريبات) (١٧٤) . ومن أهم الصناعات أيضا المصنوعات الجلدية التى كانت تقوم على ما يدبغ من الجلود فى الخرطوم ومنطقتها الريفية ، على أن أجود أصنافها كان يعتمد على الجلود المجلوبة من شندى والمتمة عاصمتى دباغة الجلود فى البــلاد (١٧٥) .

ومن الصــــناعات التى قامت فى الخرطوم صناعة عصر بذرة السمسم وصناعة الصابون . وقد تركزت صناعة عصر الزيت فى منطقة (العصارات) بأقصى جنوب المدينة على الأطراف الغربية لســلامة الباشــا . وقد أقيمت فى هذا الطرف البعيد لأنها تصدر

أصواتا عالية ـ حيث أنها ذات هياكل خشبية كبيرة كالسواقى ـ وتلزمها الزرائب لأنها كانت تدار بالجمال • ومن المعاصر المعروفة معصرة ود الجــــار كوك ومعصرة ابراهيم خليل القبطى • وكان بمنطقة (المعصارات) أيضا طاحونة تدار بالبقر (لزنوبة بك)(١٧٦)•

وكانت صناعة الصابون لا تتركز فى منطقة معينة بالمدينة • واهم مصنع للصابون كان لشنوده القبطى ، ويقوم فى منطقة سوق الدكاكين (١٧٧) • ولما كان انتاج الصابون فى الخرطوم عاجزا عن سد حاجة الاستهلاك المحلى للمدينة فان سوقها كان يستمد حاجته من هذا الصنف من الكاملين اهم مدينة فى البلاد فى صناعته بعد الخرطـــــوم (١٧٨) •

وكانت محلات صياغة الذهب والفضة فى الخرطوم من اهم ما يطالعه الرحالة عند اول نزولهم بالمدينة • وقد ازدحمت كتبهم بوصف تلك المحلات وعمالها المهرة والمصنوعات التى تنتجها من حلى للنساء وأدوات للمائدة واخرى للزينة (١٧٩) • ومن الأعمال الممتازة لقلة من صياغ الخرطوم تطعيم مقابض السيوف واغمادها بالفضة ونقش الآيات القرآنية على انصالها ، وقد اشتهر بهذا الأمر الأخير صائغ عجوز محنك كانت زيارته ضرورة مهمة تتضمنها برامج زيارات الرحالة الأجانب لمعالم المدينة • وقد قامت على استعمال السيوف صناعة أغمادها وكانت حمراء قرمزية من الجلد ، وصناعة مقابضها وكانت على شكل الصليب (١٨٠) • وجماعة التبيداب أحسن صياغ فى البلاد ، وكانت محلاتهم فى السوق •

وقد قامت فى الخرطوم صناعات جديدة تعتمد على غـــــلات البلاد ، منها صناعة تنظيف وتصنيف الصمغ العربى حسب نوعه وحجم قطعه ، وقد استقدم المسيو ماركيت الفرنسى آلة من اوربا لهذا الغرض بقصد تحسين أصناف الصمغ المصدر الى اوربا ، وعمل

في هذه الصناعة بعض نساء وصبية الخرطوم تحت اشراف أحد الأوربيين • ومن الصناعات التي أقامتها ماركيت أيضا صناعة تصنيف ريش النعام حسب جودته ونواحي استعماله ، مما رفع من أسعار الأصناف الممتازة منه (١٨١) •

وقد قامت بالخرطوم ـ علاوة على ذلك ـ صناعات على بعض الغلات الحيوانية مثل قرون الخرتيت وأنياب الفيل وأسنان فرس البحـــر •

وقد اطلع العالم الخارجي على مصنوعات السودان والخرطوم عندما عرضت تلك المصوغات ـ الى جانب الأدوات التي يستعملها أهالي البلاد ـ في معرض باريس الدولي سنة ١٨٦٧ • وقد حازت المشـــغولات الفضية الدقيقة المصـــنوعة في الخرطوم اعجاب كل المشـــاهدين (١٨٢) • كمـــا احتـــوى المعرض الذي أقامته الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس سنة ١٨٨٢ على خمسين مجموعة من مصنوعات السودان والخرطوم (١٨٣) •

ولقد كان لسوق الخرطوم من المتاجر ما أخذت تجارتها أشكالا غير ما جرت عليه في سوق الدكاكين ، وفي سوق (بت عينة) في حلة المراكبية ، وتحت الرواكيب في سوق البقالة ، وفي العراء في سوق القش ، وفي سوق الأربعاء وسوق المجزر حيث تباع المواشي والأغنام • فمن المتاجر ما كان يحملها التاجر ويدور بها في السوق مناديا عليهـــا ، ومنهـــا الملابس المســـتعملة والأسلحة والطيـــور والماء (١٨٤) • ومن المتاجر ما كان يباع بالمزاد ، ولا يوجد هنـــا مشترون يلتفون حول البضاعة ، بل كان التاجر يدور بها في السوق ويتلقى عروض الشراء ، فاذا مضت مدة بحث في ذهنه عن أكبر عرض شراء وصاحبه وذهب اليـــه وعقد معه الصفقة ، ومن أهـــم ما يتاجر فيه على هذا الشكل العبيد (١٨٥) • ومن التجار بالخرطوم من كان يتخذ من منزله محلا للتجارة • ومنهم أيضا (الجلابة) وهم الوســطاء التجـــاريون الذين يرحلون بين الخرطوم ومراكز الانتاج

المختلفة فى البلاد ، وأماكنهم المختارة فى السوق حيث كانوا يعقدون الصفقات التجارية مع تجار المدينة ومن بينها الرقيق (١٨٦) ، وكانت المقاهى من أهم تلك الأماكن .

والعملة المتداولة فى سوق الخرطوم هى بعينها المتداولة فى مصر ، وهى مضروبة فى مصر وتركيا والنمسا وفرنسا وانجلترة . وقد أدى تعدد مصادرها الى تعدد أصنافها وتغير قيمتها واختلاف أسمائها ، بل واختلاف قيمة القطعة نفسها من وقت لآخر فى المكان الواحد ومن مكان لآخر فى نفس الوقت . وابخس عملة فى السوق قيمتها خمس بارات (ثمن القرش) ، وأثمنها الجنيه المصرى ، وأشهرها الريال والقرش (١٨٧) .

وكانت الموازين والمكاييل والمقاييس فى السوق هى مثيلاتها فى مصر ، فكانت وحدة الموازين هى القنطار والأقة والرطل ، ووحدة المكاييل هى الأردب ، ووحدة المقاييس هى الذراع .

وقد كان من أثر احتكاك تجار الخرطوم بأفراد المجتمع الكبير فى المدينة ـ وبخاصة المصريين والترك والأجانب ـ اختصار كثير من العملات والموازين والمكاييل والمقاييس بعد أن ظلت فترة طويلة بعد الفتح تحت الاختبار . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح سوق الخرطوم لا يعتبر من هذه المقاييس جميعا الا ذوات القيمة المحددة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه جهات أخرى عديدة فى البلاد تعتمد مقاييس أخرى (١٨٨) .

ولقد كان مدير الخرطوم يزور السوق بين الحين والآخر ـ وبخاصة فى يوم الجمعة ـ لمراقبة عمليات البيع والشراء وضمان دقة الموازين والمكاييل (١٨٩) . وفى عهد الحكمدار جعفر مظهر أنشئت بالخرطوم قوة من القواصة الضبطية كان من مهامها هذا الأمر (١٩٠) .

واذا كان السوق علما على الخرطوم ، الأمر الذى أجرى السنة الأهالى بعبارة (ايش معدوم فى سوق الخرطوم) (١٩١) ، وأجرى السنة الأجانب بالعجب مما جاء بكل تلك البضائع الى منطقة كالخرطوم تقوم فى داخل أفريقية (١٩٢) فان علاقات سوق الخرطوم التجارية بخارج البلاد لم تكن مقصورة على الواردات ، بل كان هناك ـ الى جانب ذلك ـ عمل كبير يقوم به هذا السوق فى مجال تجارة الصادرات ، فقد لعب دوره كاملا طوال العهد المصرى كمحطة لتسويق تلك الصادرات من جميع جنبات البلاد وتوزيعها على العالم الخارجى فى مصر وأوربا وغيرهما ـ وهو الدور الذى كان لبعض مدن السودان قبل قيام العاصمة الخرطوم ·

الهــــوامش

(١) شقير : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٧ ·

احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٦ ·

(٢) Walkley, C.E.J. « the story of Khartium », SNR., Vil. VIII, 1935, p. 227.

(٣) احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ٢٦ ·

ويقصد برباطاب وبربرة وشنده : بلاد الرباطاب التي تمتد من الشلال الخامس حتى عرب ابى حمد بحوالى خمسين كيلومترا ، وبربر وهى بلاد الميرفاب ، وشندى وهى بلاد الجعليين ·

(٤) Combes, E. : Voyagl en Egypte, en Nubie, dans les deserts de Beyouda, des Bicharys et sur les cotes de la Mer Rouge, Vol. 11, p. 11.

(٥) تقوم (شجرة محوبك) الآن محل ورش تفتيش الرى المصرى بالسودان والحلة المجاورة لها على الضفة الشرقية للنيل الأبيض جنوب منطقة المقرن بثلاثة اميال · وكان يلذ لمحوبك التنزه فى تلك المنطقة · وعند وفاته دفن بها تحت شجرة حراز كبيرة ، فعرفت المنطقة (شجرة محوبك) وكانت تقوم فى تلك المنطقة حلة الحماداب التى انتقلت قليلا الى الشرق بعـد قيام الورش منذ سنة ١٩٠٠ · ويطلق الانجليز على المنطقة (شجرة غردون) :

من رواية للشيخ نور الله على الحماداب (ابريل ١٩٥٨) ـ وانظر :

(٦) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

W.S. : « Gordon's Tree », SNR., Vol. VIII, 1925, p. 237.

(٧) Prudoe, Hard : « Extrait des notes ecritées pendant un Voyage de Caire au Sennar », Nav., Tome deuxime de l'année 1837, pp. 261-62.

(٨) احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ٢٩ ·

وانظر ايضا : محمد نيازى : كاتب سياحة فى السودان فى الوقائع المصرية نمرة ١٤٧٢ ، ص ٤) ·

(٩) Von Callots, E.F. : op. cit., p. 149.

(١٠) محمد عبد الرحيم : النداء فى دفع الافتراء ، ص ٢٨٢ .

وحلة كركو ضاحية من ضواحى خرطوم بحرى الآن ، وكان يسكنها المغاربة قبل الفتح المصرى .

(١١) ينسب (المحل) الى موسى حمدي باشا الذى كان أول من سكنه من الموظفين عندما كان ضابطا بالجيش وقبل أن يصبح حكمدارا ـ انظر)

Hill, R. : A biographical dictionary of the Anglo-Egyptian S., p. 283.

(١٢) Prudhce, Lord : op. cit., p. 263.

(١٣) Hauglin, M. Th. V. : op. cit., p. 2.

(١٤) القباني : السودان المصرى والانكليز ، ص ٨٤ .

(١٥) Lejean, G. : op. cit., p. 26.

(١٦) الفرق جمع فريق ، وهو جماعة من الناس تسكن جهة معينة يقل عدد المنازل فيها عن مائة منزل . اما الحلة فتطلق على المكان الذى يقوم فيه مائة منزل أو اكثر .

(١٧) يمكن تحديد الامتداد الأول للقلب ناحية الجنوب فى الخرطوم الحالية بشارع الجامعة ، والامتداد الثاني بشارع الجمهورية .

(١٨) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875 - 78), p. 173.

(١٩) Op. cit., p. 27.

(٢٠) Muskau, Prince, p. Op. cit., Vol. II, p. 199.

وقد ارتفع عدد الجيش فى آخر عهد خورشيد (١٨٢٨) الى ١٧٠٠٠ جندى :

Tounsy, Le Cheik Mohammed Ibn Omar, El Voyage au Darfour, traduit de l'Arabe par le Dr. Perron (l'appendice au voyage : pp. 386-87.

Dehérain, H. : op. cit., p. 153.

(٢١) Jomard, Edm. F. : op. cit., p. 495.

(٢٢) Dodwell, H. : op. cit., p. 53.

(٢٣) Combes, E. : op. cit., p. 124.

Muskau, Prince p. : op. cit., pp. 180-81 & p. 191 & p. 199.
Lepsius, Dr. R. : Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai, p. 195.

(٢٤) Tremaux, p. : op. cit., p. 21.

(٢٥) Deherain, H. : op. cit., p. 154.

Jacomio, L. : Les chausseurs d'esclaves, pp. 250-51.

(٢٦) القباني : مذكرات عن الحكم المصري بالسودان ، ص ١٤٩ من الجزء الاول من كتاب السودان لعبد الله حسين ٠

(٢٧) تقوم كنيسة القبط الآن محل الكنيسة القديمة عند الطرف الشمالي لشارع اسماعيل ٠ ويقيم معظم قبط الخرطوم اليوم عند الاطراف الجنوبية من ذلك الشارع بأقرب من الكنيسة ٠

(٢٨) يمكن تحديد مكان الترس في الخرطوم الحالية ، بأنه كان يمتد غرب حديقة الحيوان مباشرة ، ثم يمتد الى محل شركة النور فمحل المدرسة الثانوية المصرية ثم يسير بعد ذلك في خط غير مستقيم ينطبق الى حد ما على شارع اسماعيل حيث ينتهي عند ثكنات عباس في اقصى جنوبي غرب المدينة :

من رواية لعثمان الطاهر والشيخ محمد نور عثمان من شمبات (ابريل ١٩٥٨) ٠

هذا وقد مررت (في ١٩٥٨) على طول المنطقة التي كان الترس يمتد فيها ، ولاحظت ان الجهة الواقعة خلف المدرسة وغرب شارع اسماعيل في تلك الناحية منخفضة عن مستوى الشارع ، وتمثل تلك المنطقة ظهر الترس حيث كانت تحفر الاتربة اللازمة لاقامته وحيث كانت لا تزال آثار السواقي القديمة ظاهرة وكذلك الآبار التي كان السكان يعتمدون عليها في زراعة المنطقة بالذرة ، ولذلك يعرفها الاهالي بمنطقة (الصفاري) وهو نوع من الذرة ٠

(٢٩) من رواية للطاهر حسن أبو معلا ويسمى جمعة العظيمي التاجرين بسوق الخضار بالخرطوم ، وكان أبواهما من سكان المدينة في المعهد المصري ويقيمان بالقرب من منطقة الترس (مايو ١٩٥٨) ٠

(٣٠) Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Niles, II, pp. 80-81.

(٣١) Taylor, B. : op. cit., p. 269 & 276.

(٣٢) Fr. Del Bosco's letter (in 1856).
Baker, Sirs. : The Nile Triobutaries ..., p. 375.

(٣٣) Hamilton, J. : op. cit., p. 320.
Grant, J. A. : A Walk across Africa, p. 404.

(٣٤) Poncet. J. : Fleuve Blanc, p. 6.
Tremaux, p. : op. cit., pp. 21-22.
Baker, Sir S. : Albert N'yanza, p. 131.

(٣٥) انتظر وصف منزل من منازل الطبقة الممتازة وهو منزل ابو خمسمائة مدير الخرطوم فى ٠

Junker, Dr. W. : op. cit., (1879-1883), pp. 20-21.

(٣٦) Mr. & Mrs Patherick : Travels in Central Africa, and explorations of the Westirn Nile Tributaries, 1, p. 70.
H. W. : something new out of Africa, p. 20.

(٣٧) Fr. B. Rolleries's letter (in 1881).

(٣٨) Lepsius. Dr. D. : op. cit., p. 161.
Ward, J. : Our Sudan : Its pyrads and Progress, p. 132.

(٣٩) Gessi, R. Pasha : Seven years in the Sudan, p. 411.

(٤٠) Fr. Beltrame's lettir (in 1853).

(٤١) Chaillé Long : Cen'ral Africa ..., pp. 15-16.
Casati, Major G. : Ten years in Equatoria, I, p. 17.

(٤٢) Fr. B. Rollerie's letter (in 1881).

(٤٣) Didier, Charles : Cinquante Jours au desert, p. 266.

(٤٤) مكان هذا (الميدان) فى خرطوم اليوم عند الطرف الشرقى من ميدان عباس ٠

(٤٥) يقوم هذا الشارع فى الخرطوم الحالية محل شارع الجامعة ٠

(٤٦) Repirt on the Egyptian Provinces of the Sudan, pp. 122-23.
Handbook of Khartoum Province.

(٤٧) يمتد هذا الطريق فى الخرطوم الحالية فى الجزء الشمالى من شارع اسماعيل أو غربه بقليل ٠

(٤٨) يقوم هذا الطريق اليوم على امتداد شارع صالح باشا الملك شمالا ، اى فى شـارع منصور وقوعه بين مبنى وزارة الخارجية ومبنى الكلية القبطية للبنين ٠

(٤٩) يمتد هذا الطريق فى الخرطوم الحالية محل شارع العروة (نيوبلد) ٠

(٥٠) يمتد هذا الطريق فى الخرطوم الحالية محل شارع الملك ٠

(٥١) يمتد هذا الطريق الان محل شارع منصور ووقوعه فى منتصف المسافة بين شارعى الجامع وصناك ٠

(٥٢) يمتد هذا الطريق الان محل شارع السراى ٠

(٥٣) يمتد هذا الطريق الان محل شارع منصور ووقوعه بين شارع محمد على شرقا وشارع ابو سن غربا ٠

(٥٤) يمتد هذا الطريق فى الخرطوم الحالية محل شارع كرومر ٠

(٥٥) Muskau, Prince P. : op. cit., p. 200.
Tremaux, p. : op. cit., p. 18.
Fr. Dal Bosco's letter (in 1858).

(٥٦) Op. cit., p. 278.

(٥٧) Grant, J.A. : Akalk across Africa, p. 403
Khartoum as I saw it in 1863, p. 11.

(٥٨) Tremaux, pp. op. cit., p. 15.
Mel.y : G. : op. cit., p. 83.

(٥٩) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), p. 175.

(٦٠) القبانى : مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٤٠ من الجزء الاول من كتاب (السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية) لعبد الله حسين ٠

ومعن فاز بقطعة كبيرة من تلك الاراضى اليونانى جورجى تنسيادى الذى شاد عليها منزلا كبيرا من الاجر وكحله بالجير ، واسس باسفله محلا كبيرا للبقالة والمشروبات الروحية ٠ وكذلك التاجر الفرنسى البير ماركويت الذى اقام عليها عمارة سكنية كبيرة ٠

(٦١) Junker, Dr. q. : op. cit., (1875-78), pp. 168-69.

(٦٢) القبانى : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ـ ١٤١ ·

(٦٣) انظر المرسوم الاول من (المراسيم الاربعـة) فى :

Abbate, Le Docteur : De l'Afrique Central ou voyage de S.A. Mihammed Sair Pacha dans ses provinces du Soudan, pp. 29-41.

شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ـ ٢٥ ·

(٦٤) Poncet, M. J. : Le Fleuve Blanc, p. 7.
Heuglin, M. The V. : op. cit., p. 4.

(٦٥) دفتر ١٨٩٩ اوامر عربى ـ الامر الكريم رقم ٢١ ، ص ١٢٤ ·
بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٧٨ ·

(٦٦) Schweinfurth, Dr. G. : op. cit., p. 71 & p. 481.

(٦٧) يقوم هذا الميناء فى الخرطوم الحالية محل المحطة البحرية التى تربط الخرطوم بجنوب السودان ·

(٦٨) Chailie Long, Col. C. : Central Africa ..., p. 16.
Poncet, M. J. : op. cit., pp. 6-7.
Fr. Luigi Montouri's lettlr (in 1843).

والزبلة عبارة عن روث الماشية بعد خلطه بالماء وتركه فترة من الزمن ليتخمر ، وهى تمنع تسرب مياه الامطار الى داخل الجدران ·

(٦٩) Melly, G. : op. cit., p. 113.
Fr. Dal Bosco's letter (in 1881).

(٧٠) Dufton, H. : op. cit., p. 9.

(٧١) Dujarric, G. : l'Etat Mahdiste du Soudan, p. 116.

(٧٢) Dufton, H. : op. cit., p. 30.

(٧٣) دفتر تركى ٥٥٨ قسم ثان ، ص ١ ، وثيقة رقم ٤ ·
بتاريخ ٢٣ جمادى الأول ١٢٨٣ الواردة الى حكمدار السودان ·

(٧٤) Douin, G. : Histoire du Regne du Khedive Ismail, III, 1 re partie, pp. 307-8.

(٧٥) دفتر تركى ٥٥٨ قسم ثان ، ص ١٩ ـ وثيقة رقم ٩ ·
بتاريخ ٢٣ شوال ١٢٨٢ الواردة الى حكمدار السودان ·

(٧٦) دفتر تركى ١٨٣٦ ـ وثيقة رقم ٦ ٠ بتاريخ ٦ ابريل ١٨٧٠ من جعفر باشا الى المعية ٠

وانظر ايضا :

Douin, G. : op. cit., III, 2e partie, pp. 468-69.

Op. cit., p. 481.

(٧٧)
Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), p. 178.

(٧٨)
Baker, Sir S. : Ismailia, II, p. 492.

Douin, G. : op. cit., III, 3e partie (B), pp. 1188-91.

وعند الفتح الثاني للسودان سنة ١٨٩٨ اهتدى الخرطوم الى خندق لصرف مياه الامطار الى النيل يرجع تاريخه الى العهد المصرى ، كما عثر على اربع الات لرفع المياه الراكدة الى النيل ٠ ويبتدىء هذا الخندق فى الخرطوم الحالية فى الساحة الواقعة شمال مبنى البرلمان ثم يسير شمالا على طول الجانب الغربى لشارع الملك حتى ينتهى الى النيل) ٠

Stanton, E.A.E. : Thl Sudan : Memirandum on the re-occupation.

(٧٩) دفتر ١٠ أوامر عربى ـ الوثيقة رقم ١٣ ، ص ٩٨ ٠
بتاريخ ٢ شعبان ١٢٩٣ امر الى حكمدار السودان ٠

(٨٠) دفتر ١٩٤٣ جزء خامس اوامر عربى ـ الوثيقة رقم ٣٦ ٠ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٩٣ من ادارة السودان بالمالية الى المعية السنيـة ٠

(٨١) دفتر ١٧ عربى ـ وثيقة رقم ٧ عموم ، ص ٦٤ ٠
قيد وارد الافادات من جهات الاقاليم والمحافظات والسائرة ٠

(٨٢) دفتر ١٠ اوامر عربى ـ وثيقة رقم ١٠ ، ص ٩٨ ٠
بتاريخ ١٨ جمادى الثانية ١٢٩٣ امر الى حكمدار السودان ٠

(٨٣)
De Cosson, E.A. : op. cit., p. 239.

(٨٤)
Schweinfurth, Dr. G. : op. cit., op. cit., p. 48.

Wilson C.T. & Folkin R. W. : op. cit., p. 318.

Casati, Majir G. : Ten years in Equatoria, I, p. 16.

Gossi, R. Pasha : Seven years in the Soudan, p. 411.

(٨٥) Fr. D. Rollere's letter (in 1881).

(٨٦) Prudhoe, Lord : op. cit., pp. 261-62.

(٨٧) Lepsius, Dr. R. : Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai, p. 162.

(٨٨) Heuglin, M. The V. : op. cit., p. 3.

(٨٩) Boulger, D. : op. cit., I, p. 141.

(٩٠) فى سنة ١٨٨٤ نقل الحكمدار غردون مصلحة مالية السودان الى الدور الارضى بالسراى ، واقام هو ومعاونوه فى الدور العلوى .

(٩١) Muskau, Prince P. : op. cit. pp. 080-81.

(٩٢) انظر ما كانت عليه السراى ايام عبد اللطيف فى :

Taylor, B. : op. cit., pp. 276-77.

Melly, G. : op. cit., p. 126.

Handblok of Khartoum Province Fr. Beltrame'e letter (in 1853).

Massaia, Cardinal G. : « Through the Sudan, 1851 » from : My 35 Years as a missionary in Ppper Ethiopia.

وانظر ايضا :

شقير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

مرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٩٣) Taylor, B. : op. cit., p. 277.

(٩٤) دفتر ٥٥٨ المعية تركى (جزء ثان) ـ الوثيقة رقم ٩ بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٨٣ الواردة الى حكمدار السودان .

وانظر ايضا :

شقير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٠ .

Baker Sir S. : Ismailia, 111, p. 492.

De Cosson, E.A. : op. cit., p. 240.

Junker, Dr. W. : op. cit. (1875-78), p. 172.

(٩٥) يعرف هذا الحصين (بالطوبخانة) اى محل المدافع ، وهو بناء حجرى متين عريض الجدران :

القباني : المصدر السابق ، ص ١٤٩ من الجزء الاول من الكتاب السودان لعبد الله حسين ٠

(٩٦) المصدر السابق ، ص ١٤٤ ـ ٤٦ ٠

وانظر ايضا في وصف الحكمدارية :

Tremaux, P. : op. cit., p. 19.
Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), p. 175.
Grant, J. A. : A walk across Africa, p. 414.
: Khartoum as I saw it in 1863, p. 14.

ومحل مبنى الحكمدارية الآن هو وزارة المالية ٠

(٩٧) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٣٦ ٠
& Chaille Long, Col. C. : Central Africa ..., pp. 119-20.

(٩٨) مما يؤكد ذلك انه اثناء حديثي مع شيخ الكلاكلة (وهي قرية تقع جنوبي غرب الخرطوم) عن العهد المصري بالسودان كان كثيرا ما يبدل اسم الخرطوم بالترسانة ٠

(٩٩) كان اسطول الحكومة يتكون من سبع عشرة سفينة عدا عدد كبير من الذهبيات المصنوعة من الخشب والحديد ٠ ويتراوح طول السفن بين ١٢٠ ، ١٥٠ قدما ، وحمولة كل منها بين ٢٤٠ ، ٢٦٠ طنا ، وسرعة ماكيناتها بين ٣٢ ، ٣٥ حصانا ٠ وفيما عدا ثلاث كانت كل السفن مستوردة من الخارج وبخاصة من انجلترا ٠ ومعظمها جاء ضمن حملة السير صموئيل بيكر لاكتشاف منابع النيل ٠
Pensa, H. : L'Egypte et le Soudan Egyptian, p. 231.
Chelu, A. : Le Nil, Le Soudan, L'Egypte, p. 142.

وكانت الترسانة مهياة للاصلاحات والتركيبات فقط ٠
Petherick, J. op. cit., p. 131.

(١٠١) القباني : المصدر السابق ، ص ١٥٢ ـ ٥٣ ٠

(١٠٢) دفتر ٧٢٣ تركي ديوان الخديو ـ الوثيقة رقم ٦٦٤ بتاريخ ٢ ذي الحجة ١٢٤٧ ٠

محفظة رقم ٥ قرارات مجلس الملكية والجهادية ـ المضبطة رقم ٤ بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٢٤٧ ٠

(١٠٣) دفتر ٧٤٢ تركي ديوان الخديو ـ الوثيقة رقم ٢١٩

(١٠٤) نفس الدفتر ـ الوثيقة رقم ٢٢٠ ٠

(١٠٥) يستفاد مما كتبه برون روليت أنها تقع على الابيض دون تحديد المكان بالضبط :

Rollet, B. : op. cit., p. 304.

ويستفاد مما كتبه كلبرن انها تقع عند جزيرة ابا :

Colbirne, Col. The Hon. J. : op. cit., p. 184.

وجاء في تقرير رسمي كتب سنة ١٨٨٤ انها تقع شمال الليس)

Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, p. 45.

وجاء في كتابات جليخن نفس ما تضمنه التقرير :

Gleichen, Capjt. Count : Handbook of the Sudan, p. 87.

ويستفاد مما كتبه مارتن أنها تقع عند القطينة :

(١٠٦) Martin, P. F. : The Sudan in evolution, p. 527.

Op. cit., p. 271.

(١٠٧) دفتر ٢٨ صادر المعية ـ وثيقة رقم ٣٠٧ بتاريخ ٢٧ صفر ١٢٤٥ ٠

ويبعد الترسانة عن الخرطوم بسبع مراحل (حوالى ٨٤ ميلا) يتفق مع طول المسافة بين الخرطوم وود شلعي وهي ٨١ ميلا ٠

(١٠٨) الوثيقة السابقة ٠ ٠

(١٠٩) دفتر ٧٨٠ تركي صادر ديوان الخديو ـ وثيقة رقم ٤٠ ٠

بتاريخ غرة رمضان ١٢٤٧ صورة المرسوم العالي الصادر لخورشيد اغا ٠

دفتر ٤١ تركي صادر المعيشة ـ وثيقة رقم ٥٥ ، بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٤٧ من الجناب العالي الى حبيب افندى ٠

(١١٠) Taylor, B. : op. cit., p. 313.

(١١١) De Cosson, E. A. : op. cit., p. 227.

& SA. : Grlup : Cairint - Class : I — Box : 10.

(١١٢) Piece : 52 - Doc. 3-4.

Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), p. 190.

(١١٣) مكان الترسانة في الخرطوم الحالية هو وزارة الاشغال الواقعة شرق السراى وغير بعيدة عنها ٠

(١١٤) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ص ٣١ ٠

(١١٥) Le jean, G. : op. cit., p. 26.

(١١٦) Hill, R. : A biographical dictionary of the Anggo Egyptian Sudan, p. 364.

(١١٧) Gordon, M. A. : Letters of General C. G. Gordon to his sister, p. 275.

(١١٨) Lejean, G. : op. cit., p. 26.

(١١٩) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشاتها الى العصر الحديث ، ص ١١٥ ·

(١٢٠) دفتر ٥٢٩ – وثيقة رقم ٢ بتاريخ ١٣ ربيع الاول ١٢٨٠ من الجناب العالى الى حكمدار السودان ·

(١٢١) انظر ، ص ١٠٠

(١٢٢) Stewart, Lieut. Col. « England, Gordon and the Sudan, A narrative of facts », in : Pall Mall Gazette, No. 7 (Extra) Saturday, February, 2, 1883, p. 28.

(١٢٣) لجنة التاريخ القبطى : تاريخ الامة القبطية ، الحلقة الثانية : خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر ، ص ١٧٨ ·

(١٢٤) Jomard, Edm. F. : op. cit., p. 502.

(١٢٥) Le Jean, G. : op. cit., p. 26.

(١٢٦) Grant, J. A. : A Walk across Africa, pp. 414-15.
: Ghartium as I saw it ..., pp. 17-18.

(١٢٧) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-75), p. 178.

(١٢٨) يقوم محل الارسالية فى الخرطوم الحالية على الضفة الشمالية لشارع الجامعة حيث مبانى محافظة الخرطوم وتفتيش الرى المصرى بالسودان · وقد بنيت محافظة الخرطوم بعد سنة ١٨٩٨ على اساسات الارسالية ·

(١٢٩) Fr. Luigi Montouri's letter (in 1843).

(١٣٠) الياس تونيولو : الرسالة الكاثوليكية لافريقية الوسطى ·

(١٣١) انظر : الفصل الرابع ، ص ١٢٨ ·

(١٣٢) Fr. Beltrame's Letter (in 1853).

Taylor, B. op. cit., pp. 283-84.

Grant, J.A. : A Walk across Africa, p. 416.

Petherick, J. : op. cit., p. 416.

Petherick, J. : op. cit., p. 131.

(١٢٣) الياس تونيولو ، المصدر السابق .

(١٢٤)

Fr. Beltrame's letter (in 1853).

Lejean, G. : op. cit., p. 26.

(١٢٥) Wilson, Rev. C.T. & Folkin, R. W. : op. cit., p. 317.

Junker, Dr. : op. cit., (1875 - 78), p. 179.

(١٢٦) انظر : الفصل الثاني ، ص ٥٨ .

هذا وتقوم تلك المدافن في الخرطوم الحاليـة في المنطقة المحيطة بنقطة التقـاء شارع القصر الجمهوري الشمالي الجنوبي بشارع عباس الشرقي الغربي في مواجهة النادي العربي . وبعد الفتح الثاني شق شارع فكتوريا (القصر الجمهوري الان) وسط تلك المقبرة . وجمعت الرفات وكومت في مصطبتين كبيرتين تقومان الان الى يمين ويسار شارع عباس شرق جامع الخرطوم مباشرة . كما ترتب على شق شـارع فكتوريا نقل مقبرة الشيخ امام الى الغرب من مكانها مباشرة حيث مقبرة (ابو جنزير) . وهو الاسم الذى اطلق عليها بعـد النقل بسبب احاطتها بجنزير من الحديد . ولا يزال اهل الشيخ يشرفون على المقبرة ويتلقون النذور .

(١٢٧) تقوم القبتان الان في مواجهة النادي العربي من الشمال وشرق شارع القصر الجمهوري مباشرة . وتحيط بهما مصطبة تضم رفات موتى المقابر المحيطة بهما من الموظفين وغيرهم . وقد دفن في القبة الشرقية الحكمدار احمد ابو ودان ، وفي القبة الغربية الحكمداران على جركس وموسى حمدى . وقد دفن احمد ممتاز باشا في احد القبور المحيطة بالقبتين .

Handbook of Kher town Province

وانظر ايضا : دوسـيه مقابر الحكام القدماء (القبب) بمحفوظات تفتيش عام الرى المصرى بالسودان تحت رقم ١٩ ـ ١/٢٥ .

(١٢٨)

Fr. Luigi Montouri's letter (in 1843).

وتقوم هذه المقبرة الان في المربع (3 L.W.) من المدينة .

(١٢٩)

RReisner, G.A. : op. cit.

(١٤٠) Handbook of Kkartoum province

(١٤١) يقوم هذا القبر فى الخرطوم الحالية فى الجانب الجنوبى أ شارع الجامعة قبالة ملاعب نادى السودان تقريبا .

(١٤٢) Taylor, B. : op. cit., p. 277.

(١٤٣) Tremaux, p. : op. cit, p. 22.

(١٤٤) انظر الفصل السادس ، ص ٢٥٢ .

(١٤٥) Tremaux, P., p. 22.

(١٤٦) Lejean, G. : op. cit., p. 20.
Petherick, J. : op. cit., p. 132.
Fr. Beltrame's letter (in 1853).

(١٤٧) Sartorius, E. : Three months in the Sudan, pp. 133-34.
Melly, A. : Lettres d'Egypte et de Nubie, p. 134.

(١٤٨) Hamilton, J. : op. cit., p. 320.
Pallme, I : op. cit., p. 300.
Colborne, Col. The Hin. J. : op. cit., pp. 216-17.
Bermann R. A. : op. cit., p. 29.

(١٤٩) Melly, G. : op. cit., p. 111.

(١٥٠)

(١٥١) Artin, Y. Pasha : Edgland in the Sudan, pp. 112-13.
وانظر اصناف الخضروات التى تنتجها حدائق الخرطوم وتملأ سوق المدينة فى
Junker, Dr. W. : op. cit., (1875 - 78), p. 179.

(١٥٢) ارض الصفارى هى الواقعة بين ضفة النيل الابيض والترس وتمتد الى الذرة الصفراء .

(١٥٣) رواية لعثمان الطاهر من شمبات ، وسالين سعيد واحمد بابكر موسى ومحمد البادى من اهل الجريف غرب . (ابريل سنة ١٩٥٨) .
وتقوم المنطقة الواقعة جنوبى غرب المدينة فى الخرطوم الحالية محل محطة السكة الحديد .

(١٥٤) Report on he Egyptian provinces of the Srdan, p. 47.
Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., p. 373.
Fr. G. Martini : To Gedaref, Gallabat and Fazugli (in 1876).

(١٥٥) Russell, H. : The Ruin of the Soudan, p. 6 an dp. 310.
Stewart, Lieut. Col. : Report on the Sudan, p. 14.
Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., p. 93.

(١٥٦) Pallme, I : op. cit., p. 37.

(١٥٧)

(١٥٨) Pe.herick, J. op. ct., p. 175.

(١٥٩) دفتر ٥٠ المعية – وثيقة رقم ٧١٤ بتاريخ ٢٩ من جمادى الآخرة ١٢٤٩ .

(١٦٠) دفتر ٥٢٩ المعية ، ص ١٩٧ – وثيقة رقم ٤ ، بتاريخ ٦ رجب ١٢٨١ .

(١٦١) Abbate, Le Docteur : De l'Afrique Centrale ..., p. 34

(١٦٢) Taylor, B. : op. cit., p. 276.

(١٦٣) وحدائق الخرطوم ما بعد سنة ١٨٩٨ لها نفس صفات حدائق خرطوم العهد المصرى :

Millais, J. G. : Far away up the Nile, pp. 146-47.
Melly, A. : op. cit., p. 131.
Rollet, B. : op. cit., p. 302-303.

وعن زراعة النخيل فى البلاد ومن ادخل زراعته وانتاجه فى المناطق المختلفة انظر :

Bruce, J. : op. cit., p. 423.
Peel, Catain W. : op. cit., p. 55.
Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, p. 47 & p. 123.
Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., p. 211.

(١٦٤) Op. cit, p. 370.

(١٦٥) وفى وصف حدائق الخرطوم وثمارها من الفاكهة – انظر :

Melly, A. : op. cit., p. 136.
Tremaux, p. : op. cit., p. 51.
Junker, Dr. W. : op. cit., (1875 - 78), p. 179.
Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., p. 85.
Grant, J. A. : A Walk across Africa, p. 403 & p. 427.

هذا وقد عرف السودان زراعة العنب في العهد المصرى فقط :

Muskau, Prince P. : op. cit., p. 202.
Melly, A. : op. cit., p. 136.

(١٦٦) Mr. & Mrs. Petherick : Travels in Central Africa ..., I, p. 74.

(١٦٧) Junker, Dr. We : op. cit., (1875-78), p. 174.

(١٦٨) Combes, E. : op. cit., p. 141.
Lepsius Dr. R. : op. cit., p. 160.

وكانت بعض حدائق الاجانب تزدحم بالحيوان الاليف والمفترس . ولقد وصل الامر ببعض ضيوف القنصل النمسوى بالخرطوم سنة ١٨٥٥ الى ان يجدوا صعوبة فى اخذ اماكنهم فى حديقة منزله التى كانت الحيوانات تحتل فراغها الكبير وهى فى سلاسلها المشدودة الى الاشجار واقفاصها التى كانت تزدحم بها جنباتها :

Hamilton, J. : op. cit., p. 323.

(١٦٩) Casati, Major G. : ip. cit., p. 18.
Baker, Sir S. : Ismailia II., p. 492.

(١٧٠) Stewart, Dicut. Cal. : Report on the Sudan, p. 23.

(١٧١) Heuglin, M. The, V. : op cit., p. 4.
Hamilton, J. : op. cit., p. 320.
Schwainforth, Dr. G. : op. cit., p. 481.
Colborne, Col. Hon. J. : op. cit., p. 83.

(١٧٢) Baker, Sir S. : The Albert N'Yanzo ..., p. 421.

(١٧٣) Pensa, H. : op. cit., p. 233.

(١٧٤) العنقريب عبارة عن اطار مستطيل من الخشب المنتج محليا والمقام فوق اربعة ارجل ، ثم يملا الاطار بشرائح رفيعة متشابكة من جلد الثور الرطب :

فاذا ما جف الجلد كان متينا ومرنا في نفس الوقت • هذا ويملأ فراغ الاطارات في العنقريبات الرخيصة باحبال الليف :

(١٧٥) Haskins, G.A. : op. cit., pp. 121-22.

Petherick, J. : op. cit., p. 117

Casoti Major G. : op. cit., pp. 14-15.

(١٧٦) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 412.

Grant, J. A. : Kkartoum as I saw it., p. 16.

ومن روايات لحسين ونى والسيد حامد ومحمد البادى وسالمين سعيد من الجريف عرب وابراهيم صديق من حلة خوجلى ، وصديق عمر ودجولة من شمبات : (فى مارس وأبريل سنة ١٩٥٨) •

(١٧٧) Grant, J. A. : Khartoum as I saw it ..., p. 16.

(١٧٨) Grant, J.A. : op. cit., p. 15.

Lepcius, Dr. R. : op. cit., pp. 163-65.

Dufton, H. : op. cit., p. 10.

W.A.D. & J.W.C. : « Soap making in the Sudan »,
SNR., Vol. V, Part 4, 1922, p. 226.

ومن الصناعات التى قامت ايضا فى الكاملين صناعة الخمور والنيلة والسكر • وكان الحكمدار احمد ابو ودان باشا شريكا فيها • وكانت تغل ربحا قدره ٥٠٠٪ :

Rellet, B. : op. cit., p. 302.,

(١٧٩) Grant, J. A. : A Walk across Africa, pp. 412-13.

Grant, J.A. : Khartum as I saw it., p. 16.

وقد جاء يونكر فى كتاب رحلته بصفحتين كاملتين لرسوم حلى نساء السودان :

Junker, Dr. W. : op. cit., : (1875178), pp. 176-77.

ومما يقول بمهارة صناع الخرطوم طلب والى مصر الى حكمدار السودان باستصناع ثلاثة اطقم للقهوة من ذهب مناسب على الطراز السودانى ... وارسالها الى مصر : دفتر ٥٢٦ قسم ثان ، ص ١٠٢ ــ الوثيقة رقم ٢٨ بتاريخ ٢٩ ذى الحجة ١٢٧٩ •

(١٨٠) De Cossom, S. A. : Op. cit., pp. 177-78 & pp. 229-30.

(١٨١) Junker, Dr. W. : op. cit., (1879-83) p. 18.
Casa.i, Major G. : op. cit., pp. 29-30.
Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 414.

(١٨٢) Casa.i, Major G. : op. cit., p. 27.

بنولا بك : كتاب مصر والجغرافيا ترجمة احمد زكى ، ص ٤٠ .

(١٨٣) Vossion, L. : Knartoum et le Soudan d'Egypte, Ca.alogue generale des differen.es ibjets, pp. 17-18.

بنولا بك : المصدر السابق ، ص ٧١ .

(١٨٤) Grant, J. A. : A Walk acro:s Africa, p. 412.
Palme, I. : op. cit., p. 268.

(١٨٥) Tremaux, p. op. cit., p. 48.
Pal.me, I. : op. cit., pp. 249-49.

وكان العبيد يباعون ايضا فى وكالات خاصة بذلك وفى بعض المنازل .

(١٨٦) Haug.in, M. The V .: op. cit., pp. 4-5.

(١٨٧) من الريالات التى كانت متداولة فى السوق : الريال المصرى ويساوى ٢٠ ، ١٩ قرشا ، والريال التركى (وكان يعرف بالمحمودية وهى عملة ذهبيـة) ويساوى ١٨ قرشا ، والريال النمسوى (ريال ماريا تريزة) ويساوى ٢٠ قرشا ، وهو اوسعها تداولا .

ومن القروش التى كانت متداولة فى السوق : قرش الحكومة (الصاغ) ، وقرش السوق (نصف الصاغ) ، والقرش التركى (الذى صك سنة ١٢٢٣ هـ) ، والقرش النحاس . وهذه القروش تختلف فى قيمتها .

انظر : العملة المتداولة فى البلاد فى العهد المصرى فى : امين سامى باشا : تقويم النيل ، الجزء الثانى والثالث ـ أماكن متعددة .

Chelu, A. : op. cit., p. 109.

(١٨٨) كان الكثير من العملة يستعمل فى انحاء البلاد ولا يعرف فى الخرطوم . ومثــال ذلك انه كانت تستعمل فى كردفان ودارفور كعملة) قطعة من الحـديد قيمتها ربع قرش ، كمية من القطن محددة وكذلك الدخن ، وقطعة من الدمور ابعادها معروفة :

Pallme, I : op. cit., pp. 303-304.

كما كان من المكاييل فى زيلع ما لم يكن معروفا بالمرة فى الخرطوم ، ومثال ذلك الكوم والطاقية المكاوى :

محمد مختار وعبد الله فوزى : « نبذة فى وصف مدينة زيلع » .

جريدة أركان حرب الجيش المصرى ـ السنة الثالثة الجزء الأول من المجلد الأول ، ص ٢١ .

(١٨٩) Didier, Charles : « Khartoum ».
NAV., année 1888, tome deuxieme, pp. 65f.

(١٩٠) دفتر تركى ٥٥٨ قسم ثان ، ص ١٩ ـ الادارة رقم ٩ ، بتاريخ ٢٢ شوال ١٢٨٢ الى حكمدار السودان .

(١٩١) شقير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩١ .

(١٩٢) Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., pp. 82-83 & p.

الفصـــل الرابـــع

الخرطوم واقتصـــاد السودان

أثر قيـام الخرطوم فى المراكز التجارية ومحطـات القوافل القديمة فى البلاد .

تجارة الخرطوم مع داخل السودان دورها فى تسويق وتوزيع متاجر دارفور والحبشة ومنطقة النيل الازرق وكردفان ـ احتلال منطقة أعالى النيل الأبيض المكانة الأولى فى تجارة البلاد ، ودور الخرطوم فى توجيه تجارتها ، تجارة الخرطوم مع الخارج السودان .

مواصـــلات الخرطوم بخارج السودان :

طرق القوافل ، وزيادة العناية بربط الخرطوم بالخارج عن طريق البحر الأحمر ابتداء من سنة ١٨٦٠ ـ الملاحة النهرية ـ السكة الحديد والمشروعات التى وضعت لربط الخرطوم بالخارج ـ البريد والبرق .

كانت التجارة عصب الحياة فى السودان على عهد سلطنة الفونج . وقد ظل أمرها كذلك ، واستمرت ذات حجم كبير عندما تدهورت السلطة المركزية فى هذه السلطنة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وأصبحت قوافل التجارة المارة بالبلاد تقاسي من تعرض بعض القبائل من البشاريين والشكرية والشايقية لها ، ومن ندرة الأقوات فى بعض المناطق التى تمر بها (١) . وكان وقوع السلطنة على الطريق الرئيسى بين القاهرة والحبشة من أهم ما ضمن لتجارتها هذا التقدم بالرغم من هذه المخاطر ، ومن ملامح هذا التقدم ان قافلة سنار كانت اغنى ما يصل الى القاهرة من قوافل الجنوب (٢) . ولعل مما أدى الى هذا الأمر ان مك سنار لم يكن يتدخل فى شئونها وكان له وكيل فى القاهرة لرعاية مصالحها (٣) .

وفى الحقيقة لقد قامت أهمية المشيخات فى سلطنة الفونج بقدر ما تشترك فى تجارة هذه السلطنة ، وقامت أهمية المدن فيها على مدى خدمتها لهذه التجارة ، مما يفسر السبب فى قيام المدن على طول خطوط القوافل التى تمتد بين سلطنة الفونج من ناحية وبين كل من مصر وكردفان ودارفور وما وراءها غربا والبحر الأحمر والحبشة من ناحية أخرى .

فلما جاء الحكم المصرى أصبح الحال غير الحال ، وفتحت أركان بعيدة فى البلاد للتجارة ، وعرفت النقود فى جهات لم تكن تعرف عنها وعن فائدتها شيئا (٤) ، وشقت متاجر جديدة طريقها — لأول مرة — الى قائمة صادرات البلاد ، وتدفق على البلاد تجار من الأجانب

لم ترهم من قبل ، وساد الأمن كل جهاتها » واصبحت القوافل الجالبون للبضائع يمرون مع غاية الأمن فى ظل الساحة الخديوية ليوزعوا بضائعهم ومحصولاتهم البلدية على سائر الأقطار الدنيوية » (٥) ٠

واذا كان من أول نتائج الحكم المصرى قيام العاصمة الخرطوم فان هذا قد غير بدوره من أهمية المراكز التجارية في البلاد ، فبينما قلت أهمية بعضها ازدادت أهمية البعض الآخر كما قامت مراكز أخرى جديدة لم تكن موجودة من قبل ٠ كل ذلك في الوقت الذى أصبحت فيه الخرطوم السوق التجارى الاول بالبلاد فى ميادين التسويق والتوزيع والاستيراد ، بل سوق كل المنطقة الممتدة بين وسط أفريقيا وبحيرة تشاد والبحر الأحمر ٠ أما أسواق السودان القديمة ذات الشهرة الكبيرة على عهد سلطنة الفونج ، مثل بربر وشندى وسنار فقد أصبحت تدور فى فلك النشاط التجارى لسوق الخرطوم وتقوم على خدمته ، واصبحت مجرد محطات على طول خطوط القوافل الممتدة بين الخرطوم وجهات البلاد المختلفة ٠

وقد تركزت أهمية بربر منذ العصور القديمة فى موقعها ، فكانت مركزا لطرق القوافل الذاهبة الي مصر ودنقلة والبحر الأحمر وبلاد بنت (٦) ٠ وقد اشتهرت على عهد سلطنة الفونج كسوق للخيل التى تأتى اليها من دنقلة (٧) ، وكنقطة على طريق القوافل بين دنقلة وبلاد الشايقية وبين البحر الأحمر (٨) ، وكطليعة لتلك المحطات الواقعة على النيل ـ والممتدة بين بربر وقرى ـ والتى تنتهى اليها القوافل الآتية من مصر بعد عبور صحراء بيوضة أو صحراء العتمور على السواء ، ولذلك كانت أول سوق لبيع البضائع المصرية ٠

وبعد الفتح المصرى وقيام العاصمة الخرطوم انحط سوقها ، ولم يعد فيه ما يجذب التجار والتجارة (٩) . وكان لذلك صداه في المدينة نفسها طبوغرافيا وديموغرافيا . وقد استمر التدهور طوال الحكم المصرى لدرجة ان عدد سكانها لم يعد الخمسمائة سنة ١٨٨٠ (١٠) . وفي الواقع لقد أصبحت أهمية المدينة تقتصر على وقوعها على طرق القوافل الممتدة بين الخرطوم ومصر وميناء سواكن (١١) . ولم تعد اليها بعض أهميتها القديمة الا عند تحرج الحالة في الخرطوم عشية قيام الثورة المهدية ونزوح عدد كبير من تجار العاصمة اليها (١٢) .

أما شندى فلم تكن مجرد عاصمة لاقليم مثل بربر بل كانت العاصمة التجارية لسلطنة الفونج بلا منازع . فقد كانت التجارة أساس حياة سكانها ، وكان نشاطها التجارى يمتد من شواطئ بحيرة تشاد غربا الى الجزيرة العربية والهند شرقا ومن مصر شمالا الى الحبشة والنيل الأبيض جنوبا (١٣) . وان ما ادى بالمدينة الى القيام بهذا الدور انما هو موقعها المهم الذى قامت فيه من قبل مدينة مروى في العصر القديم والأبواب في العهد المسيحى . فالمدينة تقع عند ملتقى طريقى التجارة العظيمين في شرق أفريقيا وعلى طريق قوافل سنار والبحر الأحمر (١٤) ، كما تنتهى اليها بعض قوافل كردفان (١٥) . ولقد كان ذلك مما أدى الى قيامها كأكبر سوق في البلاد لتجارة العبيد ، حيث كانت تنصب اليها هذه البضاعة البشرية من الحبشة وسنار وبلاد الدينكا وكردفان ودار فرتيت ، وكان عدد ما يباع فيها أربعة آلاف عبد في السنة (١٦) . والى جانب ذلك تنتهى اليها أو بالقرب منها قوافل مصر التى تسير بين دنقلة والنيل عبر صحراء بيوضة في طرق مختلفة .

وبعد قيام الخرطوم انتقل النشاط التجارى من شندى اليها ، ونمت تجارتها الخارجية سريعا ولم يبق لشندى الا التجارة مع جدة والموانى العربية الأخرى عبر ميناء سواكن (١٧) .

وقد أصيبت سنار بنفس المصير . فاذا كانت على عهد سلطنة الفونج سوقا لتبادل السلع التي تحملها اليها القوافل من الجهات المحيطة بالسلطنة ومن مصر والهند عبر ميناءى سواكن ومصوع ـ فان قيام الخرطوم قد أفقدها تلك الأهمية التي أصبحت مقصورة على وقوعها في منتصف الطريق بين الخرطوم والحبشة وعلى طريق القوافل بين الخرطوم وجبال فازوغلي (١٨) ، كما فقدت ما كانت تحمله اليها قوافل القضارف من متاجر الشرق التي تحولت بدورها الى سوق الخرطوم (١٩) . وهذا كله يفسر السبب فى نقص عدد سكان المدينة الى الربع فى منتصف القرن التاسع عشر .

واذا كان قيام الخرطوم قد قضى على الأهمية التجارية لبربر وشندى وسنار فانه ـ من ناحية اخرى ـ قد زاد من أهمية بعض الأسواق ، وبخاصة الواقعة منها بين الحبشة والبحر الأحمر والنيل الأزرق . ومن هذه الأسواق القضارف التي كانت أهميتها أيام الفونج تتلخص فى وقوعها على الطريق الرئيسى بين شمال الحبشة والنيل الأزرق والبحر الأحمر عند سواكن . وبعد قيام الخرطوم عظم دورها فى تلك الناحية ، وأصبحت النقطة الرئيسية على طريق القوافل بين عاصمة البلاد وكسلا عاصمة شرق السودان (٢٠) ، كما تمكنت من جذب بعض المتاجر المنقولة من الخرطوم الى سواكن عبر مدينة بربر الى طريقها ، بسبب ما كان يتمتع به هذا الطريق من توافر وسائل النقل ورخصها . ولقد كان من نتائج ذلك قيام حركة نشيطة من التبادل التجارى فى سوق القضارف بين تجار الخرطوم وتجار المدينة من ملامحها المهمة حمل تجار الخرطوم المصنوعات الأوربية ـ وبخاصة الانجليزية والالمانية منها ـ الى هذا السوق (٢١) .

وقد زادت أيضا الأهمية التجارية لمدينة القلابات بعد قيام الخرطوم . وكان لهذه المدينة أهمية تجارية كبيرة على عهد الفونج ،

فقد أدى وقوعها على طريق القوافل بين هذه السلطنة والحبشة وقربها من مدينة سنار — التى كانت لا تبعد عنها أكثر من أربعة أيام — الى أن صارت سوقا كبيرا تتبادل فيه غلات المناطق المحيطة بها : فكان يأتى اليها بدو ضفاف الأتبره بالزبد والعسل والخيل والذهب ، وتجار سنار بالمصنوعات المصرية والأوربية ، والتجار الاحباش من المسلمين (الجبرتة) بالبن ، وأهالى أعالى النيل الأزرق بذهب منطقة فازوغلى المستخرج من النهر (٢٢) •

وبعد قيام الخرطوم لعبت القلابات الدور الأول فى انعاش حركة التبادل التجارى بين تجار الخرطوم والتجار الأحباش بسبب وقوعها على حافة الهضبة الحبشية•واذا كان البن يمثل جل المتاجر التى يحملها التجار الاحباش الى سوق القلابات على عهد سلطنة الفونج فانه مذ وصل تجار الخرطوم الى هذا السوق حتى ظهرت فيه متاجر حبشية جديدة على رأسها الجوارى الحبشيات اللاتى كان تجار الخرطوم يقبلون على شرائهن لما لهن من مركز ممتاز فى حريم أغنياء العاصمة (٢٣) ، وكذلك شمع العسل والجلود اللذان كان إهتمام تجار الخرطوم بهما قائما على التصدير الى الخارج (٢٤) • وكان التكارنة سكان القلابات يقومون بدور الوسيط بين تجار الخرطوم والتجار الأحباش ، وسلعتهم التى كانوا يبادلونها بالمتاجر الحبشية هى القطن الذى كان ينمو بريا فى المنطقة الواقعة بين القضارف والقلابات (٢٥) • وفى الواقع ، لقد كان سوق القلابات مصدر رخاء لكل من يغشاه من أهالى المنطقة والتكارنة والأحباش وتجار الخرطوم على السواء •

وبعد قيام الخرطوم زادت أيضا أهمية بعض المدن الواقعة على ضفاف النيل •

فعلى النيل الأزرق كانت أهمية ابو حراز أيام الفونج تقوم على كونها المكان الذى تعبر عنده القوافل السائرة من جزيرة مروى الى جزيرة سنار وبالعكس النيل الأزرق لتتفادى عبور نهرى الرهد والدندر ـ بالاضافة الى النيل الأزرق ـ اذا فاتها عبور هذا النيل عندها . وهى ـ علاوة على ذلـــك ـ آخر محطة فى طريق قافلة شندى ـ سنار عبر جزيرة مروى (٢٦) . أما وقد قامت الخرطوم فقد ثبتت أهميتها فى مجال النقل بين الجزيرتين ، وكان ابرز دور لها فى تلك الناحية قيامها كمحطة رئيســـية تغادر عندها قوافل الخرطوم ضفة الأزرق الى كل من القضــــارف والقلابات والتاكه والحبشــــة (٢٧) .

وعلى النيل الأزرق أيضا ـ وعلى ضفته الغربية ـ تقوم ود مدنى جنوبى أبو حراز بأربعة أميال . وقد تبلورت أهميتها على عهد الفونج كمحط تعبر عنده قافلة كردفان ـ الذاهبة الى سواكن بطريق القضارف ـ النيل الأزرق بعد مرورها بود شلعى على النيل الأبيض وعبود بالجزيرة (٢٨) . وبعد قيام الخرطوم ورثت ود مدنى المركز التجارى الذى كانت تحتله سنار فى حوض النيل الأزرق (٢٩) ، وكانت تعتمد فى الحصول على مصنوعات مصر واوربا على سوق الخرطـــوم .

وعلى النيل الأزرق أيضا تقوم المسلمية التى وضحت أهميتها بعد الفتح كمركز تجارى خلفى لتوزيع متاجر سوق العاصمة ، ومن أجل ذلك كان الانتقال بينهما يسيرا اذ كانا يرتبطان بثلاثة طرق للقوافل عبر جزيرة سنار (٣٠) .

وعلى النيل الأبيض تقوم الليس مفتاح الطريق بين كردفان وسنار ، وكانت عظيمة الأهمية على عهد الفونج اذ كان يمكن لملك

الفونج جلب عدة الحرب من رجال وخيل من كردفان عن طريقها في حالة قطع طريق دنقلة ـ الغنية بالخيل ـ عنه على يد شيخ قرى او ملك الشايقية ، كما كان يمكن لعدو سنار أن يتقدم عن طريقها الى سنار عبر سهول الجزيرة (٣١) ٠ واذا كانت المدينة على عهد الفونج محطة تجارية لتبادل المتاجر بين تجارها من العرب والشلوك ، فقد كبر دورها في تلك الناحية بعد قيام الخرطوم ٠ وكان الشلوك يغرقون سوقها بغلات بلادهم من الذرة والعاج والمطاط وريش النعام وجلود افراس البحر والماعز والثيران والزبد ، ويبادلونها بما كان يقدمه اليهم تجار الخرطوم من الأقمشة القطنية والخرز الزجاجي والمشغولات الحديدية والنحاسية والأخشاب المعطرة (٣٢) ٠

وعلى النيل الرئيسي شمالي بربر نجد أبو حمد التي قامت اهميتها على عهد الفونج على وقوعها عند النقطة التي تلتقي عندها قافلة مصر بالنيل بعد عبور صحراء العتمور ، وعلى كونها آخر محط على النيل بالنسبة للقوافل المسافرة من السودان الى مصر ـ مما يبرز اهميتها في مجال توفير الجمال اللازمة لاكمال الرحلة الى مصر بعد انتهاء رحلة الجمال الآتية من الجنوب عندها ٠

وفي منطقة دنقلة أضفت القوافل التي كانت تمر بها على عهد الفونج على بعض النقاط بعض الأهمية التجارية ٠ ومن هذه النقاط مشو على الضفة الغربية للنيل بالقرب من الطرف الشمالي لجزيرة أرجو (٣٣) ، ودنقلة العجوز الواقعة في مركز متوسط بين الشلالين الثالث والرابع (٣٤) ، والخندق القائمة عند نهاية طريق قوافل كردفان الى دنقلة ، وكورتي محط عبور صحراء بيوضـــة على النيـــل ٠

وقد زادت أهمية أبو حمد وهذه النقاط جميعا بعد الفتح بعد أن زاد عدد القوافل المسافرة بين مصر والخرطوم وكردفان ، وبعد زيادة قيمة ما تحمله هذه القوافل على ذى قبل ·

ومن المدن التجارية الجديدة التى ظهرت بعد الفتح مدينة كسلا التى أقامتها الادارة المصرية سنة ١٨٤٢ ، والتى نمت تجارتها سريعا مع منطقة النيل الأزرق والقضارف والقلابات والحبشة والبحر الأحمر - وبخاصة بعد سنة ١٨٦٠ عندما تحسنت حالة المواصلات فى البلاد (٣٥) · وقد نمت تجارة كسلا مع الخرطوم بعد أن تمكنت القضارف من جذب بعض المتاجر المنقولة من الخرطوم الى سواكن عبر مدينة بربر الى طريقها · ومن عوامل نمو تلك التجارة أيضا غنى سوق كسلا بغلات المناطق المحيطة بها ، فهو لا يبعد عن سوق صمغ القضارف الا أربعة أيام وسوق القلابات الذى يعج بمتاجر الحبشة ومنطقة سنار الا ثمانية ايام ، وعلاوة على ذلك فان المنطقة المحيطة به غنية بالغلات الحيوانية من عاج وجلود ودهن حيوان وريش نعام (٣٦) ، وهذا كله مما حمل بيكر (٣٧) على اعتبار كسلا المدينة التجارية الثانية فى البلاد بعد الخرطوم ·

كان من ملامح النشاط التجارى طيلة الحكم المصرى ما يمكن معه تقسيم البلاد الى ثلاثة أقاليم تجارية كل منها مرتبط بمصر أو البحر الأحمر أو بهما معا بالطرق النهرية أو البرية (٣٨) ، وهو تقسيم يقوم أساسه أكثر ما يقوم على المنفذ الذى يأخذه كل اقليم لتصدير متاجره عن طريقه الى خارج البلاد :

أما الاقليم الأول فيضم النيلين الأبيض والأزرق وفروعهما والجزء الشرقى من كردفان · ويرتبط هذا الاقليم بمصر بواسطة وادى النيل ، وكذلك بالبحر الأحمر بطريق بربر - سواكن · وهو يضم أغنى منطقة منتجة للحبوب فى البلاد ، وهى الواقعة جنوب سنار

والتي ترتبط بسواكن بطريق القوافل المار بالقضارف . والخرطوم هي مركز هذا الاقليم الذي من أهم متاجره العبيد والذرة والصمغ والعاج وريش النعام وجلود أفراس البحر وقرون الخرتيت والعسل والشمع والملح والتمر الهندي والسنا المكي والمسك والنيلة .

أما الاقليم الثاني فيضم دارفور والجزء الغربى من كردفان . ويرتبط هذا الاقليم بمصر بطريق الأربعين (٣٩) الذى هو ايضا مخرج متاجر واداى وباجرمي وبرنو وغيرها من الجهات التى تقع غرب دارفور الى العالم الخارجي . وتعبر هذا الطريق الى مصر اثنتا عشرة قافلة في السنة ، وتزداد الى أكثر من ذلك العدد فى بعض السنين . وتغادر القوافل دارفور الى مصر فى شهرى سبتمبر ويناير ، وأهم ما تحمله العبيد والصمغ وريش النعام والعاج والأبنوس والجلود ، وتقدر هذه المتاجر بمائة ألف قنطار فى السنة . على أن حجمها قد هبط في أواخر الحكم المصرى حينما قفل طريق الأربعين للقضاء على حركة نقل العبيد الى مصر ، وعندما تحولت كثير من متاجر واداى وباجرمى عن هذا الطريق الى طريق آخر يمتد من بحيرة تشاد الى مرزوق عاصمة فزان ثم طرابلس — وذلك بسبب ما أصاب سلاطين تلك الجهات من خوف من مطامع مصر بعد ضم دارفور الى السودان سنة ١٨٧٤ .

أما الاقليم التجارى الثالث في البلاد فيضم الحبشة والمناطق المحيطة بها في السودان . ويرتبط هذا الاقليم بالبحر الأحمر عن طريق ميناء مصوع . وأهم متاجره العبيد والبن والشمع والعسل .

والاقليم التجارى الأول أهم هذه الأقاليم الثلاثة من حيث حجم التجارة وعدد القوافل والرجال والعاملين فيها . ولكن ليس معنى تقسيم البلاد الى هذه الأقاليم ان علاقات الخرطوم التجارية كانت مقصورة على الجهات التى يضمها اقليمها ، بل كانت علاقاتها

بالاقليمين الآخرين قائمة ونشيطة ، الأمر الذى كان يحتمه الدور الكبير الذى كان عليهـــا أن تلعبه فى مجال تجارة الصـــادرات بالبـــلاد ·

فبينما كانت متاجر الاقليم التجارى الثانى ـ دارفور وغربى كردفان ـ تنقل الى مصر بطريق الأربعين قبل الفتح المصرى وبعده أخذت هذه المتاجر فى شق طريقها بعد الفتح الى سوق الأبيض حيث كان تجار الخرطوم فى انتظارها · وما أن سار الزمن بالحكم المصرى بضع سنوات حتى اتجه كبار تجار الخرطوم الى العمل على تولى أمر تجارة دارفور دون وساطة سوق الأبيض · ولكن سياسة سلطان دارفور حالت دون نجاحهم ، فقد كان السلطان يتوجس خيفة من البيض على وجه العموم ـ لخوفه أن يكونوا عيونا لحكام مصر على بلاده ـ ومن المصريين على وجه الخصوص بعد ان أصبح جندهم يحيطون بأملاكه بعد فتح كردفان (٤٠) · ولما كان مقدرا لمن يدخل دارفور من البيض أن يمنع السلطان خروجه من بلاده فقد أدى ذلك الى نكوصهم عن دخولها (٤١) ، واستمر سوق الأبيض الواسطة بين تجار الخرطوم ومتاجر كردفان ودارفور ·

وفى الوقت الذى كانت فيه القوافل السائرة بين مصر ودارفور تتعرض لهجمات أهالى دارفور كان محمد على يعمل جهده لتشجيع نقل المتاجر بين الجهتين وبين دارفور والسودان،وكانت قوافل دارفور تقابل بالترحيب فى أسيوط والأبيض ، بل كان فى الخرطوم نفسها تجار من دارفور (٤٢) ·

وقد بدت بادرة لامكان تولى تجار الخرطوم تجـارة دارفور عندما اتفق محمد على ـ أثناء زيارته للسودان سنة ١٨٣٨ ـ مع أبى مدين المطالب بعرش دارفور على مسـاعدته فى الوصـول الى

العرش • ولكن لم يتسن لمحمد على امداده بالقوة العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الاتفاق ، فضاعت فرصة طيبة عرضت لتجار الخرطوم وكان أبو مدين يرى فيهم عمد الاقتصاد في البلاد ويرجو مساعدتهم في بلوغ المرام من تجارة بلاده (٤٣) • وفي أغسطس سنة ١٨٥١ سنحت فرصـــة أخرى لتجار الخرطوم عندما وصلت عمة سلطان دارفور الى المدينة في طريقها الى الحجـــاز ، فاستقبلها الحكمدار عبد اللطيف استقبالا حافلا ، واحتفى بمقدمها كبار التجار وقدموا اليها الهدايا من الأقمشـــة الحريرية والصابون والحلويات وغيرها وبينوا لها أن هدفهم الأوحد من دخـول دارفور هو المبادلة بمثل ما قدموه اليها على غلات دارفور الطبيعية ، وقد وعدتهم السلطانة بالسعي لدى السلطان على فتح البلاد لهم (٤٤) •

وقد عمد عباس باشا في مصر الى تعزيز مســـاعي حكمدار السودان وتجار الخرطوم فأرسل رسالة الى سلطان دارفور يسأله فيها أن يفتح بلاده لتجار مصر والسودان والعمل على توفير الأمن والطمأنينة لهم (٤٥) • ولكن السلطان لم يستجب لطلب الوالى ، ولم يتغير الوضع التجارى بين دارفور والسودان عن ذى قبل حتى تم فتح دارفور وضمه الى السودان سنة ١٨٧٤ • وحينئذ فتحت البـــلاد للتجارة ، وازدهرت العلاقات بين مراكزها التجارية ومصر والسودان ـ وبخاصة الخرطوم ـ نتيجة لأوامر الخديو الى الحكمدار اسماعيل أيوب بتسهيل مهمة من يرغب من تجار الخرطوم ومصر في تأسيس الشركات التجارية في دارفور (٤٦) •

وكما كان للخرطوم علاقاتها التجارية مع الاقليم التجـــارى الثانى كان لها علاقاتها أيضا مع الاقليم التجارى الثـــالث ، وهو الحبشة والمناطق المحيطة بها في السودان • فقد كانت هناك علاقات تجارية نشيطة بين سوق الخرطوم وسوق القلابات أبرز ما فيها الدور الكبير الذى كان يقوم به الســـوق الأول في توزيع متاجر

السوق الثاني – والتي أهمها المتاجر الحبشية (٤٧) . كما كانت تغادر الخرطوم بعض القوافل التي تسير مباشرة الى غندار بالحبشة، وكان من بين قادة القوافل بالخرطوم من يعرف الطريق اليها مرحلة مرحـلة (٤٨) .

وكانت هناك علاقات تجارية ناجحة بين تجار الخرطوم وسكان السفوح السفلى لجبـال امادو على الحـــدود الجبلية لمملكة كافا الحبشية عمادها العاج وتراب الذهب . وقد نمت التجارة في هذين الصنفين لدرجة كبيرة ، فقد قفزت حمولة المنقول منهما الى الخرطوم من مائتى قنطار سنة ١٨٤٥ الى ثمانمائة قنطار بعد اقل من عشر سنوات ، الأمر الذى أفاء على تجار الخرطوم ربحا قدره أربعمائة ألف من الفرنكات كـمـا افاء على جمرك القاهرة بخمسـين ألف منهـا (٤٩) .

أما علاقة الخرطوم باقليمها التجارى الذى يضم النيلين الأزرق والأبيض وفروعهما والجزء الشرقي من كردفان فقد كانت وثيقة للغـاية :

أما تجارة النيل الأزرق فان دور الخرطوم فيها لم يقف عند حد سلبها القوة من المراكز التجارية القديمة وانعاش أسواق جديدة بل عمل سوقها – علاوة على ذلك – على تسويق غلات منطقة كركوج الواقعة جنوبى مدينة سنار ، وبخاصة المطاط الذى كان يصدر الى أوربا وبلغت صادراته سنة ١٨٧٨ ألفين وخمسمائة من الأطنان (٥٠) . كما كان لتجار الخرطوم علاقات تجارية بتجار أعالى النيل الأزرق في السودان ، فكانوا يبادلون متاجر سوق الخرطوم بالذهب والمسك الذى يقدمه اليهم سكان تلك الجهة (٥٢) .

اما تجارة كردفان فقد كانت وجهتها الطبيعية قبل الفتح نحو مصر . وبعد الفتح أصبحت المتاجر تأخذ طريقها الى الخرطوم أسوة بمصر ، فقد كان تجار الخرطوم يتسوقون لحساب سوق الخرطوم الكثير من هذه المتاجر في أسواق كردفان وبخاصة في الأبيض ، كما أن كثيرا منهم كان يتولى تصدير هذه المتاجر مباشرة الى القاهرة ، ومنها الصمغ والمطاط وريش النعام والعبيد والعاج وشمع العسل والقطن والسمسم والجلود والتمر الهندي والملح والدخان والذهب والماشية ، وكذلك الحنظل والسنا المكى بكميات قليلة (٥٢) .

والصمغ أهم هذه المتاجر . وكانت الطرق بين الخرطوم وكردفان تعج بقوافله الكبيرة طوال السنة تقريبا . واستمر حجم تجارته في صعود كلما سار الزمن بالحكم المصرى . وقد بلغت صادرات سوق الخرطوم منه سنة ١٨٨٠ مائة الف قنطار (٥٣) .

وكان المطاط له أهميته أيضا فى تجارة كردفان مع الخرطوم . وكان متوسط صادرات كردفان منه ـ منذ سنة ١٨٥٠ ـ بين أربعين الف وخمسة وأربعين ألف قنطار في السنة تتراوح قيمتها بين ثمانمائة ألف ومليون من الفرنكات تقريبا (٥٤) . وكان نصيب سوق الخرطوم من تلك التجارة كبيرا . وقد أدت عناية الادارة بطرق القوافل بين كردفان ومصر والخرطوم الى اتساع حجم التجارة فى ذلك الصنف في الفترة الأخيرة من الحكم المصرى .

أما ريش النعام ، فبينما كان لا يصل منه الى سوق الخرطوم حتى سنة ١٨٥٠ الا القليل اذا به يصبح سلعة تجارية مهمة بعد هذه السنة ، لدرجة اقدم معها بعض تجار الخرطوم على اقامة الزرائب فى كردفان لتربية النعام للحصول على ريشه وقشر بيضه ـ وكان مادة تجارية كذلك . ومن هذه الزرائب ما كان يضم أكثر من ألف نعامة (٥٥) .

ولعل مما نشط الحركة التجارية بين كردفان وكل من مصر والخرطوم أن القيم التى حددها محمد على لمعظم السلع التجارية فى كردفان عند احتكاره متاجر البلاد ـ كانت تقل بقدر طفيف عنها فيما لو بيعت تلك السلع حرة فى سوق الأبيض (٥٦) ، مما أدى الى تدفق متاجر كردفان الى مصر والخرطوم • كما ان السلع المحتكرة المهربة كانت تاخذ طريقها أيضا الى الخرطوم بعد رحلة قصيرة من الأبيض ، وكان صمغ كردفان المجموع من جهات تقلى والكدرو على وجه الخصوص على رأس تلك السلع (٥٧) ، وكانت مكاسب تجار الخرطوم من وراء تلك الصفقات عظيمة لأنهم كانوا يبادلون عليها بسلع تتوافر لديهم فى سوق الخرطوم (٥٨) ثم يوالون تهريبها بعد ذلك الى جهات سواكن ومصوع (٥٩) لتصديرها الى الخارج •

وبعد الغاء الاحتكار أيام عباس باشا اتسعت العمليات التجارية بين تجار كردفان وتجار مصر والخرطوم • كما سعد أيضا بدو شمال كردفان ـ واهمهم الكبابيش ـ القائمين على نقل المتاجر بين كردفان والنيل عند كل من دنقلة وموردة أم درمان ـ مرسى الخرطوم على النيل الأبيض (٦٠) •

وكان البن والسكر والشمع والصابون أهم متاجر الخرطوم المنقولة الى كردفان • وظلت هذه الأصناف على رأس تلك المتاجر طوال الحكم المصرى ، لأنها تغل كسبا كبيرا كان يصل أحيانا الى ألف فى المائة • ومن أجل ذلك لم يكن يمر أسبوع واحد دون ان تغادر الخرطوم قافلة أو أكثر حاملة لتلك الأصناف الى الأبيض ، ولم يكن عدد جمال كل قافلة يقل عن المائتين (٦١) • وكانت متاجر الخرطوم من غير هذه الأصناف قليلة ، لأن أهل كردفان يتكون تسعة أعشارهم من البدو وفى غير حاجة الى مصنوعات مصر وأوربا ـ وهى ما يقوم سوق الخرطوم بتوزيعها فى البلاد ـ مكتفين بما يصنع فى

بلادهم من المصنوعات الجلدية البدائية والأقمشة القطنية الخشنة (٦٢) ٠

واوثق علاقة بين الخرطوم وجهة من اقليمها التجاري هي ما بينها وبين جنوب السودان حيث النيل الأبيض وفروعه المختلفة٠

ولم تكن هناك تجارة بالمعنى المعروف بين شمال السودان وجنوبه قبل الفتح،فقد كانت العلاقة التجارية بينهما مقصورة على بعض الرحلات التي كان يقوم بها قلة ضئيلة من التجار المغامرين من أهالي دارفور وكردفان وسنار الى بعض مناطق النيل العليا القريبة من أوطانهم للحصول على غلات تلك المناطق من العاج الأسود والعاج الأبيض وجلود أفراس البحر وغيرها من المتاجر ٠ ومما يقول بخطورة تلك الرحلات ان هؤلاء المغامرين كانوا يحملون معهم أكفانهم عند خروجهم اليها ، وكأنهم في طريقهم الى الموت (٦٣) ٠

ولا شك أن تأخر المواصلات المائية في السودان الشمالي كان له أثره في تأخر علاقاته مع الجنوب ، فلم يكن به من وسائلها غير قوارب ساذجة الصنع تقوم فيها أحبال الليف محل مسامير الحديد في ضم سيقان الأشجار الضخمة أو شد الواح الخشب الى هذه السيقان (٦٤) ٠ وليس في التاريخ ما يشير الى أن مملكة سنار كانت تملك قوة بحرية تساعدها على حماية حدودها من غارات جيرانها الزنوج من الدينكا والشلوك الذين كانوا دائمي الاغارة عليها في سرعة ومرونة كبيرتين ٠

فلما حلت الادارة المصرية بالبلاد كانت مسالة الكشف عن منابع النيل الأبيض من المسائل المهمة التي اهتمت بها ، وخاصة أن مجهودات جيمس بروس اقتصرت على كشف منابع النيل الأزرق ٠ ومن أجل ذلك خرجت البعوث الحكومية وغير الحكومية ـ

منذ سنة ١٨٢٤ ــ من الخرطوم لسبر غور النيل الابيض ، واقصى ما وصلت اليه فى تقدمها الى الجنـــوب الخط العاشر من خطوط العرض (٦٥) . فلما كانت زيارة محمد على للسودان (١٨٣٨ ــ ١٨٣٩) تحركت فى نفسه مسألة الكشف عن منابع النيل ، وخاصة أنها كانت تجد اهتماما كبيرا عند الرأى العام الأوربى بعد مطالعة ما نشر من رحلات الرحالة وكتابات المكتشفين الذين ساحوا فى البلاد بعد الفتح . وتحت هذه الظروف قام البكباشى المصرى سليم قبطان برحلات ثلاث فى النيل الأبيض .

وقد غادرت الرحلة الأولى (٦٦) الخرطوم فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وعادت اليها فى ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ بعد أن وصلت الى خط عرض ١٠َ ٦° شمالا ، وبعد أن حالت السدود النباتية دون مواصلة تقدمها جنوبا . أما الرحلة الثانية (٦٧) فقد غادرت الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وعادت اليها فى ١٨ مايو سنة ١٨٤١ بعد أن وصلت الى خط عرض ٢٤َ ٤° شمالا . أما الرحلة الثالثة فقد غادرت الخرطوم فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١ وعادت اليها فى ٦ مارس سنة ١٨٤٢ ، ولم تعد فى تقدمها المكان الذى وصلت اليه الحملة الثانية (٦٨) .

واذا كانت حملات سليم قبطان لم تصل الى هدفها الخاص بكشف منابع النيل الأبيض فانها نجحت فى مسألة أخرى مهمة وهى فتح طريق الملاحة والتجارة الى أعالى هذا النيل . ذلك أن الأخبار والمعلومات التى نقلها رجال تلك الحملات عن غنى هذه الجهات بالثروات الطبيعية النباتية والحيوانية والمعدنية ذات القيمة التجارية كان من شأنها أن تثير أطماع التجار والمغامرين من جميع الجنسيات وتدفعهم الى السعى الى تلك الجهات دفعا . وكان الوسيط الأمين لنقل تلك الأخبار الى العالم الخارجى كتاب فرن الالمانى عن رحلة

سليم الثانية الذى نشر فى برلين سنة ١٨٤٨ وترجم الى الانجليزية ونشر فى لندن فى السنة التالية ، والذى ازدحم بتفصيلات وافية عن ثروات تلك الجهات • وثمة مثال من أقوال فرن ما تحدث به عن غنى منطقة البارى بالحديد والدخان والذرة والقطن والضأن والماشية وغيرها من الذخائر مما يمكن المبادلة عليها بالخرز الزجاجى (٦٩) •

واذا كان العالم الخارجى قد علم بتلك الثروات ابتداء من سنة ١٨٤٨ فان الأمر كان مختلفا عند تجار الخرطوم ورجال الادارة فيها ، اذ أنه ابتدأ من مارس سنة ١٨٤٠ ــ وهو الوقت الذى عادت فيه رحلة سليم الأولى الى الخرطوم ــ تناثرت الأخبار الشفوية عن ثروات الجنوب ، وكان رواتها هم رجال سليم أنفسهم ، أما قرائن صحتها فكانت ما رجعت به سفن الحملة الثانية الى الخرطوم من أحمال سن الفيل وغيرها من غلات الجنوب • وهذا كله مما رسم الطريق فى وضوح أمام رجال الحكومة وتجار الخرطوم والمغامرين فيها على السواء بان ثمة دورا كبيرا ينتظرهم للقيام به فى تلك الجهات ، الأمر الذى كان يلتقى مع وجهات نظر محمد على نفسه ــ فقد كان من أهدافه عند ارساله رحلة الكشف الثانية فتح تلك الجهات من داخل أفريقية للتجارة بالاضافة الى الهدف الأصلى ، وهو كشف منابع النيل (٧٠) • ولقد كان من رأى رجال البعثة الدبلوماسية الفرنسية فى القاهرة ــ بعد رجوع قبطان من رحلته الثالثة ــ أن الفوائد العظيمة التى تجنيها التجارة من فتح هذا الجزء من العالم لا يمكن تقدير قيمتها بحال من الأحوال (٧١) •

وهكذا تهيأت الظروف لفتح باب التجارة على مصراعيه بين السودان الجنوبى والعالم الخارجى • وأصبحت الخرطوم سريعا مركز التجمع لكل التجار الأوربيين وكذلك المخاطرون والمبشرون

الآتون من خارج البـلاد (٧٢) والذين أمكنهم تحقيق أغراضهم الى جانب جمع المزيد من المعلومات الجغرافية ـ فى نفس الوقت ـ عن تلك الجهات ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى استيفاء الهدف لرحلات سليم قبطان ·

ولكن الطريق الى الجنوب لم يكن منثورا بالورود ، فقد كانت الحكومة تحتكر معظم متاجر البلاد · وما أن رجع محمد على من رحلته فى السودان الى مصر سنة ١٨٣٩ حتى احتكر الحكمدار أحمد ابو ودان سائر المتاجر لنفسه ، ولم يلبث أن وقف فى وجه فتح النيل الأبيض لنشاط التجار · وقد صار فى نفس الطريق حكمدارو السودان على عهد عباس ، فكان الحكمدار يرسل مع الرحـلات الذاهبة الى الجنوب حراسة عسكرية بدعوى مسئوليته عن حماية التجار من هجمات الزنوج لقاء ثلث عائد الرحلة الذى كان يقتطعه لنفسه ، أما الثلثان الآخران فكانا يقسمان بين التجار المشتركين فى الرحلة من الترك والفرنجة بنسبة قدرها تسعة قراريط للترك وسبعة للأخرين (٧٣) ·

وعند وصول سفينة من الجنوب الى مرسى الخرطوم كان يجرد ما تحمله من متـاجر لتقدير نصـيب الحكمدار منها ، ثم تحمل المتاجر الى شون الحكومة التى لم تكن تسدد للتجار نصيبهم الا متى تشاء · وكانت الحكومة تسلك نفس الطريق عندما تكون فى حاجة الى بعض اللوازم مما يتوافر فى مخازن التجار، فكانت تلجأ الى جرد ما يملكه كل تاجر منها وتعين ما يجب أن يقـدمه منها اليها بعـد تحديد اثمانها (٧٤) ، وهذا مما يوضح أن رحلات الجنوب فى ذلك الوقت كانت قليلة المكاسب أو عديمتها ·

ولكن التجار الأجانب فى الخرطوم لم يسكتوا على هذا الأمر ، ورفعوا الشكاوى الى محمد على الذى أمر بالعمل على ازالة أسبابها ·

ولكن الحكمدارين لم يخففوا من احتكارهم لمتاجر البلاد ، وان كانوا قد البسوا اجراءاتهم لباس العمل على تنفيذ أوامر الوالى ، فاعلنوا حرية التجارة فى البلاد بل حرية نقل المتاجر أيضا الى مصر ، ولكن هذا الأمر الأخير كان خدعة كبيرة توسل بها الحكمدارون لاحكام تنفيذ سياسة الاحتكار وتحطيم التجار المنافسين ، فقد أعلنوا أن من حقهم منح امتياز النقل بين حمد وكروسكو الى قبيلة بعينها وتحديد أجر الجمل فى هذه الرحلة . أما الأجر فكان ضئيلا ، ولم يكن رجال القوافل يرضون بأقل من ضعفه لنقل متاجر التجار فى الوقت الذى يقبلون فيه صاغرين نقل متاجر الحكمدار على أساسه (٧٥) ، مما رجح كفة الحكمدارين فى ميدان المنافسة التجارية وسمح لمتاجرهم بفرض المزاحمة الطيبة لمتاجر التجار فى سوق القاهرة .

ولكن تجار الخرطوم لم يصبهم اليأس ، بل زادت مقاومتهم حدة لسياسة الحكمدارين الاحتكارية . فقد تصدى التاجر السردينى الأصل برون روليت للحكمدار عبد اللطيف (أكتوبر ١٨٤٩ — ديسمبر ١٨٥١) ورفض الحماية التى يفرضها على رحلات الجنوب . واعلن أن سياسة الاحتكار تتنافى مع اتفاقية سنة ١٨٣٨ الدولية التى تقرر فتح باب التجارة والملاحة فى جميع أملاك الدولة العثمانية لجميع الجنسيات على السواء ، ووصل به الأمر الى الاستنجاد بنائب قنصل النمسا فى الخرطوم الذى تزعم بدوره احتجاج نواب قناصل الدول الأوربية فيها على سياسة الحكمدارين . وانتهى الأمر باستدعاء عبد اللطيف الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٥١ واعلان حرية التجارة فى النيل الأبيض . وكان قد توافد على الخرطوم فى هذا الوقت من الأوربيين والشرقيين الذين أثار نجاح برون روليت فى تجارته مع سكان أعالى النيل — رغم الصعاب التى واجهته — اطماعهم فى الثراء السريع . وهكذا بدأت فترة من الرخاء أساسها التجارة مع الجنوب .

وقد كان من وسائل سعيد باشا لتحسين العلاقة بين الحكومة والتجار ما أمر به حكام البلاد فى أواخر يناير سنة ١٨٥٧ أثناء زيارته للسودان من أن « كل ما تحتاج اليه الحكومة من ماكولات وجمال ورجال للخدمة وغيرها فعليها أن تدفع ثمن وأجر ورواتب ذلك كله بزيادة قدرها اثنان في المائة دائمـا عما يدفعه السكان فيما بينهم · وخوفا من الا يعلن المشايخ عن الأثمان والأجور الحقيقية للأشياء واليد العاملة على الترتيب ـ اظهارا منهم لاهتمامهم بصالح الحكومة ـ فعليكم تفادى هذا المحظور بألا تأخذوا شيئا الا بموافقة أصحابه موافقة حرة ، حتى يمكن بفضل هذه الوسيلة زيادة رخاء البـــلاد (٧٦) ·

وفى سنة ١٨٥٢ ـ فى الوقت الذى كان فيه أقصى امتـــداد للحركة التجارية المنظمة لتجارة الخرطوم فى اتجاه الجنـــوب مع الشلوك فى سوق الريس على مسافة قدرها مائة وثلاثون ميلا من الخرطوم ـ قامت أول رحلة الى أعلى النيل الأبيض لحساب بترك التاجر الانجليزى · وفى السنة التالية غادرت الخرطوم اول رحلة الى بحر الغزال لحساب حبشى التاجر القبطى ، وبعد ذلك بسنتين تبعه بترك الى هناك · وفى هذين الاتجاهين ـ الى جانب الجهات المتاخمة للحدود الحبشية قامت رحلات تجار الجنوب بعد أن وضعوا فيها رجالهم ·

وكان العاج ابرز متاجر الجنوب · وقد عرف تجار الخرطوم تجارته قبل فتح النيل الأبيض للملاحة ، وكان معظمه يأتى وقتئذ من دارفور وكردفان · ومع أن محمد على احتكر متاجر السودان ومنها العاج غداة فتح البلاد الا أن تجار الخرطوم كانوا يهربونه الى موانى البحر الأحمر حيث كانت فى انتظاره سفن الشركات الانجليزية بالهند ، والتى كانت تعيد تصديره الى أوربا من هناك (٧٧) ·

وبعد فتح النيل الأبيض للملاحة ابتدأ ورود عاج الجنوب الى الخرطوم · ولكن حجم تجارته لم يكن كبيرا فى ذلك الوقت ، اذ لم يكن يزيد ما ينقل منه الى الخرطوم على مائتى قنطار فى السنة(٨٧)· واذا كانت تجارته قد تحررت منذ سنة ١٨٤٨ (٧٩) الا أن احتكار الحكمدارين لمتاجر النيل الابيض لم يغير من امر هذه التجارة أو تجارة غيره شيئا ·

وبعد اعلان حرية التجارة فى النيل الأبيض ، وبعد غلق جمرك دنقلة ــ وكان قائما فى عهد الاحتكار الى جانب جمرك أسوان (٨٠)ــ أصبحت تجارة العاج تشكل المورد الأول لدخل المجتمع التجارى فى الخرطوم · فكانت رحلة الجنوب التى تعود بخمسة وعشرين قنطارا فقط منه قادرة على تغطية تكاليفها ــ هذا وان كانت الرحلة فى العادة لا ترجع باقل من مائة قنطار ، أما اذا رجعت بمائة وخمسين قنطارا فهى رحلة موفقة للغاية (٨١)·وكانت عشرون حبة من الخرز الزجاجى ــ وهى العملة الوحيدة المعروفة عند الزنوج فى ذلك الوقت ــ تكفى للمبادلة على ناب فيل قيمته خمسمائة فرنك (٨٢) ·

وقد قدرت قيمة العاج الذى قام سوق الخرطوم بتصديره بين سنتى ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ بأربعين ألفا الى مائة ألف من الجنيهات فى السنة (٨٣) · وكان عدد تجار العاج الكبار ستة ، غير ضعف هذا العدد من التجار الأقل ثروة (٨٤) وعدد كبير من صغار التجار ، وكان لكل منهم (زرائبه) (٨٥) فى أعالى النيل ووكالاته فى الخرطوم ، وأغناهم هو العقاد · وكان لتجارة العاج أصول وقواعد مرعية اتفق عليها التجار (٨٦) ·

ومع أن غردون عندما كان مأمورا لخط الاستواء (١٨٧٤ ــ ١٨٧٦) احتكر تجارة العاج فى مديريته ــ الأمر الذى توقع معه

بعض العاملين باقتصاديات البلاد أن تتحطم تلك التجارة (٨٧) ـ الا أن صادرات السودان وسوق الخرطوم من العاج فى تلك المدة لم تتأثر (٨٨) ، لأن تلك التجارة كانت تغل كسبا لا يقل عن مائتين فى المائة فى أسوأ الظروف (٨٩) ٠

وعندما أصبح غردون حكمدارا للسودان (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) عاد الى احتكار تجارة العاج ٠ وقد أصيبت صادراته فى هذه الفترة بالتذبذب الشديد ، فبينما سجلت صادراته سنة ١٨٧٨ أعظم قدر لهـا طوال العهـد المصرى (٢٠٥ر٠٠٠ من الكيلوجرامات) اذا بها تسجل سنة ١٨٧٩ أقل قدر لها (٨٠ر٠٠٠ من الكيلوجرامات) ، ولعل مرجع ذلك الى أن التجار كانوا يخزنون العاج بعد تهريبه حتى اذا وجدوا الفرصة الطيبة لبيعه أخرجوه من مكمنه وجنوا حصاد مغامرتهم ٠ هذا وقد بلغت قيمة ما صدر من العاج سنة ١٨٨٣ مائة وثلاثين ألفا من الجنيهات (٩٠) ٠

ومهما يكن أمر تجارة العاج فقد أصيبت اقتصاديات الخرطوم منذ سنة ١٨٥٤ بتغير كبير عندما تحول الاهتمام عند تجار الخرطوم بعد تلك السـنة الى قنص الرقيق وان استمرت تجارة العاج لها أهميتها أيضا ولكنها أصبحت فى الدرجة الثانية من الأهمية ٠ وهذا التحول لم يحدث فجأة ، فقد كانت تجارة الرقيق معروفة فى البلاد قبل الفتح المصرى ٠ وبعد الفتح كان من سياسة حكومة محمد على ما شجع تلك التجارة ، فقد كانت ترسل (الغزوات) (٩١) الى مواطن الزنوج ، وكان جند كردفان يقومون عادة بالغزوات فى جبال النوبا ، وجند سنار وودمدنى يغزون جبال الفونج وبلاد الدينكا ، وجند الخرطوم يقصدون بلاد الشلوك وتخوم الحبشـة على نهر الرهد ٠ وكانت الحكومة ـ بعد فرز اللائقين للخدمة العسـكرية وتوزيع البعض على الضباط والجند بدلا من مرتباتهم ـ تبيع التجار

من يتبقى منهم . كما كان الجند بعد استلامهم مرتباتهم من الآدميين يبيعونهم بدورهم للتجار والأهالى .

ومما ساعد أيضا على تنشيط تجارة الرقيق على عهد محمد على أنه كان على القرية التى تعجز عن تسديد الضريبة المقررة عليها أن تقدم الى الحكومة عبيدا بما عليها من ضريبة (٩٢) .

ولما كانت معظم الغزوات توجه الى جبال النوبا جنوبى شرق كردفان ، وكانت أعظم قبائل السودان فى قنص الرقيق بقصد بيعه هم البقارة سكان غربى السودان فقد ترتب على هذا وذاك أن تجمع الجلابة تجار الرقيق فى تلك الجهـــات ، وأصبحت مدينة الابيض المركز الاول لتجارة الرقيق فى البلاد ، حيث كان يتدفق عليها الرقيق من غربى السودان والمناطق البعيدة الى الغرب فى باقرمى وبرقو وغيرهما (٩٣) . أما الخرطوم فقد كانت تحتل فى ذلك الوقت المركز الثانى فى تلك التجارة ، ومعظم معينها من الرقيق كان يأتى من حدود الحبشة وبلاد الدينكا والشلوك على النيل الأبيض (٩٤) .

وبعد فتح النيل الأبيض للمـــلاحة تهيـــات الظروف لتلعب الخرطوم الدور الأول فى تجارة الرقيق فى البلاد . فكما أن مركز الثقل فى واردات العـــاج الى المدينة انتقل ـ وقتئذ ـ من غربى السودان الى جنوبه فان الأمر بالنسبة للعبيد كان كذلك ، اذ أصبح الجنوب أيضا هو المورد الأول للرقيق وأصبحت الخرطوم سوقه الأول بدلا من الابيض . ومما ســـاعد على ذلك أن الحكومة كانت قد اقامت ـ منذ فتح النيل الابيض للملاحة ـ عدة محطات تجارية على أطراف المنطقة التى يمتد اليهـــا سلطانها على حدود بحر الغزال والنيل الأبيض حيث كانت تقدم الى الوطنيين الأقمشة القطنية وغيرها مقابل ما يقدمونه اليها من غلات بلادهم ، ولكن حدث سنة ١٨٤٨ ـ

بسبب عدم انتظام الادارة في تلك المحطات ـ ان تركت لتجار من الخرطوم على أن يسددوا ضريبة معينة عما يجمعونه من متاجر ، وكان الرقيق بعض ما يقدمه الزنوج للمبادلة عليه ، وهكذا كانت أول معرفة للخرطوم برقيق الجنوب على الصعيد التجارى ٠ فاذا كانت سنة ١٨٥٢ ـ حينما أعلنت حرية التجارة في النيل الأبيض ـ كان ذلك ايذانا بتصدر تجارة الرقيق سائر متاجر البلاد وبتصدر الخرطوم مراكز تلك التجارة ، هذا بالرغم من الزيادة الكبيرة التى وضعتها الحكومة على ضريبة الصادر من الرقيق منذ تلك السنة (٩٥) ٠

وفى سنة ١٨٥٤ أصبحت تجارة الرقيق التجارة الأولى فى سوق الخرطوم بلا منازع ٠ فقد حدث فى تلك السنة أن قتل بالقرب من غندكرو على بحر الجبل تاجر العاج السرديني فودى ومعه بعض رجاله ، بسبب ما كان يلجأ اليه بعض تجار الخرطوم من نهب عاج ومواشي الزنوج ٠ وكان أن توسع تجار الخرطوم بعد تلك السنة فى استعمال الحراس ، مما زاد من تكاليف رحلات الجنوب ٠

ونضيف الى ذلك أن عددا كبيرا من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة من أهل الخرطوم ـ المختلفى الجنسيات والمراكز الاجتماعية ـ تنبهوا منذ سنة ١٨٥٠ الى ضخامة مكاسب تلك الرحلات ، فشبت نتيجة لذلك حمى الرحلة الى الجنوب ، مما قلل من فرص الكسب عند تجار الجنوب ٠ كما أن الزنجي ـ وقد لمس اقبال تجار الخرطوم على عاجه ـ زاد من كمية ما يطلبه من الخرز مبادلة بهذا العاج ـ وخاصة أن العاج كان يقل عنده بالطبيعة سنة بعد أخرى ، بل ان بعض الزنوج أصبح يطالب بأدوات أثمن قيمة لا تتوفر دائما عند تجار الخرطوم مثل حراب الصيد وما الى ذلك ٠ وفى جميع الأحوال كانت تجابه التجار مشكلة أشد وعورة ، الا وهي الوسيلة التى ينقل بها العاج من داخل الغابة الى المشارع ، ولم يكن من وسيلة الا أكتاف

الزنوج المأجورين الذين كانوا كثيرا ما يرمونه أرضـــا ويفـــرون هاربين ٠

وقد حاول تجار الخرطوم جاهدين ايجاد مخرج من تلك الصعاب فاتجه البعض - بقصد تقليل تكاليف الرحلة - الى السماح للحراس بقنص الرقيق على أن تقتطع قيمته من أجورهم ٠ ولجأ بعض شباب الأوربيين من التجار الى أن يتولوا بأنفسهم قنص الفيلة وأخذ عاجها بدلا من المبادلة عليه ، ولكن كانت نتيجة ذلك اختفاء الفيلة بعيدا داخل الغابة ٠ وقد اتضح لتجار الخرطوم أن الاعتماد على تجارة العاج تحت هذه الظروف جميعا لا يشبع نهمهم فى الثراء السريع ٠ وهكذا تهيأت الظروف منذ سنة ١٨٥٤ للبدء فى تجارة الرقيق على صورة واسعة حيث أن قنصه يفتقد كثيرا من التكاليف التى يتكلفها جمع العاج ٠ ولكن استمر التجار - مع ذلك - فى جمع العاج حتى يخفوا طبيعة نشاطهم الحقيقى على الأقل (٩٦) ٠ فاذا كانت سنة ١٨٦٠ كانت باعالى النيل خمسون عصابة مسلحة تعمل فى خدمة التجار فى قنص الرقيق وجمع العاج (٩٧) ٠

ولقد وصل الأمر بتجـــار الخرطوم سنة ١٨٦٢ الى تكوين الشركات التجارية بهدف مساومة الادارة للحصول على امتيازات تجارية فى جهات معينة من أعالى النيل ٠ وقد نجح هؤلاء التجار فى مسعاهم ، وانتهى الأمر الى ادعاء ملكية الجهات المحددة فى صـــك الامتياز (٩٨) ٠ وكان كل تاجر يقيم فى منطقته سلسلة من الزرائب التى يعمل فى كل منها ثلاثمائة من الرجال المسلحين ٠ وليس أدل على قوة سلطان هؤلاء التجار من أن أحدهم - وهو العقاد - كان يدعى ملكية مســاحة من الأرض قدرها تســعون الفا من الأميال المربعة (٩٩) ٠ كما وصل الأمر بالتاجرين محمد خير الأرجاوى وود ابراهيم الى أن تباحثا فى صراحة مع حكومة الخرطوم فى أمر تحديد منطقتى نفوذ هما فى أعالى النيل وتعيينهما شيخين على بلاد الشلوك

والدينكا على الترتيب (١٠٠) • وقد تبلورت امتيازات هؤلاء التجار في مناطق نفوذهم في عمليات قنص الرقيق قبل كل شيء ، أما تجارة العـاج فقد ظهر عامل النهب في جمعه الى جوار المبـادلة عليه ، أما سفنهم السابحة بين الخرطوم والجنوب فقد أصبح يغلب على حمولتها لوازم رجالهم من سلع الخرطوم كالملابس وغيرها أكثر مما تحمل مما يبادل بها من الزنوج (١٠١) • وكانت غندكرو أهم مركز لهم في أعالي النيل الأبيض ، وقد قدر عدد من كان بها منهم سنة ١٨٦٣ بستمائة تاجر عدا الأتباع • ومن المدن التي أقامها تجار الجنوب كذلك في الجنوب رمبيك التي اقامها التاجر الفرنسي دى ملزاك في بحر الغزالى سنة ١٨٥٨ (١٠٢) •

وقد أفاض الرحالة والكتاب فيما جرته رحلات تجار الخرطوم على قرى الزنوج من الخراب والدمار ، وحتي العاملين من هؤلاء الزنوج في خدمة هؤلاء التجار في حمل العاج من الداخل الى مرسى غندكرو وغيره من المشارع كانوا يقاسون الأهوال ، وأحيانا يموتون جوعا عندما تندر الأقوات في هذه المشارع •

وقد قدر عدد العاملين من أهالى الخرطوم في تجارة الجنوب سنة ١٨٧٠ بحوالى خمسة عشر ألفا من الرجال (١٠٣) من درجات متفاوتة في المجتمع (١٠٤) • فمنهم من يسهم في التجارة بماله الذى يقدمه لطالبه بفائدة قدرها مائة في المائة ــ على أن يسترد الدين عاجا يقيم عند السداد على أساس نصف ثمنه في السوق • ومنهم من يسهم بنسبة من تكاليف الرحلة ، ومعظم هؤلاء من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة • ومنهم من يقوم على تسديد كل تكاليفها ويفوض الى وكلاء من أهالى الخرطوم ادارتها لحســابهم ، ومعظم هؤلاء من لا يسهم الا بمجهوده ومخاطرته ، وهؤلاء هم الحراس (١٠٥) •

وكانت حملة الجنوب لا تغادر الخرطوم الا وقد هيىء لها كل أسباب النجاح : من مال وقوارب وحراس ومترجمين وكتبة وتموين

ـ من طعام وبنادق وذخائر وما يبادل به مع الزنوج ـ وعبيد للقيام بالخدمات المنزلية ٠

وكان الحراس والرجال العاملون يمنحون أجر خمسة شهور مقدما بمعدل خمسة وأربعين قرشا للشهر ، وكان الأجر ابتداء من الشهر السادس ثمانين قرشا ٠ ولكل مستخدم منهم قائمة حساب يحملها ويسجل فيها كاتب الحملة كل ما يصرف اليه من أجر ، وعلى كل واحد منهم تقديم تلك القائمة في الخرطوم بعد رجوع الحملة لتصفية حسابه ٠ وكان يمكنهم ـ اذا كان لديهم المال ـ أن يحملوا معهم بعض الحراب والأقواس وما يمكن مبادلته بالعاج مع الزنوج ٠ كما كان وكيل الحملة يحمل لحسابه من الملابس والدخان والمشروبات الروحية والخرز كميات كبيرة يصرف منها اليهم بعد أن يسجل ما يأخذونه منها في دفاتر حساباتهم بأثمان مضاعفة (١٠٦) ٠

وتغادر الحملات الخرطوم الى الجنوب (١٠٧) عادة في شهري نوفمبر وديسمبر من كل عام ، وهو الوقت الذى تهب فيه الرياح الشمالية التى تساعد على صعود النهر ٠ وعند وصول احدى الحملات الى مقصدها يغادر الرجال السفن ، ويتقدمون الى الداخل حتى يقفوا بقرية أحد زعماء الزنوج حيث يتم الاتفاق معه على ارشادهم الى قرية لأحد أعدائه ٠ ثم تتقدم الحملة الى هدفها ليلا ، حتى اذا شقشق الفجر تكون قد وصلت اليه ٠ ويدبر الهجوم على القرية وأهلها نيام ، فتشعل النيران حولها من جميع الجهات ، ويطلق الرصاص من خلال ألسنتها على الرجال المذعورين الهاربين ٠ ويقبض على النساء والأطفال وما يتيسر من الرجال الأحياء وتجمع المواشي من زرائبها ، ويبحث بين الحطام عن كل ذى قيمة من عاج وأدوات حديدية ـ وأثمنها الفؤوس ـ وأدوات زينة وحبوب ٠ ويقبض الزعيم الخائن ثمن خيانته ثلاثين أو أربعين رأسا من الماشية وعذراء

جميلة • أما رجال الحملة فمكافاتهم ثلث الماشـــية التي يقومون بمبادلتها مع رجال الزعيم بالعاج ، كمـــا كان يمكنهم أيضا شراء ما يشاءون من أسرى العبيد عن طريق المزاد فيما بينهم على أن تسجل قيمة مشترواتهم فى دفاتر حسابهم (١٠٨) •

ثم تحمل القوارب المنتظرة فى المشـــارع بالعاج والبضـــاعة البشرية ، وتبحر شمالا الى الخرطوم فى أواخر فبراير وأوائل مارس ومعها عدد من رجال الحمـــلة • أما باقى الرجال فيقيمون فى الزرائب حيث يستمرون في توجيه أعمالهم وهجماتهم حولها حتى يوفروا معينا جديدا يكون جاهزا للنقل الى الخرطوم فى الموسم التالى عند أوبة زملائهم منها •

وينقل العبيد ـ فى العادة ـ من داخل الغابة الى المشارع وهم فى أسوأ حال ، واذا وصل نصفهم حيا الى الخرطوم فالرحلة تكون مكسبة للغاية (١٠٩) • هذا وقد جرت العادة على انزال العبيد من السفن فى نقاط على النيل الأبيض على بعد عدة مراحل من الخرطوم حيث يكون فى انتظارهم وكـــلاء الحمـــلات فى الخرطوم ومعهم المشترون • كما جرت العادة على بيع بعض العبيد للسكان العرب ســاكنى ضـفاف النيل الأبيض لحاجتهم اليهم فى أعمال الرعى والزراعة وما بقى من عبيد بعد ذلك تكمل به السفن رحلتها حيث تنزلهم عند قرية الكلاكله الواقعة على النيل الأبيض على بعد مسيرة ساعتين من الخرطوم ثم تساق البضاعة البشرية الى هذه ليلا (١١٠)• أما عبيد كردفان المنقولون الى الخرطوم فيقطعون البرية حتى النيل الأبيض عند القطينة ، فاذا لم يتم بيعهم فيها يستمرون فى رحلتهم الى الخرطوم سيرا على الأقدام (١١١) •

وهكذا تسير رحلات الجنوب • والرحلة الطيبة لجماعة عددها مائة وخمسون رجل تغل ـ بعد تسديد أجور رجالها ـ حوالى مائتى

قنطار من العاج قيمتها فى الخرطوم أربعة آلاف من الجنيهات تقريبا، بالاضـــافة الى اربعمائة عبد متوســـط قيمة كل منهم خمســة جنيهات (١١٢) . ومما يقول باهمية تجارة الرقيق فى الخرطوم أنها حققت لتجار المدينة بين سنتى ١٨٧٠ ، ١٨٨٠ دخلا سنويا قدره ستمائة ألف جنيه (١١٣) ، هذا فى الوقت الذى قدرت فيه كل صادرات السودان الى مصر سنة ١٨٧٣ بمليون ونصف مليون من الجنيهـــات (١١٤) .

واذا كانت صادرات سوق الخرطوم الى الجنوب من الأصناف التى يبادل بها مع الزنوج قد أصابها نقص كبير فى أواخر العهد المصرى - لدرجة أصبحت معه لا تزيد على عشر مجموع الصادرات سنة ١٨٨٠ (١١٥) - فليس معنى ذلك أن تجارة الخرطوم - على وجه العموم - مع الجنوب قد اعتورها الضعف ، بل العكس هو الصحيح . ومرجع ذلك الى ان الجنوب فى أواخر الحكم المصرى ، وبعد امتداد سلطان الادارة اليه كان يمتلىء بالقوات العســكرية والموظفين الذين كان على سوق الخرطوم أن يمدهم باللوازم التى يحتاجون اليها للاستعمال الشخصى وللمبادلة أيضا مع الزنوج ، كما أن الحكومة كانت تعتمد بعض التجار للقيام بهذا الأمر الأخير بعد أن احتكرت تجارة الجنوب وأغلقته فى وجه تجار الخرطوم فى الســنوات العشر الأخيرة من الحكم المصرى للقضـــاء على تجارة الرقيق (١١٦) .

واذا كان الجنوب قد أصيب بضربة كمصدر لرقيق ســـوق الخرطوم نتيجـــة لاجراءات الحكومة هـــذه فان الغرب - بامكاناته الكبيرة من الرقيق وقناصته من البقارة - كان لايزال مفتوحا على مصراعيه أمام سوق الخرطوم . واذا كانت حكومة الخرطوم قد قامت بضمه الى سلطانها سنة ١٨٧٤ فان نقل العبيد الى الخرطوم ظل مع ذلك مستمرا منه ومن جهات البلاد المختلفة عن طريق المسالك

غير المطروقة ، وان كانت أعـداده قد قلت لدرجـة كبيرة عن ذي قبـــل ٠

ومثلما كانت الخرطوم مركز تسويق وتوزيع متاجر السودان كانت كذلك في مجال الاستيراد من الخارج ٠ فيما عدا متاجر مصر وأوربا التى تصل الى كردفان مباشرة عن طريق دنقلة كانت واردات السودان تقريبا تصل الى الخرطوم التى تقوم بعد ذلك بتوزيعها على الجهات المختلفة فى البلاد ٠ ومع ذلك فان قوافل كردفان التى تسير اليها مباشرة من مصر كانت ذات عدد قليل ، حيث أن معظم القوافل الآتية من مصر كانت وجهتها الخرطوم حتى يمكنها أن تبيع فيها متاجرها ثم تتقدم بعد ذلك ـ ومعها قيمة مبيعاتها ـ الى كردفان من أجل الحصول على الصمغ أو تبقى فى الخرطوم فى انتظار رجوع حملات أعالى النيل للحصول على العاج (١١٧) ٠

ومعظم المتاجر التى تصل الى الخرطوم من مصر أوربية الصنع ، وهي البنادق والذخائر ، والأسلحة من خناجر وأمواس وسكاكين ، والأدوات الحديدية والابر ، والجلود والأحذية ، والمصنوعات الزجاجية والمرايا الصغيرة ، والبقالة والصابون والخمور ، والأقمشة الحريرية بكميات قليلة ٠ وأهم المتاجر على الاطلاق الأقمشـــة القطنية ، ومصدرها انجلترا ومصر والهند والولايات المتحدة الأمريكية ٠ وأهم جهات أوربا المصدرة الى السودان هي النمســا ، وأهم صادراتها الأسلحة والأمواس والكحل والخرز والزجاج والطرابيش والمزجيلات، ثم تليها انجلترا وبوهيميا وبروسيا (١١٨) ٠ وجل ما يرد الى سوق الخرطوم من الهنــد المنسوجات الحريرية والقطنيــة والطيوب من عطارة وخشب الساج وخشب الحق (١١٩) ، وكانت ثغور سواكن ومصوع وجدة الواسطة بينهما ، كما كان سوق الخرطوم يرسل كثيرا من المتاجر الى هذه الثغور وعلى رأسها العبيد والعاج (١٢٠) ٠

وقد عمل محمد على غداة الفتح على توسيع تجارة البلاد مع الخارج . وعمل اسماعيل بعد اعتلائه العرش على اكمال مجهودات محمد على فى هذه الناحية . ومن وسائله فى ذلك معاونته على تاسيس شركة تجـــارية فى يونيو سنة ١٨٦٣ عرفت (بشركة السودان) ثم (بالشركة التجارية المصرية) بعد ذلك . وكان غرضها تنمية موارد السودان ، وادخال التجارة المشروعة فى الأقاليم التى لم تكتشف بعد ، وتنظيم عمليات الصادر والوارد بين سوق الخرطوم والاسكندرية . وكان رأس مال الشركة خمسين مليونا من الفرنكات اسهمت فى تســـديدها خمسة بيوت مالية بالاسكندرية ومصرف الكريدى انترناشيونال ، وقد فتحت الشركة ابوابها للممولين من الاسكندرية ولندن وباريس وفرنكفورت وصــــار لهـــا برنامج واسع (١٢١) . ومن وسائل الشركة فى تنمية صادرات السودان قيامها بتعريف الأسواق الأوربية بمتاجره ، وقد قامت بهذا الأمر فى معرض باريس الدولى سنة ١٨٦٧ فكان من بين معروضاته بعض مصنوعات ومتاجر السودان (١٢٢) . وقد ظهرت نتيجة ذلك حينما قامت فى الخرطوم شركة ايطالية لتصدير متاجر البلاد واستيراد لوازم مجتمع الخرطوم الراقى من مصنوعات أوربا (١٢٣) ، كما ارتبطت عدة شركات ايطالية أخرى فى ايطاليا بســـوق الخرطوم بعلاقات تجارية (١٢٤) .

ولقد كان من وســـائل اسماعيل فى تنمية صـــادرات البلاد تشجيعه على استيراد سلع تجارية جديدة كالحبوب والبن والسكر والأخشاب الى جانب السلع القديمة كالعاج والصمغ وريش النعام . وقد ترتب على مجهودات اسماعيل والشركة التجارية المصرية أن اتســـع حجم التجارة المنقولة من الســـودان الى مصر لدرجة كبيرة واشتغل كثير من التجار الســـودانيين بتجارة الصـــادر التى كانت مقصورة على الأوربيين حتى سنة ١٨٦٠ .

وكانت المتـــاجر الأوربية والمصرية تصل الى الخرطـوم عن طريقين ، طريق الشمال عبر صحراء العتمور وطريق البحر الأحمر عبر ميناء سواكن · وبعد الفتح كان الطريق الأول اكثر أهمية من الطريق الثاني ، فانه لما كان فصل الشتاء هو فصل الرحلة والتجارة فانه في نفس الوقت فصل العواصف في البحر الأحمر ـ مما كان يجعل الملاحة خطرة في هذا البحر في ذلك الفصل وخاصـــة على السـفن الصغيرة ، هذا علاوة على أن طريق الشـمال يربط مصر مباشرة بالســـودان ويســـير في طوله في أرض تســـيطر عليها مصر (١٢٥) ·

وتغادر القوافل القاهرة الى الســـودان في الخريف بين أول أكتوبر وأول ديسمبر ، وتستغرق الرحلة بين القاهرة ، والخرطوم شهرين ونصفا · ومعظم القوافل يأخذ طريق كروسكو ـ بربر عبر صحراء العتمور ، ثم تنقل المتاجر بعد ذلك الى الخرطوم بالنهر ، اللهم الا في حالة شراء رجال القافلة لجمالها من أسوان فانهم حينئذ يقومون بالرحلة كلها برا الى الخرطوم · ولكن المعتاد شراء الجمال من السودان حتى يتسنى لرجال القافلة بيعها بأثمان عالية في أسواق صعيد مصر بعد العودة اليها (١٢٦) · والقليل من القوافل يأخذ ـ عند وصوله الى كروسكو ـ طريق النهر عبر دنقلة ، وهو طريق طويل ومتعب للغاية ، حيث أن اعتراض الجنادل لمجرى النهر يجعل الابحار فيه ميسورا فقط أثناء شهور ثلاثة حين تفيض المياه ، ولذلك فان القوافل التي تقصد الخرطوم لا تاخذ هذا الطريق الا اذا كان لديها من الأعمال ما يحتم عليها سلوكه (١٢٧) ·

وطريق بربر ـ سواكن هو طريق الخرطوم الطبيعي الى خارج السودان ، لأنه قصير وليس به من العقبات ما يصعب اجتيازها ومع ذلك فان محمد علي أبدى الاهتمام الأول غداة الفتح بطريق الشمال· ولذلك أرسل البعوث الى صحراء العتمور لتحسين الطرق فيهـــا

بالكشف عن الآبار القديمة وتطهيرها وحفر آبار جديدة ، وقد رأس المهندس الفرنسى دارنو أحد تلك البعوث (١٢٨) ٠

وقد ازدادت أهمية طريق بربر ـ سواكن ، وازداد توزيع متاجر البلاد عن طريقه منذ تم ربط ميناء سواكن بالسويس بالمواصلات البحرية المنتظمة حوالى سنة ١٨٦٠ ، فأصبحت المسافة بينهما أربعة أيام وبين القاهرة والخرطوم أوفر شهرا عن طريق الشمال (١٢٩) ٠ كما زاد من تلك الأهمية أن ميناء سواكن كان همزة الوصل بين الخرطوم وميناء جدة أكبر سوق للرقيق فى العالم الاسلامى ، وأن المواصلات البحرية بين الميناءين كانت سريعة ومنتظمة (١٣٠) ٠

ومن عوامل ازدياد أهمية طريق بربر ـ سواكن أيضا أن مدينة سواكن قد أخذت فى النمو منذ سنة ١٨٦٥ حين انتقلت ملكيتها الى مصر ، لأنها استفادت من الانقلاب الذى أصاب اقتصاد البلاد نتيجة لفتوحات اسماعيل ومن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ التى ربطت بينها وبين البحر المتوسط مباشرة (١٣١) ٠ ومن ملامح هذا النمو أنه بينما لم يكن بها قبل سنة ١٨٦٥ من ذوى الحيثية التجارية ذات العلاقات التجارية بالخرطوم سوى يونانى واحد هو وكيل شركة صاوى التجارية فى جدة (١٣٢) اذا بها بعد تلك السنة تفتتح بها فروع للشركات الانجليزية فى الهند ولشركات الخرطوم ٠ ومن هذه الشركات الأخيرة شركة مستر البرت ماركيت الفرنسى لتصدير الحاصلات السودانية التى انتعشت نتيجة للمواصلات السريعة بين الخرطوم وسواكن وافتتحت فروعا لها فى أنحاء البلاد ، وبخاصة فى بربر نقطة الوسط بينهما (١٣٣) ٠

واذا كان اسماعيل قد اعتنى بطرق القوافل فى البلاد على وجه العموم وأرسل من أجل ذلك البعوث اليها لدراسة كيفية القضاء

على عقبات النقل فيها (١٣٤) فقد اعتنى أكثر ما اعتنى بطرق القوافل بين الخرطوم وسواكن عبر كل من بربر وصحراء التاكه • فأمر بارسال الأدوات والعمال الفنيين اللازمين لاصلاح عقبة فى طريق سواكن ـ التاكة ـ الخرطوم (١٣٥) ، حيث أنه اذا ما أصلح هذا الطريق وكذلك طريق سواكن ـ بربر « ومهدناهما على قدر الامكان ، وسيرنا فيهما عربات لنقل البضائع ، وأنشـــأنا بهما بعض المبانى اللازمة كالخانات وما اليها ، وحفرنا الآبار الضرورية فى الأماكن التى يجب أن يتوافر فيها الماء للمسافرين كان لذلك أثره فى توسيع التجارة » (١٣٦) •

ومع أن فكرة مد السكة الحديد بين الخرطوم وسواكن كان شغل اسماعيل الشاغل الا أنه كان من رأيه « عدم بقاء التجارة السودانية على ما هى عليها لحين مد السكة المذكورة » ، ومن أجل ذلك نجده يطلب من الحكمدار موسى حمدى باشا « أحداث سفريات على شكل القوافل بين الخرطوم وسواكن بصفة مؤقتة ، مع تعيين مواعيد محددة لقيامها والأجرة التى ستؤخذ على الأفراد والبضاعة المنقولة ، على شرط أن تكون الجمال العاملة فى هذا الطريق تحت التزام العرب ، وأن تكون القوافل تحت حراسة عسكرية ـ أما باقامة جنود فى المحطات التى تمر عليها واما بارسالها تحت حراسة مســـلحة » (١٣٧) •

ومما أكبر من دور الخرطوم فى مجال توزيع صادرات البلاد ان كثيرا من متاجر كردفان بعد الفتح أصبحت تاخذ طريقها الى خارج البلاد عن طريقها • ويرجع الفضل فى ذلك الى الادارة المصرية التى افتتحت غداة الفتح طريقا مباشرا بينهما عن طريق ود شلعى على النيل الأبيض لنقل متاجر كردفان التى كانت تحتكرها الحكومة الى الخرطوم (١٣٨) • وعندما نشطت حركة النقل بين كردفان والخرطوم بعد ذلك أخذ تجار كردفان الطريق البرى الكامل بينهما ، والذى

ينتهي عند موردة أم درمان حيث كان للتجار معسكر يقيمون فيه عند وصولهم اليها ، ثم ينتقلون منه ومعهم متاجرهم الى الخرطوم بواسطة معدية من القوارب (١٣٩) ٠

ومما ساعد على جذب متاجر كردفان الى الخرطوم أن الطريق بينهما كان احسن حالا منه بينها وبين صعيد مصر ، فقد كان به « من المراعي ما يلزم لمؤونة الابل ٠٠٠ وكان ممكن السـير فيه بالعربانات مع تمام الراحة » (١٤٠) ٠ وهذا الطريق يسـير من أم درمان ويتجه جنوبا بجوار الضفة الغربية للنيل الأبيض ستة أيام حتى يصل الى الطيرة الخضراء ، وبعدها يتجه الطريق غربا ثم جنوبا بغرب سبعة أيام حتى يصل الى هورس على بعد ستين كيلومترا من الأبيض ، وفي طول تلك الرحلة تقوم ثلاث عشرة محطة يتوافر الماء فيها جميعا (١٤١) ٠ وهناك طريق بين الخرطوم والأبيض ولكنه أقل اهمية يسير من الخرطوم على طول الضفة الشرقية للنيل الأبيض حتى داماس ، وعندها تعبر القوافل النيل الى الطيرة الخضراء التي تواجهها ، ثم تتمم الرحلة في نفس الطريق السابق (١٤٢) ٠

ولقد كان من آثار اهتمام الادارة بطرق القوافل أن أصبحت الخرطوم نقطة الالتقاء لكل الطرق الرئيسية في البلاد وأهم هذه الطـرق (١٤٣) :

١/طريق الشمال   من كروسكو الى بربر عبر صحراء العتمور ، ثم بحرا أو برا بعد ذلك الى الخرطوم ٠

٢/طريق الشمال   من كروسـكو الى الخرطوم بحرا عن طريق دنقلة ٠ اومن كروسكو الى كورتي أو الدبة بحراء ثم برا بعد ذلـك الى الخرطوم عبر صـحراء بيوضـة ٠

٣/طريق الشرق من سواكن الى بربر برا ، ثم بحرا بعد ذلك الى الخرطــوم ٠

٤/طريق الشرق من مصوع الى الخرطوم برا عن طريق سنهيت وكســلا وسنار ٠

٥/طريق الغرب من دارفور وكردفان الى الخرطــوم عن طريق الأبيض وبارة ٠

٦/طريق الجنوب من غندكرو على بحر الجبل الى الخرطوم بحرا فى طول الرحلة ٠

وطرق القوافل عرضة لتأثير عوامل طبيعية وغير طبيعية تزيد من متاعب اجتيازها ومن العوامل الطبيعية قلة سقوط المطر فى بعض السنين بما ينتج عنه من ندرة الأعلاف فى تلك الطرق وتعرض القافلة للمخاطر ، وزيادة تكاليف النقل لو أنهــا قامت بالرحلة مع تلك الظروف ٠ فاذا استجابت القافلة لضرورات الطبيعة وأجلت الرحلة توقفت المعاملات التجارية مؤقتا بين سوق الخرطوم وجهات البلاد المختلفة وتأثر بذلك أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب الابل على الســواء (١٤٤) ٠ أما العوامل غير الطبيعية فاهمها تصــدى بعض القبائل للقوافل ، ولكن الادارة قضت على هذا العامل بمنحها قبائل معينة امتياز النقل فى طرق معينة ـ بشرط أن تتحمل كل قبيلة مســئولية تنظيم العمل وسيادة الأمن فى الطريق الذى خصص لهــا (١٤٥) ٠

وقد استمرت طرق القوافل أهم الطرق فى البلاد طوال العهد المصرى ٠ وكانت العناية بها لا تكلف الادارة الا قليلا ٠ فقد كانت تكاليف استراحات القش التى أقيمت فى طريق بربر ـ سواكن

لراحة رجال القوافل فى السنوات الأخيرة من ذلك العهد لا تتعدى الخمسين جنيها ـ فى الوقت الذى كانت فيه قيمة صادرات البلاد العابرة لهذا الطريق تربو على نصف مليون من الجنيهات (١٤٦) .

ولم تكن البلاد تعرف الملاحة النهرية قبل الفتح بمعناها الحديث . وبعد الفتح أصبح النيل يشكل طريقا مهما للمواصلات بين الخرطوم ومصر ، وبينها وبين النصف الشرقى لوسط أفريقيا ـ وهو الأمر الذى ساعد على جعل الخرطوم مخزنا لكل متاجر هذه الجهـة (١٤٧) .

والنقل بالنيل أرخص منه بالقوافل ، ولكنه لا يصبح اقتصاديا الا بتشغيل السفن الكبيرة التى تعمل بالبخار . فاذا وضع هذا الأمر موضع التنفيذ اصطدم بخلو منطقة وسـط السـودان من الخشب اللازم للوقود ونمو الأشجار المنتجة له على بعد من ضفة النيل ، فاذا أخذنا بمبدأ نقله الى الضفة فرضت حقيقة كبيرة نفسها وهى أنه لا يكفى لامداد السفن بوقودها الا عدة سنوات (١٤٨) .

وعلاوة على ذلك تجابه النقل بالنيل عدة صعاب . فالمسافة بين الخرطوم وبربر بالنيل لا تستغرق أقل من أسبوعين فى حين تستغرق أسبوعا واحدا بالبر . كما يتأثر النقل بالنيل بالفصل الذى يعبر فيه ، وحالة الرياح ، وعدد الوقفات فى الطريق من أجل الراحة أو التموين أو اصلاح الشراع أو حتى لمجرد أن يتحدث البحارة مع المارة بجوار الضفة (١٤٩) . وأكبر صعوبة هى ما يعترض النيل من صخور تجعل الملاحة فيه خطرة وموسمية ، وأهمها جنادل سبلوكة بين الخرطوم وبربر التى تقطع الملاحة فى النهرين شهرى فبراير ومايو . وقد اتجه تفكير محمد على فى القضاء على عقبة الصخور الى شق قناة تمتد من شمال كروسكو وتنتهى عند أبو حمد بطول قدره خمسمائة من الكيلومترات (١٥٠) . ولقد كانت تلك القناة

ايضا من المشروعات التي قدمهـا المهندسون الى سعيد باشـا بعد قيامهم بدراســة مواصـلات البلاد أثناء صحبتهم للباشا فى رحلته الســودانية (١٥١) ٠

ويرى هاملتن (١٥٢) أن مشروع القناة مكسب ماليا ، حيث انه سوف يقوم على ضفتي القناة فى المســـتقبل حزام عريض من الأرض الخصبة يتيح بزراعته استرداد مصاريف حفرها فى أقل من عشر سنوات ٠ ولكن المشروع فى الواقع تعتريه بعض الصعوبات الفنية (١٥٣) ولا يتناسب مع امكانات مصر المالية،كما أن الزوابع الرملية تجعل من تنفيذه وصيانته أمرا صعبا للغاية (١٥٤) ٠

واذا كانت السدود النباتية هى العقبة الكأداء فى أجزاء النيل العليا فان حكومة الخرطوم كانت تبذل جهودا جبارة للقضاء عليها وتيسير اتصال الخرطوم بجنوب السودان ، ومن المجهودات الكبيرة في هذا المجـــال ما قام به الحكمدار اسماعيل أيوب سنة ١٨٧٤ وما قامت به الحـــكومة كذلك سنة ١٨٨٠ على يد المهنـــدس ارنست مارنو (١٥٥) ٠

وقد حدث التفكير لأول مرة فى مد السكة الحديد بالسودان أيام سعيد باشا حينما أمر موجل بك بدراسة وســائل اختصـار الوقت اللازم لقطع الرحلة بين وادى حلفا والخرطوم ٠ والجديد فى نتائج دراسة هذا المهندس اقتراحه مد خط للسكة الحديد بالسودان بين هاتين النقطتين (١٥٦) ٠ ومد هذا الخط سيجعل من الخرطوم النقطة التى تلتقي عندها أوربا بوســـط أفريقيا البـــكر بكافة مكنوناته ٠ كما سيجعلها على بعد أربعة أيام فقط من أسوان ، وسيوفر على المسافر بينها وبين مصر مدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وعشرين يوما ، أما المتاجر فسوف تكسب من الوقت ستة شهور كاملة لأنها تهمل عادة ثلاثة شهور أو أربعة فى أبو حمد وكروسكو فى انتظار الجمال اللازمة لنقلها الى وجهتها (١٥٧) ٠

ولم يوضع مشروع السكة الحديد موضع التنفيذ أيام سعيد لفداحة تكاليفه . فلما جاء اسماعيل اهتم بالأمر ، وحصل على فرمان من السلطان بالموافقة على ربط الخرطوم بخارج البلاد بالسكة الحديد ، ومنح امتيازها للشركة العزيزية المصرية (١٥٨) .

ولقد وصلت الى السودان فى عامى ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ بعثتان للقيام « بدراسة مد السكة الحديد من وادى حلفا أو من كروسكو الى أبوحمد » (١٥٩) . وكانت البعثة الأولى برياسة براى ، ووكر (Brey & Walker) اللذين قدما تقريرهما الى اسماعيل فى مارس ١٨٦٥ . أما البعثة الثانية فكانت برياسة هوكشو Hawkshaw وقد قدم تقريره فى مايو من نفس السنة (١٦٠) ، وقد ضمنه اقتراحا بشق قناة ملاحية عبر جنادل الشلال الأول . وتبلغ تكاليف خط السكة الحديد من كروسكو الى أبو حمد والخرطوم - طبقا لتقرير البعثة الأولى - أكثر من تسعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات ، كما أنه يتطلب اثنى عشر الفا من الجنود للعمل فيه حتى ينتهوا منه فى ست سنوات (١٦١) .

وعندما كانت احتمالات ربط الخرطوم بالخارج عن طريق الشمال قائمة لم يغفل اسماعيل احتمالات ربطها بطريق سواكن والشرق . ولذلك عهد سنة ١٨٦٧ الى المهندس اسماعيل بك الفلكى بدراسة مشروع سكة حديد الشرق وأن يوازن بين الطريقين المحتمل مد السكة الحديد عليهما ، وهما طريق سواكن - بربر وطريق سواكن - شندى . وقد قدم الفلكى بك تقريره مفضلا طريق شندى لأن طريق بربر تعترضه الجبال المرتفعة والأودية المنخفضة (١٦٢) .

واخيرا ، وفى فبراير سنة ١٨٧١ أبرم الخديو عقدا مع المهندس الانجليزى جون فولر (١٦٣) مدته خمس سنوات لوضع التصميمات

اللازمة لاقامة السكة الحديد وتحسين الملاحة النهرية فى السودان ·
وفى فبراير سنة ١٨٧٣ قدم فولر تقريره القاضي بمد السكة الحديد من وادى حلفا الى الدبة على طول النيل ثم الى المتمة عبر صحراء بيوضة ، ومن المتمة تمد فروع الى الفاشر والخرطوم والبحر الأحمر ·
ولكن هذا المشروع عدل الى مجرد مد السكة الحديد بين حلفا والمتمة فقط لضخامة تكاليفه · وكان هذا الخط الأخير فى رأى فولر يفضل طريق وادى حلفا ــ أبو حمد عبر صحراء العتمور لتوافر المياه اللازمة للقاطرات فيه ·

وقد رأى اسماعيل قبل أن يسلم نهائيا بمشروع فولر أن يستعين بخبرة المهندسين العسكريين المصريين فى مناقشته · وقد قرر المهندسان اللذان كلفا بهذا الأمر أن سكة العتمور أفضل حيث أنها « خالية من العقبات وملائمة لمد السكة الحديد عليها ، لأن طولها ٤٨٥ ميلا بين ادفو وبربر فى حين أن طريق فولر طوله ٥٥٠ ميلا ولا يصل الى ادفو ، واذا كان يعيب سكة العتمور قلة الماء فيها فان توفيره ليس بالأمر الصعب » (١٦٤) ·

ومع ذلك فقد استقر الرأى أخيرا على مشروع فولر ، وعين شاهين باشا للاشراف على تنفيذه (١٦٥) ، وتعاقدت مصر مع شركة بريطانية لبناء المائة ميل الأولى من وادى حلفا الى كرمه · ولقد بدأ العمل فعلا فى ١٥ فبراير سنة ١٨٧٥ ، ووصل الخط الحديدى الى سرس جنوبى حلفا بثلاثة وثلاثين ميلا ونصف الميل سنة ١٨٧٧ بعد أن تكلف حوالى نصف مليون من الجنيهات · ولكن قدر لهذا الخط أن يتوقف عند هذه البلدة على يد الحكمدار غردون سنة ١٨٧٨ بعد أن طلبت منه الحكومة احتساب تكاليف مد الخط على ايرادات السودان بسبب عجز ميزانيتها عن الاستمرار فيه ·

وكان غردون يرى أن مد السكة الحديد على طول النيل أمر لا يعطى الفائدة المرجوة من وراء تكاليفها الباهظة ، وانه اذا كان النيل تقطعه مسافات طويلة صالحة للملاحة فمن الممكن تشغيل بواخر صغيرة فى هذه المسافات فى الوقت الذى تنقل فيه المتاجر بين باخرة وأخرى فى مسافات الجنادل على خط من الترام قليل التكاليف • وتبلغ تكاليف الميل الواحد فى هذا المشروع ٥٣٨ر٥ من الجنيهات فى حين بلغت فى مشروع فولر للسكة الحديد الطوالى ١١٥٣٨ر٥ من الجنيهات (١٦٦) بزيادة قدرها ١١٠٠٠ر جنيه فى كل ميل ، مما يوضح عظم الفرق بين تكاليف المشروعين •

ومهما يكن الأمر ، فانه لم تمض أكثر من ثلاث سنوات على توقف العمل فى الخط الحديدى حتى تحركت الآمـــال فى مصر لاتمامه • ولقد كان من رأى لجنة شكلت سنة ١٨٨١ لمناقشة هذا الموضوع من جديد أنه لكى تقل تكاليف الخط الى أكبر درجة ممكنة يكفى أن يمد بين حلفا ودنقلة بدلا من المتمة فى مشروع فولر ، ثم يستعمل النهر الصالح للملاحة بعد ذلك حتى الدبة التى ستصبح راســـا للســـكة الحديد تنقل اليه متــــاجر الخرطوم وكردفان بالقوافل (١٦٧) • ولكن الوقت الذى كان مد السكة الحديد فيه بطريق الشمال أمرا مقررا كان قد مضى بعد أن اتجهت الأنظار الى طريق الشرق •

ويرى القائلون بطريق الشرق أن ميناء سواكن هو المخرج الطبيعى لتجارة السودان • وأنه فى حالة مد السكة الحديد بطريق الشرق ستصبح الخرطوم غير بعيدة عن القاهرة بأكثر من أسبوع ، وسواكن عن بربر بأكثر من ست عشرة ساعة ، ولادو عاصمة خط الاستواء عن البحر الأحمر بأكثر من ثلاثين يوما ، وبحر الغزال عنه بأكثر من عشرين يوما • هذا علاوة على أن الحكومة ستتمكن من القضاء على تجارة الرقيق ، وفتح الأركان البعيدة من البلاد للتجارة

المشروعة ، وزيادة الحركة التجارية بين البلاد والخارج · ويزيد من فائدة السكة الحديد المقترحة ارتباطها بخط للبواخر الخفيفة فى النيل التى ستوفر لها السكة الحديد وقودها من الفحم بنقله من سواكن الى بربر بطريقة اقتصادية (١٦٨) ·

وعندما تحركت الثورة المهدية في البلاد شكلت لجنة جديدة لدراسة موضوع السكة الحديد ، وكانت دراسات هذه اللجنة ـ فى الواقع ـ المحصلة لكل ما درس حول هذا الموضوع · وقد قدمت تقريرها المفصل الى الحكومة في يونيو سنة ١٨٨٣ ، وتبدو قيمة هذا التقرير فى أن أعضاء اللجنة كانوا من العارفين العالمين بشئون السودان (١٦٩) · وقد بينت اللجنة فيه أن هناك ثلاثة مشروعات لربط الخرطوم بالخارج بالسكة الحديد (١٧٠) · وتمتد السكة الحديد فى المشروع الأول على طول النيل حتى شندى بالشكل الذى يجعل سكة حديد السودان امتدادا لسكة حديد مصر التى كانت آخر محطة لها في ذلك الوقت عند أسيوط · فاذا تعذر القيام بهذا المشروع لضخامة تكاليفه فلتمد السكة الحديد فقط فى المناطق التى تتعذر فيها الملاحة في النهر · وتمتد السكة الحديد فى المشروع الثاني بين سواكن وكسلا وقوز رجب على نهر أتبرة ، وبعد ذلك اما أن تستمر الى الخرطوم مباشرة في خط مستقيم واما تنتهى عند أبو حراز على النيل الأزرق ، وفي الحالة الأخيرة يتم الاتصال بين أبو حراز والخرطوم بالسفن ، والنهر صالح للملاحة فيما بينهما طوال العام · وتمتد السكة الحديد في المشروع الثالث من سواكن الى بربر على النيل ، ثم ترتبط بربر بالخرطوم بحرا ·

وبتأمل المشروعات الثلاثة نجد أن محطة بدء السكة الحديد من جهة الخرطوم في المشروعين الأول والثالث عند شندى وبربر على الترتيب ، وفي المشروع الثاني عند أبو حراز ما لم تكن بدايتها عند الخرطوم . وهذا مما يوضح أن النيل سيربط بين الخرطوم ورأس السكة الحديد من جهتها في المشروعات الثلاثة .

وبعد استعراض اللجنة لمزايا وعيوب كل من المشروعات الثلاثة من النواحي المالية والفنية والاقتصادية أوصت ـ بلا تردد ـ بأن أنسب هذه المشروعات للبلاد وللخزانة هو المشروع الثالث . وحجتهم في ذلك أنه يخترق أقصر طريق بين النيل والبحر الأحمر (١٧١) ، وتتوافر الميـــاه فيه ، ولا تقوم في وجهه صـعاب هندسية لا يمكن تذليلها ، ويمكن الانتهاء منه في سنتين فقط ، وسوف يوفر عند تنفيذه الكثير من التكاليف والوقت في نقل الجند والمهمات العسكرية من البحر الأحمر الى داخل البلاد ، كما أنه اذا ما ذللت مواصلات النيل عند شلالات سبلوكه فسوف تصبح رأس السكة الحديد عند بربر على اتصال سهل بالخرطوم طوال العام .

وقد ألحت اللجنة في آخر التقرير الى أنه يجب على مصر القيام بالمشروع توا بنفســـها وعلى عاتقها ، فعلاوة على ما يقدمه لرفاهية البلاد ونمو تجارتها فربما لم تكن قد قامت للثورة المهدية قائمة لو كان هذا المشروع حقيقة ثابتة . هذا وقد رحبت الحكومة بالتقرير أيما ترحيب . ولكن الأمر قد وقف عند هذا الحد لانتكاس المالية المصرية .

ومن وسائل الاتصال التي كانت تعنى بها حكومة الخرطوم البريد والبرق ، فقد رتبت الحـكومة في البـــلاد بعـد الفتـح مباشرة سعاة لنقل المكاتبات ، ولـــكن لم يكن للجمهور حق في استخدامهم لنقل مكاتباته وحمل النقود من جهة الى أخرى الا في

ايام سعيد باشا ، وكان الرسم الذى يؤخذ على المكاتبة المرسلة من القاهرة الى الخرطوم سبعة قروش ونصف القرش ، وكانت المكاتبة تصل فى خمسين يوما (١٧٢) .

وقد وضحت عناية سعيد باشا بالبريد فى السودان فيما ضمنه المرسوم الأول الذى أصدره فى الخرطوم فى يناير سنة ١٨٥٧ أثناء زيارته للسودان ، فقد تحدث فيه الى مديرى البلاد بأنه « من الواجب أن تنظموا البريد للجزيرة (جزيرة سنار) وكردفان والتاكه ، وأن تؤسسوا محطات يوجد بها هجانة وجمال بديلة على بعد كل عشر ساعات تقريبا تقطع على ظهر الهجن . كما يجب أن تقيموا ثلاث محطات بين أبو حمد وكروسكو ـ عند أبو حمد وآبار مرات وكروسكو ، وترتبوا عشرة من الهجانة لكل مديرية » (١٧٣) . وكانت الخرطوم فى هذا الترتيب المركز الأول لخدمات البريد فى البلاد .

وفى عهد الحكمدار جعفر صادق (مايو ٦٥ ـ ديسمبر ١٨٦٥) أنشئت وظيفة « مفتش عام البوستة السودانية » على أن تكون مهمته « التنقل باستمرار فى جميع الأنحاء ليشرف على سرعة العمل » (١٧٤) . وفى ذلك الوقت كان البريد ينقل من الخرطوم الى سواكن مرة كل أسبوع على أن تحمله باخرة خاصة من سواكن الى السويس مرة كل أسبوع كذلك (١٧٥) .

وبعد سنة ١٨٦٥ ـ وفى السنة التى حلت فيها الحكومة محل الشركة الايطالية التى كانت تحتكر خدمة البريد فى مصر ـ تقدمت هذه الخدمة تقدما كبيرا ، وفتحت مكاتب للبريد فى كثير من مدن مصر والسودان على السواء ، وأصبح البريد ينقل بين مصر والسودان مرتين فى الأسبوع ، وأصبحت المراسلات وصرر النقود تنقل من

الخرطوم الى مصر فى ثمانية وعشرين يوما ـ وذلك بعد أن امتدت سكة حديد مصر الى أسيوط سنة ١٨٧٤ ـ والى الأبيض فى أربعة أيام ونصف والى الفاشر فى أحد عشر يوما (١٧٦) ٠

وكان سعاة البريد فى مصر يحملون المراسلات المنقولة من مصر الى السودان حتى كروسكو ٠ ثم تحمل المراسلات الى بربر حيث تاخذ طريقها برا الى الخرطوم ، وأحيانا بالبحر اذا تصادف ابحار احدى سفن الحكومة بين المدينتين ٠ ومن الخرطوم تأخذ مراسلات كردفان ودارفور طريقها اليهما بطريق أم درمان ـ الطيرة الخضراء ـ الأبيض ، أما مراسلات الجنوب فتحملها السفن الحكومية الى فاشودة، ثم الى مشرع الرق فى بحر الغزال وغندكرو على بحر الجبل ، وبعد ذلك يستلمها الحمالون وينقلونها من محطة الى أخرى ٠ وقد ظل مكتب بريد الخرطوم ـ شأنه فى ذلك شأن جميع مكاتب البريد فى البلاد ـ مباشرا أعماله حتى سقوط المدينة فى يد المهدى ، وكان مديره من المستوطنين الأوربيين الايطاليين يدعى جاكومو لومبروزو ٠ هذا وقد أثنى جميع الرحالة والسائحين الأجانب على خدمة البريد فى البلاد (١٧٧) ٠

والى جانب خدمة البريد أقيمت فى البلاد شبكة من أسلاك البرق (١٧٨) ٠ وقد بدىء سنة ١٨٦٣ فى مد خط البرق من مصر العليا الى الخرطوم بطريق أسوان ، ووصل هذا الخط الى حلفا سنة ١٨٦٦ ، والى الضفة الشمالية للنيل الأزرق فى مواجهة الخرطوم فى يناير سنة ١٨٧٠ ، ولم يلبث أن مد منه فرع فى قاع النيل الى الخرطوم نفسها سنة ١٨٧٤ ٠ وبينما يحدث ذلك كان هناك خط آخر يمد بين سواكن وكسلا انتهى منه فى مايو سنة ١٨٧١ ٠

وفى سنة ١٨٧٥ تم الربط البرقى بين كسلا وبربر ، فأصبحت الخرطوم ترتبط بالبحر الأحمر عند سواكن بطريق بربر وكسلا ،

كما ارتبطت بمصوع بعد أن مدت أسلاك البرق بين مصوع وكسلا في ذلك الوقت . أما الوصل البرقي بين الخرطوم والغرب فقد تم سنة ١٨٧٤ بينها وبين كردفان،وفي بداية سنة ١٨٧٧ بينها وبين دارفور عند نقطة فوكه .

وكانت محطة الارسال البرقي في الخرطوم تقوم على الضفة الشمالية للنيل الأزرق في القصر المعروف بقصر راسخ بك،أما مكاتب البريد والبرق ففي المدينة نفسها . وقد عمل اثنان من الأجانب مديرين للبرق ، وكان جسبورن Gisborne مديرا بين سنتي ١٨٦٤ ، ١٨٧٤ وخلفه جيجلر Geigler الألماني الذي ظل مديرا حتى آخر العهد المصري .

ولقد كان لارتباط أنحاء البلاد المختلفة بأسلاك البرق أثره الكبير في تحسين ادارة البلاد وحل مشاكلها الادارية في سرعة ويسر (١٧٩) . كما كان له أثره الطيب في نفوس المستوطنين الأوربيين بالبلاد ، ويتضح ذلك في قول المبعوثين الانجليزيين المقيمين في الأبيض ولسن وفلكن (١٨٠) « أننا أقرب ما نكون الى الوطن ونحن هنا في مقامنا في الأبيض مادمنا قادرين على الاتصال البرقي بلندن » .

الهـــــوامش

(١) Jackson, H. C. : Tooth of fire, p. 81.
Bruce, J. : Op. cit., p. 417 & pp. 419-20.

ولقد عاث الشايقية على وجه الخصوص فسادا فى البلاد ، ووصلوا فى اوائل القرن التاسع عشر الى درجة من القوة مكنتهم من الحركة السريعـة وتوجيه الضربات فى منطقة واسعة تمتد من وادى حلفا شمالا الى حلفاية الملوك جنوبا ، بل لقـد وصلت غاراتهم احيانا الى دارفور . وقد تعرضت القوافل الاتية من مصر عبر دنقلة لنهبهم ، كما هددوا طريق بربر – سواكن :

Burckhardt, J. L. : op. cit., p. 70.
Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 195.

(٢) وكانت تصل الى القاهرة من داخل افريقية ثلاث قوافل : الأولى من مرزوق عاصمة فزان ، والثانية من سنار ، والثالثة من دارفور :

Llyden, J. : op. cit., II, p. 494.
Bruce, J. : op. cit., p. 246.

(٣) Leyden, J. : op. cit., I, p. 292.

(٤) John, St. J.A. : Egypt and Nubia, pp. 459 f.

(٥) محمد رءوف باشا : « تقرير يتعلق بمدينة هرر ومحيطها »

جريدة أركان حرب الجيش المصرى – السنة الثالثة – الجزء الأول من المجلد الاول ، ص ٤٨ .

(٦) انظر :

SNR., I, Part, 1918, p. 229.

(٧) Hoskins, G.A. : op. cit, p. 50.
Burchardt, J. I. : op. cit., p. 285.

وكانت الخيل لها اهميتها حينئذ اذ كانت عدة الحرب في السلطنة .

(٨) Crawford, O.G.S. : op. cit., p. 63.

(٩) Hamilton, J. : op. cit., p. 383.

(١٠) Casati, Major G. : op. cit., I, p. 12.

(١١) Hamilton, J. : op. cit., p. 383.

(١٢) Martin, P.F. : op. cit., p. 414.

(١٣) Bruce, J. : op. cit., pp. 436-44.
Burckhardt, J. L. : op. cit., pp. 277-361.
Cailliaud, F. : op. cit., III, pp. 104-21.
Hoskins, G.A. : op. cit., pp. pp. 87-93 & pp. 120-25.

(١٤) Burckharnt, J. I. : op. cit., p. 235.

اما طريقا التجارة العظيمان في شرق افريقية فاولهما يمتد بشكل عربي شرقي من كردفان ودارفور وما وراءهما الى سواكن ، وثانيهما يمتد بشكل جنوبي شمالي من سنار والحبشة الى مصر .

(١٥) Lejean, G. : op cit., p. 54.

(١٦) Cailliaud, F. : op. cit., III, p. 116.

(١٧) Taylor, B. : op. cit., p. 259.

(١٨) Didier, Charles : Cinquante jours au resert, p. 272.
Taylor, B. : ip. cit., p. 316.

(١٩) Massaia, Cardinal G. : « Throtgh the Sudan, 1851 ».
in : My 35 years as a missionary in Upper Ethiopia:

(٢٠) De Cosson, E. A. : op. cit., p. 189.

(٢١) Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., pp. 164 f.

(٢٢) Truce, J. : op. cit., pp. 255 f.
Hamilton, J. : op. cit., p. 256.
Lejean, G. : op. cit., pp. 126-30.

وكان ذهب منطقة فازوغلي له اهمية في تجارة البلاد ، فقد كان يشكل قدرا من متاجر التجار في كل المنطقة الواقعة بين دارفور وكردفان غربا والحبشة

والبحر الاحمر شرقا ، وكان بعضه ينقل الى سواكن حيث كان يأخذ طريقه منها الى الهند .

(٢٣) De Cosson, E.A. : op. cit., pp. 164-72.

(٢٤) Ibid : p. 164 & p. 180.
Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., pp. 340.

(٢٥) Baker Sir S. : op. cit., p. 346.
Dufton, H. : op. cit., p. 42.

وقد حاول احد المبشرين الاجانب والمقيم فى القلابات حوالى سنة ١٨٦٠ أن ينقل قطن المنطقة الى ابى حراز برا ثم بحرا بعـد ذلك الى الخرطوم بقصد أن يتولى تجار العاصمة تصديره الى أوربا . ولكن ضعف امكانات النقل فى ذلك الوقت وقفت دون نجاح المحاولة :

Grant, J.A. : A walk across Africa, pp. 409 f.

(٢٦) Burckhardt, J. I. : op. cit., p. 316.

(٢٧) Baker, Sir S. : ip. cit., p. 371.
Dufton, H. : op. cit., p. 30.
Fr. Luigi Montouri's letter (in 1843).

(٢٨) Le Jean, G. : op. cit., p. 115.

(٢٩) Baker, Sir S. : op. cit., p. 371.

(٣٠) Fr. Martini, G. : To Gedarof, Gallabat and Fazugli, 1876.

(٣١) حدث فعلا أن تقدم الوزير الهمجى محمد ابو اللكيلك من كردفان الى سنار من طريق الليس ، وتمكن من عزل السلطان بادى ابو شلوخ :
Jackson, H.C. : Tooth of Fire, p. 57.

(٣٢) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 196.

(٣٣) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 72.

(٣٤) Waddington, G. & Hanburg, B. : op. cit., p. 212.

(٣٥) Pensa, H. : op. cit., p. 232.

(٣٦) Hamilton, J. : op. cit., pp. 266 f

(٣٧) Baker, Sir S. : ip. cit., p. 51.

وفي الواقع ، ظلت الابيض طوال الحكم المصرى المدينة التجارية الثانية بعد الخرطوم .

(٣٨) Stewart, Lieut. — Col. : Report on thi Sudan, pp 22

(٣٩) يمتد هذا الطريق من كبة Kobbee بدافور الى أسيوط بصعيد مصر .

(٤٠) Combes, E. : op. cit., pp. 130 f.

(٤١) Taylor, B. : op. cit., p. 304.

(٤٢) Combes, E. : op. cit., p. 127 & p. 129.

(٤٣) Pallme, I. : op. cit., p. 288.

(٤٤) Taylor, B. : op. cit, p. 305.

(٤٥) دفتر ٧٥ معية عربى ـ الوثيقة رقم ٢٩٢ .
بتاريخ ٧ ربيع ثان ١٢٩٨ ، أمر عال الى سلطان دارفور .

(٤٦) دفتر ١ معية عربى ، الوثيقة رقم ٢ بتاريخ ١١ محرم ١٢٩٢ ،
دفتر ٢ معية عربى ، الوثيقة رقم ٢٠ بتاريخ ٧ شوال ١٢٩١ .

(٤٧) Grant, J.A. : A Walk across Africa, p. 408.,

(٤٨) Combes, E. : op. cit., p. 126.
Taylor, B. : op. cit., p. 303.

(٤٩) Rollet, B. : ip. cit., p. 313.

يرجع الفضل في تأسيس التجارة بين تجار الخرطوم وسكان تلك الجهة الى
احد تجار الخرطوم الاجانب السردينى الاصل وهو برون روليت .

(٥٠) Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 153 f.

(٥١) Massaia, Cardinal G. : op. cit.

(٥٢) Pallme, I. : op. cit., p. 280.
Prout, H. G. : op. cit., p. 66 & p. 76.
Melly, A. : op. cit., p. 134.

(٥٣) Paul, E. : The future of Egypt, p. 41.
Petherick, J. : op. cit., p. 305.
Pallme, J. : op. cit., p. 133.
Wilson, Rev. C.T. & Felkin, R.W. : op. cit., p. 312.

(٥٤) Rollet, B. : op. cit., p. 305.

(٥٥) Paul, E. : op. cit., p. 41.
Paul, E. : op. cit., p. 41.

(٥٦) Petherick, J. : op. cit., p. 285.

(٥٧) Pallme, I. : op. cit., p. 283.

(٥٨) Melly, A. : op. cit., p. 135.

(٥٩) دفتر ٤١٣ صادر المعية ـ وثيقة رقم ١٦٧٤ بتاريخ ٢٢ صفر ١٢٦٣ الى حكمدار السودان .

(٦٠) Petherick, J. : op. cit., pp. 288 f.

(٦١) Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., pp. 215 f.

(٦٢) Hill, G. B. : Colonel Gordo in General Africa, p. 198.
Prout, H. G. : op. cit., p. 77.
Pallme, I : op. cit., p. 280.
Rollet, B. : op. cit., pp. 131-133.

(٦٣) انظر :

(٦٤) Werne. E. : Expldition to discover the sources if the White Nile, II, p. 287.

(٦٥) انظر رحلات هاى ، ليتان دى بلفون ، ابراهيم كاشف ، وخورشيد بك فى النيل الأبيض فى :
Bonola, Le Dr. F. : op. cit., pp. 25-26.

(٦٦) انظر الرحلة الاولى فى :

سليم قبودان (البكباشى) : الرحلة الاولى للبحث عن ينابيع البحر الابيض الصادر بها امر ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان القراقلة البكباشى سليم قبودان ـ نقلها الى العربية محمد مسعود القاهرة ١٩٢٢ م .

(٦٧) انظر هذه الرحلة فى :

Werne, F. : Expedition to discover the sources of the White Nile in the years 1840, 1941, 2 vols, L. 1849.

وقد صحب فرن القبطان سليم فى تلك الرحلة على نفقتـه الخاصة .

(٦٨) Bonola, Le Dr. F. : op. cit., p. 28.

وانظر رحلات سليم قبطان الثلاث فى : مقال (الدكتور نسيم) : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل .

pp. 241-65.

(٦٩) Werne, F. : ip. cit., II, p. 15, 18, 25, 89 & p. 123.

(٧٠) Ibid., I, p. 29 f.

(٧١) Aff-Etr. Egypte (15) No. 37, Le Caire 24, I, 1843. Gautier d'arc à Guizot :

عن الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٢٣ .

(٧٢) لمست الحكومة هذا التدفق للأجانب على البلاد لدرجة صدرت معها الأوامر الى حكمدار السودان ، بأن يتجسس أحوال القادمين والمسافرين تحت ستار التجارة والسياحة ، حتى تطمئن الحكومة الى الحقيقة فى سبب مجيئهم الى البلاد : محفظة نمرة ١٩ ـ وثيقـة رقم ٧٢ سـودان بتـاريخ ٩ صفر ١٢٦٢ .

(٧٣) Rollet, B. : op. cit., pp. 178-82 & p. 287.

Shukry, Dr. M. F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Suran (1863-1879), p. 103.

(٧٤) Tremaux, p. : op. cit., pp. 32-35.

Tremaux, P. op. cit., pp. 34-35.

وانظر ايضا :

دفتر ٣٦٩ معية تركى ـ وثيقة رقم ٣٦٤٢ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجـة ١٢٥٩ ايراده الى مدير الخرطوم .

(٧٥) Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Cenérale ..., p. 33.

(٧٦) Pallme, I. : op. cit., pp. 283-88.

(٧٧) Rollet, B. : op. cit., p. 39.

(٧٨) Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. f.

(٧٩ ، ٨٠) Taylor, B. : op. cit., p. 388.

(٨١) Hamilton, J. : op. cit., p. 337.

(٨٢) Lejean, G. : op. cit., p. 32.

(٨٣) Baker, Sir S. : The Albert N'yanza, p. II.
Dujarric, G. : L'Etat Mahdiste du Soudan, p. 119.

(٨٤) Schwein furth, Dr. G. : op. cit., I, p. 6.

(٨٥) كانت محطات تجار الجنوب تعرف (بالزرائب) ، وهى مستعمرات لهم محاطة بأسيجة من الاخشاب والقش وبها مخازن للعاج والذخيرة وسائر المواد التى يبادلون بها مع الزنوج ، كما أن بها اماكن لاقامة الحراس والاتباع . طالع كيفية العمل داخل الزرائب وخارجها فى :

Schwein furth, Dr. G. : op. cit., I, p. 6 f.

(٨٦) كان القنطار من العاج تختلف قيمته من الأرطال باختلاف حجم انيابه ونوعها وهدف التجار من ذلك أن يكون هناك تناسب بين وزن الناب ودرجة جودته : فالقنطار الذى يزن الناب فيه بين ٢٥ و ٦٠ رطلا يساوى ١٠٠ رطل .

والذى يزن الناب فيه بين ٦٠ ، ١٠٩ رطل يساوى ١٥٠ رطلا .

والذى يزن الناب فيه بين ٢٤٫٥ رطلا يساوى ١٧٥ رطل .

والذى يزن الناب فيه اقل من ذلك يساوى ٢٠٠ رطل .

Hamilton, J. : ip. cit., p. 338.

(٨٧) Chaille Long, Col. C. : My life in four Continents, I, p, 78 f.

(٨٨) Gissi, R. Pasha : op. cit., p. 441.

ولقد أورد جسى على تلك الصفحة احصائية بصادرات العاج بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٧٩ ويتضح منها أن صادرات العاج لم تتأثر باجراءات عردون .

(٨٩) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 61.

(٩٠) Chelu, A. : op. cit., p. 106.

(٩١) طالع ما كتب عن (الغزوة) فى كتاب بالم ، وقد افرد فيه للحديث عنها فصلين كاملين :

Pallme, I. : op. cit., pp. 30٤-44.

(٩٢) Pallme, I. : op. cit., pp. 38 f.

(٩٣) Palme, I : op. cit., p. 363.

(٩٤) Ibid., p. 389.,

(٩٥) فى سنة ١٨٤٢ كانت الضريبة المدفوعة عن العبد الحبشي خمسين قرشا وعن غيره من العبيد ثلاثين قرشا . في سنة ١٨٥٢ إرتفعت الضريبة الى خمسمائة وخمسين قرشا للحبشى وثلاثمائة وخمسين لغيره :

Taylor, B. : op. cit., p. 389.

(٩٦) Gilbert, P. : L'Afrique Inconnu : Recits et aventures de voyageurs modernes au sudan Orientale, p. 165.

(٩٧) كان لسان حال تلك العصابات « يا ذهب احمر يا موت احمر » :

نعوم شقير : تاريخ مديرية خط الاستواء ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

محمد احمد الجابرى : فى شأن الله ، ص ١٢٦ .

(٩٨) Shukry, le Dr. M.F. : op. cit., p. 119.

(٩٩) Baker, Sir S. : Ismailia, I, pp. 3 f.

(١٠٠) محمد خير الارناؤوطى الدنقلاوى وهو اول من فتح بلاد الشلوك لتجارة الرقيق ونقل عبيدهم الى سوق الخرطوم :

انظر ترجمة له فى :

محمد عبد الرحيم : نفثات اليراع ، ص ٨٥ .

Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 197-99.
Mr. & Petherick : lp. cit., I, pp. 96 f.

Hill, R. A. : A biographical dictionary ..., p. 261.
Douin, G. : Histiore du regne du Khedive Ismail, I re. partie, pp. 13-14.

Baker, Sir S. : Ismailia, I, pp. 150 f. (١٠١)

Gess . R. Pasha : op. cit., I, p. 213. (١٠٢)

Baker, Sir S. : Ismailia, I, p. 3. (١٠٣)

Rouet B. : op. cit., p. 391. (١٠٤)
Berlioux, E. F. : op. cit., pp. 14f. & p. 20.
Hamilton J. : op. cit., p. 336.

(١٠٥) كان التاجر يحتاج الى عدد من الحراس يتراوح بين المائة والثلاثمائة ٠ واكبر تاجر بالخرطوم – وهو العقاد – كان لديه ألفان وخمسمائة منهم ٠ وهؤلاء الحراس منظمون تنظيما عسكريا ومسلحون بالبنادق ومقسمون الى جماعات يرأس كل منها رجل منهم ، وفى أحوال كثيرة كان يقودهم ضباط فارون من جيش الحكومة ٠ ويقدر عدد الحراس فى الجنوب بعدة الاف ويعرفون (بالخطرية) ومعظمهم من الدناقلة يليهم الزنوج المرافيت ٠ وفى بعض الأحيان كان بعض التجار يدرب بعض العبيد على استعمال السلاح النارى لاستخدامهم حراسا ٠ وكانت قوارب الرحلات (النقارات) تحمل من الحراس من ثلاثين الى مائة ، وكان كثير من الحراس يهرب ببندقيته واجره المقدم قبل قيام الرحلة أو فى مراحلها الاولى اذا تسنى له ذلك :

Chaille long, Col. C. : My life in four continents, I
p. 79.
Mr. & Mrs. Petherick : op. cit., I, pp. 70 f.
Lejean, G. : op. cit., p. 34.
Hill G. B. : Colonel Gordon in central Africa, p. 21.
Baker, S. : Ismaillia, I, p. 3.

Berlioux, E. F. : op. cit., p. 15 & p. 18. (١٠٦)

فى أحوال كثيرة كان لا يبقى للمستخدم شيء من اجره عند تصفية حسابه فى الخرطوم ٠ اما ما فى حوزته بعد ذلك فقد اتى عن طريق سلب ما بيد الزنوج ٠

(١٠٧) اتى بكير بأحسن وصف لما يجرى فى حملات الجنوب فى :
Baker, Sir S. : Albert N.yanza, pp. 12-16.
Ismailia, I, pp. 259 f.

(١٠٨) جرت العادة على تسجيل قيم العبيد المشترين فى دفاتر حساب رجال الحملة على انها اثمان للوازم استلموها من وكيل الحملة ، فمثلا اذا

اشترى احد رجال الحملة عبدا بألف قرش يشار الى هذا المبلغ على انه ثمن للوازم الاتية :

صابون وقيمته ٥٠ قرشا – طربوش ١٠٠ قرش – عرقى ٥٠٠ قرش – احذية ٢٠٠ قرش – المخدة قطنية ١٥٠ قرشا :

Baker, Sir S. : Albert N'yanza, p. 14.

Bermann, R. A. : op. cit., pp. 30 f.

(١٠٩) Bermann, R. A. : op. cit., pp. 30 f.

(١١٠) L'ejean, G. : op. cit., p. 34.

(١١١) Wilson, Rev. C.T. & Felkin, R.W. : op. cit., p. 317.

(١١٢) Baker, Sir S. : Albert N'yanza, p. 15.

(١١٣) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 388.

(١١٤) Russell, H. assisted by W. Gattle : The ruin of the Sudan cause, effect and remedy, pp. 286 f.

Douin, G. : op. cit., III, 3e. partie (B), p. 1172.

(١١٥) Junker, Dr. W. : Travels in Africa (1879-83), pp. 28 f.

(١١٦) Stewart, Lieut. — Col. : Report on the Sudan, p. 23.

Stewart, Lieut. Col. : Report in the Suran, p. 23.

(١١٧) Taylor, B. : op. cit., p. 386

(١١٨) Palmer, I. : op. cit., pp. 296-99.

(١١٩) خشب الحق خشب ملون بالوان حمراء وصفراء براقة تصنع منه اوعية لحفظ العطور اليابسة كما تزين به المنازل • وقد تعلم اهالى البلاد تلك الصناعة من اهالى جدة • ومازالت تلك الاوعية معروفة فى البلاد وتعرف بالحق :

القبانى : ذكرياته عن الحكم المصرى فى السودان – ص ١٣٩ ، ١٤٢ من الجزء الاول من كتاب السودان لعبد الله حسين •

(١٢٠) Casati, Major G. : op. cit., p. 10.

Mr & Mrs Petherick : op. cit., I, p. 72.

(١٢١) الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٠٥ •

(١٢٢) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 27.

(١٢٣) Colborne, Col. The Hon. J. : op. cit., p 83.

(١٢٤) Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 412-14.

(١٢٥) De Rivoyre, D. : Aux Pays du Soudan, p. 152.

Russell, H. & W. Gattle : op. cit., p. 360.

(١٢٦) Taylor, B. : op. cit., pp. 384 f.

(١٢٧) Massaia, Cardinal G. op. cit.

(١٢٨) دفتر ٣٢١ صادر شورى المعاونة ـ وثيقة رقم ١١٥٩ بتاريخ ٢٠ جمادى الاولى ١٢٥٩ الى مامور حفر الابار فى كروسكو • واهتم محمد على بطريق المتمور لدرجة فكر معها فى مد سكة حديدية فيه • محفظة ١٢٢ ملف متفرقات ـ دوسيه بدون تاريخ سنة ١٢٥٤ • رحلة محمد على الى السودان •

(١٢٩) Petherick, J. : op. cit., p. 33.

Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., p. 50.

(١٣٠) Di Rivoyre, D. : op. cit., p. 152.

(١٣١) بينما بلغ عدد السفن التى دخلت ميناء سواكن سنة ١٨٦٩ ـ ١٤٦ سفينة اذا بهذا العدد يرتفع سنة ١٨٧١ الى ٢٠١ سفينة ، والى ٢٣٠ سفينة سنة ١٨٧٧ •

Amici, F. : Essai de statistique generale de L'Egypte, I, pp. 59 et seq.

(١٣٢) Di Rivoyre, D. : op. cit., p. 152.

(١٣٣) Casati, Major G. : op. cit., p. 7.

(١٣٤) Abbate Pasha, Dr. O. : « Le Soudan sous le regne du Kherive Ismail », in : Aegyptiaca, p. 356 f.

(١٣٥) دفتر ٥٥٨ ـ وثيقة بدون رقم بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية ١٢٨٢ • ارادة صادرة الى وكيل حكمدار السودان •

(١٣٦) دفتر ٥٥٨ ـ وثيقة رقم ٢٨ بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٨٣ · ارادة صادر الي حكمدار السودان ·

(١٣٧) دفتر ٥٥٣ صادر المعية ـ وثيقة رقم ٢٢ · بتاريخ ٢ شعبان ١٢٨١ ·

(١٣٨) دفتر ٢٠ تركي ـ وثيقة رقم ٣١ بتاريخ ٨ شوال ١٢٤٠ من الجناب العالي الى حاكم كردفان ·

(١٣٩) Taylor, B. : op. cit., p. 313 & p. 317.

(١٤٠) براوث : تقرير ورد لديوان الجهادية يتضمن نتيجة الأعمال الكشفية التي اجراها فيما بين الخرطوم والابيض بولاية كردفان ـ تعريب عمر الفندى رشدى يكباشي اركان حرب · جريدة اركان حرب الجيش المصري ـ السنة الثالثة ـ الجزء الأول من المجلد الأول ، ص ٢٢ ·

(١٤١) براوث : نفس المصدر ، ص ١٧ ، ٢٢ ·

Prout, H. G. : op. cit., p. 155.

Prout, H. G. : op. cit., p. 153 & p. 156.

(١٤٢) Taylor, B. : op. cit., pp. 324 f.

(١٤٣) Sartorius, E. : Three months in the Sudan, pp. 120 f.

Stewart, Lieut. — Cll. : Repor on the Sudan, p. 8.

(١٤٤) Baker, Sir S. : Albert N'yanza, pp. 461 f.

Martin, P. F. : op. cit., p. 386.

(١٤٥) كان العبابدة هم ملتزمى النقل فى طريق الشمال بين كروسكو وبربر والبشاريون فى طريق الشرق بين سواكن وبربر ، والكبابيش فى طريق الغرب بين كردفان ودارفور وكل من دنقلة والخرطوم ، والشكرية في الطريق بين قوز رجب على نهر اتبرة والخرطوم ·

(١٤٦) Wylde, A. B. : 83 to 87 in the Sudan, II, p. 35.

(١٤٧) قدر عدد السفن العاملة فى النيل الأبيض وفروعه سنة ١٨٦٠ بمائتين وخمسين سفينة :

Grant, J.A. : A walk across Africa, p. 412.

ولقد زار مركز النيل كطريق للمواصلات بعد الفتح الثانى مع أن السكة الحديد كانت امتد بالبلاد فى تلك الوقت :

Wilkcooks, Sir W. : « L'Egypte dans cinquante ans. »
Bulletin de la Societ Khediviale de Geographie du caire, Ve serie, supp., 1903, pp. 130 f.

(١٤٨) Wylde, S.B. : op. cit, p. 125.

(١٤٩) Casati, Major G. : op. cit., pp. 12 f.

(١٥٠) دفتر ٢٢١ صادر شورى المعاونة ـ وثيقة رقم ٨٦٩ ، بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ٢٥٩ : الى مدير ديوان المدارس ، دفتر ٢٨٩ صادر ديوان المعاونة الملكية ـ وثيقة رقم ٢٨٩ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الاخرة ١٢٥٩ ـ من الجهادية الى ديوان مصر الملكى .

(١٥١) Abbate Pacha, Le Dr. O. : « Exposr technique du projet du canal Abbas II ».

in : Agyptiaca, pp. 318-27

وانظر خريطة لتلك القناة المقترحة بين صفحتى ٢٢٠ ، ٢٢١ فى هذا الموضوع .

(١٥٢) Op. cit., p. 399.

(١٥٣) الشاطر بوصيلى عبد الجليل : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل ، القسم الاول (حتى ١٩٠٦) ، ص ٢٨ .

(١٥٤) Massaia, Cardinal G. : op. cit.

(١٥٥) Junker, Dr. W. : op. cit. (1879-83), pp. 19 f.
Stigand, Major C. H. : Equatoria : The Lado enclave, p. xivi & p. xlviii,
Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 393 f.
وقد ظلت مشكلة القضاء على السدود النباتية فى اعالى النيل من المشاكل الكبيرة فى سودان ما بعد سنة ١٩٠٠ ـ انظر :
Christy, C. : « Sleeping sickness », Jas., No IXI Oct. 1903, pp. I-II.

(١٥٦) Bonola, Le Dr. F. : op. cit., p. 40.

(١٥٧) Rollet, B. : op. cit., pp. 320 f.

وفى راى برون روليت ان سكة حديد تربط مصر بالسودان فى ذلك الوقت اكثر نفعا لمصر من شق قناة السويس •

(١٥٨) دفتر ٢١ ـ وثيقة رقم ٢٥ بتاريخ ٢٣ جمادى الاول ١٢٨١ • من أفندينا الى الصدر الأعظم •

(١٥٩) دفتر ٥٤ ـ وثيقة رقم ٤ بتاريخ ١٦ جمادى الثانية ١٢٨١ • تلغراف الى حكمدار السودان •

(١٦٠) Douin, G. : op. cit, III, Ire partie, pp. 152 f.

(١٦١) Douin, G. : Op. cit., III, Ire partie, pp. 152 f.

(١٦٢) دفتر ٥٦٠ ـ وثيقة بدون رقم • بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٨٤ من شريف باشا الى الباشا المهردار •
Douin, G. : op. cit., III, Ire partie, pp. 291 f.

(١٦٣) Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 411-12.
Hamiltin, J. : op. cit., p. 339.
De Cosson, E. A. : op. cit., p. 224.

رامين سامى : تقويم النيل مجلد ٢ من ج ٣ ، ص ١٢٨٦ ـ ١٢٨٧ •

(١٦٤) سجل ٢٨٧٣ جهادية ـ وثيقة رقم ٤٨ • بتاريخ ١٩ جمادى الاول ١٢٩٠ من الجهادية الى الباشا المهردار •

(١٦٥) رجع شاهين باشا بعد مدة قصيرة الى مصر لمرضه وخلفه مصطفى فهمى باشا ، وخلف هذا محمد راسخ بك (وهو سودانى) :

الوقائع المصرية ـ العدد ٧٣٦ فى يوم ١٢ ذى القعدة ١٢٩٤ (الموافق ١٨ نوفمبر ١٨٧٧) •

(١٦٦) Hill, G.B. : op. cit., pp. 315 f.

(١٦٧) Wylde, A. B. op. cit., pp. 132 f.

(١٦٨) Hill, G.B. : op. cit., p. 315.
Wylde, A. B. : op. cit., p. 125 & 129 & 137.
Prout, H. G. : op. cit., pp. 125-27.
Stewart, Lieut. — Vol. : Repirt on the Sudan, p. 24.
Russell, H. & W. Gattie : op. cit., p. 360.
Fox, F.W. : « The fertility of the Suran », in : Russell, H. & W. Gattie : op. cit., p. 343-51.

(١٦٩) كانت تلك اللجنة تتكون من عثمان رفقي باشا الذي عمل قائدا عاما للجيش في السودان ، وعبد القادر حلمي باشا الذي عمل حاكما عاما ، والكولونيل واتسن والكولونيل ماسون بك من ضباط اركان حرب الجيش اللذين قاما بدراسة مجرى النيل بين بربر وبحيرة البرت وطريق بربر - سواكن أيضا ، والمسيو روسو أحد كبار المهندسين الفرنسيين بوزارة الاشغال ، والمسيو ريجوليه الفرنسي التاجر بالخرطوم وصاحب الخبرات العريضة ٠ أما رئيس اللجنة فكان عمر لطفي وزير الحربية سنتي ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ ٠

(١٧٠) Wylde, A.B. : op. cit., pp. 129-35.

(١٧١) طول هذا الطريق ٤٦٠ كم فقط ٠ في حين يبلغ طوله في المشروع الأول بين أسيوط وشندى ١٨٠٠ كم ويتكلف ثمانية ملايين من الجنيهات ، فاذا اختصر هذا الطول ومدت السكة الحديد بين حلفا وشندى فقط فان التكاليف تنخفض الى النصف ويبلغ طول الخط في المشروع الثاني اكثر من ١٠٠٠ كم وتبلغ تكاليفه ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات ٠

(١٧٢) Bonola, Le Dr. F. : op. cit., p. 106.

(١٧٣) Abbate Pacha, Le Dr. O. : l'Afrique Cintralee, pp. 40 f.

(١٧٤) محفظة ٣٦ تركي - الوثيقة رقم ٧٨ ٠

- بتاريخ ١٦ رجب ١٢٨٢ من جعفر صادق الى المعية ٠

(١٧٥) دفتر ٥٥٨ تركي بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٢٨٢ ٠

- الوثيقة رقم ١٩ من المعية الى حكمدار السودان ٠

(١٧٦) Hill, R. : Egypt in the Sudan, p. 130.

(١٧٧) Bonola, Le Dr. F. : op. cit., pp. 106-108.

(١٧٨) Stewart, Lieut. — Col. : Report on the Sudan, p. 8.

Douin, G. : op. cit., III, Ire partie, p. 141 & pp. 294-96.
Diuin. G. : op. cit., III, 2e partie, pp. 644-51.
Schweinfurth, Dr. G. : op. cit., II, p. 486.
Pensa, H. : op.. cit., p. 230 & 234.
Hill, R. : Egypt in the Sudan, p. 130.

وانظر أيضا :

- دفتر ١٨٤٩ معية بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٢٨٨ ٠

ـ الوثيقة رقم ١٤ من حكمدارية السودان الى المعية ٠

ـ الوثيقة رقم ٣٣ من المعية السنية الى السكة الحديد ٠

ـ دفتر ١٨٧٠ معية بتاريخ ١٤ محرم ١٢٩١ ، دفتر ٢٤ وارد تلغرافات ٠

ـ التلغراف العربي رقم ٨٤ ، بتاريخ ١٠ شوال ١٢٩٢ من باشمهندس تلغرافات السودان الى المعاون ؛ أمين سامي : المصدر السابق ، مجلد ٢ من ج ٣ ، ص ٧٤٨ ٠

ـ للوقائع المصرية : رقم ٣٤٢ الصادر بتاريخ ٢٥ شوال ١٢٨٦ ٠ (٢٧ يناير ١٨٧٠) ٠

(١٧٩) ومثال ذلك ان خط البرق بين الخرطوم ودارفور افاد لدرجة كبيرة فى مترحات دارفور ، فان موقف الجيش المحارب وطلب النجدات والنظام الادارى الذى اقترحه الحكمدار اسماعيل ايوب لدارفور : كان كل ذلك يصل بسرعة الى الخديو الذى كان يرسل افكاره مراعا الى الحكمدار مضمنا اياها رأيه فى هذه المشاكل ٠

(١٨٠) Op. cit. p. 312.

الفصل الخامس

مجتمع الخرطوم

اولا : سكان الخرطوم :

العرب : الدناقلة ـ الجعليون ـ المحس ـ الدراويش والفقراء ـ المغاربة ·

الملامح الاجتماعية للسكان العرب ·

العبيد : عبيد الأهالى ـ عبيد الحكومة ـ العبيد المحررون·

المركز الاجتماعى للعبيد ·

الترك : الترك الأصليون والمركز الاجتماعى للحكمدار

السوريون ·

النصارى : القبط ·

الأوربيون : التجار ـ الموظفون ـ رجال البعثة الكاثوليكية ـ الرحالة والمكتشفون ، ومجهود الادارة ودور الخرطوم فى تسهيل رحلاتهم ·

التمثيل القنصلى فى الخرطوم ·

الملامح الاجتماعية للمستعمرة الأوربية ·

ثانيا : ملامح عامة عن مجتمع الخرطوم :

عدد السكان ·

الصحة ·

التعليم ·

اختلط السكان فى السودان الشمالى طوال الأزمنة التاريخية اختلاطا كبيرا ، مما يصعب معه تحديد الصفات الجنسية لسكانه الأصليين قبل تعرضه لانسيال الأجناس المحيطة به طوال تلك الأزمنة . فلما جاء الفتح المصرى زاد تلون دماء السكان ، بسبب ما صحبه من دخول أجناس عديدة من الترك والمصريين وسائر الشرقيين ـ رعايا الإمبراطورية العثمانية ـ والأوربيين وأصناف أخرى عديدة كانت تتكون منها القوة العسكرية فى البلاد ، ودخول أجناس أكثر عددا من الجوارى اللاتى ازداد الطلب عليهن فى مجتمع ما بعد الفتح ، وما صحب الفتح أيضا من قيام مدن جديدة وذبول مدن قديمة .

والأمر فى العاصمة الخرطوم أكثر صحة ورسوخا . فاذا أضفنا الى ذلك وجود منطقة الانتقال بين الأجناس البيضاء والسوداء غير بعيدة عنها الى الجنوب (١) وضحت صعوبة التمييز الدقيق بين الأصول الجنسية لسكان الخرطوم فى العهد المصرى .

ولسكان البلاد طريقتهم فى التمييز بين أصناف السكان ، فلكل جنس عندهم لونه الذى ينفرد به . وها هى ذى أجناسهم ابتداء من اللون الأبيض ومتدرجين نحو السواد بدرجاته المختلفة حتى تنتهى الى أحلك ألوانه (٢) .

فالترك والأوربيين عموما عند السكان من ذوى اللون الأبيض ، والمصريون والمولدون لونهم أحمر ، والعرب البدو ـ وهم أقل أجناس البلاد تلونا ـ لونهم أصفر ، وسكان البلاد عموما لونهم أخضر ـ وهو اللون العادى للسودانيين ، والفونج والنوبا لونهم أزرق ، وأخيرا يأتى العبيد أو الزنوج ـ وهم أحلك أجناس البلاد لونا .

وقد ظهر الى جانب هذا التقسيم تقسيم آخر للأجناس ـ وبخاصة سكان المدن منهم ـ يتميز بانه أكثر شمولا وسهولة : فاهل البلاد يدعون أنفسهم ـ مهما كانت ألوانهم ـ عربا ، والزنوج عندهم عبيد ، وكل مسلم أبيض مهما كانت جنسيته تركى ، وكل مسيحى ابيض نصرانى (٣) .

ويمكن تطبيق هذا التصنيف الأخير بسهولة على سكان مدينة الخرطوم عند دراستهم . فاهل البلاد أما عرب وهم سكان شمال السودان ، واما عبيد وهم الزنوج سكان الجنوب ـ عبيدا كانوا أم احرارا . والأجانب البيض اما ترك اذا كانوا مسلمين ـ وهؤلاء هم الترك والمصريون وغيرهم من المسلمين البيض وسائر رعايا الامبراطورية العثمانية ، واما نصارى اذا كانوا غير مسلمين ـ وهم القبط المصريون والأوربيون على وجه العموم .

والعرب من سكان الخرطوم ـ على هذا الأساس ـ هم السودانيون الشماليون . كما يضم اليهم المولدون من أم سودانية وأب غير سودانى ، وسكان البلاد من الأجانب غير البيض ممن تشبه ألوانهم ألوان السودانيين ، والمغاربة الذين استقروا فى السودان منذ مدة طويلة قبل الفتح المصرى ـ وان كانت ألوانهم أكثر بياضا من السودانيين .

وهذا الصنف من سكان الخرطوم يتكون من خليط من كافة قبائل السودان ، وان كان معظمه من الدناقلة والجعليين والشايقية والمحس والمغاربة . ويضاف الى هؤلاء عدد كبير من الدراويش أصحاب الطرق الصوفية والمشايخ المعروفين بالفقراء أو (الفقرا) عند السودانيين .

أما الدناقلة ، فتتكون منهم أغلبية السكان العرب فى الخرطوم، ويكونون - ومعهم الجعليون - ثلثى هؤلاء السكان (٤) . وهم سكان منطقة دنقلة الذين انتقلوا منها جنوبا الى جميع أنحاء البلاد قبل الفتح المصرى ، وزاد هذا الأمر بعد الفتح - وبخاصة الى مدينة الخرطوم . وترجع أسباب هجرتهم الى ضيق الرقعة الزراعية فى مواطنهم الأولى ، وما أصاب مركزهم كتجار فى شندى وبربر - العاصمتين التجاريتين القديمتين - بعد أن سلبتهما الخرطوم أهميتهما التجارية .

وعند أول نزول الدناقلة بالخرطوم على عهد خورشيد باشا عملوا بالتجارة ، وسكنوا حول منطقة القلب فى المدينة - وان كانوا قد تجمعوا جنوب شرق هذا القلب فى حلة المراكبية . ولم يلبث عددهم فى المدينة أن أخذ فى الزيادة ، ويرتبط هذا أكثر ما يرتبط بقصة قنص الرقيق وتجارته فى البلاد . فقد كانوا يشتركون فى رحلات الجنوب التجارية كحراس من قبل الحكومة بين سنتى ١٨٤٢ ، ١٨٥٢ - حينما كان حكمدارو السودان يحتكرون تجارة الجنوب ويدعون مسئوليتهم عن حراسة رحلات التجار اليه ، وحراس رحلات تجار الجنوب كذلك منذ سنة ١٨٥٢ وهى السنة التى بدأت فيها موجات كبيرة منهم تنساب الى الخرطوم .

وقد كبر دور الدناقلة كحراس لرحلات الجنوب بمر السنين ، وخاصة بعد أن سمح لهم أصحاب تلك الرحلات منذ سنة ١٨٥٤ بقنص العبيد لحسابهم لتغطية جزء من تكاليف الرحلة . ولما كانوا سادة تجارة صادرات كردفان الى كل من مصر والخرطوم فقد استفادوا لدرجة كبيرة من اعلان عباس باشا الغاء احتكار الحكومة لتجارة الصمغ سنة ١٨٥٠ ، مما دفع كثيرا منهم الى الانتقال الى كردفان محطة تسويق الصمغ والى الخرطوم سوق توزيع معظمه فى ذلك الوقت . فاذا كانت سنة ١٨٦٠ ، كان عددهم فى الخرطوم قد

عظم لدرجة كبيرة ، وخاصة أن كثيرين منهم انتقلوا ــ حوالى تلك السنة ــ من جميع أنحاء وسط السودان الى الخرطوم والمناطق التى تقع جنوبها لمرافقة محمد خير الأرجاوى الدنقلاوى تاجر الرقيق فى مهاجمة بلاد الشلوك وفتحها لصالح سوق الرقيق فى الخرطوم ٠ وقد قدر ليجان عددهم فى الخرطوم فى تلك السنة بثمانية عشر الفـــا (٥) ٠

وعندما أعلنت الحكومة الحرب على تجـــارة الرقيق فى عهد اسماعيل لم يتأثر عدد الدناقلة فى الخرطوم ، حيث أنه كان منهم جل جند حملات الحكومة التى وجهت للقضاء على قنص الرقيق ــ الى بحر الغزال تحت قيادة البلالى سنة ١٨٦٩ ، والى خط الاستواء تحت قيادة كل من بيكر فى نفس السنة وغردون بين سنتى ١٨٧٤ ، ١٨٧٦ ٠ وفى جميع هذه الرحــلات كان للدناقلة بيوتهم وعائلاتهم التى تقيم بصفة دائمة فى الخرطوم ٠

وهكذا نجد الدناقلة فى الخرطوم يكسبون فى جميع الأحوال ٠ فهم حراس رحلات الجنوب لقنص الرقيق والاتجـــار فيه ، وجند الحكومة القائمين بالقضاء على تلك التجارة !! ، والمشترون لبعض زرائب الأجانب فى الجنوب عندما جدت الحكومة فى القضاء على تجارة الرقيق منذ سنة ١٨٦٠ وتوقف هؤلاء الأجانب عن الاستمرار فيها ، والمكونون لأكثر الجند غير النظاميين فى المحطات الحكومية بالجنوب حيث كانوا يتاجرون فى خيراته من وراء ظهر الحكومة ومنها الرقيق (٦) ٠ وعلاوة على ذلك كله ، هم بحارة سفن الحكومة وتجار الجنوب التى لا تسير الا بهم ٠

وهكذا ظل للدناقلة فى الخرطوم مركزهم العددى الكبير طوال العهد المصرى ٠ وكانوا فى الجنوب مخاطرين من النوع النادر (٧) ،

وفي جميع أنحاء البلاد تجارا يصفهم بالم (٨) « بأكبر كذابين في العالم ، يهربون عندما يكون عليهم دين ، ويبيعون السلعة الواحدة بثمن محدد مهمـا كانت درجة جودتهـا ، ويجب الحذر منهم عند معاملتهم » ٠

أما الجعليون من سكان الخرطوم العرب فليس المقصود بهم هنا هذا العدد الكبير من القبائل القائمة على ضفاف النيل بين مقرن النيلين جنوبا وبلاد النوبة شمالا ، بل المقصود الجعليون الأصليون الذين كانت مشيختهم القوية قبل الفتح المصرى فى شندى والمتمة ، والذين غادروا بلادهم مذ حطم الدفتردار بك شندي وانتشروا فى طول البلاد ـ وبخاصة حول منطقة مقرن النيلين حيث عمل معظمهم مسببين (وهم الباعة الصغار المتجولون) ، يشترون بضاعتهم فى معظم الأحيان بالأجل وينتقلون بها الى كل مكان تاركين عائلاتهم فى الخرطوم ، وساعين الى رزقتهم ـ وبخاصة فى قرى النيل الأزرق وكردفان : فينتقل الواحد منهم من قرية الى قرية وليس له من رفيق الا سيف كبير فوق ظهره وحمار قوى يتقدمه محملا بالأقمشة القطنية والتوابل والعطور العربية والخضاب والكحل ، وهو فى رحلته هذه لا يكلف نفسه شططا ٠ فاذا مر عام أو بعض عام رجع الى عائلته فى الخرطوم ٠

وربح الجعليين فى العادة ضئيل ولكن صبرهم طويل ، وهم أشراف أمناء ونادرا ما يغتنون (٩) ٠ فاذا وصلت الحال بأحدهم الى درجة من اليسر وتمكن من افتتاح محل له بسوق الخرطوم أعطى من بضاعته بالأجل لغيره من بنى جلدته ٠ وقد ترك خلقهم التجارى أثره الطيب فى العلاقة بينهم وبين باقى سكان الخرطوم ٠

والمحس من سكان الخرطوم العرب هم أصحاب شاطىء النيل الأزرق فى منطقة الخرطوم قبل الفتح المصرى ٠ وقد باعوا بعد الفتح

اجزاء كثيرة منه الى أثرياء المدينة لاقامة منـــازلهم ، مما أدى الى اضمحلال ملكيتهم لضفة الأزرق تدريجا كلما سار الزمن بالحكم المصرى . ولكن بقيت لهم طوال ذلك الحكم حرفتهم كفقهاء يعلمون القرآن ، كما ظهر من بينهم بعض الموظفين فى الادارات الحكومية فى الخرطوم . وكانت منـــازلهم في الخرطوم وجزيرة توتى وحـــلة خوجـــلى .

والدراويش والفقراء (الفقرا) من سكان الخرطوم العرب طبقة كبيرة العـــدد ، فعـــددهم سنة ١٨٥٠ كان يوازى عدد المصريين والأوربيين معا (١٠) . وأصوات طبولهم هى العـــلامة القوية التى تبدد سكون الليل فى الخرطوم والسودان كله .

والدراويش هم أصحاب الطرق الصوفية ، وعددهم أكبر من عدد الفقراء ، وفيهم عدد كبير من الدناقلة ـ وان كان معظمهم قد جاء من خارج السودان ، وبخاصة السودان الأوسط ومراكش وتونس وليبيا والجزيرة العربية وايران . وهم يمثلون كل عقائد العـــالم الاسلامى ، وينتمون الى أكثر من اربع واربعين طريقة دينية (١١) . ولما كانوا من أجناس مختلفة فقد تباينت ملابسهم واغطية رءوسهم وما الى ذلك . ولهم حرفهم التى يتعيشون منها ، فنجد من بينهم بحارة ومتعهدى نقل بالقوافل وتجارا وسماسرة تجاريين . وبعضهم يكسب عيشه بتعليم الأطفال وادارة دور للدعارة (١٢) .

أما الفقراء فليس لهم من مهنة الا التقوى التى تقاس بمدى اهمالهم لمظهرهم . هذا بالاضافة الى قيامهم ـ ومعهم الدراويش ـ بمعـــالجة الأمراض المســتعصية والحمى والعقم والرمد . والقاسم المشترك فى وسائل العلاج هو تسجيل آيات من القرآن على قطعة من الورق صغيرة ، ثم يشرب المريض ذوبها بعد بلها فى الماء ، أو

يضعها على جسمه بعد لفها في حجاب من الجلد ٠ كما أنهم يشتركون مع الدراويش في اعطاء العهود للأهالى كعدم التدخين وتناول المسكرات وفعل أى منكر مدى الحياة ، وفي اسداء النصح الى الأهالي في المشروعات المهمة قبل اقبالها عليها ــ كالسفر والصفقات التجارية والزواج ٠

والمغاربة من سكان الخرطوم جماعة كبيرة ٠ ويقصد بهم في السودان بدو الصحراء الكبرى الواقعة على طول حدود مصر الغربية والذين هاجروا اليه قبل الفتح المصرى (١٣) وأقاموا على ضفاف النيل الأزرق على مسافات غير بعيدة من منطقة الالتقاء ــ وبخاصة في سوبا وود الشايب والكاملين وأبو عشر ، كما كان منهم بعض قبائل من البدو في البطانة ، ومنهم قبيلة كبيرة من البدو بين سوبا وابو دليق (١٤) ٠

وكان جيش الفتح يضم عددا كبيرا من المغاربة ٠ وقد ترك اسماعيل بعضهم في نقاط مختلفة على النيل الأزرق أثناء تقدمه الى سنار لتامين مواصلات الجيش المتقدم ، فاستقروا في تلك النقاط وتوالدوا ، وربما كان مما شجعهم على ذلك سبق قيام اخوان لهم في تلك الجهات ٠ وكانت دماؤهم تتجدد باستمرار بانتقال أفواج جديدة منهم الى البلاد طوال الحكم المصرى (١٥) ٠

وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين صنفين من المغاربة في الخرطـــوم :

الصنف الأول وهم المغاربة القدامى ٠ وأعدادهم في الخرطوم قليلة ، اذ مقامهم في مدن وقرى النيل الأزرق حيث يعملون بالتجارة والزراعة على الترتيب (١٦) ٠ وهم في الخرطوم تجار قبل كل شيء ٠ وعلاقتهم طيبة بسائر سكان المدينة ، واختلطوا بهم بالصهر ــ

وان كانوا لا يسمحون لأطفالهم من الجوارى السود بالزواج من المغربيات ، وعلى هذا الأساس حافظوا على بياض بشرتهم ·

والصنف الثانى من المغاربة دخلوا البلاد مع الفتح المصرى وبعده ، وهم جند الحكومة وشرطتها والعاملون فى حملات قنص الرقيق وجمع الضرائب · ومن أجل ذلك ساءت العلاقة بينهم وبين سكان البلاد والخرطوم · وعددهم فى الخرطوم أكبر من عدد المغاربة القدامى ، وزواجهم من الجوارى السود – كسائر جند الحكومة – أكثر وأعم ، ولذلك أظلمت الوانهم ·

ولم يكن للمغاربة فى الخرطوم مكان خاص بهم ، اذ كانوا يقيمون مع الأهالى فى كل أحيائها ·

والعرب من سكان الخرطوم يسكنون كل أحياء المدينة ، فاثرياؤهم يقيمون فى قسم الجامع مع الترك والمصريين والأوربيين · وحياتهم هادئة تسير على وتيرة واحدة ، فهم طوال النهار فى أعمالهم، فاذا حل المساء – وبعد صلاة العشاء – اجتمع الرجال من الجيران أمام منازلهم حيث تدور الأحاديث حول شئون العمل أو لفض خلاف بين رجلين أو فى رواية لقصص رجالات البلاد الذين ملأوا عهد الفونج بالبطولات · أما النساء فاجتماعهن أمام منزل أحداهن ليدور الرقص والغناء ·

والسودانيون طيبون ، وهم قلما يختلفون ويتشاجرون · واذا حدث ما يعكر صفوهم فقلما يزيد الحال عن تماسكهم بأقمصة بعضهم بعضا ، وسرعان ما ينتهى الشجار حالما يتدخل الكبار · ولكن شجار الشباب الصغير غير المتزوج شىء آخر ، فكثيرا ما يحدث بينهم الشجار للمنافسة على الحب وعلى أيهم أحق بلقب (أخو البنات) · وعند

اختـــلاف شابين يكون الحـد بينهما نوعا من المبـارزة يعـرف (بالبطان) (١٧) ··· فبعد أن يعين كل منهما شـــاهده يؤتى بعنقريب ، ويقف كل منهما عارى الصدر عند أحد طرفيه وقد أمسك بسوط من جلد فرس البحر ، ثم يتبادلان الضرب حتى يتفجر الدم منهما وتتناثر شظايا رقيقة من جلدهما فى الهواء ،ويكون لقب (أخو البنات) عادة من نصيب الغالب الذى يتماسك ولا يسقط على الأرض حتى آخر الجولة · وكانت الجماعات من المواطنين تجتمع لمراقبة المبارزة · وهذه العادة تجرى أكثر ما تجرى بين شـــباب الدناقلة (١٨) ·

أما الشـــجار بين الجعليين والقبائل العربية الأخرى فوسيلة المبارزة فيه السكين · ويضع كل مبارز سكينه فى منديل ليتمكن منه ثم يتبادل الطعنات مع غريمه دون أن يقضى أحدهما على الآخر ، والجروح الناتجة تكون عادة غائرة وان كانت من النادر ما تسبب الموت لأحد المتبارزين (١٩) ·

وكان يسوء العرب من سكان الخرطوم من الادارة شراء الجند غير النظاميين لحاجاتهم من الســـوق بأبخس الأثمان تحت تهديد الســـلاح (٢٠) ، واستخدام حمير الأهالى مجانا لنقل منقولاتها ــ وبخاصة اللحوم التى كانت تنقل من المجزر فى أقصى جنوب المدينة الى (العرضى) فى أقصى شرقها ، وجمع الجند للأهالى تحت تهديد السياط ليقوموا بتفريغ سفن الحكومة الواصلة الى ميناء الخرطوم بالســـخرة ــ مما كان يترتب عليه خلو الشوارع من المارة عندما يدوى فيها خبر وصول احدى سفن الحكومة الى المدينة ، بل كثيرا ما كانت بعض محلات السوق تغلق حتى تنفض الأزمة (٢١) · على أن أهم ما كان يسىء أهل الخرطوم من الادارة هو تسخيرهم للقيام ببعض الأعمال داخل (العرضى) ، وكان البطل حقا من يمكنه الافلات

من رجل الادارة القائم بجمع الرجال ، فكانت قصة بطولته تدور على السنة أهل الحي الذى يقيم فيه (٢٢) ٠

أما الطبقة الغنية من سكان الخرطوم العرب فحالهم غير هذا الحال ٠ وهم ـ قبل كل شيء تجار عاج ورقيق ، ومحل احترام وتبجيل جميع السكان وطنيين وأجانب ، واسماؤهم على كل لسان في المدينة ، ومركزهم الاجتماعي يفوق كثيرا مركز كبار الموظفين ـ فعندهم من الأتباع المئات الذين يقعدون عند قعودهم ويقفون عند وقوفهم ، وصفوة أصدقائهم من كبار رجالات الخرطوم بأجناسهم المختلفة الذين يرتبطون بهم بأكثر من رباط (٢٣) ٠ وهم يعيشون في بيوت كبيرة ذات أفنية واسعة ٠

ومن هذه الطبقة الغنية جماعة من خلق الحكم المصرى ، وهى جماعة الموظفين ، وبالمدينة عدد كبير منهم (٢٤) ، فقد كان من وجوه الاصلاح التى انتهجتها الادارة المصرية منذ الفتح اشراكها العناصر الوطنية في الحكم والادارة وسودنة الوظائف ٠ ويتضح هذا في ذلك المركز الكبير الذى شغله الشيخ عبد القادر ولد الشيخ الزين أيام محوبك (مايو ١٨٢٥ ـ يناير ١٨٢٦) وطوال الحكم المصرى بعد ذلك حتى وفاته ، فقد عينه خورشيد باشا شيخا لمشايخ الخرطوم ، ولم يكن أحمد ابو ودان يقطع أمرا الا بمشورته ، وأعطاه عبد اللطيف باشا معاونة الحكمدارية (٢٥) ٠ فاذا هل عصر اسماعيل كانت (السودنة) أمرا مرسوما ، وابتدأ هذا العصر بالحكمدار موسى حمدى « الذى جعل من الأهالى نظار أقسام وحكام ، وجعل ناظر عمومهم الزبير عبد القادر الذى كان شيخ مشايخ ٠٠٠ وأمرهم بلبس الهيئة التركية هم والكتاب » (٢٦) ٠

وكان لكثير من الموظفين السودانيين في الخرطوم ـ بحكم أنهم أصلا من المنطقة المحيطة بالمدينة ـ منازل في جزيرة توتي وحلة

خوجلي علاوة على منازلهم في الخرطوم ، مما أضاف أسبابا الى ،
خوجلي في العهد المصري ونشاط المعدية بين الخرطوم وحـــاتين
الجهتين . كما كان لهم كيان ووجود كبيران في مجتمع الخرطوم
الراقي ، وكان بين الكثير منهم وبعض الحكمدارين علاقات متينة ،
وآية ذلك ما كان بين الحكمدار جعفر مظهر ـ الذى حدثت نهضة
فكرية بين علماء السودان في عهده (٢٧) ـ والشيخ الأمين الضرير
شيخ الاسلام من رابطة حب العلم والاطلاع (٢٨) .

وموظفو الحكومة يعملون منذ الصباح حتى قبل غروب الشمس
بساعة وربع ساعة ، وكانوا يتناولون طعام الغداء جروسا على الأرض
المفروشة بالأبراش ، ثم يقومون لصلاة العصر ، وبعده يستأنفون
أعمالهم . وكان بديوان الحكمدارية منبر ومؤذن ، وتقام فيه الصلاة
في الأوقات الخمسة ماعدا ظهر الجمعة الذى كان لابد من صلاته في
في مسجد الخرطوم (٢٩) .

ومن بين كبار السيدات السودانيات في الخرطوم من كانت
ترحب بكبار زوار الخرطوم . فها هي ذى السلطانة (نصرة) ابنة
آخر ملوك سنار والمقيمة في الخرطوم تقيم حفل عشاء (سنة ١٨٥٢)
احتفاء بمقدم الرحالة الأمريكي بايارد تيلر إلى المدينة ، وتدعو اليه
نائب القنصل النمسوى وبعض صحبه ، وتقدم اليهم بعد العشاء
مشروبات وطنيـــة ، فاذا انتهى الحفـــل أتحفت كـــلا منهـــم
بهـــدية (٣٠) .

والعبيد من سكان الخرطوم يكونون نصف سكان المدينة على
الأقل طوال تاريخهـــا ، بل لقد قدر عددهم سنة ١٨٨٣ بثلثى
السكان (٣١) : ففى الخرطوم يملك الفرد رقيقا واحدا على الأقل ،
وليس من منزل هناك الا وعلى عتبته جارية زنجية جالسة تطحن
الحب (٣٢) . والعبيد في المدينة من أجناس شتى ، فقد جاءوا اليها

من الحبشة وجميع جهات السودان ووسط أفريقيا ، وبينهم أكلة لحوم البشر الآتين من المستنقعات الاستوائية ·

والعبيد اما ملك للاهالى أو الحكومة ، أو عبيد محررون · ويعمل عبيد الأهالى فى الخدمات المنزلية العادية · والجارية لازمة فى خدمة المنازل لان الفتاة العربية لا تعمل مطلقا خادما بعكس الرجل العربى، وحتى اذا حرر سيد جارية فانها تعمل فى خدمة المنازل بالأجر (٣٣)· كما أن بعض سكان الخرطوم يؤجرون عبيدهم الذكور للاهالى خارج المدينة للقيام بالاعمال الزراعية - فحيثما يختفى العبد لا تعمل الساقية ، اذ يحتاج تشغيلها الى مجهود كبير لتركيبها البدائى (٣٤)· ومن عبيد الاهالى أيضا من هو للتسرى ، ومن هؤلاء الجوارى الحبشيات عند الترك والمصريين والأوربيين والزنجيات عند كل السكان ·

اما عبيد الحكومة فهم جندها الذين تحصل عليهم عن طريق الغزوات على عهد محمد على ، وممن تصادره منهم عند تجار الرقيق عند ضبطهم على عهد اسماعيل · وفى كلا الحالين كانت الحكومة تضم من يصلح منهم للخدمة العسكرية الى الجيش ، وتشغل غير الصالح منهم فى معاملها (٣٥) ، أو تراجمة يعملون فى فرز العبيد الجدد وتصنيفهم وجمع البيانات منهم · ومن لا يصلح من العبيد لاحد هذه الأعمال يعمل فى الأشغال العامة ككنس الشوارع ورشها والخدمة فى بيوت كبار الموظفين (٣٦) ·

اما العبيد المحررون فهم اما عبيد حررهم سادتهم وبداوا حياتهم الجديدة كخدم يعملون بالاجر فى المنازل ، واما جوارى عاملات فى بيوت الدعارة حررن لقاء مبلغ معلوم على كل منهن أن تسدده لسيدها قسطا معينا كل شهر ، واما (زنوج مرافيت) وهم جند

الحكومة الذين استنفدوا شروط اللياقة في الخدمة فتحرروا وكسبوا عيشهم بالعمل جراسيا في رحلات الجنوب ـ وان كان الدناقلة أساتذتهم في هذه الصناعة • ومع أن الحكومة كانت تسكنهم في (فريق النوبا) الا أنها كانت تشجعهم دائما على الرجوع الى قبائلهم ليبثوا المدنية بينها (٣٧) • ومعظمهم من النوبا والشلوك والدينكا • وكان عددهم في زيادة مستمرة لأن القليل منهم من كان يغادر الخرطوم الى أوطانهم •

وأول من جلب العبيد الى الخرطوم بقصد التجارة هي الحكومة على عهد محمد على (٣٨) • وبعد فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة سنة ١٨٥٢ زاد سيل العبيد الى الخرطوم ، وأصبح جلب العبيد اليها موكولا الى تجارها •

ويباع الرقيق في السوق اما بالمزايدة العلنية على يد الدلالين واما بطريق التعاقد الشخصي ، كما كان يستخدم سماسرة الرقيق في بعض الأحيان • وعند شراء العبد يسمح للمشترى قبل اتمام الصفقة بايواء العبد في داره ثلاث ليال ، ذكرا كان أم أنثى ، وذلك بعد دفع عربون قدره ربع الثمن المتفق عليه أو خمسه • ويعيب العبد أن يكون به مس من الجنون ، أو يكون قد الف التبول في الليل أو الشخير عند النوم أو ان يكون مصابا بالزهرى • فاذا ما خلا من هذه العيوب تمت الصفقة ، والا أعيد الى البائع واسترد العربون • أما اذا كانت الجارية بكرا وعاشرها الراغب في شرائها معاشرة الأزواج في أثناء مدة الاختبار ، فلا يمكن ردها بل يصبح الاحتفاظ بها أمرا لا مناص منه (٣٩) •

ويختلف ثمن العبد باختلاف السن والصحة والجمال والجنس، ويزيد من قيمته الا يكون مصابا بالجدرى • والمطلوب دائما في

العبد الذكر النشاط والقوة ، وفى الأنثى الشباب والجمال . والعبيد الاناث اغلى على العموم من الذكور. وثمن الأطفال الذكور أقل من ثمن المراهقين ، الا اذا كانوا قد أمضوا مدة فى البلاد فتعلموا العربية أو الخدمة فى المنازل ، وحينئذ تزداد قيمتهم خاصة وقد أصبح هربهم بعيد الاحتمال . ولذلك كان اغلب الرقيق فى سوق الخرطوم منهم ومن المولودين والمربين فى بيوت اسيادهم (٤٠) .

واثمن الذكور جميعا هو الذكر الخصى المخصص لخدمة السيدات التركيات فى الحريم . وعدد الخصيان فى الخرطوم قليل للغاية لقلة الترك فيها . أما اغلى الجوارى جميعا فهن البنات الحبشيات . والسن عامل مهم فى تقدير قيمة العبد ذكرا كان أو انثى . ويقسم الأهالى البنات الى طبقات السن الآتية (٤١) :

فالبنات اللاتى يقل عمرهن عن ١١ سنة يدعون خماسى

واللاتى عمرهن بين ١١ وخمسة عشر سنة يدعون سداسى وهن اغلى الجوارى .

واللاتى عمرهن بين ١٥ ، ٢٠ سنة يدعون بالغ .

واللاتى عمرهن بين ٢٠ ، ٣٠ سنة يدعون عجز أى المسنات .

وثمن العبيد فى سوق الخرطوم سنة ١٨٣٧ كان كما يأتى (٤٢) :

الغلام المراهق سليم البنية	من	٤٠٠	الى	٥٠٠	قرش
الغلام العادى	من	١٥٠	الى	٣٠٠	قرش
الذكر من الدينكا	من	٧٠	الى	١٠٠	قرش
الولد الحبشى	من	٦٠٠	الى	١٠٠٠	قرش
الفتاة المراهقة	س	٢٠٠	الى	٤٠٠	قرش
المرأة من الدينكا	من	١٠٠	الى	٢٠٠	قرش
الفتاوة الحبشية	من	٦٠٠	الى	١٥٠٠	قرش

ولكن هذه الأثمان كان يصيبها التغير بين سنة وأخرى ، وان كان التغير دائما الى الزيادة لزيادة طلب مجتمع الخرطوم المتطور على العبيد وبخاصة البنات الحبشيات ، كما أن تجار العبيد رفعوا من هذه الأثمان بعد سنة ١٨٥٠ أسوة بما فعلته الحكومة فى تلك السنة حين رفعت من ضريبة الصادر على العبيد المنقولين الى القاهرة فى جمرك أسوان ٠

وقد جرت العادة عند بيع عبد أن تدون وثيقة بالبيع يسجل فيها أوصاف العبد ـ من حيث جنسه والعلامات المميزة فى جسمه وسنه ـ واسم البائع والمشترى والشهود والثمن المدفوع (٤٣) ٠

والجوارى مرغوبات عند أهالى المدن أكثر من العبيد الذكور ٠ ويقبل الأهالى ـ وبخاصة الشيوخ منهم ـ على شراء الزنجيات للتسرى بالقدر الذى تطيقه امكاناتهم المالية ٠ ولذلك كان لهؤلاء الشيوخ عائلات كبيرة ، ولكن أولادهم من الزنجيات لا يتمتعون بنفس حقوق اخوتهم المولودين من العربيات ٠

ولا تصبح الزنجية حرة الا اذا ولدت من سيدها ٠ ولكن منهن من يصبحن حرائر بمجرد زواجهن ، وهؤلاء هن المتزوجات من شيوخ

لا يتوافر فى عائلاتهم بنات يمكن تقديمهن عرائس لعائلات أنسبائهم لقاء ما أخذوا من بناتهم ، حيث أنه فى حالة الزواج دون تقديم بدل يحمل الأطفال - ثمرة الزواج - أسماء عائلات وقبائل أمهاتهم . وهذا مالا يرضاه السـوداني ، مما يلجأ معه هؤلاء الشـيوخ من العاجزين عن تقديم البدل الى الزواج من جارية يحمل ولده منها اسمه (٤٤) .

أما المصريون والترك والاوربيون فيرغبون فى بنات الجـالا الحبشيات للتسرى . وهم يعاملنهن باحترام كبير لا يقل عما يعاملون به الحرائر (٤٥) . وعند شراء المصرى والتركى لعبد ذكر فانه يختنه ويختار له اسما غريبا (٤٦) .

ويلبس العبد فى بيت سيده قطعة صغيرة من قماش القطن يغطى بها وسطه حتى ركبتيه . ولا يرتدى ما يغطى بقية جسمه الا اذا كان خاليا من العمل أو كان الجو يميل الى البرودة . وهو يزين رقبته وذراعيه دائما بالأحجبة والتمائم . وينتعل بعض العبيد صندلا فى بعض الأحيان . وتتحلى الجوارى بأساور كثيرة يضعنها حول أذرعتهن ، وبعقود من النقد المخروم تلتف حول أعناقهن ، ولا تخلو شفاههن مما يزينها ، ويعتنين لدرجة كبيرة بشعورهن ، وهن يعلقن أحيانا الرحط(٤٧)حول وسطهن بدلا من قماش القطن ، والصغيرات منهن عن الثالثة عشرة عاريات تماما (٤٨) .

ولزوجة العبد - كزميله الزنجى الحر - تأثير كبير عليه . مما يحمله دائما على الرضا بزوجة واحدة ، ومما حمل جند الحكومة من العبيد الى اصطحاب زوجاتهم عند التحرك الى أى مكان خارج الخرطوم - سواء كان ذلك لمهمة سلمية أو حربية . وتقوم أكواخ عائلات هؤلاء الجند فى صفوف رتيبة خلف معسـكراتهم فى شرق المدينة (٤٩) .

وعندما ينجب العبد المتزوج في بيت سيده فالولد عبد تجرى عليه أحكام العبيد في المنازل . واذا تزوج عبدان لسـيدين فان أطفالهما يصبحان ملكا مشاعا لهما (٥٠) . أما أطفال الجوارى اللاتى يحملهن أسيادهن وتجـار الرقيـق على احتراف الدعارة فملكيتهم لهؤلاء ، وما يكاد فصلهم عن أمهاتهم يعدو في حيز الامكان حتى يلجأ السيد أو التاجر الى بيعهم (٥١) .

ويعامل السيد عبده عادة بالرحمة ، الأمر الذى ينتهى بالعبد دائما الى حبه لسيده أكثر من حبه لموطنه الأول (٥٢) . ونادرا ما يسيء الترك والمصريون معاملة عبيدهم ، وأمثلة القسوة أقل شيوعا عندهم لدرجة كبيرة مما هى عند الأوربيين الذين اضطرت قسوتهم الحكومة الى اصدار قانون يمنع أى أجنبى من ضرب عبيده ، فاذا كان العبد لا يطيع سيده فعليه ارساله أمام القاضى ليتولى تقويمه (٥٣) .

والسيد ـ في العادة ـ هو القاضى فيما يقترفه العبد في منزله . فعند قتل عبد لزميل له في منزل واحد فان سيده يعاقبه أو يبيعه . واذا كان العبد المقتول ملكا لسيد آخر فعلى السيد صاحب العبد المذنب أن يعوضه ، واذا لم يقبل هذا الأخير التعويض فعليه أن يرفع الأمر الى القضاء ، وتنظر القضية عادة على أنها قضية تبديد . أما فى حالة قتل عبد لرجل حر فالقضية قضية قتل ، وتجرى على القاتل الأحكام التى توقع على القتلة المجرمين (٥٤) .

والخوف كل الخوف أن يهرب العبد من بيت سيده . ولذلك كان الرقيق من الاناث يتمتع بحرية أكبر من الرقيق الذكور ، وكان اقبال الأهالى على شراء الأطفال منهم لضآلة فرصة الهرب أمامهم . واذا هرب عبد من منزل سيده وحضر الى محل الحكومة ، وتشكى بأن صاحبه ضربه ضربا فاحشا أو عامله بمعاملات جورية لا تليق بالانسانية ، وتظهر فيه آثار الضرب أو يتحقق وقوع معاملته بالايذاء

والجـور الفاحش ، فبما أننـا جميعا مأمورون شرعا بمعاملة الرقيق بالرفق والملاينة فبالنظر لعدم التمسك بالأوامر الشرعية يلزم مجازاة أصحاب الرقيق الذى حصل فى حقه الايذاء والجفا باعتاقه مجانا واعطائه أوامر العتق من المديرية • وأما اذا وجد سودانيون لم يحصل لهم شيء من ذلك ويطلبوا العتق بلا سبب فهؤلاء يجرى تلقينهم النصائح واعادتهم لأصحابهم (٥٥) •

ويستعين السيد عند هروب العبد بالفقير للحصول على تميمة يعلقها فى عمود من الخشب أمام باب منزله • ويسجل بترك (٥٦) أن العبد فى كثير من الأحيان كان يرجع مقهورا نتيجة لذلك • وفى حالة قبض أحد الأهالى على العبد الهارب فله عند سيده ريال كحق معـــلوم •

ويعنى الأهالى بالترك طبقة الحكام على وجه الخصـــوص • وصفة التركى عندهم تدل أكثر ما تدل على جنسية هؤلاء الحكام الذين كان معظمهم من الترك والجراكسة ، ومن أجل ذلك سموا فترة الحكم المصرى (بالتركية السابقة) • وسواء كان الحكمدارون تركا أو غير ترك فقد جمعتهم جميعا عند الأهالى صفات هى البشرة البيضاء الضـــاربة الى الحمرة وارتداء الطربوش الأحمر والحديث بالتركية ومراعاة الآداب العثمانية •

وقد اتسع اطلاق صفة التركى عند الأهالى عندما انتقل الى البـــلاد كثير من الموظفين المصريين والســـوريين وغيرهم من رعايا الامبراطورية العثمانية ، فاصبحت هذه الصفة تنطبق عندهم - على وجه العموم - على كل مسلم أبيض ، تركيا كان او مصريا أو من أية جنسية أخرى • ومع ذلك ، فقد كانوا يطلقون اسما معينا على بعض الجماعات الداخلة تحت تلك الصفة ، مثل (أولاد الريف) على المصريين •

والترك الأصـليون فى الخرطوم من طبقة الحكمدارين وكبار ضباط الجيش والمديرين وكبار الموظفين فقط ، واقامتهم فى محل موسى بك ، وعددهم فى المدينة بسـيط على الدوام مما أدى ببترك (٥٧) الى تقرير أنها (سنة ١٨٦١) كانت خالية منهم ٠

وكثير من الحكمدارين من المثقفين ثقـافة عالية ، والمطلعين والعالمين بكل الأحداث الجارية خارج البـلاد ، والمتحدثين باللغات الأجنبية بطلاقة ـ وبخاصة الفرنسـية والألمانية ، ومنهم من زار أوربا واحتك بأهلها سنوات مثل الحكمدارين عبد اللطيف وجعفر مظهر واسماعيل أيوب ٠ ولكل حكمدار صفوة من الأصدقاء ـ معظمهم عادة من الأوربيين ـ اصطفوهم لعلمهم وثقافتهم الواسعة (٥٨) ٠ كما أن لنساء بعض الحكمدارين من الثقافة ماكن يقمن معها باستقبال نساء المكتشفين الأجانب من زوار السودان (٥٩) ٠

ويعيش الحكمدار مع أسرته فى ترف مقيم فى سرايه الفخم يحيط به حشد كبير من الخدم والعبيد ، وأحيانا بعض الحيوان المفترس الذى ذللت وحشيته ٠ وكان لبعض الحكمدارين مركبات تجرها الخيل أتوا بها من مصر (٦٠) ٠ وأمام السراى من ناحية النيل يقوم فضاء تظلله شجرة جميز كبيرة يمضى فيه الحكمدار الأمسيات مع ضيوفه فى حديث وتدخين وتناول للشربات والقهوة ، كما يمضى بعض الأوقات الطيبة فى مركبه الفخم الراسى تجاه السراى ٠

وكان الحكمدار يرحب بضيوفه من السـائحين والمكتشـفين وكبـار الموظفين باقامة حفلات استقبال لهم تزين أثنـاءها السراى والفضاء الواقع أمامها بالمصابيح الملونة ، وتتضمن رقصات حربية من جنود حامية الخرطوم الزنوج أو برنامج راقص غنائى لجماعة من راقصـات الخرطوم أو استعراض موسيقى من فرقة موسيقى الجيش ، وتنتهى عادة بوليمة عشـاء (٦١) ٠ وحجرة الطعام فى

السراى مربعة كبيرة ، تضاء المائدة فيها بأدوات من البلور والفضة، وتزينها صورة بالحجم الطبيعي لمحمد علي باشا ، وكان الحكمدارون يحافظون على شكلها الذى كانت عليه مذ أقام محمد على ديوانه فيها عند زيارته للسودان (٦٢) .

وكان بعض كبار رجـــالات الخرطوم وزوارها الكبار يردون للحكمدار احتفاءه بهم فيدعونه الى حفل عشاء فى منازلهم . وكان الحكمدارون يقبلون هذه الدعوات غير مسرورين في معظم الأحيان . وثمة عادات كانت تجرى فى هذه الحفلات ، فالحكمدار هو الذى يعين مرافقيه فيها ، وكان رئيس مطبخه يحمل اليها شوكته وملعقته الفضيتين وكذلك بعض الأطباق ـ وبخاصـــة أطباق المشـــهيات والسلطات ، كما كان ـ أحيانا ـ يضع كل هيئة مطبخه تحت تصرف صاحب الحفل ويقدم كل الطعام اللازم علاوة على ذلك (٦٣) .

وكان يحـلو للحـكمدارين فى بعض المناسبات الدينية اقامة حفـلات للذكر في السراى تدعى لاحيائها جمـــاعة من دراويش الخرطوم ، كما يدعى اليهـــا الضيوف من الوطنيين والأجانب . وتنتهي تلك الحفـــلات عادة بتناول طعام العشـــاء على مائدة الحـــكمدار (٦٤) .

وكانت حكومة الخرطوم ـ وعلى رأسها الحكمدار ـ تحتفل بالأعياد الرسمية والمناسبات المهمة . ويحتفل بثبوت هلال رمضان بمرور موكب رسمي فى شوارع المدينة الرئيسية يضم الأعيان ومدير الخرطوم والجند وبعض كبار الموظفين فوق صـهوات جيـادهم ، ووراءهم جمـــاعة كبـيرة من الدراويش والفقهـــاء والســكان ـ رجالا ونساء ، ترفرف فوق الجميع الأعلام التركية وبنود جماعات الطرق الصـــوفية فى الوقت الذى تمـــلأ فيه الموسـيقى الجـو بنغماتهـا (٦٥) .

وتهدأ حركة التجارة تماما في سوق الدكاكين في شهر رمضان ، بل ان كثيرا من محلاته تغلق أبوابها طوال هذا الشهر . كما تضعف الحركة في الشوارع نهارا لدرجة كبيرة ، فاذا حل الليل تزاور الأفراد وقامت الحلقات من الجيران من الأفنية داخل المنازل وأمامها حيث يقتعدون الأبراش في الأحياء الفقيرة والعنقريبات في الأحياء الراقية . وموظفو الحكومة لا يعملون في هذا الشهر « ليعتكفوا على النسك والعبادة وساير ما يكون بالخير يليه ، ماعدا خدام الضبطية والكمرك لضرورة الاقامة في تنجيز مصالح العباد فيديروا مصالحهم فيه حسب المعتاد » (٦٦) .

والاحتفال بالمولد النبوي يستمر ثمانية أيام كاملة تقيم أثناءها كل مصلحة من مصالح الحكومة سرادقا لها في (الميدان) شرقي سوق البقالة . وتزين هذه السرادقات بالأعلام والمصابيح ، وفيها يتبادل كبار الموظفين الزيارة كل مساء ويتناولون القهوة والشربات، وتعزف موسيقى الجيش من بعد غروب الشمس حتى آخر السهرة . وفي الليلة الأخيرة من الاحتفال يتم عرض طيب للألعاب النارية (٦٧) . كما كان يحتفل بالمولد النبوي في دار الحكومة بفناء الحكمدارية (٦٨) .

ومن الأعياد الرسمية التي يحتفل بها الحكمدار الذكرى السنوية لاعتلاء الخديو العرش ، فتزين الخرطوم ثلاثة ايام بلياليها (٦٩) ، وفي المساء يقام احتفال في السراي يدعى اليه وجهاء المدينة من كل جنس (٧٠) . كما كان يحتفل بقراءة فرمان تولية الحكمدار الجديد (٧١) ، وبالمناسبات المهمة مثل ولادة وزواج أبناء الوالي والسلطان (٧٢) وانتصار جيش الحكومة (٧٣) .

وأكبر عدد من الترك من غير الترك الأصليين هم المصريون أو (أولاد الريف) كما يعرفهم الأهالي . وهم في السودان والخرطوم

تجار ، وموظفون فى الحكومة وضباط فى الجيش ، وأصحاب مهن وحرف في سوق الخرطوم وعمال فى المصالح الحكومية ، ومربيات لبنات (الذوات) في منازلهن • ويسكنون كل أحياء المدينة ، ولكن كبار التجار والموظفين منهم يقيمون فى قسم الجامع •

واكبر عدد من المصريين في المدينة من التجـــار الذين يمتد نشـــاطهم التجارى الى القاهرة وجميع أطراف الســـودان (٧٤) • واكثرهم ثروة هم تجار غلات الجنوب وبخاصة العاج والرقيق • وقد تحدث الرحالة يونكر (٧٥) عن حفل عشاء أقامه أحمد العقاد تاجر العاج الكبير ودعا اليه الحكمدار اسماعيل أيوب ونخبة من أعيان الخرطوم وطنيين وأجانب • وقد فصل يونكر الحديث عن تنظيم المائدة ، والأدوات الثمينة التى استعملت عليها ، والنظام الذى روعى فى خدمتها وفى جلوس المدعوين اليها حسب درجاتهم • أما مسليات الحفل فكانت استعراضا موسيقيا من فرقة موسيقى الجيش عزفت فيه روائع من النغم الايطالى والنمسوى والفرنسي والمصرى،ورقصات وغناء لجماعة من (عوالم) الخرطوم ، وفصولا طيبة من التمثيل أدتها جماعة من المهرجين •

ومن التجار المصريين بالخرطوم وكـــلاء للبيوت التجارية بالقاهرة • ومع أنهم يعيشون وسط نعيم مقيم في بيوت كبيرة تضم حريما من العبيد السود ، ويأكلون ويدخنون ويشربون في رغد كبير الا أنهم ــ كسائر المصريين ــ يتسرعون العودة الى مصر (٧٦) •

وثمة طبقة أخرى من التجار هم النوبيون المصريون • فكثيرا ما تكون الجماعة منهم شركة راس مالها ألفان أو ثلاثة آلاف من القروش جمعتها بالخدمة فى منازل القاهرة ، وتشترى بها أقمشة قطنية تسافر بها الى الخرطوم • فاذا مر عام أو أكثر رجعت الى القاهرة وقد باعت بضاعتها واشترت بثمنها صمغا أو جمالا لبيعها

فى مصر · ومكسب هؤلاء التجار قليل على وجه العموم ، ولكن الرحلة فى حد ذاتها مدرسة تجارية كبيرة دوى صداها فى مصر ، فسار على طريقهم كثير من المصريين صغارا وكبارا (٧٧) ·

وأكبر عدد من موظفى الحكومة فى الخرطوم من المصريين · ويعمل معظمهم مدرسين فى المدرسة الأميرية والجامع ، وضباطا فى الجيش ــ وبخاصة فى سلاح المدفعية الذى كانت الخدمة فيه خالصة لهم وللترك · وهم فى أحوالهم العادية ــ كالمصريين عادة ــ بشوشون مهذبون أجواد ، فاذا استبد بهم الشوق الى مصر فانه يعتريهم اليأس ويغرب عنهم العدل (٧٨) · ومع أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش تحيطهم هالة من احترام الوطنيين الا أنهم يصبون دائما للرجوع الى مصرهم ، الأمر الذى تتضمنه التماساتهم دائما عندما تنتهى مدة خدمتهم فى البلاد (٧٩) · فاذا سمح لهم بالعودة تركوا ــ فى معظم الأحيان ــ عائلاتهم السودانية · زوجات وأولادا ــ الى القدر ، ورفض الزوجات اصطحابهم الى مصر كان ــ فى الواقع ــ اللبنة الأولى فى هذا الاتجاه · وبتقدم السنين بالحكم المصرى تزايد عدد المولدين من أب مصرى وأم سودانية الآخذين عن أمهاتهم الطباع والمشاعر ــ وعلى رأسها كره مصر والمصريين ، وعن آبائهم بعض ما خفف من سواد بشرتهم ·

وقد جهد كثير من الكتاب الأجانب للربط بين أمل هؤلاء الموظفين المصريين فى الرجوع الى مصر ومشاعرهم نحو السودان البعيد عن مصر ، وانتهوا الى أن المراد من نقل الموظف المصرى الى السودان كان نفيه فيه · وليس بمستغرب أن يكون تفكير الكتاب الأجانب على هذا النحو ، فقد تضمنت كتب بعض كبار الموظفين المصريين فى الخرطوم ما يفيد تبرمهم بالحياة فيها وشكواهم من الابعاد اليها (٨٠) ·

وقد نبعث فكرة (النفي) هذه أيام عباس باشا عندما كان يرسل الى السـودان بعض الموظفين المعاقبين والجند العـاطلين والمجرمين (٨١) ، وكذلك بعض كبار الترك والمصريين لأمر لا يتعلق بالعمل وما اليه ، بل – في معظم الأحيان – لعدم تحمسهم لمشروعه الخاص بأن يخلفه ولده على العرش من بعده (٨٢) .

ويتضح من ذلك أن (النفى) هنـا شيء آخر غير الموظف والوظيفة ، ولا يمكن أن يكون وضع الموظفين في البلاد بالشكل الذى أراده لهم الكتاب الأجانب . فقد كان هناك نظام للخدمة وضعه محمد على لضمان استقرار الموظفين والاسهام بشكل فعال في تعمير البلاد ومراعاة العدل بين الأهالى (٨٣) . وآية ذلك أنه عندما تقدم ثلاثة من كبار الموظفين المصريين في السودان على عهد عباس بالشكوى الى الباب العالى طالبين العودة الى مصر ، وعندما طلب هذا من عباس نقلهم نجد عباسا يكتب اليه بأن « هؤلاء الرجال لم يرسلوا الى السودان منفيين أو مبعدين ، وانما أرسلوا ليكونوا حكاما يتولون مناصب الحكومة برتبهم ومخصصاتهم شأنهم فى ذلك شأن سواهم من الموظفين والحكام المعينين لمثل هذه الغاية فى البلاد ... فاننا لو استدعيناهم – خلافا للأحوال المتبعة ولما تنته مدتهم بعد – لوجب تطبيق هذه القاعدة على سواهم من كبار الضباط والموظفين ، بل لوجب تطبيقها على الحكمدار نفسه . فاذا ما تم ذلك رأينا عمال الحكومة الذين يتطلب الأمر تعيينهم في السودان يرغبون عن السفر الى هناك » (٨٤) . وعلاوة على ذلك ، كان عباس – أحيانا – يسأل كبار الموظفين رأيهم فى قبول الخدمة فى السودان قبل اصدار الأمر بنقلهم (٨٥) . بل انه كان مهتما جد الاهتمام باختيار الرجال الأكفاء لادارة البلاد ، فقد أصدر أمرا غداة توليته بأن يكون مديرو المديريات ممن لا تقل رتبهم عن رتبة أميرالاى ، حيث أنه « مستغن عن التفصيل والبيان أن الملحقات السودانية قد صرف عليها الى الآن أموال وفيرة ومساع جمة » (٨٦) ، ولا يمكن أن يريد عباس الخير للبلاد وفى نفسه تجاه الموظفين مشاعر النفي والابعاد والتعذيب .

وعلى كل حال ما أن مات عباس حتى أمر سعيد باشا بارجاع كل المنفيين الى مصر ، كما أصدر فى آخر أيامه لائحة لخدمة الضباط الجهادية فى السودان أهم ما فيها مكافآتهم بحسبان السنة سنتين فى المعاش ، والسماح لمن يريد منهم الرجوع الى مصر بالرجوع فى أى وقت يشاء (٨٧) ٠

ومهما تكن الشوائب التى شابت الاستقرار المصرى فى الخرطوم فقد كان للمصريين بعض الأثر فى نواح لم يكن يعرفها السودان ، منها المنتديات التى كانت تضم بعض الجماعات المتجانسة من أعيان المدينة ، كمنتدى رفاعة الطهطاوى ناظر المدرسة الأميرية ومنتدى ابراهيم بك مرزوق رئيس القلم الافرنجى بالحكمدارية ومنتديات الحكمدارين ، حيث كان يدور النقاش حول الحوادث الجارية فى السودان وخارجه وانطباعات الجماعة عن البلاد والحكم المصرى ٠ وأعضاء هذه المنتديات من المثقفين أجانب ووطنيين ، وكذلك من التجار الكبار الذين كانت خبرتهم بالبلاد ـ وبخاصة جنوبها ـ محل دراسة وأخذ وعطاء ٠ ومن المنتديات منتدى أحمد أفندى العوام المصرى العرابى النزعة والمبعد الى الخرطوم بعد الاحتلال الانجليزى لمصر ، حيث كانت الدعوة حارة للمهدى والدعاية نشيطة ضد الخديو والانجليز ٠

ومن النواحى التى كان للمصريين فيها أثر ما يمكن أن يكون قد تركوه فى السودانيين من أثر فى نواحى الطعام والشراب واللباس وقضاء وقت الفراغ واكبار دور مصر فى ادخال المدنية فى البلاد (٨٨) ٠

وقد أخذ الاستقرار المصرى على عهد اسماعيل شكلا لم يكن يعرفه من قبل ، فان كثيرا من الموظفين لم يكن يغادر البلاد عند انتهاء المدة المحددة لخدمته للانتفاع بالمزايا التى كانت تتيحها لهم

الخدمة فيهـــا • ويمثل عهد اسماعيل فى الواقع عهد الاستقرار الاجتماعي للمصريين ـ موظفين وتجارا على السواء ـ فى البلاد بما يرتبط بذلك من توثيق العلاقات بينهم وبين كثير من العـــائلات السودانية الكبيرة ، الأمر الذى تمخض عنه مجتمع قوى كان أبرز علامة اجتماعية في العاصمة • ولم يقف عجب أهل السودان بعاصمتهم عند حد أنها كانت تضم من السكان عددا وجنسا ومقاما ما لم تضمه مدينة أخرى فى البلاد ، بل ان الدور الذى تقوم به عندهم كان أكبر من ذلك بكثير « فقد كان أهلها لرسوخ أقدامهم في المدنية واتصالهم بالقاهرة يمثلون هيئة رقابة على أعمال الموظفين حتى الحكمدار ••• وهم هيئة قوية معروف أفرادها لدى الأعتاب الخديوية ، يرفعون اليها شكاويهم عن كل اعوجاج حين يفزع اليهم أعيان البلاد من كل الأقاليم ليتوسطوا فى انصاف المظلومين واجراء العدل ووضع الأمور فى نصابها » (٨٩) •

وأقوى علاقة بين السودانيين والمصريين كانت بين السودانيين والعمال منهم • فقد كان العمال المصريون يقيمون بينهم فى أحيائهم الوطنية ، ويرتبطون معهم بالزواج الذى كان يثمر أسرة مستقرة دواما بحكم أن العمال في الغالب لم يكونوا يرجعون الى مصر مهما تقلب بهم الحـــال ، ولم يكن لهم من عيش الا فى كنف زوجاتهم السودانيات بعكس الموظفين والتجار المصريين الذين كانوا ـ أحيانا ـ يصحبون الى البلاد زوجاتهم المصريات علاوة على تعلقهم ـ فى معظم الأحيان ـ بالجوارى • كما أن العمال يشاركون السودانيين منتدياتهم وسهراتهم ومن حولهم أولادهم وأخوال أولادهم يهيمن على الجميع جو الأسرة القوية السعيدة • وكان أولاد العمال ، بحكم ارتباطهم القوى بعائلات أمهاتهم سودانيين لحما ودما وعادات ، مما كان يزيد من الرابطة بين العمال وسائر السودانيين •

وقد دخل العمال المصريون البلاد بعد الفتح · وكانت الصناعة ميزة من مميزات المصرى ، فلم يكن من بين السودانيين صناع الا قليلا · ويعمل معظم العمال المصريين مديرين للمقاهى والحمامات العامة ، وخبازين وصانعى أحذية وخياطين وحلاقين ، كما يعملون فى اصلاح أسلحة الجيش (٩٠) ·

والسوريون هم أكثر أجناس المسلمين البيض عددا بعد المصريين والمغاربة الذين أتوا مع الفتح المصرى وبعده · وعددهم قليل على كل حال · وسكناهم فى الأحياء الراقية فى المدينة · وهم موظفون فى الحكومة ، وبخاصة فى القلم الافرنجى بالحكمدارية ، وليس بينهم أحد من ضباط الجيش · كما أن منهم تجارا كبارا ، ومعظم تجارتهم مع القاهرة ويشرف على قوافلهم اليها وكلاء سودانيون · والقليل منهم من ارتبط بتجارة الجنوب ، فلم يأت ذكر لهؤلاء فى كتب الرحالة والمكتشفين الا لواحد فقط منهم ·

وأثر السوريين غير واضح فى مجتمع المدينة ، ولم يظهر فى تاريخها شخصيات كبيرة منهم · وهم منكمشون متباعدون عن السكان وطنيين وأجانب ، ولم يعثر على أحدهم يشارك فى (صالونات) المصريين أو الأوربيين أو يغشى مقاهى السوق · وهم قليلو التسرى للجوارى اذ معهم زوجاتهم السوريات · ويغلب على عددهم الثبات مع قلة من يصل منهم الى المدينة من الخارج ، ومرجع ذلك الى تحملهم بقدرة كبيرة جو البلاد الحار ·

والنصارى عند الأهالى هم كل البيض غير المسلمين ، من قبط وسائر رعايا الامبراطورية العثمانية وأوربيين وأجانب على وجه العموم · وقد قدر عددهم مع كل المسلمين البيض ـ فيما عدا المصريين ـ سنة ١٨٨٣ بألف وخمسمائة الى ألفين (٩١) · ومع أن هذا العدد ليس كبيرا ـ الا أنهم وبخاصة الأوربيون منهم ـ استرعوا

انتباه كل الرحالة والمكتشفين فأكثروا من الحديث عنهم في كتب رحـــلاتهم ·

أما القبط فقد كانوا قبل كل شيء موظفين في الحكومة ـ وبخاصة في الادارات المالية ، وقد عرفتهم البلاد منذ الفتح مأموري ضرائب وكتبة عند تجار الجنوب ، كما كان بالخرطوم منهم عدد من التجـار جاء معظمهم من مصر العليـا ـ وبخاصة محافظتا سوهاج وقنا · وهم أكبر طوائف المصريين في المدينة من حيث حب الاستقرار، ولذلك كان عددهم بها أكثر ثباتا من أية طائفة منهم · ويقيم معظمهم في الحس القبطي حول الكنيسة القبطية ، وقد افتتحوا في هذه الكنيسة في أواخر الحكم المصري مدرسة صغيرة لأبنائهم ·

ولم يكن عدد القبط في الخرطوم كبيرا ، فقد كان سنة ١٨٣٤ مائتين فقط (٩٢) ، وارتفع هذا العدد الى خمسمائة بعد ذلك بعشرين سنة (٩٣) · فقد هاجر كثير منهم الى مصر عند قيام الثورة المهدية ، وعند سقوط الخرطوم قدر عددهم في السودان بمائتين الى ثلاثمائة أسرة كان منها تسع وستون أسرة في الخرطوم (٩٤) ·

ومن مميزات المجتمع القبطي في الخرطوم أن الموظفين القبط كانوا يحاولون ـ لغاية في نفوسهم ـ الارتباط بالموظفين السودانيين بأقوى رباط ، ومن وسائلهم في ذلك دعوتهم الى موائد طعامهم ـ وبخاصة أيام الصيامين الصغير والكبير · وكان هؤلاء يردون لهم دعواتهم في شهر رمضان · وكانت موائد القبط تزدحم بأصناف الطعام المصرية ، ويقرر الشيخ القباني (٩٥) أن شعار هذه الموائد كان (اذا طعمت فاشبع) وأن المائدة التي تقام لعشرة أفراد كانت تشبع العشرين بل الثلاثين ·

وقد اثر عن القبط في الخرطوم طول المعاناة في سبيل تأمين عائلاتهم ، ومثـــال ذلك أنهم كانوا ـ عند مغادرتهم منازلهم في

الصباح ـ يقفلون أبوابها ويحملون معهم مفاتيحها الخشبية الضخمة لتطمئن قلوبهم على من بالمنزل حتى يرجعوا فى المساء (٩٦) . كما كانوا يقـــومون بأى عمل مهمـــا تعارضت ظروف هذا العمل مع مؤهلاتهم ، ومثال ذلك أن ممثل الولايات المتحدة الأمريكية السياسى في الخرطـــوم كان قبطيـــا لا يعرف كلمة واحـدة من اللغـــة الانجليزية (٩٧) .

أما الأوربيون من النصارى فعددهم فى العاصمة بسيط ، الا أن مركزهم الاجتماعى كان ممتازا . ومعظمهم تجار ، كما أن منهم موظفين فى الحكومة ورجال دين من المبعوثين الكاثوليك ومقيمين مؤقتين من الرحالة والمكتشفين وقليل من العاملين فى الأعمال الحرة . وهم من جنسيات متعددة ، أكثرهم عددا اليونانيون يليهم الايطاليون ثم يأتى بعد ذلك الفرنسيون والنمسويون والألمان وأخير الانجليز ، وهم الأقل عددا (٩٨) .

ولما كان معظم الأوربيين تجارا فان عددهم كان قليلا قبل سنة ١٨٥٢ ـ وهى السنة التى فتح فيها النيل الأبيض للتجارة الحرة ـ وكان لا يعتدى العشرة أفراد (٩٩) . وبعد تلك السنة ابتدأ عددهم فى الزيادة حتى أصبح يتراوح سنة ١٨٦٠ بين عشرين وثلاثين فردا (١٠٠) . وظل هذا العدد ثابتا بعد هذه السنة لعدة سـنوات ، حيث كان يحل أفراد جـدد ـ وبخاصـة من القـاهرة والاسكندرية ـ محل من يموت منهم . ثم أخذ عددهم فى الزيادة بعد ذلك حتى قدر بمائة سنة ١٨٨٣ (١٠١) . وهذه الأعداد كلها لا تضم أفراد البعثة الكاثوليكية بالمدينة .

والتجار من الأوربيين يعملون فى تجـــارة النيل الأبيض ، فيمضون خمسة شهور فى رحلة الجنوب وباقى السنة فى الخرطوم

ينعمون بخيراتها بينما هم يستعدون للرحلة الجديدة · وقبل فتح النيل الأبيض للملاحة (قبل سنة ١٨٤٢) كان من أكبر تجار الرقيق فى البلاد التاجر الفرنسى فيسيير (Vissiere) الذى كان ينقل عبيده الى مصر فى ظل الراية الفرنسية (١٠٢) ·

وقد ظل أكبر تجار للرقيق فى الخرطوم من الأوربيين حتى سنة ١٨٦٠ ، حين باعوا محطاتهم فى الجنوب الى وكلائهم العرب · وأشهرهم فى هذه الفترة التاجر السرديني برون روليت (Brun Rollet) ، وكان معروفا عند سكان المدينة (بالتاجر يعقوب) ، وقد حقق لنفسه حلم كل الأوربيين في الثروة · ومن تجار العاج والرقيق المشهورين فى تلك الفترة أيضا التاجر السرديني فودى (Vaudy) ، وملزاك (Malzac) مؤسس مدينة رمبيك فى بحر الغزال ، ولا فارج (La fargue) وامبرواز (Ambroise) والكسندر (Alexander) ، والدكتور تيران (Tirant) الذى جمع ثروة كبيرة فى الخرطوم من تجارة الرقيق الذى كان يصدره الى أسوان والقاهرة والقسطنطينية (١٠٣) ·

وأشهر التجار الأوربيين العاملين فى غير تجارة الرقيق من اليونان والايطاليين · وأكبر عدد منهم من اليونان لأنهم يتحملون جو البلاد الحار ، وهم سادة تجارة البقالة فى الخرطوم ، كما يتاجرون في الملابس الجاهزة وأدوات المائدة ، بل ان منهم من كان يبيع اللحوم والخضراوات (١٠٤) · وعند حصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ امتنعوا عن أن يستقلوا السفينة التى وضعها غردون تحت تصرفهم للهرب من المدينة ، وقد وصف موقفهم هذا بأنه لما كانت الخرطوم وطنا ثانيا لهم لا ينبض عندهم الا بتجارتهم ولا شيء غير ذلك ـ فليس عندهم ما يؤرقهم سواء بقيت مصر فى السودان أو انتقل الأمر للمهدى (١٠٥) ·

وأهم التجار الفرنسيين بالخرطوم البير ماركيت (Albert Marquit) الذى أنشأ فى الخرطوم بيتا للتصدير والاستيراد امتد نشاطه الى جميع أطراف البلاد وافتتحت له فروع فى سواكن وبربر . وقد ظل ماركيت أكبر تاجر فى البلاد حتى آخر الحكم المصرى .

والانجليز هم أقل التجار الأوربيين عددا فى الخرطوم ، فحتى سنة ١٨٥٢ كان بها منهم واحد فقط هو بترك (Petherick) وكان مركز تجارته الأول فى الأبيض . على أنه كان فى الخرطوم غيره من الرعايا البريطانيين كالمالطيين والهنود وغيرهم (١٠٦) .

ولما كان مجتمع الأوربيين فى الخرطوم مجتمعا تجاريا قبل كل شيء فقد ظهر بينهم من يقوم بعمليات تسليف النقود وتحويلها الى خارج البلاد ، وقد اشتهر اليونانيون بهذه الأعمال . وكان اجر التحويل من الخرطـــوم الى القاهرة يتراوح بين ٥٪ الى ١٠٪ ، أما السلف فكانت تتم بفوائد باهظة تصل فى بعض الأحيان الى ٤٠٠٪ (١٠٧) .

وقد اشتغل بعض التجار الأوربيين بالخرطوم بالكشف عن منابع النيل ـ منهم فيسيير وملزاك وبرون روليت ، ولكنهم جميعا ماتوا قبل الوصول الى بغيتهم (١٠٨) .

وبالخرطوم من الأوربيين عـــدد كبير من الموظفين ، وكانت الحكومة تستعين بهم دائما فى أعمالها . وقد اشتهروا فى السودان والخرطوم بجميع أجناسهم كأطباء حكوميين قبل كل شيء . وأول من عمل منهم فى هذا المجال الايطاليون ، فقد كان بالخرطوم على عهد خورشيد باشا طبيب وصيدلى، كما كان يعمل منهم بعد عهده عدد ليس صغيرا (١٠٩) .ومن الأطباء الألمان الدكتور فرن (Werne, J.) مدير القسم الطبى بالبلاد وجراح المستشفى العســكرى بالخرطوم والطبيب الخاص لعائلة الحكمدار احمد باشا ابو ودان (١١٠) . ومن

الإطباء الفرنسيين عدد اشتهر الى جانب عمله بحب الرحلة والكشف:
فقد كان الدكتور برون (Perron) عالما وباحثا فى عادات الشعوب،
ومن أشهر أعماله فى تلك الناحية قيامه بترجمة رحلة الشيخ محمد
ابن عمر التونسى في دارفور الى الفرنسية (١١١) · واشترك
الدكتور كاستللى (Castelli) فى الغزوة المصرية التى تقدمت فى
منطقة الجرادة حتى وصلت الى نهر السوباط سنة ١٨٤٤ · وجمع
الدكتور كنى (Cuny) كثيرا من المعلومات المفيدة عن كردفان وأهلها
اثناء زيارته لها سنتى ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ · وحاول الدكتور بنى (Peny)
ان يدلى بدلوه في كشف النيل الأبيض ، ولكنه مات سنة ١٨٦١ فى
غندكرو بعد أن أمضى فى البلاد عشرين عاما وأصبح اسمه على كل
لسان فى الخرطوم لاخلاصه فى عمله (١١٢) ·

وقد عمل في الخدمة الطبية الحكومية في الخرطوم فى
الخمسينات من القرن التاسع عشر طبيب هنغارى ، وكان مدير
القسم الطبى بها سنة ١٨٧٩ طبيبا سويسريا ، كما عرفت الخرطوم
من الأطباء الأوربيين من كان يعمل لحسابه (١١٣) ·

وبالخرطوم أوربيون يعملون فى وظائف الحكومة فى غير الخدمة
الطبية،منهم المهندسون دارنو (De Arnaud) وشيلى بك (Chelu Bey)
الفرنسيان ، وفرن (Werne, F.) الألمانى ، وسبادا (Spada, L.)
الايطالى الذى كان مديرا للترسانة ومواطنه لمبروزو (Lombrose)
الذى كان مديرا للبريد ·

وقد زاد عدد الموظفين الأوربيين على عهد غردون (فبراير
١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) عندما عين عددا كبيرا منهم مديرين
للمديريات بعد عزل المصريين والسودانيين · وكانت الخرطوم
بالنسبة لكثير من الأوربيين مقرا دائما ووطنا ثانيا ، ومنهم من عاش

بها لمدة طويلة مثل كلين الخياط الالمانى (Merr Klein) وهنزل (Hansal) نائب القنصل النمسوى اللذين عاشا بها ثلاثين عاما انتهت بقتلهما عند سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥ (١١٤) ٠

وغير الأوربيين من التجار والموظفين وأصحاب المهن الحرة نجد بالخرطوم رجال البعثة الكاثوليكية ، وكانوا من النمسويين والايطاليين والألمان البافاريين ، وقد توالوا على الخرطوم منذ سنة ١٨٤٣ ٠ وفى فبراير سنة ١٨٤٨ وصلت الى الخرطوم البعثة الكاثوليكية الأولى ، وبين رجالها رجال الدين والعلمانيون والعمال ـ وخاصة عمال البناء ٠ وقد بدأت فى اقامة مبنى لها سنة ١٨٥٠ ، ولكنها لم تنته منه ـ طبقا للخطة الموضوعة له ـ حتى يوم سقوط الخرطوم (١١٥)٠

وكانت الخرطوم عند البعثة المركز والقاعدة التى يخرج منها رجالها لتحقيق أهدافها ٠ وأهم هذه الأهداف ما حققته البعثة بعد وصولها الى الخرطوم بسنوات قليلة ، وهو اقامة محطة لها سنة ١٨٥١ على بحر الجبل جنوب غندكرو بقليل فى وطن البارى ، ومحطة أخرى سنة ١٨٥٥ بين شامبى وبور فى وطن الكيك ـ دينكا ٠

ويبلغ عدد رجال البعثة الثلاثين ، وكان يأتى الى البلاد معين مستمر منهم لتعويض خسائرهم فى الأرواح ، ولذلك بقى هذا العدد ثابتا تقريبا منذ سنة ١٨٤٨ حتى سنة ١٨٦١ ـ عندما أغلقت محطتا النيل الأبيض ورجعت البعثة الى بلادها بسبب الخسائر المتلاحقة فى الأرواح (١١٦) ٠ وفى سنة ١٨٧٢ عادت البعثة الى الخرطوم برياسة الأب كوميونى (Comboni, D.) وفى سنة ١٨٧٣ افتتحت محطة لها فى بربر ، تلتها بمحطتين فى الأبيض والدلنج بجبال النوبا بعد ذلك بسنتين (١١٧) ٠ واستمرت البعثة مزدهرة

حتى سنة ١٨٧٨ حين خسرت سبعة عشر من أفرادها دفعة واحدة بسبب انتشار الملاريا في الخرطوم في تلك السنة ، فأقفلت محطة بربر (١١٨) • وعند قيام الثورة المهدية ووصول خبر هزيمة هكس الى الخرطوم انسحبت البعثة في ديسمبر سنة ١٨٨٣ الى القاهرة •

ولم تقف جهود رجال البعثة الكاثوليكية عند حد التبشير الديني ، فقد كان من أهدافهم أيضا العمل على ترقية المجتمع المحيط بهم بالتعليم ومحاربة تجارة الرقيق وكشف حقيقة الجهات التي يعملون فيها على تحقيق رسالتهم • ولقد كان أثرهم عظيما للغاية في هذا الميدان الأخير ، وكان لأعمالهم فيه ـ وبخاصة في منطقة أعالي النيل الأبيض ـ دوي كبير في الأوساط العلمية الأوربية • وتزخر مكتبات جمعيات البعوث الدينية في ايطاليا والنمسا بكثير من تقاريرهم المخطوطة والمطبوعة في هذا الميدان (١١٩) •

والدكتور نوبخلر .(Dr. Knoblecher) يقوم على رأس رجال البعثة الكاثوليكية من حيث الجهود التي بذلها في ميدان الكشف الجغرافي • ويرجع اليه الفضل في تأسيس محطتي البعثة على النيل الأبيض • وقد سجل في تقريره الذي دونه عن رحلته في أعالي النيل الأبيض سنة ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ جميع التغييرات التي تصيب النهر واتجاه الرياح والمميزات الطبيعية والجنسية للجهات التي مر بها • ومن أعماله أيضا دراسة لغة قبيلة الباري ونقل كثير من الصلوات والتراتيل الى لهجتهم (١٢٠) •

وممن عاشوا أيضا من رجال البعثة الكاثوليكية في أعالي النيل الأبيض وسجلوا احساساتهم العلمية فيها الآباء فنكو وبلترام وكوفمان ومورلانج ولانز ،
(Vinco, Beltrame, Kauffmann, Morlang Lanze).
وقد نشرت المجلات العلمية الألمانية والنمساوية والايطالية المهتمة

بالكشوف الجغرافية مجموعة طيبة من أبحاثهم الجغرافية عن أعالى النيل الأبيض،كما اهتموا أكثر ما اهتموا بدراسة لهجتين : البارى والدينكا ووضع قواعد لهما وعمل قاموس للغة الايطالية واللهجتين ٠

وقد امتدت جهود رجال البعثة الكاثوليكية فى الكشف الى غير منطقة أعالى النيل الأبيض ، وكان ذلك أثناء قيامهم بالبحث عن اماكن تصلح لاقامة محطات جديدة للتبشير ٠ فقد صعد كل من الأب مسايا وبلترام النيل الأزرق سنتى ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ ، ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ على الترتيب حتى منطقة فازوغلى ، ومنها جدا السير حتى الحدود السودانية الحبشية ، ومذكرتاهما عن هذه الرحلة غرة مشرقة في جبين الكشف الجغرافي (١٢١) ، ويزيد من قيمتيهما أن المواصلات بين الخرطوم وهذه الحدود كانت مستحيلة تقريبا فى ذلك الوقت ٠ كما تمكن الأب كرشر (Kircher) من دراسة لهجة البشاريين وحاول وضع قواعد نحولها ٠

وقد انقطعت سلسلة كشوف ودراسات الآباء منذ سنة ١٨٦١ عندما غادروا البلاد ٠ فلما كانت سنة ١٨٧٢ ، وعادت البعثة الى الخرطوم قام الأب كومبونى بين سنتى ١٨٧٣ ، ١٨٧٥ بدراسة المنطقة الواقعة بين الأبيض والدلنج فى جبال النوبا ، وقام بوضع اول خريطة لها ٠ وفى سنة ١٨٧٦ قام الأب مارتينى بصعود النيل الأزرق حتى فازوغلى ، ووقع اختياره على مكان بجوار القضارف لتاسيس محطة جديدة للبعثة ، وتقريره عن رحلته جد مفيد (١٢٢) ٠

وقد استعانت الادارة فى الخرطوم برجال البعثة في التعرف على بعض المناطق التى لم تكن قد مدت اليها سلطانها حتى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى ٠ ومن ذلك أن الحكمدار رءوف باشا كتب فى مايو سنة ١٨٨١ الى الأب كومبونى رئيس البعثة يطلب منه

دراسة منطقة جبال النوبا دراسة شاملة حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة لنفع سكانها والقضاء على تجارة الرقيق واقامة نظام ادارى ناجح فيها (١٢٣) ٠

ولرجال البعثة الكاثوليكية في الخرطوم نشاط كبير فى غير ميداني التبشير والكشوف الجغرافية ٠ فقد لعبوا دورا فى محاربة تجارة لرقيق ، ومن وسائلهم فى ذلك قيامهم بشراء الرقيق من الأهالى وتربيته تربية دينية ارسالية للاستعانة به في تنفيذ أهداف البعثة بين قبائله ٠ كما كانوا يشجعون الرقيق على الهرب ، وانشأوا من أجل ذلك ملجا بدار الارسالية لاستقبال الهاربين فيه٠هذا ويدعى الكونت لويجى بنازى الايطالى الذى زار الخرطوم قبيل المهدية أنهم نجحوا فى تحويل الرأى العام فى الخرطوم ضد تجارة الرقيق (١٢٤) ٠

وللبعثة الكاثوليكية أثرها الكبير في ميدان التعمير وتعليم تلاميذها وعدد من الأهالى بعض الصناعات المهمة ، فقد كانت تضم دائما بين رجالها صناعا مهرة فى سائر الفنون (١٢٥) ٠ واذا كانت المستعمرة الأوربية في الخرطوم قد لعبت دورا فى تعريف السكان بصناعة الآجر والجير وقطع الأحجار (١٢٦) ، فان الغالب على الظن أن معرفة الأهالى بصناعة اقامة القمائن بالشكل الذى كانت عليه فى القرى المحيطة بمنطقة الخرطوم انما يرجع الفضل فيه الى البناء الايطالى الأب بيترو أجاتى (١٢٧) ٠ كما كان من آثار عناية البعثة بحديقة دارها أن انتشرت زراعة بعض النباتات الأوربية ــ التى كان الآباء يحضرون بذورها من أوربا ــ في حدائق الخرطوم ٠ ولقد حاولت البعثة اقامة محطة زراعية فى منطقة الخرطوم بعد أن لمست الفوائد الكبيرة لمحطة أقامتها فى الأبيض ، ولكن الادارة لم تمنحهم الأرض اللازمة لذلك (١٢٨) ٠

وغير القبط والأوربيين ورجال البعثة الكاثوليكية يضم نصارى الخرطوم فئة مهمة عرفتها المدينة طوال الحكم المصرى ، وهي جماعة الرحالة والمكتشفين من المقيمين الأوربيين المؤقتين الذين كانت الخرطوم عندهم محطة البدء والنهاية لرحلاتهم وكشـــوفهم ، كما كانت لهم بمثابة الرئة يستنشقون فيها نســـيم الراحة والاستجمام بعد عناء السفر والانتقال ٠

واذا كانت أعمـــال الآباء الكاثوليك فى الرحـلة والكشف قد توقفت سنة ١٨٦٠ عندما أخـــلوا محطتى النيل الأبيض وغادروا الخرطوم الى مصر فليس معنى ذلك أن البلاد قد أغلقت بعد ذلك السنة فى وجه الرواد والمغامرين من أجل التجارة وجمع الحقائق العلمية المعينة على معرفة منابع النيل ٠ فقد كان لتفكير سعيد باشا فى اعداد حملة جديدة للكشف عن منابع النيل على غرار الحملات التى قادها القبطان سليم أيام محمد على ـ علاوة على أنه كان لا يرد للمكتشفين طلبا (١٢٩) ـ أثر فى اثارة انتباه كثير من الأوربيين وغيرهم الى أهمية الرحلة فى السودان مهما كان الغرض منها ٠ ومن ثم نشطت رحلات الرواد والمكتشفين اليه منذ سنة ١٨٦٠ ، وكانت أعالى النيل الأبيض أهم جهاته جاذبية عندهم ، الأمر الذى اعتبر معه المعاصرون أن عهدا جديدا قد بدأ فى تاريخ هذا النيل (١٣٠) ٠

ولقد كان هؤلاء الرواد والمكتشفون من جنسيات مختلفة ، وقد غطوا بكشوفهم رقعة كبيرة من حوض النيل (١٣١) ٠ فمنهم المركيز أنتنورى وليجان والآنســـات تنى وتريمو وبياجيا والبارون دارنيم وفون هارنييه وبنسيه وبريسيز الذين كانوا أول من اخترقوا بلاد نيام نيام ٠ ومنهم برون روليت وهجلن وبترك والآنســـات تنى وشـــوينفرث ويونكر وبوندرف وكازاتى الذين أدلوا بدلوهم فى كشوف بحر الغزال ٠ ومنهم ميانى وسبيك وجرانت وصمويل بيكر

وغردون ، وكذلك الآنسات تنى ويونكر الذين لعبوا دورا فى كشوف اعالى النيل الأبيض · ومنهم ترانوفا ويونكر اللذان لهما الفضل فى كشف بعض جهات نهر السوباط (١٣٢) ·

وقد لعبت حكومة مصر دورا كبيرا فى تسهيل رحلات هؤلاء الرحالة ، الأمر الذى يختلف تماما عما كان عليه الحال قبل الحكم المصرى للبلاد - حينما كان الرحال يتعرض لكثير من الصعاب والمضايقات والتاخير ولا يأمن على صحته وماله أثناء الرحلة · فقد كان الوالى يمنح الرحالة الفرمانات (أو تذاكر المرور) التى تضمن لهم مساعدة موظفى الحكومة طوال رحلاتهم (١٣٣) · وكانت الادارة فى السودان تبذل كل غال فى سبيل تحقيق أوامر الوالى ، ومن وسائل الحكمدار اسماعيل أيوب فى ذلك اقامته الخانات فى كثير من الجهات فيما بين البحر الأحمر والنيل ومن النيل الى تخوم واداى وفى اقليم دارفرتيت (١٣٤) ·

وكان على الرحالة المسافر من مصر الى السودان أن يذهب عند وصوله الى كروسكو الى المفتش المصرى المشرف على حركة النقل فى الصحراء بين هذه المدينة وبربر · ومن واجبات هذا المفتش أن يهيىء للرحالة كل التسهيلات الكفيلة بوصوله الى مقصده سليما، فكان عند استلامه أجر الانتقال يعطيه صكا بالمبلغ محددا فيه القافلة التى سيصحبها وميعاد سفرها وعدد افرادها وجمالها واحمالها (١٣٥) ·

وعند وصول الرحالة الى الخرطوم يجد فى سوقها واهلها والادارة كل عون لتهيئة القسم الثانى من رحلته · فاذا كان مسافرا الى الجنوب فليصحب احدى رحلات التجارة السنوية اليه ، وكان العقد المبرم من أجل ذلك يتضمن قيام رئيس الرحلة بامداده بالطعام والحمالين والحراس المسلحين ووسائل الانتقال - بالاضافة الى ضمان

حريته التامة فى الانتقال حيثما يشاء (١٣٦) . واذا كان مسافرا الى الحبشة فانه واجد فى الخرطوم ضالته بين رؤساء القوافل العارفين بالطريق بين الخرطوم ومقصده . أما هذا الذى يرنو الى كردفان فالخير عميم ، اذ الطريق بين الخرطوم وبينها لا تنقطع منه القوافل ، واذا كان على عجل فليستأذن الادارة فى مرافقة قافلة البريد اليها . وعند انتهاء الرحلة بسلام ورجوع الرحالة الى الخرطوم عليه أن يعقد اتفاقا جديدا مع أحد متعهدى القوافل لنقله من الخرطوم الى الشمال فى حضور شيخ الخرطوم أو نائب القنصل الذى يتبعه (١٣٧) .

وفى الواقع ، لقد كان للخرطوم وسائلها الناجعة فى تسهيل الرحلة مهما كان اتجاهها . فسوقها يزخر بكل لوازم الرحلة من طعام وملابس وأدوات ، ومطالب تجار الجنوب وحراس رحلاته من كل ما يمكن المبادلة به مع الزنوج . كما تزدهر فيها الصناعات الجلدية ، وصناعة الحبال ، واصلاح الخيام والسفن والشراع ، وتهيئة الطرود للنقل — فما ينقل منها على ظهور الجمال يختلف فى مواصفاته عما ينقل على أكتاف الحمالة فى الغابات وما الى ذلك (١٣٨) . كما تقوم فيها صناعة الأحجبة التى لا يمكن لسوداني مغادرة الخرطوم قبل أن يتزود بها ليتقى شر الطريق (١٣٩) . واذا كانت الحبشة مقصد الرحالة فشراء حمار قوى من سوق الخرطوم ليحمل عليه أثقاله أمر لازم (١٤٠) . واذا كانت الرحالة الى الجنوب فتأجير عدد من النساء العبيد لتهيئة الطعام لأفراد الرحلة أمر لا يمكن الاستغناء عنه (١٤١) .

وصناعة الدلالة هى أبرز الصناعات التى ظهرت فى الخرطوم مع ظهور الرحالة الأوربيين . فقد كانت رحلات الجنوب لا تغادر المدينة قبل أن تضم اليهـا عـددا من الدناقلة والجند الزنوج (المرافيت) الذين تمرسوا فى مرافقة هذه الرحلات لمعرفتهم بالطريق

ولهجات أهل الجهات المقصـودة · كما يجد الرحالة بين سـكان الخرطوم من سبقهم الى الجهات التى يقصدونها ، فلقد وضع المهندس الفرنسي دارنو كل معلوماته وخبراته عن النيل الأبيض فى خدمة كل رواد هذا النيل ممن جاءوا بعده،وبالمثل فعل التاجر الفرنسى لافارج مع المكتشف شوينفرث ، وفى سنة ١٨٣٨ أطلع مصطفى بك ـ حاكم كردفان السابق ـ الأمير بوكلر موسكاو على كل ما يعرفه عن منطقة تقلى الجبلية فى جنوبى شرق كردفان والتى لم يكن قد وصل اليها أوربى حتى ذلك الوقت · ولقد كان دور مسـتر هنزل ـ نائب القنصل النمسوى وأقدم مستوطن أوربى فى الخرطوم ـ فى هذا المجال عريضا ، لدرجة أنه عرف بين المكتشفين بأب كل رحالة النيل الأبيض (١٤٢) ·

وكانت الخرطوم هي محطة اللقـاء بين جميع الرحالة طلاب السـياحة والصـيد ، والمغامرين الباحثين عن الثروة السريعة ، والمكتشفين العاملين فى كشوف النيل ـ سواء كانوا فى طريقهم الى داخل القـارة أو فى طريق العـودة الى بلادهم ، بالنيل أو البحر الأحمر · فقد كانت عندهم الجنة الوارفة الظلال عند نقطة الانتقال بين الهمجية والمدنية (١٤٣) ·

وفى الخرطوم يسمع الرحالة لسان وطنه ويلمس جسمه فى شخص الأوربيين من جنسه،ويجد فيها وسائل الحياة متوافرة كما تعود فى وطنه ـ وعلى رأسها خلان جمعتهم الغربة وحياة عائلية زاخرة بالمعـانى الاجتمـاعية الأوربية · فها هو ذا التاجر الفرنسى شارل ريجوليه (Rigolet, Ch.) ـ المقيم مؤقتا فى دارفور ـ يشكو فراغ الحياة من امكانات الحياة الأوربية ، ويرفع عقيرته بأنه لا شك فى طريقه الى البربرية التى من علاماتها عنده توقف لسانه عن التحدث بالفرنسية وترديده العربية بعد أن أصبحت أذنه لا تسمع

الا اياها وأخذ جلده في الاصطباغ بالسواد حيث لا يرى الا السود (١٤٤) ، وهذا مما يفسر كيف أن الانتقال المفاجىء من داخل أفريقيا الى الخرطوم أمر عسير التصديق ٠

ولما كان معظم الأوربيين في الخرطوم تجارا كان لابد من وجود ممثلين سياسيين لبلادهم لرعاية مصالحهم وتذليل الصعاب التي تقوم بينهم وبين حكومة الخرطوم ٠ وما الاحتجاج العام الذى قدمه نواب القناصل الأوربيين في الخرطوم برياسة نائب قنصل النمسا الى عباس باشا ضد الحكمدار عبد اللطيف ـ الذى كان يحتكر تجارة النيل الأبيض ـ الا مثلا لهذه الرعاية ٠ كما أن الموظفين والرحالة الأوربيين ـ الذين كانت لا تخلو منهم العاصمة في سنة من السنين ـ كانوا في حاجة الى هذه الرعاية ٠

ومن مظاهر التمثيل السياسى في الخرطوم أن الممثل السياسى كان نائب قنصل ، حيث أن مقر القنصل في القاهرة ـ وكان صلة الوصل بين حكومته ونائبه في الخرطوم ٠ على أن بعض نواب القناصل في الخرطوم كانوا لا يمتون بصلة بالدولة التي يمثلونها ، فهم ليسوا منها ، وأحيانا لا يعرفون لسانها ٠ كما أن بعضهم كان الوحيد في الخرطوم من أبناء وطنه ٠ هذا في الوقت الذى كانت المدينة تخلو فيه من ممثل سياسى لحكومة لها في المدينة عدة أفراد ، ومن أجل ذلك كان بعض نواب القناصل يمثلون أكثر من دولة لدى حكومة الخرطوم ٠

ومعظم نواب القناصل بالخرطوم تجار في العادة ، وممن أقاموا في البلاد مدة طويلة ٠ ويعيب الجمع بين عملهم القنصلى والتجارى تغيبهم فترات طويلة خارج الخرطوم مشغولين بتجارتهم (١٤٥) ، وتعرضهم لما يمكن أن تتعرض له تجارتهم على

يد سلطات الخرطوم . كما يعيب بعض نواب القناصل جمعهم بين تمثيلهم لبلادهم وشغلهم لبعض الوظائف في حكومة الخرطوم (١٤٦).
ويبدو انه لم تكن هناك سياسة مرسومة تخطط عملهم ، ومثال ذلك انه في الوقت الذى كان فيه بعضهم يتاجر في الرقيق ويحمى رعاياه القائمين بتلك التجارة كان يلجأ الى مقاومة هذه التجارة عند أهل البلاد ، بل أكثر من ذلك كان يتعرض لأملاك البعض بتشجيع عبيدهم على الهرب والتحرر (١٤٧) .

ولما كان معظم نواب القناصل ممن طالت بهم السنون فى البلاد فقد أدى ذلك الى انفعالهم واهتمامهم بالقضايا والمسائل التى تهم البلاد . وآية ذلك ما وضح من اهتمام نائب القنصل الفرنسى لويس فرسيون (Vossion, L.) بربط السودان بالخارج بالسكة الحديد اهتماما حمله على عرض وجهة نظره في هذا الموضوع على وجهاء الخرطوم ومشايخ العرب فى المنطقة المحيطة بها ، ورفع التماس الى الخديو وقنصل عام فرنسا فى مصر - بعد تذييله بخاتم من عرض عليهم فكرته - بأن تمر السكة الحديد بطريق بربر - سواكن (١٤٨) . كما أن بعض نواب القناصل أسهموا في الكشف عن بعض الجهات المجهولة في البلاد ، ونشروا الكثير من الكتب ودبجوا المقالات عن طبيعة الجهات التى جابوها،فثيبو (Thibaut, C.) نائب القنصل الفرنسى صحب القبطان سليم فى رحلة أعالى النيل الأبيض ، وبترك وهجلن نائبا القنصل الانجليزى والنمساوى على الترتيب اكتشفا بعض جهات بحر الغزال .

وأول قنصلية افتتحت فى الخرطوم القنصلية الفرنسية ، وكان ذلك حوالى سنة ١٨٣٠ . وأول نائب قنصل بها التاجر الفرنسى ثيبو الذى بقى ممثلا لبلاده حتى سنة ١٨٦٩ حين توفى . وخلفه لافار (Lafargue, F.) الطبيب البيطرى وتاجر الصمغ الناجح ، وقد استمر يمثل بلاده حتى وفاته سنة ١٨٧١ . وجاء بعده

فوسيون (Voision, L.) الذى مثل بلاده سنتى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ولعله كان الأول والوحيد بين رجال البعثات الأجنبية الذى أرسل خصيصا لهذا الأمر • وبين سنتى ١٨٨٢ ، ١٨٨٤ قام كل من التاجر الفرنسى المشــهور البير ماركيت (Marquit, A.) ومســيو هربن (Herbin) بتمثيل بلاده لدى حكومة الخرطوم على الترتيب •

وقد تأخر افتتاح القنصلية البريطانية حتى سنة ١٨٤٩ • وان ما حمل انجلترا على هذا التأخير انما هى العقلية البريطانية العملية، فلم يكن فى السودان وقتئذ الا انجليزى واحد هو التاجر بترك • وعلاوة على ذلك كانت مصالحها التجارية لا تستدعى قيام تمثيل سياسى لها ، اذ كانت هذه المصالح تجرى فى سهولة ويسر • فقد كانت تجارة العاج ــ أهم متاجر البلاد فى ذلك الوقت ــ احتكارا حكوميا ، مما أدى الى قيام حركة نشيطة لتهريبه الى سواحل البحر الأحمر حيث كانت تتلقفه الشركات الانجليزية فى الهند بســفنها الراسية بالقرب من ميناء سواكن ، وهــذا مما حمل انجلترا على النكوص عن الانتقال الى داخل البلاد وافتتاح قنصلية لهم •

ولكن حدث سنة ١٨٤٨ أن تحررت تجارة العاج ، وأصبح الخطر يهدد بانقطاعه أو قلة نقله الى البحر الأحمر حالما يتهيأ لتجاره ربح أكبر عند نقله الى مصر • وعلاوة على هذا كان من المتوقع أن تتحرر كل المتاجر بعد الغاء تجارة العاج ، مما يبشر بتقدم التجارة ونموها لدرجة كبيرة (١٤٩) ، وهذا مالا يجب أن تدع انجلترا خيره يفلت من يدها • ونضيف الى ذلك ، أن انجلترا كانت قد بدأت ــ وقتئذ ــ فى الاهتمام بموضوع القضاء على تجارة الرقيق فى البلاد بعد أن زار الرحالة الانجليزى هولرويد (Holroyd, A.) السودان سنة ١٨٣٧ ، ونشر تقريرا عن رحلته فى انجلترا (١٥٠) ضمنه الحديث عن رأيه فى أقوم السبل للقضاء على تلك التجارة ــ ذلك

الرأى القائل بتعيين انجلترا وكلاء لها فى الخرطوم وكردفان وغيرهما من الجهات التى يســهل اتصــالها بالنيل فى افريقيا الشرقية ، وتاسيس مراكز تجارية لها هناك اذا كان ذلك مستطاعا ٠

ونتيجة لكل هذه الظروف افتتحت القنصلية البريطانية فى الخرطوم سنة ١٨٤٩ ٠ وأول نائب قنصل لانجلترا فى الخرطوم هو بلودن (Plowden, W.) الذى خلفه التاجر بثرك سنة ١٨٥٩ ٠ واستمر يمثل هذا بلاده حتى سنة ١٨٦٤ عندما أغلقت القنصلية بسبب الشكوك التى حامت حول اشتراك نائب القنصل فى تجارة الرقيق (١٥١) ٠

وقد ظل أمر اعادة فتح القنصلية بعد ذلك موضع اهتمام بعض رجال انجلترا ، بسبب النمو المستمر الذى كان يصيب تجارة البلاد وقتئذ (١٥٢) ٠ ومع ذلك لم تفتتح الا سنة ١٨٨٢ عندما احتلت انجلترا مصر وما ارتبط بذلك من التفكير الحتمى فى مد يدها الى السودان (١٥٣) ٠ وبين سنتى ١٨٦٤ ، ١٨٨٢ لم يعرف عن التمثيل القنصلى البريطــانى فى الخرطــوم الا أنه سنة ١٨٧٦ كان روسى (Rosset) نائب قنصل المانيا يعتنى بمصالح انجلترا فى الخرطوم، وفى سنة ١٨٧٨ كان هنزل (Hansal) نائب قنصل النمسا يعتنى بهـــا ٠

وبعد افتتاح القنصلية عين كل من بيكر وميفيل (Baker, A. & Mieville, =.) نائبين للقنصل على الترتيب، ولكنهما لم يصلا أبدا الى الخرطوم لقيام الثورة المهدية فى البلاد ، مما حمل انجلترا على تعيين باور (Power, F.) نائبا للقنصل فى ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، وكان مراسلا لجريدة التيمز البريطانية ومقيما بالخرطوم قبل ذلك التــاريخ (١٥٤) ٠

ويرتبط افتتاح القنصلية النمسوية بقصد البعثة الكاثوليكية في البلاد • فقد نتج عن اهتمام امبراطور النمسا فرنسوا جوزيف بتلك البعثة ـ وخاصة بعد مقابلة الدكتور نوبلخر رئيس البعثة سنة ١٨٥٠ أثناء رحلة له الى أوربا للحصول على المساعدات المالية ـ أن وضعها تحت رعايته ، وحصل لها من الباب العالى على فرمان يمنحها الحقوق والمزايا التي تتمتع بها البعثات الكاثوليكية في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية • ولما كان عباس باشا في مصر قد حاول ـ أول الأمر ـ عدم الاعتراف بهذا الفرمان أصبح ضروريا افتتاح قنصلية في الخرطوم لرعاية مصالح البعثة (١١٥) • وهكذا افتتحت القنصلية سنة ١٨٥١ ، فكان أمرا طبيعيا ـ والبضائع النمساوية تغطي جهات واسعة من وسط افريقيا والسودان (١٥٦) ـ ان يكون افتتاح القنصلية قبل ذلك التاريخ •

وأول نائب قنصل للنمسا في الخرطوم هو الدكتور رتز (Reitz, K.) الذى وصل الى الخرطوم في مارس سنة ١٨٥١ ، ومع أنه توفى سنة ١٨٥٣ الا أنه تمكن في سنتي وظيفته من توثيق صلته بكثير من مشايخ العرب في منطقة الخرطوم • وبين سنتي ١٨٥٣ ، ١٨٦٢ ملأ المركز هجلن (Houglin, M. Th. V.) العالم الطبيعي والمكتشف ، ثم خلفه نترو (Natterer, J.) العالم الطبيعي والتاجر الكبير • وفي سنة ١٨٦٢ عين هنزل (Hansal, M. L.) نائبا للقنصل ، وأول مجيئه الى الخرطوم سنة ١٨٥٣ ليدرس في مدرسة البعثة الكاثوليكية ، وله أبحاث قيمة جغرافية وجنسية عن الجنوب نشرتها المجلات العلمية في النمسا والمانيا ، ومنزله محط السائحين والمكتشفين ، وكان يتحدث العربية وبلسان قبيلة البارى (١٥٧) ، وقد ظل اهم شخصية أوربية في الخرطوم حتى وفاته سنة ١٨٨٥ عند سقوط المدينة •

وكان لبعض الدول الأخرى ممثلون سياسيون فى الخرطوم ٠ منها المانيا التى عين التاجر دوسبرج (Duisberg) نائب قنصل لها أوائل سنة ١٨٦٥ (١٥٨) ٠ وكان لسردينيا نائب قنصل هو فودى (Vaudy) تاجر العاج والرقيق الذى قتلته قبيلة البارى فى غندكرو سنة ١٨٥٤ ، وخلفه التاجر المشهور برون روليت (Rollet, B.) فى السنة التالية ٠ وعندما توحدت ايطاليا قام هنزل نائب قنصل النمسا برعاية مصالحها بين سنتى ١٨٧٦ ، ١٨٧٨ ٠ وفى هذه السنة ، وفى الوقت الذى نادت فيه البيوت التجـــارية الايطالية بزيادة الاهتمام بالعلاقات التجارية مع الســـودان عين الســـنيور لجنانى (Legnani) نائبا للقنصل ، وقد بقى فى منصبه حتى سنة ١٨٨١ ٠ وكان للولايات المتحدة الأمريكية ممثل سياسى منذ حوالى سنة ١٨٦٠ ، وهو تاجر قبطى ٠ كما كان لايران ممثل منذ أواخر سنة ١٨٦٢ ، ويبدو انه كان قبطيا كذلك (١٥٩) ٠ أما اليونان فمع قدمهم فى البلاد الا أن الغالب على الظن أن ممثلهم ليونديدز (Leontides, N.) لم يملأ مركزه الى فى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى ٠

ويكون الأوربيون فى الخرطوم ـ على حد قول ليجان (١٦٠) « أوربا صغيرة غير فاضلة » ، وعند هجلن (١٦١) « جمهورية صغيرة قامت تحت ظروف أجتماعية بسيطة غير محددة ، يحيا فيها الفرد بلا مسئوليات كبيرة ومطالب روحية » ، فقد كانت الجماعات الأولى من الأوربيين التى وصلت الى الخرطوم بعد الفتح تجارا مفلسين ومجرمين عتاة جاءوا ليجربوا حظهم فى جمع الثروة أو ليحفروا قبورهم بأيديهم غير خائفين خسارة شىء لأنهم لا يملكون شيئا ، مما زاد من انزلاقهم الى كل ما هو بعيد عن الفضـــيلة وتثبيت صفات الفســـاد والغش والعنف فى نفوسهم (١٦٢) ٠

واذا كان كثير من هذا الصنف ـ الذى كان معظمه من تجار الرقيق ـ قد اختفى من مجتمع الخرطوم حوالى سنة ١٨٦٠ عندما باعوا زرائبهم الى وكلائهم العرب ، وظهر رجال أشراف عرفوا بسمو الأخلاق وبفضلهم فى مجال الخدمات المفيدة ـ فان المستعمرة الأوربية فى الخرطوم استمرت مع ذلك تضم كثيرا من الأفراد الخشنين · ويرى ليجان (١٦٣) أن هذه الصفة ترجع أكثر ما ترجع الى قلة النساء الأوربيات ، مما أدى بالأوربيين الى تسرى الجوارى العاجزات تماما عن الارتفاع بمستوى الفضائل بين أسيادهن · وحتى أولئك الاوربيين الذين كان زواجهم منهن شرعيا عجزوا عن تكوين عائلات بمعنى الكلمة ، وتذويب التفـــاوت الاجتماعى الكبير بينهم وبين نسائهم ، مما نتج عنه مفارقات صارخة فى عائلاتهم : فالأزواج اوربيون مثقفون ، والزوجات جاريات متوحشات تجرى فى دمائهن اخلاق العبيد وسلوكهم وعاقرات فى معظم الأحيان ، فاذا انجبن كان أطفالهن غير مكتمل القوى العقلية ، وفى حالة اكتمالها عند بعضهم نجدهم قد أخذوا عن امهاتهم أكثر مما اخذوا عن آبائهم من صفات ·

ولا يقف الأمر عند هذا ، فان كثيرا من الأوربيين استغل شريعة المجتمع فى حق المالك فيما يملك وأفرطوا فى التسرى ، لدرجة أننا نجد بعضهم يتقلب بين أربعين جارية وله من بعضهن أطفال من كل لون مع عجزه عن اعالتهم (١٦٤) · وفى جميع الأحوال ، كانت الأم ومعها أطفالها يتركون للقدر عند رجوع الوالد الى بلاده ، مما كان يؤدى الى انتشار الدعارة فى البلاد ·

والعمل على جمع المال بشتى الطرق ســمة مهمة من سمات مجتمع المستعمرة · فبين الموظفين الأوربيين فى حكومة الخرطوم من كان يستغل وظيفته فى الكسب غير المشروع · وبينهم من كان يسىء استغلالها الى أبعد من ذلك ، فقد أوقف الحكمدار أحمد ابو ودان

الطبيب الايطالى مدير الخدمة الطبية فى البلاد عن العمل بعد أن ثبت اتهامه بتدبير عدة حالات تسمم (١٦٥) . وبين الموظفين من كان يجمع بين وظيفته والتجارة ويتلقف الواصلين الجدد من الأوربيين الى الخرطوم ويبيعهم اسوأ البضائع باغلى الأثمان (١٦٦) . وبينهم مدعون يعملون فى غير ما تخصصوا فيه من عمل ، ففرد ريك فرن المهندس على عهد الحكمدار أحمد أبوودان لم يكن الا محاميا ، وكان يقول - كغيره من الأوربيين - ان على الأوربى فى الخرطوم أن يعرف كل شيء ليعمل أى شيء (١٦٧) . وبينهم من اتصفوا بسمة الحيلة . فامين باشــا الألمانى مدير خط الاستواء أخبر جيجــلر وكيل الحكمدار - عند اول قدومه الى الخرطوم سنة ١٨٧٩ - أنه تركى ، وكان يداوم على حضور صلاة الجمعة فى جامع الخرطوم (١٦٨) . وقد بلغ الحد ببعض افراد المستعمرة - وبخاصة الفرنسيون منهم - انهم كانوا يبيعون جواريهم بعد تحويلهن صناعيا الى عذارى ليكسبوا فرق الثمن بين الجارية البكر والجارية المرأة (١٦٩) .

ومن مــلامح المســتعمرة الاوربيــة ان جميع أفرادها كانوا - بلا استثناء - يستخدمون الرقيق فى منازلهم وأعمالهم ، ولهم معهم قصص صارخة من العنف ، ولهذا ولغيره كرههم بعض الحكمدارين ، منهم الحكمدار عبد اللطيف ، وقصة كرهه لهم - وبخاصة الفرنسيون والايطاليون - معروفة (١٧٠) . ولنفس السبب كان يحلو لنائب القنصل الفرنسى لافارج الاقامة فى بربر بعيــدا عن جو الخرطوم المشحون بمفاسدهم (١٧١) .

وكانت منازل الأوربيين واسعة تزدحم جدرانها بمجموعات من أدوات وأسلحة الجنوب ، ويطل معظمها على النيل الأزرق أو غير بعيدة عنه ، وفى جزئها البحرى تقوم حديقة هى فى الحقيقة متحف للنبات والحيوان - علاوة على أنها ركن مريح يلم شمل أهل المنزل والضيوف فى المساء . وبينما النسوة يمضين أكثر الأوقات فيها

كان أجدى الأوقات عند الرجال عندما يتجهون بخيولهم بآلاتها المختلفة التركية والسودانية والافرنجية ـ قبيل شروق الشمس وغروبها ـ الى السهل الواقع جنوب الخرطوم حيث الرماحة متعة ٠ وكانت دار الارسالية الكاثوليكية محل أفراحهم جميعا باختلاف مذاهبهم ، وكانت موسيقى الجيش ضرورة من ضرورات هذه الأفراح (١٧٢) ٠

ولكل جماعة من الأوربيين (صالونها) ، وقد عرفت هذه الصالونات أوراق اليانصيب أو (اللوترية) (١٧٣) ٠ وكثيرا ما كانت تمد بها الموائد وبخاصة في مناسبتي الزواج ونزول أوربي جديد بالمدينة ، والخدمة والألوان المقدمة عليها طبقا للنظام الأوربي وبخاصة الخمور ٠ وكانت الجماعة تتلقف النزيل الجديد لتتعرف منه على أخبار العالم الخارجي ٠ وكان بعض كبار الترك والمصريين رؤوسا مهمة في تلك الصالونات (١٧٤) ٠

ولم يكن يفوت هذه الصالونات الاحساس بالحوادث الجارية ، ومن ذلك الاحتفال بذكرى عزيز مات ، واقامة حفل توديع لآخر يستعد لمغادرة الخرطوم الى أوربا ٠ كما لم يكن يفوتها الاحتفال بالمناسبات المهمة ، فقد احتفل المكتشف الروسي يونكر سنة ١٨٧٩ بعيد رأس السنة الميلادية وازدان الحفل ببنود بلاده والمصابيح الملونة (١٧٥) ، واحتفلت القنصلية النمساوية ـ في نفس السنة ـ بذكرى ميلاد الامبراطور فرنسوا جوزيف ، فأقامت حفلة ازدانت بالغناء والموسيقى ، وفي المساء أقيم حفل عشاء كبير دعى اليه وجهاء المدينة ، وكان نائب القنصل هنزل ـ بملابسه الرسمية الملونة التى لم يكن لغيره من نواب القناصل مثلها ـ نجم الحفلين (١٧٦) ٠

وكانت العلاقات بين الأوربيين ـ وبخاصة الكبار منهم ـ والمواطنين طيبة ٠ ومما يشرح ذلك أن الدكتور ريتز نائب قنصل

النمسا استضاف مشايخ قبائل ما بين البحر الأحمر والنيل بدار القنصلية سنة ١٨٥٢ ، وعند وصولهم الى الدار رحب بهم على الطريقة السودانية ، وكان من برنامج الحفل استعراض للألعاب النارية (١٧٧) • ومما ساعد على تقوية أواصر العلاقة هذه أنه كان من بين الأوربيين من تعود على العادات المحلية بحكم طول الاقامة في البلاد (١٧٨) ، وان الوطنيين ألفوا رؤيتهم في كل مكان ، بل كانوا يرون نساءهم غير متورعات عن السير بينهم في الأسواق (١٧٩) •

ولم يكن اختلاف الدين بين الأوربيين والمواطنين يخلف شيئا في نفوسهم ، فقد كان الآباء الكاثوليك محل احترامهم ، وكانوا ينادون الأب منتورى (بابونا الخواجة) (١٨٠) والدكتور نوبلخر رئيس الكاثوليكية (بابونا سليمان) (١٨١) • ولم يحدث طوال الحكم المصرى ما أساء الى مشاعر المسيحيين ، اللهم الا حادثا رأى فيه الأوربيون اعتداء على عقيدتهم ، فقد حدث سنة ١٨٨٠ أن أسلم زنجى من تلاميذ مدرسة الارسالية الكاثوليكية واحتفلت الخرطوم بالمناسبة احتفالا كبيرا • وأهدى أعيان المدينة المسلمون الزنجى الهدايا ، ومر بشوارعها موكب يتوسطه الزنجى مرتديا الملابس العربية وراكبا حصانا مزينا يتقدمه الراقصون ومن ورائهم جمهور كبير من الأهالى على رأسهم رجال الدين من المسلمين • ومما زاد من استياء الأوربيين ترخيص مدير الخرطوم بخروج الموكب (١٨٢) •

ويتضح مما سبق دراسته أن مجتمع الخرطوم كان ـ فى الواقع ـ مزيجا من مجتمعات متباينة في العادات والتقاليد • وما أزياء أهل المدينة الا مظهر من مظاهر هذا التباين ، فقد كانت معرضا لأزياء أهل الأرض ، فهذا يلبس زيا افرنجيا مع الطربوش ، وذاك يلبس الزى التركى القديم ، ويرتدى رجال البعثة الكاثوليكية القفطان

الأبيض المزرر من الجانبين وفوقه سترة طويلة سماوية اللون بأكمام واسعة ، أما قساوسة القبط فيرتدون القفطان والجبة أو (الزعبوط) ·
ولباس الرأس أكثر تباينا ، فرجال البعثة الكاثوليكية يضعون فوق رؤوسهم طربوشا بزر أزرق حريرى يبدل عند الزيارات بعمامة بيضاء ، أما قساوسة القبط فغطاء رؤوسهم دائما العمامة ، ولباس رأس الجند الباشبوزق الطربوش المضلع ، ولباس الأهالى العمائم ـ وهى جد متباينة ، فمنها العمائم المصرية والسودانية والسورية والهندية والتركية والبخارية ، الى غير ذلك من أصناف اردية الرأس · كما كانت اللحى تختلف أيضا باختلاف الأجناس (١٨٣) ·

وقد مر الرحالة بايارد تيلر (١٨٤) ذات يوم بهذا الشريط من التباين فى الخرطوم · فقد تناول الطعام على الطريقة العربية عند مضيفته السلطانة نصرة ابنة آخر ملوك سنار ، والشراب والقهوة على الطريقة التركية عند الحكمدار ، والشاى المهيأ على الطريقة الانجليزية الصحيحة عند أحد الأوربيين ·

ومع أن مجتمع الخرطوم يضم هذا المزيج المتباين من السكان الا أنه كان يربط بين أخلاقهم جميعا التنكب عن طريق الفضيلة والانطلاق الخالى من الضوابط الاجتماعية · ويرجع هذا قبل كل شىء الى ازدهار تجارة الرقيق ، والشعور بالوحدة والوحشة عند معظم البيض ، وخلو الحياة من نواحى قضاء وقت الفراغ بشكل مجد ·

ومن مظاهر حياة الانطلاق ازدحام البيوت بالجوارى وانتشار البغاء بشكل ليس له مثيل فى مكان آخر على سطح الأرض · فتجارة البغاء تجارة رائجة ، وهى تقوم على شراء بعض ذوى المال من جميع الطبقات للجوارى وحملهن على احتراف البغاء أو الرقص على أن تؤدى الجارية الى سيدها مبلغا معلوما فى الشهر الى جانب قيامها بشئونها

المعيشية • ومعظم اقامة هؤلاء المومسات في سلامة الباشا وفريق الترس ، وتعرف بيوتهن (بالاندايات) أو (بيوت المريسة) (١٨٥) حيث تسير التجارة جنبا الى جنب مع الشرب والرقص • ولبعضهن رواكيب في سوق الشمس ، أو حجرات خاصة افردها لهن سادتهن في منازلهم ، كما يشـــاهد بعضهن وهن يتجولن طوال النهار في الأسواق والمقاهي • وهن من الحبشيات والزنجيات والقليل منهن من المصريات ، وأقل القليل من السودانيات ، وهن في العادة صغار ذوات جمال ملحوظ (١٨٦) •

واللواط في الخرطوم أكثر رواجا من البغـــاء على حد قول ليجان (١٨٧) • ففي السوق والميادين تشاهد الجماعة من المخنثين في ملابس النساء والكحل في عيونهم والخضاب في أكفهم يقودهم رئيس منهم عاري اللحية ، وهم يصوبون نظراتهم السافلة هنا وهناك بحثا عن صيد • ولم يكن المال ـ في كثير من الأحيان ـ الدافع الى اتخاذ تلك الصناعة ، ففي سنة ١٨٦٠ كان رئيس (اللوطيين) شابا قويا في العشرين من عمره ومن أسرة طيبة يمكن اعتبارها من أحسن العائلات البورجوازية في المدينة ، وهي من (التبيداب) ملوك صناعة الذهب والفضة •

ومن ملامح مجتمع الخرطوم أن ليلة من لياليه لا يمكن أن تمر دون أن تحييها جماعة من (العوالم) • وقد زاد عدد هذه الجماعات منذ عهد عباس باشا الذي طرد من القـــاهرة الى الخرطوم الكثير منهن (١٨٨) • وقد افاض الرحالة والمكتشـــفون (١٨٩) من زوار الخرطوم في وصف الحفلات التي تحييها هذه الجماعات من حيث أنواع الرقص والغناء وجنســـية أفرادها وما ترتدينه من ملابس وطريقة تصفيفهن لشعرهن الى غير ذلك • وتدعى هذه الجماعات لاحيـــاء حفـلات الزواج والولادة والطهور والترحيب بضيف عزيز

وكذلك فى المناسبات القومية • ويشترك جميع سكان الخرطوم من أفقر فقير حتى الحكمدار فى الاستمتاع بهذه الحفلات • وتعمل هذه الجماعات تحت رياسة متعهد مختص بشـــئونها المالية (وعالمة) مختصـــة بالناحية الفنية • وكانت (الغوازى) الزنجيات يرقصن مرتديات (الرحط) ، أما المصريات فرداؤهن السترات الحريرية (والبنطلونات) الوردية الواسعة • وكن جميعا يرقصن على أنغام آلات موسيقية تعرفها هذه الأيام،ويقدمن من الرقص أنواعا عديدة منها المصرى والتركى والاسبانى،ولكل نوع منه (بدلته) الخاصة • أما الغنيـــات فكن يغنين الأغانى المصرية والســـودانية وأحيانا الحبشية • وفى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى كانت هذه الجماعات تقدم ـ علاوة على ذلك ـ بعض الفصـــول من التمثيل والأدوار المضحكة فى بيوت كبار رجال المدينة •

وتقام الحفلات فى الأفنية داخل المنازل او فى الســـاحات أمامها • وكان مكان الحفل فى الأوساط الراقية يحاط (بالمنقريبات) التى يضطجع عليهـا المدعوون فى جوانب ثلاثة منه ، أما الجانب الرابع فهو مسرح الغناء والرقص •

ومع هذا الدوى الذى كان يملأ المدينة بمجتمعها الكبير كانت خاليةمن المطاعم والفنادق • فاذا كان النزيل غير ذى مال فعليه أن يتجه الى بيت الأضياف فى جنوب المدينة المعروف (بسبيل عبده افندى) بفنـائه الكبير الحـاوى لبئر وبعض الحجرات (١٩٠) • أما الرحالة الأجـانب فعليهم أن يقيموا عنـد أحد مواطنيهم ، أو يستأجروا منزلا مهما صغرت فترة اقامتهم بالمدينة • أما الموظف الحكومى فالادارة مسئولة عن اسكانه • وكان مدير الخرطوم يهتم باسكان نزلاء المدينة ، فيشهد على عقود الايجار أو يحل شيخ الربع محله فى هذا الأمر (١٩١) • وقد دعت أزمة المساكن فى الخرطوم

التاجر الفرنسى البير ماركيت الى اقامة عمارة كبيرة فى شارع البحر غرب المبانى الحكومية وقسمها الى مساكن عرضها للايجار (١٩٢) ٠

وبسوق المدينة عـــدة مقـاه روادها من التجار والجـلابة والموظفين ، على أن معظم روادها كانوا من الترك والمصريين ــ وبخاصة الكبار منهم ٠ والمقهى محل تقصى الأخبار الجارية فى البلاد وفى مصر ، ومكان عقد الاتفاقات بين رؤساء القوافل والرحالة الأجانب ٠ وتقدم فيه كثير من المشروبات والمأكولات ، وبعض الألعاب مما لم تكن تعرفه البلاد قبل الفتح كالبليارد والشطرنج والنرد ٠ واشهر مقهى فى الســـنوات العشر الأخيرة من الحكم المصرى هو مقهى اليونانى جورجى تنسيارى بشارع البحر ، وبه بار ، وهو المحل المختار الذى يجتمع فيه الأوربيون خارج منازلهم ٠

والنيل الأزرق فى الخرطوم يقدم لأهلها أكثر من متعة ٠ فهو لحلاوة مائه مصدر لمياه الشرب عند القادرين منهم بالرغم من توافر الآبار فى المنازل وغناها طوال السنة ، وينقل الماء منه الى المنازل فى جلود الحيوان ، وقد حاول غردون رفع مائه فى الأنابيب الى المدينة (١٩٣) دون نجاح ٠ ويتوقف نقل الماء منه الى المدينة تماما أيام الأربعاء لاعتقاد الأهالى فى نكدها ــ وبخاصة الأربعاء الأخير من كل شهر ، أما الأربعاء الأخير من السنة فهو أسوؤها جميعا٠ ولذلك فان الأهالى يزدحمون على الشاطىء فى أيام الثلاثاء للتمون بالماء الذى يكفيهم لهذا اليوم واليوم الذى يليه (١٩٤) ٠ ومن المتع التى يوفرها النيل للأهالى انزلاق زوارق النزهة لبعض القــادرين على ميــاهه ، واستحمام الجميع فيه وطنيين وأجانب ذكورا واناثا بالرغم من خطر التماسيح الكبير ٠

واهم أماكن الزيارة فى المدينة السوق ، وهو أول ما يزوره نزلاء المدينة من الأجانب ، كما أنه وسيلة طيبة لقضاء المواطنين نزهة

موفقة . أما زعماء الجنوب زوار العاصمة فزياراتهم لمخازن السلاح والمطبعة وادارة البرق والترسانة حيث كل جديد (١٩٥) .

وكانت فرقة موسيقى الجيش تتقدم حامية الخرطوم أيام السبت والأحد والاثنين من كل أسبوع فى استعراض يخترق شوارع المدينة الرئيسية (١٩٦) . كما تجرى فى أغلب أيام الأسبوع لعبة (الجريد) التى يقوم بها الجند الباشبوزق من الترك والمغاربة والشايقية ، وهى تمثل مبارزات الحروب والترامى بالسهام ، وكان يحضر لمشاهدتها الكبار من أهل المدينة وأحيانا الحكمدار وقناصل الدول . وقد عرفت الخرطوم فى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى حلقات (الحاوى) بألعابه المدهشة (١٩٧) .

ومن الصعب تحديد عدد سكان الخرطوم لأنه لم يحدث أن تم تعداد لهم طوال الحكم المصرى . هذا علاوة على تعرض المدينة دائما لغارات الأمراض والأوبئة ، وللتذبذب الحتمى فى عدد السكان عندما كانت تلغى الحكمدارية فتصبح الخرطوم عاصمة لمديرية كسائر المديريات ثم ترجع الحكمدارية ثانية لتعود عاصمة للبلاد كلها . ولهذا كانت الأعداد التى وضعها الرحالة وغيرهم من زوار المدينة لسكانها أعدادا تقديرية بحتة . وآية ذلك التباين الكبير بين التقديرات ومن أمثلتها أن الرحالة بترك قدر العدد سنة ١٨٤٩ بستين ألفا (١٩٨) فى الوقت الذى قدره الرحالة مللى حوالى تلك السنة (١٨٥٠) بثلاثين الفا بينهم أثنا عشر الفا من الجنود !! (١٩٩) .

وبتحليل هذه التقديرات نجد أن سكان المدينة من المدنيين كانوا ستمائة فقط سنة ١٨٢٧ (٢٠٠) . ثم ارتفع هذا العدد فى آخر عهد خورشيد الى خمسة عشر الفا (٢٠١) . واستمر العدد ثابتا حتى انخفض الى ثلاثة عشر ألفا سنة ١٨٤٣ (٢٠٢) ، وهى السنة الأولى من فترة تمتد الى آخر سنة ١٨٤٥ أصبحت فيها

الخرطوم عاصمة لمديرية بعد أن كانت عاصمة لكل البلاد (٢٠٣) ·
وبعد رجوع الحكمدارية الى الخرطوم بدأ عدد السكان فى الزيادة تدريجا · ولم يفت فى هذا العدد رجوعها كعاصمة لمديرية للمرة الثانية بين يناير ١٨٥٧ ، مايو ١٨٦٢ ، لاتجاه أعداد كبيرة من المغامرين والبحارة والتجار اليها فى هذه الفترة للاشتراك فى تجارة الجنوب ، الأمر الذى وصل معه عدد سكانها الى حوالى أربعين الفا سنة ١٨٦٠ (٢٠٤) · ثم زاد فى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى حتى وصل الى سبعين ألفا سنة ١٨٨٢ (٢٠٥) ·

والتعداد الوحيد الذى تم لسكان المدينة كان فى سبتمبر سنة ١٨٨٤ ، وكان اربعة وثلاثين الفا (٢٠٦) ، ولكن يجب أن نعلم أن عددا كبيرا منهم كان قد غادر المدينة مذ قامت الثورة المهدية ·

والصعوبة الأولى التى تواجه التقدير الصحيح لعدد السكان هى تعرض هذا العدد للتغير سنة بعد أخرى بسبب هجمات الأمراض والأوبئة التى كانت مظهرا حتميا من مظاهر الحيـــاة فى مجتمع الخرطوم · وقد قيل فى ذلك ان أمراض الصيف تقضى بشكل منتظم على نصف سكان المدينة من البيض كل عام (٢٠٧) ·

ويرجع سبب هذه الأمراض فى الدرجة الأولى الى انخفاض سطح المدينة وركود المياه فيها ، وانسياب المياه من النيل الأبيض أثناء الفيضان الى جنوبها · وكانت بعض جهات المدينة التى تغطيها المياه متسعة لدرجة تبدو معها كبركة راكدة مياهها · ويقرر المواطنون أن بعض تلك البرك لم تكن تجف مياهها على مدار السنة وأن الأسماك كانت تعيش فيها · ومما يزيد من خطر هذه المياه انه لم يكن هناك أسلوب مجد لتصريفها (٢٠٨) وأنها كانت تملأ جو المدينة بأبخرتها العفنة لاختلاطهـــا بالنباتات والنفايات ولحرارة الشمس القوية · وأكثر الخطر كان مصدره توالد البعوض بكثرة هائلة فى هذه المياه ،

ولم يكن قد عرف دوره في ذلـــك الوقت في الاصـــابة بالحمى المتقطعة (٢٠٩) ـ أكثر الأمراض انتشارا بين السكان وأسرعها في تسليمهم الى الموت ٠

ومن عوامل تعرض السكان للأمراض طلاء المنازل (بالزبلة) قبل موسم المطر ، واهمال نظافة المدينة ، وخلوها من وســـائل تصريف المخلفات البشرية ، والعجز عن القضاء على الذباب والنمل فيهـــا (٢١٠) ٠

وقد أدى عدم وجود نظام للحجر الصحي الى انتقال كثير من الامراض الى المدينة من خارج البلاد ٠ فاهالي المدينة يعتقدون أن مرض الجدري قد انتقل الى البلاد من الغرب (٢١١) ٠ وقد انتقل وباء الكوليرا الذي تفشى بين سكان المدينة سنة ١٨٥٨ مع المتاجر الواردة من الهند عن طريق ثغر سواكن (٢١٢) ٠ كما انتقل اليها وباء التيفوس سنة ١٨٦٤ على قوارب الرقيق الآتية من الجنوب ، ولم يبق من حاميتها البالغ عددها أربعة آلاف جندي الا أربعمائة فقط (٢١٣) ٠ ولهذا كله كانت الخرطوم موبئة للأمراض ، وكانت في رأى احد الكتاب « قرحة عفنة أكثر منها مدينة » (٢١٤) ٠

وقد ازدحمت كتابات الرحالة والكتاب بالحديث عن الأمراض التي كانت تصيب أهل البلاد وأسبابها ووسائل علاجها وعن عظم ضحاياها (٢١٥) ٠ وأخطر الأمراض وأكثرها انتشارا هي الحميات والدوسنطاريا والجدري ٠ ومن وسائل الأهالي في معالجة الحميات تناول المريض لرطل من الزبد على معدة خالية ، والاكثار من أكل البصل ، وشرب منقوع التمر الهندي ، وصب الماء البارد على الجسم ٠ ومن وسائلهم في علاج الكثير من الأمراض ـ وبخاصــة الآلام الداخلية ـ الكي بالحديد المحمي ٠ وروادهم في العلاج الفقهاء والعارفون بفوائد الأعشـــاب الطبية من الأهالي ٠ وفي وســـط هذا

الخضم من الأمراض لم يكن بالمدينة الا مستشفى واحد لعلاج العسكريين فقط ٠

وقد عملت الادارة جهدها للقضاء على المتاعب الصحية فى المدينة ٠ ومن ذلك عمل الحكمدار جعفر مظهر على توفير الأطباء بها بعد أن صرف النظر عن نقلها الى جزيرة توتى (٢١٦) ، وعناية اسماعيل أيوب بنظافتها فكانت الشوارع الرئيسية فى عهده تكنس وترش صبحا وعصرا (٢١٧) ، وعمله أيضا على فتح المجارى لتصريف المياه الراكدة الى النيل الأزرق ٠

ولم يكن السودان ـ قبل الحكم المصرى ـ يعرف من التعليم الا التعليم الدينى أو الأهلى ٠ واذا كانت أسماء معاهد هذا التعليم مختلفة ، فمنها المسجد والجامع والمدرسة والخلوة والمكتب فان الخلوة كانت أكثر هذه الأسماء شيوعا ٠ وهى منتشرة فى معظم القرى الكبيرة فى شمال البلاد ٠

والغالب أن المسجد أو الخلوة (٢١٨) كان عبارة عن سور من القصب وفروع الشجر أو الطين يضم مربعا أو مستطيلا به حجرات جانبية من القصب والأغصان أيضا وراكوبات هى خلوات للحيران (أى التلاميذ) والفقهاء ٠ وكان الشيخ يجلس للدرس على العنقريب أو الأرض فوق الفروة أو البرش ، ويجلس التلاميذ حوله فى حلقة على الأرض مفروشة أو غير مفروشة ٠

ومن المساجد والخلوات ما يدرس فيها القرآن فقط أو العلم فقط ، واغلبها كان لتدريسهما معا ٠ ولم تعرف فيها مراحل التعليم بمعناها الفنى ، وكان التعليم يبدأ عادة بحفظ القرآن وقراءة بعض أحكامه ، ثم يرتحل من حفظ القرآن الى مسجد أو خلوة العلم أو يبقى فى نفس المسجد ـ اذا كان العلم يدرس به ـ حيث يتلقى علوم

الدين ، على أن كثيرا ممن شرعوا فى حفظ القرآن قد يتركون الخلوة قبل اتمامه ٠

والخلوة الى جانب أنها مكان للتدريس كانت مكانا للتعبد والذكر والصلاة وتسليك المريدين طريق الصوفية ـ وهى الوظيفة الأولى التى اقترنت بها منذ ظهورها فى البلاد ، كما كانت مكانا للضيافة ومحطا لرحال المارة والعابرين والطالبين للطعام والشراب والمنـــام ٠

وكان التعليم فى الخلوة مجانا ، وينفق على الحيران من دخل الشيخ وماله والهبات والنذور التى تقدم له ٠ وكثير من المشايخ كانوا أغنياء يملكون البهـــائم والأراضى الزراعية ٠ وكان الحيران يخدمون شيوخهم فى الخلوة وخارجها بفلاحة الأرض وجمع الحطب ورعى الماشية وأحيانا اعداد الطعام ، على أنه لما كان نظام الرقيق سائدا فان ذلك جعل من السهل اعداد الطعام للحيران ٠ واذا كانت الخلوة قد ازدحمت بالحيران ولم يعد بها مكان للطلبة الغرباء فان سكان الحلة يقتسمونهم فيما بينهم ويبقونهم فى منازلهم ساكنين طاعمين ٠ وكانت الحكومة تجرى الأرزاق على المشايخ ، وتعفى من الضرائب أراضيهم الزراعية ٠

وكان الحيران يقدمون لمشايخهم شيئا ماديا من حين لآخر على سبيل المساعدة والاعتراف بالفضل ، ومن ذلك ما هو معروف باسم (الشرافة) وهى جعل من المال ـ عينا أو نوعا ـ يقدم الى الشيخ بمناسبة وصول المتعلم الى سورة خاصة من سور القرآن ، وما هو معروف (بحق الأربعاء) وهو شىء من المال أو الحبوب أو الطعام يقدم فى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وفى حالة الحبوب تعمل منها (بليلة) للحيران ، وتسمى هذه الأكلة (كرامة الأربعاء) ، وقد يأخذ الشيخ كل ما يقدم له الى منزله ٠ كما كانت تقدم الهدايا الى الشيخ فى المناسبات كأيام الأعياد وعندما يفرغ التلميذ من التعليم ٠

وكان الفقهاء أصحاب الخلوات فى الخرطوم صنفين ، الصنف الأول وهم الفقهاء الذين يديرون الخلوات بأنفسهم ، والآخر وهم الفقهاء الأكثر ثروة ، فكانوا يملكون الخلاوى ولكنهم كانوا يعينون فيها فقهاء للاشراف على تعليم الأطفال نظير أجر قدره ثلاثون قرشا شهريا ، بينما هم يمضون أوقاتهم في العبادة والزيارات (٢١٩) ٠

والعادة أن تعمل الخلوة من شروق الشمس حتى غروبها ، ولكن كانت بالخرطوم خلوة تعمل أربع فترات فى اليوم : الفترة الأولى من الساعة الرابعة صباحا حتى شروق الشمس ، والثانية من الثامنة صباحا حتى التاسعة والنصف ، والثالثة من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة ، والرابعة من الغروب حتى الساعة الثامنة مساء (٢٢٠) ٠ والغالب على الظن أن تلاميذ هذه الخلوة كانوا من غير المتفرغين للتعليم والمشغولين بأعمال أخرى ٠

ومن أهم الخــلاوى بالخرطوم خلوة (صباحى) وهو أحد الفتيحاب من ســكان المدينة ، وخلوة الفكي على ود ادريس وهو محسى من جــزيرة توتى ، والخــلوة الملحقة بمســجد أرباب العقــائد (٢٢١) ٠

وقد استمر التعليم الدينى الأهلى هو التعليم الوحيد في البلاد على عهد محمد على ، ولو أنه سافرت من السودان الى مصر في ذلك العهد أول بعثة لتعلم الزراعة ٠ وقد شاهد رفاعة الطهطاوى (٢٢٢) بعض أفراد هذه البعثة ـ بعد رجوعها الى البلاد ـ يعملون كتبة بمديرية الخرطوم ٠ وقد أسهم جامع الخرطوم فى عهد اسماعيل فى التعليم الدينى ، فكان به مدرسون من شيوخ الأزهر والسودانيين يعطون دروســا بحسب حاجة التــلاميذ ويتناولون مرتباتهم من الحكومة ، كما كان قاضى القضاة وبعض القضاة يعطون دروسا عامة للجمهور فيه ٠ وعلاوة على ذلك كان بالخرطوم شيخ للفقهاء يعطى راتبا ويعلم الناس التجويد وتقوم خلوته أمام بيته (٢٢٣) ٠

أما مدرسة البعثة الكاثوليكية في الخرطوم فيرجع تاريخها الى سنة ١٨٤٣ عندما وصل الى المدينة في الحبشة المبعوث لويجى منتورى وافتتح فيها مدرسة داخلية للأطفال الزنوج المشترين من سوق الرقيق ، وقد انضم الى هذه المدرسة بعض البيض والمولدين ، ولكن أمرها انتهى بمجرد رجوع الأب منتورى الى الحبشة سنة ١٨٤٥ · وعند وصول البعثة الكاثوليكية الى الخرطوم سنة ١٨٤٨ كان من برنامجها اقامة مدرسة داخلية تؤازرهم في نشر المسيحية · وفي سنة ١٨٥٠ كان بالمدرسة عشرون تلميذا بينهم أربعة عشر طفلا من الزنوج كانت تراعى عاداتهم الى حد كبير في تربيتهم (٢٢٤) · وزاد العدد الى اربعين سنة ١٨٥٣ · ومواد الدراسة بالمدرسة هى القراءة والكتابة والحساب والموسيقى والأشغال اليدوية واللغات العربية والفرنسية والايطالية (٢٢٥) ·

وفي سنة ١٨٥٥ افتتح بالمدرسة قسم خارجي لأبناء الأهالى · وفي هذه السنة كتب هنزل نائب قنصل النمسا بعد أن شاهد الامتحان الذى عقد للتلاميذ « ان الأطفال الزنوج يجيبون باللغة العربية عن أشياء كثيرة كانت مجهولة لديهم تماما ، كما يكتبون باللغتين العربية والايطالية ، وهم قادرون على حل بعض تمارين الحساب على السبورة (٢٢٦) » · أما رئيس البعثة فقد أوصى بارسال أفضل التلاميذ الى أوربا ليتلقى تعليما أعلى ·

وقد سجلت المدرسة بعد سنة ١٨٥٥ تقدما وازدهارا ، فأضيفت مواد جديدة للدراسة بها ـ منها الرياضة البدنية والرسم والغناء ، كما ألحق بها سنة ١٨٥٩ قسم تجارى كان يمد المصالح الحكومية في الخرطوم بخريجيه · وبعد هذه السنة اهتمت المدرسة بالتعليم المهنى ، فافتتحت بها أقسام للنجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية يشرف عليها خبراء ايطاليون ، وكان المهندس سبادا مدير

الترسانة يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يظهرون كفاءة ومهارة ، وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في الترسانة بعد انتهائهم من دراستهم • كما تمتاز سنوات ما بعد ١٨٥٩ بتوسع المدرسة في قبول التلاميذ ـ بنين وبنات ـ في القسم الخارجي • فاذا كانت سنة ١٨٧٨ حتى أصبح عدد البنين ثلاثمائة وعدد البنات مائتين (٢٢٧) •

كما كانت بالخرطوم مدارس للبنات أهلية مقامة في البيوت وتديرها نساء متعلمات مصريات ومولدات ترسل اليها البنات وهن صغيرات • وكن يتعلمن فيها التطريز والطبخ وأنواع المعـــارف المنزلية • وكانت هذه المدارس منتظمة وبالأجر ، كما كانت تقدم للمعلمة هدية عند زواج التلميذة • وكان بالخرطوم أيضا بعض نساء قارئات للقرآن يعلمن بنات علية القوم القرآن والدين والخط في بيوتهن (٢٢٨) •

ويرجع تاريخ المدرســـة الحكومية في الخرطوم ، والمعروفة بمدرسة الخرطوم الابتدائية ، الى عهد عباس باشا عندما رأى المجلس الخصوصي « أن تؤسس مدرسة بالاقاليم السودانية انقاذا لأولاد أهلها والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، حتى يمتازوا باكتساب العلوم والمعارف ، على أن يقبل ويعين بها مائتان وخمسون غلاما • واستحسن المجلس أن يولى رفاعة بك ناظرا عليها ، وأن يصطفى مدرسوها من هنا باختيار البك المشار اليه » (٢٢٩) •

وقد أصدر المجلس الخصوصي قرار انشاء المدرسة في ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ هـ (٢٣٠) محددا فيه أسماء صحب رفاعة وكانوا أحد عشر معلمــا وطبيبــا ، ومقررا استصدار الأوامر اللازمة لحكمدار السودان لعمل اللازم نحو قيام المدرسة وتوفير التلاميذ والموظفين والخدم لها •

ولكن كيف تتفق نزعة عباس في محاربة العلم والمتعلمين في مصر ـ كما وضح في غلقه المدارس ـ مع قراره بانشاء مدرسة في الخرطـــوم ؟

قد يقال ان هذا العمل يتفق مع اتجاه عباس في التعليم ـ هذا الاتجاه المرسوم باقامة مدرسة واحدة في القاهرة (المفروزة) واقامة أخرى مثيلة لها في الخرطوم (٢٣١) . ولكن اذا كان ذلك كذلك فكيف تقبل أن تكون هيئة المدرسة جماعة من أركان النهضة العلميـــة في مصر (٢٣٢) ـ وعلى رأسهم رفاعة بك زعيم هذه النهضة ، وخاصة اذا علمنا أن تلاميذ المدرسة لن يتيسر لهم الاستفادة من هؤلاء العلماء وهم لا يعرفون حتى مجرد القراءة والكتابة ؟ .

يشير رفاعة بك بنفسه الى جواب هذا السؤال فيقول انه أبعد « بسعي بعض الأمراء بضمير مستتر » (٢٣٣) .

فمن يا ترى هؤلاء الوشاة الذين دفعوا عباسا الى ابعاد رفاعه الى الخرطوم فقد يكونوا من الحاقدين على رفاعة اذ رأوا في بعض كتاباته وآرائه ما لا يتفق مع طبيعـــة الحـــكم الاستبدادى في مصر (٢٣٤) ، أو بعض مشايخ الأزهر ممن رأوا فيه متطفلا على ميدانهم في دراســة الشريعة والفقه (٢٣٥) ، او من الذين كانوا يأخذون عليه عدم ميله الى ولاية ابن عباس من بعده (٢٣٦) . وقد يرجع ابعاده الى هذا الانشقاق المعروف في البيت الحاكم في ذلك الوقت ، فاذا كان محمد علي يرضى عن رفاعة فان عباسا يغضب عليه ، واذا كان عباس يرضى عن علي مبارك فان سعيدا ينقلب عليه وهكذا (٢٣٧) .

وهذا القول الأخير يتفق مع ما قاله رفاعة بك بنفسه للرحالة الأمريكى بايارد تيلر (٢٣٨) عند مقابلته له في الخرطوم في يناير سنة ١٨٥٢ ـ من أن عباسا أبعد عن نفسه كل الرجال المصلحين

الذين قربهم محمد على ومنهم رفاعة ، وأن الهدف من ارساله الى الخرطوم هو نفيه ، وأنه قد قضى فى المدينة سنة ونصف سنة دون أن يتلقى من القاهرة أية تعليمات بخصوص افتتاح المدرسة ، مما أدى الى عدم الاستقرار بين هيئة التدريس التى أودى الجو بحياة اثنين من أفرادها ـ وهو الأمر الذى يريده عباس لبقية الهيئة ·

وقد أثر شعور رفاعة بالنفى فى نفسيته وصبغها بلون معين لعب دوره بلا شك فى تأخير فتح المدرسة الذى طال ثلاث سنوات كاملة ، فقد غادر رفاعة وصحبه مصر فى شهر يونيو سنة ١٨٥٠ ولم تفتح المدرسة الا فى يوليو سنة ١٨٥٣ · وقد أمضى رفاعة هذه السنوات فى اجترار آلام الغربة ، والافاضة بمشاعره السوداء الى كل من يقابله من كبار رجال الخرطوم ، والسعى فى الرجوع الى مصر · ومن بين من وضع رجاءه فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم اذ خمس قصيدة يتوسل اليه فيها أن يرده الى وطنه (٢٣٩) ، وكتخدا مصر اذ أنشـــا قصـــيدة برسمه « رجاء نشـــله من أوحال تلك الأحوال » (٢٤٠) ، والقنصل البريطانى فى مصر اذ حمل الرحالة بايارد تيلر (٢٤١) اليه خطابا لمساعدته فى الرجوع ·

واذا وضعنا مشاعر رفاعة موضع النقد فيجب أن نلمس له العذر ، فان السودان كان له فى عيون بعض كبار رجالات مصر فى السودان صورة المنفى أكثر من أية صورة أخرى · وعلاوة على ذلك ، فان مرتب رفاعة كان محجوزا طوال مدة اقامته فى الخرطوم وظل كذلك حتى رجوعه الى مصر (٢٤٢) ، وأن جو البلاد قد أثر فى صحته لدرجة كبيرة (٢٤٣) ·

واذا أمكننا أن نكسب لصـــالح رفاعة أن بعض حكمدارى السودان قد لعبوا دورا فى تأخير افتتاح المدرسة (٢٤٤) الا أننا مع ذلك لا يمكن أن نعفى رفاعة من مغبة هذا التأخير ، حيث أن قرار

انشاء المدرسة كان حاويا لكل التنظيمات الخاصة بها ، علاوة على ان رفاعة غادر مصر ومعه المهمات اللازمة لذلك (٢٤٥) . فلما وصل الى الخرطوم ترك شان المدرسة وقبل القيام فترة من الزمن « بامر تحقيق السواقى الخربة » (٢٤٦) .

ومهما يكن الأمر فقد افتتحت المدرسة أخيرا نتيجة لاصرار المعية السنية وديوان المدارس وهمة الحكمدار سليم باشا صائب (ابريل ١٨٥٣ - مارس ١٨٥٤) . وقد لقيت صعوبات في البحث عن التلاميذ (٢٤٧) ، لأن السودانيين لم يكونوا يميلون فى ذلك الوقت الى التعليم العصرى ، ولذلك كان تلاميذها من أولاد الموظفين المصريين .

وقد سارت المدرسة على نسق (المبتديان) في مصر من حيث النظام ومواد الدراسة ونظم التدريس ، وكان غرضها اعداد التلاميذ للمرحلة التجهيزية (٢٤٨) ولكن لم يتسن لها القيام بذلك لأنها لم تستمر الا عاما دراسيا واحدا ، اذ ما ان مات عباس باشا حتى أمر سعيد باشا بغلقها ، فرجع رفاعة ومن بقى من صحبه الى مصر .

وقد زار الرحالة الانجليزى هاملتن (٢٤٩) المدرسة ، فدهش لما استوعبه التلاميذ من معارف في عام دراسى واحد . وفى الحقيقة لقد كان حصاد المدرسة أكثر بكثير من أن يقاس بتلك المدة البسيطة ، وفى ذلك يقول رفاعة (٢٥٠) :

« وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القرآن حتى صاروا ماهرين فى ذلك ، وفى آخر الأمر انتظمت المدرسة نحو تسعة أشهر وتعلم فيها التلاميذ من ابناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط . وظهرت نتيجة ذلك فى الامتحان العام . والآن حين

جددت الحكومة الاسمعيلية عدة مدارس بالأقاليم السودانية توظف فيها البعض من هؤلاء » ٠

واستمر عهد سعيد دون أن يشهد السودان مدرسة حكومية ٠ فلما جاء اسماعيل كتب الى الحكمدار موسى حمدى (مايو ١٨٦٢ ـ مايو ١٨٦٥) بخصوص « تنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم ، ليعلموا فيه قدر خمسماية نفر تلامذة ليؤخذ منهم من يلزم فى وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم » ٠ ولكن موسى حمدى رأى توزيع هذا العدد على المديريات الخمس ، وبذلك تقرر افتتاح خمس مدارس فى مديريات الخرطوم ودنقلة وبربر وكردفان والتاكة بدلا من مدرسة واحدة فى الخرطوم (٢٥١) ٠ وأنشأ الحكمدار المكاتب الخمسة فى محرم ١٢٨٠ (يونيو ١٨٦٣) ، ورتب لمكتب الخرطوم مائتى تلميذ ٠ والغالب أن تلك المدارس كانت تشبه فى نظمها المدارس الابتدائية فى مصر ، وكان يسمح للمتفوقين من تلاميذها بالالتحاق بالمدرسة التجهيزية والمدارس الأخرى فى مصر (٢٥٢) ٠

وكانت مدرسة الخرطوم قسمين (٢٥٣) : الأول برانى بالمصروفات ، وقدرها ريال مجيدى فى الشهر (١٦ قرشا) ٠ والثانى داخلى بالمجان ، ونظامه عسكرى ٠ وكان القسمان يتعلمان فى فصول واحدة مشتركة ويتلقون نفس المواد الا اللغة الفرنسية التى كانت اختيارية للقسم البرانى ٠ ومواد الدراسة هى اللغتان العربية والتركية والحساب والعلوم الهندسية والرياضية ، وكان يعنى بالخط عناية شديدة ـ ومن يرسب فيه لا ينجح ٠ وكان تلاميذ القسم الداخلى يعينون كتبة فى السلكين العسكرى والادارى ٠ أما تلاميذ القسم البرانى فهم مخيرون ، ومن يطلب منهم وظيفة يعين كاتبا أو صرافا ٠ وأغلب تلاميذ المدرسة من المصريين ، والجزء الباقى من أولاد الجند السودانيين ٠ وفى آخر العهد بالمدرسة كان عدد تلاميذ

القسم البرانى أكثر من ثلاثمائة تلميذ ، وتلاميذ القسم الداخلى نحو مائتين • وكان يحتفل بامتحان التلاميذ كل عام (٢٥٤) • هذا ويتبع المدرسة خلوة من فصلين لتعليم القرآن ، وهى داخلية •

وظلت المدرسة محل عناية كبيرة من المسئولين ، وشهد بذلك غردون سنة ١٨٧٤ (٢٥٥) • ولا صحة لما قيل من أن غردون أثناء حكمداريته الأولى (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) أصدر أمرا بغلق المدارس الأميرية فى البلاد بدعوى أنها تكلف الحكومة نفقات طائلة (٢٥٦) ، فان مدرسة الخرطوم استمرت حتى سقوط المدينة ، وتحدث عنها غردون نفسه فى يومياته فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢٥٧) ، بل وعلاوة على ذلك افتتح غردون مدرسة حربية فى الخرطوم أثناء حكمداريته الأولى (٢٥٨) •

ولم تمض على المدارس التى افتتحت فى عهد الخديو اسماعيل سبع سنوات حتى كان خريجوها يعملون كتبة فى دواوين الحكومة ، كما أن بعضهم كان مستمرا فى تعلم فنى الهندسة والبرق (٢٥٩) • وقد حاول الحكمدار جعفر مظهر تعليم بعض الخريجين الطب والصيدلة دون نجاح • وقد تحققت آمال جعفر مظهر فيما بعد ـ حينما افتتحت مدرسة للطب فى الخرطوم فى عهد توفيق (٢٦٠) •

ولا شك أن مدرسة الخرطوم كان لها الفضل فى اشاعة ثقافة جديدة بين تلاميذها والقضاء على افتقار دواوين الحكومة للكتبة • ويكفى أن يكون أحد تلاميذها سكرتير غردون الذى قال فيه « انه تعلم فى مدرسة الخرطوم ، وانه وصل الى درجة من التعليم تقف على قدر المساواة مع التعليم فى أرقى المعاهد فى أوربا ، فقلما يوجد موضوع لا يمكنه الحديث فيه بطلاقة ، كما أن فى امكانه الكتابة بعدة رموز دون أن ينظر الى مفاتيحها » (٢٦١) •

الهــــــوامش

(١) Tremaux, p. : Voyage en Ethiopie, au Soudan Oriental et dans la Nigritie, I, p. 319.

(٢) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 273 f.
Tremaux, p. : Le Soudan, pp. 30 f.
Jacolliot, L. : op. cit., pp. 288-90.
Didier, Charles : « Khartoum », NAV., ... p. 68.
Gleichen, Cap. Count : Handbook ..., pp. 90 f.
Mac Michael, H.A. : A history of the Arabs ..., I, p. 63.
Report in the Egyptian Provinces of the Sudan, p. 48.

(٣) Wingate, Map. F.R. : The Sudan, past anr present, p. 2.
Low, S. : op. cit., p. 88.
Artin, Y. Pasha : op. cit., p. 113.
Zaluski, M. Le coute charles : Comminucation, sur Le Mahdiste et le Soudon Egyptien, pp. 7 f.

(٤) Poncet, J. : Le Fleuve Blanc, pp. 9 f.
Fr. Beltrame's letter (in 1853).

(٥) Lejean, G. : op. cit., p. 28.

(٦) Schweinfurth, Dr. G. ithers : Emin Pasha in Central Africa, pp. 408-13.

(٧) يحكى جسى حاكم بحر الغزال انه عندما امسكت السدود النباتية بسفينته سنة ١٨٨٠ وشح بها الغذاء ، وتجمعت المخاطر حول جميع ركابها ـ كان ربان السفينة ـ وهو دنقلاوى ـ جد مستمتع بتلك الظروف الحرجة التى استغلها فى بيع بضاعته من الطعام الى رجال السفينة بالفحش الاثمان :

Gessi, R. Pasha : op. cit., pp. 393 f. & p. 398.

(٨) Pallme, I : op. cit., pp. 116 f. & pp. 301 f.

(٩) Lejean, G. : op. cit., p. 27.
Poncet, J. : op. cit., p. 10.

(١٠) Ibid. : pp. 8 f.

(١١) Trimingham J. S. : op. cit., p. 102.
Bermann, R.A. : op. cit., p. 32.
Willis, C.A. : « Religious confraternities of the Sudan ». SNR., Vol. IV, part 4, 1921, pp. 180-88.

(١٢) Fr. Beltrame's letter (in 1858).
Poncet, J. : op. cit., p. 8.
Lejean, G. : op. cit., p. 28.

(١٣) Cailliaud, F. : op. cit., pp. 60 f.
Burckhart, J. L. : op. cit., p. 92.

(١٤) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 207 f.
Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 207 f.,
MacMichael, H.A. : A history of the Arabs ..., I, p. 317.

(١٥) Artin, Y. Pasha : op. cit., p. 50.

(١٦) Warne, F. : African Wanderings, pp. 138 f.

(١٧) Fr. G. Beltrame : From Sennar to Beni Shangul, 1854-55.

(١٨) Jejean, G. : op. cit., p. 28.

(١٩) السكين هنا قصير ، ويرى معلقاً في اعلى ذراع سائر العرب في وسط السودان .
Colborne, Col. thl Hon. J. : op. cit., p. 93.

(٢٠) انتشرت هذه العادة في البلاد في الوقت الحاضر .

(٢١) Tremaux, P. : Le Soudan, p. 35.

(٢٢) حكى لي السيد صديق عمر ود جوله من شمبات (في ابريل ١٩٥٨) ان اخوى جده الكبيرين صديق وبشارة كانا في طريقهما من جزيرة قسرا الى (العرض) ليساعدا في عمل ما . فامتنعا عن السير معه ، مما اثار اعجاب اهالي جزيرة توتي . وقد مدحهما الشاعر الصديق ودبر ، فقال في مدح صديق :

الصديق عريس الكرلـــه	اخلك حســالة حليت قـــوله
وقلين الرجـــال في هولـــه	قـــالة القلوب ود جولـــه

اى ان الصديق عريس اجمل البنات قد حققت فيه اخته حسنة ـ وكانت شاعرة ـ احسن اقوالها ، وعندما تطير قلوب الرجال هلعا لتصدى الارادة لهم فان الصديق هو من يثبتها •

وقال الشاعر فى مدح بشارة :

أكل تنا المسمى بشارة	للدر الكمن فى السارة
وقتين الوجوه تضارة	نسب من دخول الكاره

اى اصغرنا سنا هو بشارة ، وهو كالتمساح الرابض فى شط البحر - وعندما اختبأ الرجال خوفا من رجال الادارة حلف بشارة بأم زوجته (نسيبته) بان يمتنع عن دخول الكاره (العرض) مهما تكن قوة هؤلاء •

(٢٣) Schweinfurth, Dr. G. : The heart of Africa, II, p. 453.

(٢٤) من كبار الموظفين السودانيين فى الخرطوم : الفقيه الشيخ الامين الضرير شيخ الاسلام ، واحمد باشا ابوسن ومحمد بك أحمد واحمد بك جلاب الذين كانوا مديرين لمديرية الخرطوم على الترتيب ، ويساطى بك باشكاتب المديرية ، ومحمد بك الجزولى وكيل المديرية ، ومحمد بك خوجلى قاضى المديرية •

(٢٥) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ •

(٢٦) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٨ •

(٢٧) انظر : الوقائع المصرية عدد ٣٢٠ يوم الخميس ١٨ جمادى الأول ١٢٨٦ •

محمد عبد الرحيم : نفثات اليراع ، ص ٧٨ ـ ٨١ •

(٢٨) وقد بلغ ذلك الامر حدا كبيرا ، لدرجة ان الحكمدار ـ اثناء رحلة له فى البحر الاحمر ـ ارسل الى الشيخ فى الخرطوم « كتابا نفيسا ، وهو سفينة راغب باشا ، بجواب منه مصحوبا مع ذلك الكتاب يخبره فيه بما حواه ذلك الكتاب من العلم المستطاب » • ولم ينتظر الحكمدار حتى يعود الى الخرطوم ومعه الكتاب •

انظر : احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٨ •

(٢٩) القبانى : مذكراته عن الحكم المصرى بالسودان ، ص ١٤٧ فى كتاب السودان لعبد الله حسين ـ الجزء الأول •

(٣٠) Taylor, B. : op. cit., pp. 293-96.

(٣١) من ٩١ مالت الى ايرل جرانفل فى ٦ مارس ١٨٨٣ ، وتتضمن الرسالة تقرير الكولونيل ستيوارت عن وصف الخرطوم بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٨٣ •

(٣٢) F.O. : 78/3553 Nl. 71.

Fr. B. Rollerie's letter (in 1881).

Bermann, R.A. : op. cit., p. 31.

(٣٣) Petherick, J. : op. cit., p. 117.

(٣٤) Artin, Y Pasha : op. cit., p. 49.

(٣٥) كان الحكمدار احمد أبو ودان أول من الحق العبيد بخدمة الحكومة ، وكانت له مزرعة في الكاملين يزرع بها قصب السكر وغيره ، وانشأ بها مصانع للسكر والصابون والخمر كان يعمل فيها العبيد .

(٣٦) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78) p. 199.

(٣٧) كانت حكومة السودان الانجليزية بعد سنة ١٩٢٤ تخالف هذا النظام متعمدة ، بدعوى أن الجندي المرفوت عاشر في حياته العسكرية (اليونج) أي (دس بحر) من سودانيين ومصريين ، ففسدت طباعه لدرجة يخشى معها على انتشار الفساد بين قبيلته :

محمد احمد الجابري : في شأن الله ، ص ١٠٦ .

(٣٨) انظر الفصل الرابع : ص ١٣٥ .

(٣٩) تقرير بورنج ، ص ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٤ من كتاب (بناء دولة مصر محمد علي) للدكتور محمد فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل .

(٤٠) Tremaux, p. : Le Soudan, p. 26.

Petherick, J. : op. cit., p. 117.

(٤١) Cailliaud, F. : op. cit., II, pp. 115 f.

Didilr, Charles : « Khartoum », NAV ..., pp. 66 f.

(٤٢) تقرير بورنج : ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ .

(٤٣) محمد عبد الرحيم : العروبة في السودان ، ص ٨٦ ـ ٨٨ .

(٤٤) Fr. Beltrame, G. : From Sennar to Beni Shangul, 1854-55.

(٤٥) Taylor, B. : op. cit., p. 389.

(٤٦) Cailliaud, F. : op. cit., III, p. 117.

(٤٧) الرحط عبارة عن شريط من الجلد يوضع حول الوسط وتتدلى منه خيوط جلدية رفيعة .

(٤٨) Fr. B. Rollerie's letter (in 1881).

(٤٩) هذا الامر موجود فى معسكرات الجيش حتى اليوم • والنساء داخل المعسكر يعشن تحت النظام العسكرى ، فلكل معسكر (شيخة) تعمل تحت رياستها (شيخات) للاحتفاظ نظافة المعسكر :

Low, S. : op. cit., p. 78 & p. 80.

Artin Y. Pasha : op. cit., p. III.

(٥٠) Prudhoe, Lord : op. cit., p. 262.

(٥١) تقرير بورنج : ص ٥٥٨ •

(٥٢) Sartorius, E. : op. cit., p. 119.

(٥٣) Taylor, B. : op. cit., p. 390.

Pallme, I. op. cit., p. 114.

(٥٤) Ibid., p. 36.

وانظر ايضا : تقرير بورنج : ص ٥٦٠ ـ ٦١ •

(٥٥) دفتر ١٦ صادر تلغرافات بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٩٠ ، دفتر ١٨٦٢ صادر معية •

ـ التلغراف العربى رقم ٤٢ من خيرى باشا الى مديرى السودان ، ص ٢٤ •

ـ وتتضمن هذه الصفحة : تعليمات عن الاجراءات اللازمة من الآن فى حق السودانيين •

(٥٦) Petherick, J. : op. cit., pp. 221-24.

(٥٧) Mr. & Mrs. Petherick : op. cit., I, p. 70.

(٥٨) Werne, F. : African Wanderings, p. 17.

Taylor, B. : op. cit., p. 289.

(٥٩) Melly, G. : op. cit., pp. 126-27.

(٦٠) Fr. B. Rollerie's letter (in 1881).

(٦١) Chaillé Long, Col. C. : Les trois prophets, p. 40.

Chaillé Long, Col. C. : My life in four continents, I, p. 78.

Chaillé Long, Col. C. : Central Africa ..., pp. 17-19.

(٦٢) De Cosson, E. A. : op. cit., pp. 230 f.

(٦٣) Melly, G. : op. cit., p. 119.
Melly, A. : op. cit., p. 135 & p. 139.

(٦٤) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), pp. 188-89.

(٦٥) Mr. & Mrs. Petherick : op. cit., I, p. 78.

(٦٦) دفتر ١٨٨٢ : جـ ٢ صادر الاوامر بتاريخ ١١ شعبان ١٢٧١ .

ـ الامر الكريم رقم ٦ ، الى حكمدار السودان .

(٦٧) Wilson, Rev. C.T. & Felkin, R.W. : op. cit., p. 331.

(٦٨) يصف الشيخ محمود القباني اخر احتفال للمولد النبوى شاهده هذا الفناء سنة ١٨٨٤ فيقول

« ودعى الى الاحتفال العلماء والكبراء . وجلس غردون باشا فى صدر الحفل ببذلة التشريفة الكبرى وسط الحاضرين وقد وضع فوق راسه كوفية ناصعة البياض فوقها عقال قصبى لامع ، واعتلى المنبر العلامة السيد حسين المجدى باشخوجة المدرسة الاميرية ، وتلا القصة الشريفة وبخور العود يتصاعد من المبخرة الفضية المذهبة المرصودة لمثل هذه الحفلات ، فاذا تضاءل دخان البخور أسرع الى المبخرة مدير الخرطوم لاصلاحه ، فلما انتهت التلاوة اطلقت المدافع . وكان غردون يجلس الى المائدة ومعه الشيخ الامين الضرير شيخ علماء السودان والسيد حسين المجدى وجماعة من العلماء . ولم يطل الجلوس به ، فقد قام بعد ضرب المدافع بتلك القصاع التي وضعت على الارض للفقراء ، ويوزع بيده حلوى الملبس على الاولاد الممتازين فى المدرسة » .

مذكرات القباني عن الحكم المصرى فى السودان . ص ١٤٧ ، هـ ١ من كتاب السودان لعبد الله حسين .

ذكريات الطفولة فى السودان للقباني ، ص ٣١ ، جـ ٣ من كتاب التربية فى السودان للدكتور أمين عبد العزيز عبد المجيد .

(٦٩) محفظة ٣ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٢٨٩ . بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٢٧٠ ، من حكمدار السودان الى الجناب العالى .

(٧٠) Casati, Major G. : op. cit., p. 31.

(٧١) دفتر ٥١ ، ص ١٢٠ ـ الوثيقة رقم ٢٤ • بتاريخ ١٢ شوال ١٢٩٢ من تحريرات المجلس الخصوصى الى المعية •

(٧٢) دفتر رقم ٢٢٥ تركى بند ـ حكمدار السودان ـ الوثيقة رقم ١٦ أصلى ، ٢٣ مسلسل بتاريخ ٢٥ ربيع اخر ١٢٥٦ •

(٧٣) بعد ضم دارفور الى السودان اضيئت الخرطوم ثلاث ليال واستمرت الاحتفالات بذلك الحديث الكبير أسابيع :

Chaillé Long, Vol. C. : Central Africa ..., p. 220.

Junker, Dr. W. : op. cit., (1675-78, p. 170.

(٧٤) Fr. G. Geltrame's lettlr (in 1883).

Poncet, J. : op. cit., p. 7.

(٧٥) Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), pp. 180-86.

(٧٦) Tayoir, B. : op. cit., p. 380.

(٧٧) Taylor, B. : op. cit., p. 385.

(٧٨) Tremaux, P. : op. cit., p. 32 & 37.

(٧٩) Ibid. pp. 25 f.

(٨٠) انظر : رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية ••• ص ٢٦٥ ـ ٢٧٩ •

حسن السندوبى : أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجرى الى اليوم ، ص ١٩٢ ـ ١٩٥ •

وقد تضمن الكتاب الأخير بين هاتين الصفحتين وصفا للخرطوم سنة ١٨٦٦ للأديب ابراهيم بك مرزوق رئيس القلم الافرنجى بالحكمدارية • وتبدو المرارة واضحة فى هذا الوصف الذى لم يتضمن غير مساوى الهواء والحشرات والأمطار والجند الخشنة طباعهم •

(٨١) دفتر ٦٣١ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٥٥ بتاريخ ١٥ شوال ١٢٦٨ • دفتر ٦٣١ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ١٧٢ بتاريخ ٨ صفر ١٢٦٨ •

دفتر ٦٢١ ديوان الكتخدا وثيقة رقم ٢٩٥ بتاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٦٨ ·
والمكاتبات الثلاث من مديرى المنوفية والدقهلية والبحيرة على الترتيب ·
Bermann, R. A. : op. cit., p. 29.

(٨٢) Didier, Charles : « Khartoum », NAV. ..., pp. 73-75.
Hamilton, J. : op. cit., pp. 343-50.

(٨٣) محفظة رقم ٣ أوامر لديوان الجهادية — وثيقة رقم ٢٢٨ مسلسل ٤٤ أصل قرار مجلس العموم رقم ٦٨ المؤرخ فى ٢٢ محرم ١٢٦٤ · بل اكثر من ذلك اصدر محمد على لائحة خاصة : بالآداب الواجب اتباعها فى مكاتب الحكومة — انظر هذه اللائحة فى :

دفتر رقم ١٠١٢ صادر نظارة المالية الى الدواوين — وثيقة رقم ٤٦٣ بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٦٥ الى حكمدار السودان ·

(٨٤) دفتر ٦٢٨ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ١٨٤ · بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ الى القبو كتخدا ·

(٨٥) عند عزل الحكمدار لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه أصدر عباس باشا أمره « بوجوب استقدام رستم باشا وأخذ رأيه فى هذا الأمر ، اذ أن ارساله لهذه المهمة بالسودان يجب أن يقوم على رغبته وقبوله لهذا المنصب » :
دفتر ٦٢٨ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ أول صفر ١٢٦٨ الى الهردار ·

(٨٦) أمين سامى : تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث ، ص ٢٤ : ارادة للكتخدا فى ٢٤ شوال ١٢٦٥ (٢ سبتمبر ١٨٤٩) ·

ولقد ترتب على تلك السياسة أن أصبحت أقاليم السودان — بالرغم من الصعاب والمخاطر التى كانت تواجه ادارة البلاد فى ذلك الوقت — تتمتع بادارة رجال أكفاء رحلوا كثيرا وزادت خبرتهم نتيجة لذلك :
Melly, G. : op. cit., p. 102.

(٨٧) دفتر رقم ٧ عربى أوامر جهادية — الوثيقة رقم ٢٨٦ · بتاريخ الحجة ١٢٧٩ الى ناظر الجهادية ·

(٨٨) وقد تشبه كثير من السكان بالمصريين فى الملابس وان كان ذلك الى حد ما ، فبدلا من ارتداء الحرير والصوف ارتدوا قماش القطن ، وبدلا من العمامة والطربوش وضعوا على رؤوسهم الطاقية البيضاء :

Proul, H. G. : op. cit., p. 22.

ويرى هوسكنز أن كثيرا من عادات المصريين انتقلت الى السودانيين بعد الفتح ، ومن ذلك ما رآه في منطقة شندى من حلق أهلها لرؤوسهم كما يفعل المصريون :

Hoskins, G. A. : op. cit., pp. 123 f.

(٨٩) وقد أورد القباني أمثلة لذلك ، منها أن أهل المدينة هم الذين أبلغوا الخديو بخبر تعاطي ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان (سبتمبر ١٨٧١ ـ نوفمبر ١٨٧٢) للرشاوى ، الأمر الذى انتهى بايقافه عن العمل وهى قصة مشهورة . ومنها أن بعض مديرى المديريات حوكموا نتيجة تبليغ بعض أهل الخرطوم الخديو بمساويه أعمالهم : مذكرات القباني عن الحكم المصرى فى فى السـودان ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ج ١ من كتاب السودان لعبد الله حسين .

ومن بين أعمال المصريين للاشراف على أعمال الموظفين اصطدامهم بالكولونيل ستوارت مساعد الحكمدار غردون (سنة ١٨٨٤) ـ والذى كان يدعو الى عدالة الحكم والحاكم الانجليزى وفساد الحكومة المصرية ، وكان دفاعهم عن الحكم المصرى موضوعيا حين قاموا بتمثيل بعض المشاهد التى تقول بعدالته ودعوا الى مشاهدتها بعض أهالى الخرطوم :

للقباني : السودان المصرى والانكليز ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

(٩٠) Heuglin, M. The V. : op. cit., p. 4.

Fr. G. Beltrame's letter (in 1853).

(٩١) من ٠٦ مالت الى ايرل جرانفل فى ٦ مارس ١٨٨٣ . وتتضمن الرسالة تقرير الكولونيل ستوارت عن وصف الخرطوم بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٨٣ .

F. O. 78/3553, No. 71.

FR. G. Beltrame's letter (in 1853).

(٩٢) Fr. Luigi Montouri's letter (in 1843).

(٩٣) Grant, J. A. : A walk across Africa, pp. 414 f.

(٩٤) Fuller, W. : Egypt and the hinterland to the re-opening of the Suran, pp. 148 f.

(٩٥) مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٤٦ ج ١ من كتاب السودان لعبد الله حسين .

(٩٦) Walkley, C. E. J. : 'The story of Khartoum ». SNR., Vol. XVIII, part II, 1935, p. 232.

(٩٧) De Cosson, E. A. : op. cit., p. 222.

(٩٨) Jomard, F. : op. cit., p. 486 & p. 502.

(٩٩) Deherain, H. : Li Soudan Egyptian Sous Mohamed Aly, p. 123.
Deherain, H. : « Le Soudan Egyptian de Mohamed Aly, a Ismail », dans : Hanotaux, G. : Histoire de la Nation Egyptienne, VI, p. 562. ,
Petherick, J. : ip. cit., p. 132.
Melly, G. : op. cit., p. 109.

(١٠٠) Poncet, J. : op. cit., p. 7.
Baker, Sir S. : Albert N'yanza p. 8.
Lejean, G. : op. cit., p. 28.
Dr. & Mrs. Petherick : op. cit., I, p. 73.

(١٠١) من ٠١ مالت الى ايرل جرانفل فى ٦ مارس ١٨٨٣ .
وتتضمن الرسالة تقرير الكولونيل ستيوارت عن وصف الخرطوم بتاريخ ١٢ فبراير ١٨٨٣)
F.O. 78/3553, No. 71.

(١٠٢) تقرير بورنج : ص ٥٥٧ ، ٥٦١ ، ٥٨١ .

(١٠٣) Gessi, R. Pasha : op. cit., p. 213.

(١٠٤) Chaillé Long, Col. C. : Central Africa ..., p.

(١٠٥) Dickenson, Capt. F. A. : From Lake Victoria to Khartoum with rifle & camera, pp. 123 f. & p. 130.
Johns'on, K. : op. cit., p. 223.
Casati, Major G. : op. cit., p. 7.
Martin, P. f. : op. cit., pp. 272 f.
Shoemaker, M.M. : op. cit., p. 39.

(١٠٦) Petherick, J. : op. cit., p. 132.
Hamilton, J. : op. cit., pp. 320 f.

(١٠٧) Grant, J.A. : A Walk across Africa, p. 408.

Fr. Martini, G. : To Geraref, Gallabat & Fazughli, in 1876.

(١٢٣) الياس توينولو ـ الرسالة الكاثوليكية لافريقية الوسطى (١٨٤٦ ـ ١٨٩٨) ٠

(١٢٤) الاب الياس تونيولو : الاعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الاجناس البشرية التى قام بها مرسلو الرسالة الكاثوليكية لافريقيا الوسطى (١٨٤٦ ـ ١٨٩٨) ٠

Hill, R. : A biographical dictionary ..., p. 304.

(١٢٥) كان من اثار بناء دار البعثة فى الخرطوم بين سنتى ١٨٥٠ ، ١٨٥٢ ان تعلم اكثر من خمسين من المواطنين صناعة البناء :

(١٢٦) Fr. G. Beltrame's letter (in 1853).

Gossi, Pasha : op. cit., p. 411.

(١٢٧) الاب الياس تونيولو : الارسالية الكاثوليكية لافريقيا الوسطى ٠

(١٢٨) الاب الياس تونيولو : الاعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الاجناس البشرية ٠

(١٢٩) Bonola, Le Dr. F. : op. cit., pp. 42-43.

(١٣٠) Berlieux, E. F. : op. cit., p. 87.

(١٣١) Brown, R. : op. cit., II, pp. 26-27, III, pp. 244.
Deherain, H. : Le Soudan Egyptien de Mohamed Aly 65, à Ismail, pp. 575-82.

(١٣٢) ها هى ذى الاسماء الافرنجية لما ورد من الرحالة على الترتيب :
Le Marquis Antinori — Le Jean, G. — Miss Tinné — Tremaux, P. — Piagia, C. — Baron d'Arnim — Von Harmier — Poncet, M.J. — Preyssaener — Rollet, B. — Heuglin, M. Th. V. — Petheriek, J. — Schweinfurth, Dr. G. — Junker, Rr. W. — Bohndirff, F. — Casati, Major G. — Miani, G. — Spoke, J. H. — Grant, J.A. — Baker, Sir S. — Gordon, Gen. G. — Terranova, F.

(١٣٣) ها هى ذى صورة لفرمان منح لاحد السياح زار السودان فى عهد محمد على : من الجناب العالى الى كافة الموظفين والحكام والقبودانات ٠ ان حمل هذا الامر المسمى مستر (لاين) احد السياح الانكليز الذى يريد ان يقوم برحلة لغاية سنار بقصد السياحة ، قد اعطى هذا الامر بناء على التماسه فى

سبيل ألا يلقى مخالفة فى سفره الى تلك الجهة ، فعلى كافة الموظفين والحكام والقبودانات الا يمنعوه من المرور فى الاماكن التى يجتازها فى طريقه الى هناك وأيضا مشاهدة الاماكن التى يريد مشاهدتها ، بل العكس ليقدموا له كل المساعدات والمعونات فى هذا السبيل ، فينبغى عليهم أن يعملوا بموجب الامر » .

دفتر ٤١ معية تركى ـ الامر رقم ٣٠٨ بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٤٦ .

(١٢٤) Bonola Bey : op. cit., p. 59.

وقد وصل الامر ببعض الحكمداريين لتسهيل رحلات الرحالة انهم كانوا يقدمون لهم سفينتهم الخاصة للاستعانة بها فى رحلاتهم .

Melly, G. : op. cit., p. 85 f.

Deherain, H. : Le Soudan Egyptien de Mohamed Aly a Ismail. p. 576.

(١٢٥) Massaia, Cardinal G. : op. cit.

(١٢٦) Schweinfurth, Dr. G. : op. cit, I, p. 7.

Berlieup, E. F. : op. cit., p. 13.

(١٢٧) Taylor, B. : op. cit., p. 379.

(١٢٨) Junker Dr. W. : op. cit., (1879-83), p. 24.

وانظر ايضا :

عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، ج ١ ، ص ٢٢ ـ ٢٤ .

(١٢٩) Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., p. 287.

(١٤٠) Dufton, H. : op. cit., p. I.

(١٤١) Baker, Sir S. : Albert N'yanza, p. 87.

Baker, Sir S. : The Nile Tributaries ..., p. 18.

(١٤٢) Schweinfurth, Br. G. : op. cit., II, p. 482.

Wilson, Rev. C.T. & Felkin, R.W. : op. cit., p. 319.

(١٤٣) والخرطوم على هذا النحو ـ عند شابيه لونج ـ تذكره بباريس . فمحلاتها تزخر بكل المطالب من خمر ودخان وملابس جاهزة الامر الذى يذكره بمحلات (الباليه رويال) ، وحدائقها تزدحم بكل أصناف الفاكهة وهو ما يذكره بحدائق

(الشواليزيه) ، وضفاف النيل الأزرق تطل عليها أشجار النخيل من عل وتذكره بالشوارع الرئيسية في باريس :

Central Africa ..., p. 218 & pp. 220-21.

(١٤٤) Deherain, H. : Le Coudan Egyptien de Mohamed Aly a Ismail ; p. 573.

(١٤٥) كان نائب القنصل الفرنسي فرناندو لافارج يقيم معظم أيامه في بربر . وكان نائب القنصل الانجليزي جون بترك يمضي معظم أيامه في كردفان وبحر الغزال .

(١٤٦) كان روس Rosset — على سبيل المثال — نائبا لقنصل ألمانيا في الخرطوم ، في الوقت الذي كان يعمل فيه سكرتيرا للحكمدار غردون (فبراير ١٨٧٧ — يناير ١٨٨٠) ، ثم نقل بعد ذلك حاكما لدارفور في الوقت الذي كان لا يزال فيه نائبا للقنصل .

(١٤٧) Combes, E. : op. cit., pp. 303-305.

(١٤٨) Deherain, H. : Le Soudan Egyptien Mohamed Aly a Ismail, p. 561

(١٤٩) M'Queen, J. : The Nile Basin Part II : Captain Speke's riscovery of the Sources of the Nile : A Review, p. 186.

وكان هدف عباس من تحرير تجارة العاج تشجيع التجار على نقله الى مصر — حيث سوقه رائجة — ليزيد من دخل الحكومة بالضريبة الجمركية المضروبة عليه .

(١٥٠) نشر هولرويد رحلته تحت عنوان :

"Notes on a jonrney to Kordofan in 1836-37",
in : Journal of the Royal Geographical Society, Vol. 9, 1839.

وانظر أيضا : تقرير بورنج ، ص ٨٥ .

(١٥١) M'Queen ,J. : op. cit., p. 189.
Mr. & Mrs Petherick : op. cit., II, p. 25.

(١٥٢) Ibid : pp. 155-58.

(١٥٣) وفي هذه السنة أيضا ، وفي شهر أبريل ، افتتحت انجلترا قنصلية لها في ميناء سواكن ، وكان أول قنصل بها مونكريف الذي قتل في موقعة التب في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ أثناء حروب المهدية :

Robinson, A.E. : « British Consults at Suakin ».

SNR., Vol. IV. Part 2, 1921, p. 108.

(١٥٤) جمعت مراسلات هذا المراسل عن الخرطوم أثناء الحصار فى كتاب تحت عنوان :

Letter from Khartoum written during the siege, London, 1885.

(١٥٥) الاب الياس تونيولو : ارسالية افريقية الوسطى ·

Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), p. 198.

(١٥٦) Pallme, I. : op. cit., pp. 97-59.

(١٥٧) Chaikle Long, Col. C. : Central Africa ..., p. 17.

(١٥٨) دفتر ٥٤٩ ، ص ٥٩ ـ الوثيقة رقم ١٩ بتاريخ ٢٥ جمادى الاول ١٢٨١ من المعية الى الخارجية ·

(١٥٩) دفتر ٥٢٥ ، ص ٣٦ ـ أمر كريم رقم ١٩ بتاريخ ١٥ جمادى الثانية ١٢٧٨ الى ناظر الامور الخارجية ·

(١٦٠) Op. cit., p. 28.

(١٦١) Op. cit., p. 6

(١٦٢) Trimaux, p. : op. cit., p. 27.

Melly, G. : op. cit., p. 97 & p. 181.

Lanpely, M. : op. cit., p. 21.

(١٦٣) Op. cit., pp. 28-29.

ويقدر ليجان عدد نساء المستعمرة من الاوربيات بثلاث فقط من بين عدد سكان المستعمرة البالغ ستة وعشرين سنة ١٨٦٠ :

p. 26.

(١٦٤) Tremaux, : op. cit., p. 20.

Melly, G. : op. cit., p. 131 & p. 134.

ولقد كان لنائب القنصل النمسوى منزل اسرة كبيرة من الاطفال السود ·

(١٦٦) Chaile Long, Col. C. : Les trois prophets ..., p. 40.

(١٦٥) Werne, F. : op. cit., p. 5 & p. 113.

(١٦٧) Werne, F. : op. cit., p. 6.

(١٦٨) Stiganr, Major C.H. : op. cit., pp. 164 f.

(١٦٩) Combes, E. : op. cit., p. 142.

(١٧٠) Melly, G. : op. cit., p. 135.

(١٧١) Ipid : p. 159.

(١٧٢) Fr. Luigi Montouri's letter (in 1843).

(١٧٣) Melly, G. : ip. cit., p. 97.

(١٧٤) من بينهم رفاعة الطهطاوى ناظر المدرسة الاميرية على عهد عباس ، وبيومى افندى أستاذ الرياضيات بها ٠

(١٧٥) Junker, Dr. W. : op. cit., (1879-81), p. 23.

(١٧٦) Deherain, H. : Le Siudan Egyptien de Mohamed Aly a Ismail, p. 566.

(١٧٧) Taylor, B. : op. cit., pp. 280-82.

(١٧٨) مثال ذلك ان القنصل النمسوى هنزل كان يشترك فى حفلات المواطنين ويشاركهم رقصاتهم ، وان القنصل الفرنسى ثيبو كان يرتدى الملابس التركية ويتحدث بالعربية ٠

(١٧٩) Melly, G. : op. cit., p. 96.

(١٨٠) Fr. Luigi Montouri's letter (In 1843).

(١٨١) Hamilton, J. : op. cit., p. 334.

(١٨٢) Casati, Major G. : op. cit., p. 29.

وبينما يحدث ذلك فى الخرطوم حدث فى القاهرة سنة ١٨٩٩ أن أسلم أحد المسيحيين ، واحتفل بهذا الحادث ، ولكن سلطات القاهرة فضت الاحتفال وقبضت على المحتفلين ٠

Fuller, W. : Op. cit., p. 1137.

ولا شك أن سلوك الادارة على هذا الشكل يرجع الى سيطرة الانجليز على البلاد ٠ ونحن لا نعفى البعثة الكاثوليكية من أنها كانت تجتهد فى تمسيح المسلمين من الزنوج ، وقد عثرت ــ أثناء البحث ــ على فتية وفتيات من تلاميذ البعثة

تختلط فى أسمائهم الأسماء المسلمة والمسيحية ، ومثال ذلك الفتاة الدينكاوية (كاترين زينب أجول) التى استعانت بها البعثة فى معرفة لسان الدينكا ويبدو من اسمها انها كانت مسلمة تمسحت ٠

(١٨٣) القبانى : مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٤٨ من الجزء الاول من كتاب السودان لعبد الله حسين ٠

Fr. Luigi Montouri's letter, (in 1843).

(١٨٤) Op. cit., pp. 293-96.

(١٨٥) المريسة شراب مسكر يتكون من منقوع الذرة المخمر ٠

(١٨٦) Combes, E. : op. cit., p. 125.
Lejlan, G. : op. cit., p. 28.
Ponet, J. op. cit., pp. 8-9.
Fr. Luigi Montouri's letter (in 1943).
Fr. G. Beltrame's letter (in 1853).

(١٨٧) Op. cit., p. 27.

(١٨٨) Didier, Charles : « Khartium », NAV., ..., p. 80

(١٨٩) Ibid : pp. 81-90.
Hamilton, J. : op. cit., pp. 323-30.
Tremaux, P. : op. cit., pp. 41-50.
Lepsius, Dr. R. : op. cit., p. 182.
DeCosson, E.A. : op. cit., pp. 242-45.
Junker, Dr. W. : op. cit., (1875-78), pp. 180-86.
Colborne : Col. The Hon. J. : op. cit., pp. 218-20.
Chaille Long, Col. C. : Central Africa ..., pp. 17-19.
Chaille Long, Col. C. : My life in four continents, I, p. 78
Chaille Long, Col. C. : Les Trois prophets .... p. 40.

(١٩٠) Coborne, Col. The Hon. J. : op. cit., p. 82.

(١٩١) Combes, E. : op. cit., pp. 271 f.

وشيخ الربع هو شيخ الحى من المواطنين ، وكان لكل حى شيخه ٠

(١٩٢) القباني : مذكراته عن الحكم المصري في السودان ، ص ١٤٠ من الجزء الاول من كتاب السودان لعبد الله حسين • ومحل العمارة الآن هو المكان المقامة عليه سراى السيد على الميرغنى وجزء من الشارع الواقع شرقها •

(١٩٣) Hake, A.E. : The Etory of Chinese Gordon, I, pp. 295 f.

(١٩٤) Molly, G. : op. cit., p. 114.

(١٩٥) Wilson, Rev. C.T. & Felkin, R.W. : op. cit., pp. 319 f.

(١٩٦) Grant, J.A. : A Walk across Africa, p. 407.
Low, S. : op. cit., p. 18.

(١٩٧) القباني : مذكراته عن الحكم المصري في السودان ، ص ١٤٨ من الجزء الاول من كتاب السودان لعبد الله حسين •

(١٩٨) Petherick, J. : op. cit., p. 128.

(١٩٩) Melly, G. : op. cit., p. 109.

(٢٠٠) Combes, E. : op. cit., p. 111.

(٢٠١) Le jean, G. : op. cit., p. 31.

(٢٠٢) Fr. Luigi Montouri's litter (in 1843).

(٢٠٣) هذه الفترة هى فترة حكم المنظم أحمد المنكلى باشا (اكتوبر ٤٣ – ديسمبر ٤٥) • انظر : الفصل السادس ، ص ٢٣٩ – ٢٤١ •

(٢٠٤) Lejean, G. : op. cit., p. 26.

والفترة المذكورة هى التى كانت تحكم فيها البلاد على النظام امركزى على عهد سعيد •

انظر : الفصل السادس ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣ •

(٢٠٥) Handbook of Khartoum town province

شقير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٠ •

ويقدرهم الاب رولرى سنة ١٨٨١ بخمسين او ستين الفا :

Fr. B. Rolletler's letter (1881).

ويقدرهم الكولونيل ستيوارت في فبراير سنة ١٨٨٢ بخمسين الى خمسة وخمسين الفا : من ٦١ جالت الى ابرل جرانفل في ٦ مارس ١٨٨٢ ٠

وتتضمن الرسالة تقرير ستيوارت عن وصف الخرطوم :

F. O. 78/3553, No. 71.

(٢٠٦) Hake, A.E. : The journals of Major — Gen. C.G. Gordon, C.B., at Khartoum, p. 6.

(٢٠٧) Taylor, B. : op. cit., p. 279.

Worne, F. : op. cit., p. 3.

(٢٠٨) ظلت الصعاب امام صرف المياه المتخلفة عن المطر في المدينة قائمة حتى السنوات الاولى بعد الفتح الثاني للبلاد ، لدرجة أن سقوط المطر ثلاث ساعات كان ينتج عنه تغطية سطح المدينة ببرك من المياه لا تنصرف مياهها قبل اسابيع ثلاثة :

Walkley, C.E.J. : op. cit., SNR., Part I, Vol. XVIII, 1935, p. 233.

وليس ادل على أن الخرطوم لم يكن يعيبها أيام الحكم المصرى الا انخفاضها انه بعد رفع سطحها بعد الفتح الثانى سجلت الاحصائيات الصحية أرقاما قياسية عالية في قلة نسبة الوفيات بين سكان المدينة ، اذا كانت اقل مدن العالم في نسبة الوفيات :

Stanton, E.A. : « Progress in the Sudan »,
Jas. Vol. XIII, No. LII, July 1914, p. 365.

Editorial Notes : JAS., Vol. XXI, No. LXXXI, Oct. 1921, pp. 57-66.

(٢٠٩) McLean, W.H. : op. cit., p. 576.

(٢١٠) Gary, T.G. : Some factors influencing health in Tropical and Sub-Tropical Countries, p. 80 & pp. 86-88.

(٢١١) Cailliaud, F. : op. cit., II, p. 263.

(٢١٢) القبانى : مذكراته عن الحكم المصرى في السودان ، ص ١٢٩ من الجزء من كتاب السودان لعبد الله حسين ٠

وقد اهتمت الحكومة في السنوات الاخيرة من الحكم المصرى بمسائل الحجر الصحى : دفتر ١٣ صادر تلغرافات ـ التلغراف العربى رقم ٥٤٧ بتاريخ غرة رجب ١٢٨٩ من خيرى باشا الى مدير دنقلة وبربر ٠

(٢١٣) Berlioux, E. F. : op. cit., p. 31.

Baker, Sir. S. : Albert N'Yanza ; pp. 461-63.

(٢١٤) Bermann, R. A. : op. cit., p. 28.

(٢١٥) ومثال ذلك ما قاله أحد رجال البعثة الكاثوليكية من أن عدد صرعى الحميات من معارفه من الرحالة ورجال البعثر قد بلغ المائة حتى سنة ١٨٥١ :

Massaia, Cardinal, G. : op. cit.

(٢١٦) دفتر ٥٨٤ ، ص ٥٨ ـ الوثيقة رقم ٢ بتاريخ ٢٢ شوال ١٢٨٧ من من المعية الى حكمدار السودان .

(٢١٧) محمود طلعت : المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٢١٨) انظر :

الدكتور أمين عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان ، جـ ١ .

رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية .. ص ٢٦٢ .

Burckhardt, J.L. : op. cit., pp. 70-71.

MacMichael, H.A. : A history of the Arabs, II, p. 277.

(٢١٩) Poncet, J. : op. cit., p. 8.

Lejean, : op. cit., p. 28.

(٢٢٠) Fr. G. Beltrame's letter (in 1853).

Petherick. op. cit., pp. 217-18.

(٢٢١) فى الرواية لابراهيم صديق وعبد الرحمن جميل الله من حلة خوجلى (ابريل ١٩٥٨) .

وانظر أيضا بعض الخلاوى فى : عثمان حمد الله : سهم العروبة ، ص ٦٩ .

(٢٢٢) مناهج الالباب المصرية فى مناهج الاداب العصرية ، ص ٢٦٣ .

(٢٢٣) القبانى : ذكريات الطفولة فى السودان ، ص ٢٠ ، ٢٢ فى جـ ٢ من (التربية فى السودان) للدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد .

(٢٢٤) Fr. B. Rollerie's letter (in 1881).

(٢٢٥) Melly, G. : op. cit., pp. 117-18.

Melly, A. : op. cit., p. 136.

Petherick, J. : op. cit., p. 131.

(٢٢٦) الاب الياس تونيولو : ارسالية افريقية الوسطى ٠

(٢٢٧) الاب الياس تونيولو : ارسالية افريقية الوسطى ٠

(٢٢٨) القباني : ذكريات الطفولة في السودان ٠ ص ٣٢ ، جـ ١ من كتاب (التربية في السودان) للدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد ٠

(٢٢٩) دفتر ٢١٣٣ مدارس تركي ـ الوثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ٦ رجب ١٢٦٦ ٠

(٢٣٠) دفتر ١٩٥٨ قرارات المجلس الخصوصي ـ الوثيقة رقم ٤ فصل المدارس بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ ٠

(٢٣١) الدكتور محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ، ص ٤٩ ٠

(٢٣٢) كان رفاعة بك ناظرا لمدرسة الالسن وقلم الترجمة ، وكان بيومي افندي مدرس الحساب في المدرسة استاذا للرياضيات بالمهندسخانة ، وكان الطبيب الذي صحب الجماعة الى الخرطوم من اكبر الاطباء في مصر ٠

(٢٣٣) المصدر السابق : ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٨ ٠

(٢٣٤) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية في مصر ، جـ ٣ ، ص ٤٨٩ ٠

(٢٣٥) الدكتور احمد عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر ، جـ ١ ، ص ٥٨ ٠

(٢٣٦) Hamilton, J. : op. cit., p. 343.

(٢٣٧) الدكتور احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ١٩١ ٠
انظر ايضا : (احمد احمد بدوي) رفاعة الطهطاوي بك ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

(٢٣٨) Op. cit., pp. 292-93.

(٢٣٩) المصدر السابق : ص ٢٦٩ ـ ٢٧٩ ٠

(٢٤٠) نفس المصدر : ص ٢٦٥ ـ ٢٦٩ ٠

(٢٤١) Op. cit., p. 330.

(٢٤٢) الدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣ ٠

(٢٤٣) Hamilton, J. : op. cit., p. 323.

(٢٤٤) لقد وزعت مهمات المدرسة على الالايات الجهادية بمعرفة الحكمدار

عبد اللطيف : دفتر ٦٣١ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٢٩٠ بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٦٨ ٠

دفتر ٦٤٥ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٢٩٠ بتاريخ ٩ ذى الحجة ٠

كما كان من رأى الحكمدار اسماعيل حقى ابو جبل (يونيو ٥٢ ـ ابريل ٥٢) عدم افتتاح المدرسة حيث « ان وجودها معناه استجداد مصاريف على هذا الاقليم بدون فائدة » :

دفتر ١١٣ وارد معية عربى ـ الوثيقة رقم ٨ مرور بتاريخ غرة جمادى الاولى ١٢٦٩ ٠

(٢٤٥) دفتر ١٥٢ مدارس عربى فى ٢٩ رجب ١٢٦٦ الى الترسانة ٠ دفتر ٣٠٥ مدارس عربى فى ٢٢ رجب ١٢٦٦ الى المهمات الحربية ٠ دفتر ١٢١ دار معية ـ الوثيقة رقم ٢ بتاريخ ٦ ذى الحجة ١٢٦٩ من ديوان المدارس الى المعية ٠

(٢٤٦) دفتر ٦٣٢ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٢١١ بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٦٩ ٠

(٢٤٧) Melly, G. : op. cit., p. 99.

(٢٤٨) الدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٦ ٠

(٢٤٩) Hamilton, J. : op. cit., pp. 344-46.

(٢٥٠) المصدر السابق : ص ٢٨٠ ٠

(٢٥١) دفتر ٥٢٦ تركى ـ الوثيقة رقم ٢٢ بتاريخ ١٠ ذى القعدة ١٢٧٩ ٠

(٢٥٢) الدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤ ـ ٧٦ ، ٧٨ ٠

(٢٥٣) انظر حديث القبانى عن مدرسة الخرطوم فى : التربية فى السودان للدكتور امين عبد العزيز ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ج ٣ ، ص ٢٨ ٠

السودان المصرى والانكليز : ص ٨٨ ٠

(٢٥٤) انظر اقوال الشيخ القبانى احد تلاميذ المدرسة عن الامتحان الذى مر به سنة ١٢٩٨ هـ فى :

الدكتور امين عبد العزيز عبد المجيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ج ٣ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ٠

(٢٥٥) Hake, A. E. : The journals of Maj. — Gen. C. G.

(٢٥٦) سرهنك : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢٥٧) Hill, G.B. : Colonr Gordon in Central Africa, p. 6.
Gordon, p. 6.

(٢٥٨) Hake, A.E. : The journals of Maj. — Gen. C. G. Gordon
p. 6.
Casati, Major G. : op. cit., I, p. 16.

(٢٥٩) دفتر ١٨٣٩ معية عربى قيد وارد العرضحالات ـ الوثيقة ، ص ٤٤ .
بتاريخ ١٤ ربيع الأول ، ١٢٨٧ .

(٢٦٠) الوقائع المصرية رقم ٨٢٣ بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٩٦ (١١ أغسطس ١٨٧٩) .

ويميل الدكتور أمين عبد المجيد الى أن مدرسة الطب لم تفتح ابدا :
المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٩٣ هامش ٢ .

ولكن كازاتى يقرر انها افتتحت ولكن عمرها كان قصيرا جدا .

Op. cit., p. 16.

(٢٦١) Hill, G.B. : op. cit., footnotl of p. 398.



الفصل السادس

حكومة الخرطوم وادارة السودان

التقسيم الاداري ، ونظام الادارة في البلاد ـ حكومة الخرطوم وادارة السودان على عهد محمد على ، وفشل التجربة الأولى للادارة على النظام المركزي ـ مصاعب حكومة الخرطوم على عهد عباس وبرنامج سعيد لتقويتها ، وفشل التجربة الثانية للادارة على النظام المركزي ـ ثورة التاكه واثرها في النظام الاداري ، وفشل التجربة الثالثة للادارة على النظام المركزي أيام اسماعيل ـ مدى مسئولية حكومة الخرطوم عن قيام الثورة المهدية .

كان التقسيم الاداري في السودان مثله في مصر ، وان شابته البســـاطة . فكان يقوم على راس حكومة الخرطوم حاكم عام أو (حكمدار) ، ثم تنقسم البلاد بعد ذلك الى عدد من المديريات على راس كل منها مدير ، وكانت كل مديرية تنقسم بدورها الى أقسام على راس كل منها ناظر ، كما كان كل قسم ينقسم الى أخطاط على راس كل منها حاكم . أما البدو فقد ضموا فى كل مديرية اليها ، وكان يحكمهم مشايخهم المسئولون أمام المدير (١) .

وكان الحكمدار يتمتع بكامل السلطتين المدنية والعسكرية فى البلاد ، وهو ممثل والى مصر فيها والمســـئول الأول أمامه عن كل ما يتعلق بالبلاد ، وله هيئة من المعاونين على راسهم وكيل الحكمدار وقائد عام الجند ورؤساء المصالح المالية والقضائية وغيرها . ولم يكن هناك حجاب بينه وبين الأهالى ، فقد كان من الميسور على كل شاك ان يقابله ويسلمه شكواه يدا بيد . وكان يقضى فيها بسرعة بعد التحرى عن موضوعها بدقة وأخذ رأى الموظفين المختصين (٢) .

وقد جربت مصر طريقتين لحكم السودان :

اما الطريقة الأولى فهى أن يمثل الوالى فى البلاد حاكم عام يقوم على رأس الادارة بمثابة نائب ملك ، ويتولى جميع السلطات المدنية والعسكرية فيها ، ويكون همزة الوصل بين السودان والقاهرة . وقد جرب العمل بهذه الطريقة معظم أيام الحكم المصرى تقريبا . والحكم على هذا الشكل لا مركزى ، لأن سلطاته هنا غير مركزة فى أيدى المسئولين فى القاهرة ، بل هى فى أيدى الحاكم العام المقيم فى الخرطوم .

ويشار الى الطريقة الثانية بالمركزية في الحكم ، لأن سلطات الحكم هنا مركزة في القاهرة والعلاقات الادارية بين السودان وحكومة القاهرة قائمة عن طريق مدير كل مديرية مباشرة ـ حيث أن صلة الوصل بينهما ، وهو الحكمدار ، لا وجود له . وقد جرى العمل بهذه الطريقة أكثر من غيرها أيام سعيد باشا ، كما عرفت أيام محمد علي وان لم تلغ الحكمدارية تماما (٣) .

وقد جربت مصر في حكم البلاد أيضا نظام المركزية الشديدة القائم على عدم وجود حكومة للسودان ، وعلى تبعية نواحي النشاط في البلاد لكل الوزارات المختصة في القاهرة شأنها في ذلك شأن مديريات ومحافظات مصر نفسها . وقد نفذت هذه المركزية الشديدة في الفترة الأولى للثورة المهدية على عهد عبد القادر باشا حلمي عندما كان في مجلس الوزراء وزير (للأقاليم السودانية وملحقاتها) ، وكذلك منذ منتصف يناير سنة ١٨٨٤ حتى سقوط الخرطوم حين ألحقت (ادارة عموم السودان وملحقاته) بنظارة الحربية .

أعلن ضم السودان رسميا الى مصر في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ عندما سلم الملك بادي آخر ملوك الفونج ملكه رسميا الى سلطان تركيا وحلف له يمين الولاء . وفي اليوم التالي لذلك أعلن اسماعيل بن محمد علي حكمدارا على البلاد (٤) . وكانت الحكمدارية تضم المناطق التي تمتد عليها سلطنة سنار (٥) ، أو بمعنى آخر المناطق التي كانت في حلف مع سنار ماعدا منطقة العطيش الواقعة شرقي القضارف ، بسبب الاعتقاد في ذلك الوقت بتبعيتها للحبشة (٦) .

وبينما كان اسماعيل في أعالي النيل الأزرق رتب محمد سعيد أفندي الكتخدا الأموال على الأهالي بمعرفة الأرباب دفع الله ولد

احمد والمعلم حنا الطويل ـ الذى طاف بحلال سنار وحلفاية وشندى وبربر واحصى بيوتها (٧) ـ ووضعوا عليهم من الضرائب ما لم يألفوه من قبل ، ففر بعضهم والتجا الى الحبشة ، وفكر البعض فى الثورة على الحكومة واشاعوا ان جيشـــها هزم وأن اسماعيل قتل فى الجبال » فارتجت البلاد وقامت العباد وظهر ما كان مخفيا فى القلوب من اهل العناد . وبعضهم تربص وانتظر حتى تبين الخبر وظهر ان افندينا سالم » (٨) · وحينما رجع اسماعيل الى سنار بدأ فى استمالة الأهالى ، وامر باستعمال الرفق فى تحصيل الضرائب ، فعادت المياه الى مجاريها وهدأت الفتنة ·

وبينما كان الدفتردار يجد فى فتح كردفان كانت التنظيمات الادارية لفتوح اسماعيل موضع النظر والتنفيذ » وطبقا لراى ابراهيم باشا عين قائمقام لكل جهة تضم نحو ثلاث عشرة أو خمس عشرة او سبع عشرة قرية ، وانضـــم الى كل قائمقام عشرة من الفرســـان العرب الضعاف وعشرة من المشاة التابعين لرؤساء المغاربة وثلاث رجال او خمسة من فرسان الشايقية (٩) ·

وبينما كان اسماعيل ومن معـه من المأمورين يديرون شئون منطقة سنار قسمت بقية البلاد ـ من غير كردفان ـ الى ثلاثة اقاليم هى دنقلة وبربر وحلفاية ، وعين لكل اقليم منها رئيس ، الا أن اقليم حلفاية كان تابعا لسنار « لأنه اقليم خراب وقريب من سنار ويمكن ادارته بقليل من الجند » (١٠) · وكان كل اقليم يتصل فى ادارته مباشرة بالقاهرة · أما كردفان فقد أعلن الدفتردار حاكما رسميا عليها فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢١ مع المسئولية الكاملة أمام القاهرة عن كل شئون ولايته ، وعين الحاج عنبر المكى شيخا للبلاد (١١) · ولم تكن هذه الولاية تضم منطقة تقلى الواقعة فى جنوبيها الشرقى ، لأن الجند فشلوا فى ضمها بعد ثلاث معارك خاسرة (١٢) ·

وهكذا كان نظام الحكم في العهد الأول للفتح مركزيا ، وهو النظام الذى كان متبعا فى مصر نفسها ، الأمر الذى يسمح للقاهرة بالاشراف على شئون الحكم والادارة في البلاد اشرافا تاما ٠

وبعد قتل اسماعيل ، وفى ٢٠ مارس ١٨٢٣ عين الدفتردار سر عسكرا للسودان وكردفان (١٣) ، وبذلك وحدت قيادة الجيش في البلاد كلها حتى يمكن تلافى المخاطر التى هددت البلاد بعد هذا الحادث ٠ وكان موقف الدفتردار دقيقا ، فكان عليه أن يقضى على الثورة التى قامت وقتئذ فى سنار الى جانب عنايته بادارة كردفان ٠ ومن أجل ذلك اتخذ من نقطة أم درمان معسكرا يوجه منه الجند الى كل مكان ، وتم تعاونه مع محوبك حاكم بربر « فكان عليه أن يعمل بعسكر سنار على ادارة الجهة الواقعة على طول بحر مقرات ، وعلى حاكم بربر أن يدير الجهة الواقعة شمالها » (١٤) ٠ ولقد كان من ترتيبات محمد على ليتفرغ الدفتردار للقضاء على الثورة فى أقصر وقت الاشارة عليه باقطاع كردفان لأحد السلاطين أو الملوك (١٥) ، ولكن الدفتردار لم يوافق على هذا الرأى ٠

وكان الدفتردار مستمرا بنجاح في القضاء على الثورة وتنظيم جهات سنار حينما وصلته الأوامر من القاهرة بالاستعداد للرجوع الى مصر هو وجنده ، لأن اثنين من (ميرالايات الجهادية) فى طريقهما الى البلاد ـ وهما عثمان بك المعين لسنار وخورشيد بك المعين لكردفان ٠ وقد غادر الدفتردار البلاد الى مصر فى محرم سنة ١٢٤٠، ووصل عثمان بك ومعه آلاى من الجهادية (١٦) الى منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق في الشهر التالى ٠ (صفر ١٢٤٠ هـ : ١٨٢٤ م) ٠

وقد اختار عثمان بك موضع الخرطوم مركزا لادارة اقليم سنار بدلا من ود مدنى التى كانت قاعدة للاقليم حتى وقت وصوله ٠

ولما كان خورشيد بك المعين لكردفان لم يصل فقد أصبح عثمان بك ـ علاوة على حكمه لاقليم سنار ـ قائدا للجند فى هذا الاقليم وفى كردفان ايضـــا ، كمـــا أصبحت كردفان مأمورية تتبع اقليم سنار (١٧) ٠

وقد اتسم عهد عثمان بك بالظلم والقسوة ، فقد اشتط الجند فى جمع الضرائب حتى هرب كثير من أهالى سنار الى التخوم البعيدة ٠ وعند مرضه اقام أحد الضـــباط الصـــغار وكيلا عنه ، فلم يمتثل الضباط الكبار لأوامره وصار كل منهم يعمل برأيه « فلذلك خربت الرعية لانها صارت بدون ريس يرعاها » (١٨) ٠

ومات عثمان بك قبل أن تتم اقامته فى البلاد ثمانية أشهر ، وخلفه فى حكم سنار محو بك حاكم بربر ٠ وقد جاء فى أمر تعيينه الصادر فى مايو سنة ١٨٢٥ أن يرسل أحد معاونيه « ميرالايا ومحافظا لكوردفان » (١٩) ٠ وبذلك أصبح لكردفان حاكم مسئول عن ادارتها وقيادة الجند بها ـ شأنها فى ذلك شأن دنقلة وبربر ، وأصبحت سلطة حكومة الخرطوم مقصورة على اقليم سنار فقط ٠

وقد حضر محوبك من بربر الى الخرطوم ومعه جميع عسكره ، واقام بها فى حين أقام العسكر فى حلة خوجلى ٠ وقد خفف كثيرا من الآثار السيئة التى علقت بفترة حكم الدفتردار وعثمان بك ٠ ومن وســـائله فى ذلك منع الجند من الاعتداء على الأهالى أثناء جمع الضرائب ، والاستئناس برأى العمد والأعيـــان بخصـــوص راحتهم وكيفية ارجاعهم الى أوطانهم (٢٠) ٠ وفى ربيع الآخر سنة ١٢٤١ هـ أعلن محوبك بارسال خورشيد أغا حاكما على سنار وانتظار وصوله ثم مغادرة البـــلاد الى مصر بعد ذلك ، ولكن محو مات قبل وصـــول خورشـــيد ٠

وقد صدر المرسوم بتعيين خورشيد أغا فى رجب ١٢٤١ هـ (يناير ١٨٢٦ م) (٢١) . على أنه بعد مضى أربعة شهور من ذلك اضيفت الى سلطته منطقة النيل في وسط السودان حتى أبو حمد تقريبا ، على أن يعين من قبله نظارا على أقسام هذه المنطقة مثل بربر وشندى وغيرهما (٢٢) . وان ما حمل محمد على على ضم تلك المنطقة الى خورشيد اغا هو توسط مركزها بين الفتوحات الجديدة ، مما يساعده على الوقوف على حوادث كل جهة فيها (٢٣) .

ولما كان قد أنيط الى حاكم كردفان قيادة الجند فى سنار وكردفان فى ذلك الوقت (٢٤) فيتضح من ذلك أن سلطة حكومة الخرطوم اصبحت تمتد على كل السودان ماعدا دنقلة وكردفان ، وان قيادة الجند فى البلاد كانت من حق حاكم كردفان حتى يتسنى لخورشيد التفرغ لحكم اقليمى سنار وبربر الواسعين .

ويبدو ان تجربة اللامركزية المحدودة هذه كانت لها فائدتها في ادارة البلاد ، فقد تمكن خورشيد من ارجاع الثقة فى الحكومة بين الأهالى وارجاع من فر منهم الى الحدود الحبشية مستعينا بذوى الكلمة من السودانيين أكثر من استعانته بالجند . وكان لذلك صداه عند محمد على ، وخاصة بعد أن طالع تقرير خورشيد القيم الذى سجله سنة ١٨٢٦ عن أحوال البلاد عند وصوله اليها بعد أن تداول تلك الأحوال مع مامورى المصالح (٢٥) ، فقد لمس محمد على أى رجل هذا الذى حوى تقريره كل تلك المشاكل التى تصادفها البلاد وكل تلك الحلول التى وضعت لها ، وان ينس لا ينسى ما وضع منها لمشـــكلة رواتب الجند المتأخرة التى انتهى تداول أهل موجلس خورشيد فيها الى أنه « بما أن مولانا قد سلم الينا جزيرة كسنار فكيف يكون لنا ان نسأل مصر نقودا ؟ . فعلينا أن نجتهد ما استطعنا فى كفاية أنفسنا بفضل ولى النعم » .

وهكذا انتهى أمر مناقشة خورشيد لمشاكل سنار كما ضمنها تقريره الى اقتناع محمد على بجدوى تعيين موظف كبير فى السودان يمكنه الانتقال بادارة البلاد من فوضى فترة الفتح الى فترة ما بعد الفتح بما يمكن أن تتميز به من استقرار واصلاحات ، والى اقتناعه بأن المخرج من ظروف البلاد السيئة فى اقامة حكم لا مركزى قائم على تعيين حاكم عام للبلاد يتمتع بكافة السلطات المدنية والعسكرية ويكون مسئولا أمامه عن كل شيء . ومحمد على اذ وصل فكره الى هذه الدرجة وجد ضالته فى خورشيد أحد أهل بيته وأحد المقربين اليـــه .

ومما ساعد محمد على على الوصول الى تلك النتيجة أنه كان يمر فى ذلك الوقت بتجربة قاسية مع السلطان ، وهى التجربة الخاصة بحروب الشام التى فتحت باب المسألة المصرية على مصراعيه، وكان من أثر تدخل الدول الأوربية أن عقد اتفاق كوتاهية (أبريل — مايو ١٨٣٣) الذى لم يقبله السلطان الا مرغما ولينقضه عندما تتهيأ الظروف لذلك . كما أن الضابط النمساوى فون كالوت (٢٦) الموظف بالحكومة كان قد رفع اليه تقريرا — بعد رحلته التى قام بها فى السودان والحبشة سنة ١٨٣١ — تضمن الدور الكبير الذى يمكن أن تلعبه الخرطوم فى مجال الادارة والتجارة وزيادة دخل الحكومة اذا أصبحت عاصمة البلاد جميعا لا عاصمة لاقليم سنار فحسب .

ومما سبق عرضه يتضح أن محمد على لم يتردد بعد ابرام اتفاق كوتاهيه فى أن يرمى من على كاهله حمل السودان الثقيل وينقله الى خورشـــيد ليقوم بحمـــله عنه بعد اعلانه فى مارس سنة ١٨٣٤ « مديرا للأقاليم السودانية برتبة أميراللوا مع لقب باك »(٢٧)، حتى يتسنى له أن يتفرغ للمشاكل التى لا شك أنها آتية بعد ابرام السلطان لمعاهدة هنكار اسكله سى مع روسيا (فى ٨ يوليو سنة ١٨٣٣) غداة اتفاق كوتاهيه مع ما فيها من مهانة لتركيا .

ويبدو أن محمد على قد اقتنص فرصة زيارة مدير الأقاليم السودانية للقاهرة سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م ـ ١٨٣٦ م) ، للبحث فى مشاكل السودان ، وأراد أن ينفخ فى صورته فاتى له من السلطان برتبة الميرميران الجليلة ولقبه بحكمدار الأقاليم السودانية مع منحه رتبة باشا (٢٨) ، ليرتفع بشان الأقاليم السودانية الواسعة بين أقاليم الامبراطورية المصرية ، وليحمل حاكمها نصيبه كاملا فى حكم اقليمه ، حتى يتفرغ هو للقضاء على الثورات التى هبت فى كل مكان بالشام منذ سنة ١٨٣٤ .

ولقد كان خورشيد ـ فى الواقع ـ أهلا لما أنعم عليه به . فاذا كان نشاطه قبل سنة ١٨٣٤ ـ حينما أعلن مديرا للأقاليم السودانية ـ محصورا فى اعادة ثقة الأهالى فى الحكومة ، وفى غزوات للدينكا والشلوك للحصول على العبيد للجيش ـ فان نشاطه بعد تلك السنة قد اتسع وزادت دائرة تحركاته ، فنجده ينتقل للتفتيش على مصالح البلاد من الخرطوم الى كردفان الى شندى الى دنقلة ، ويهتم أكثر ما يهتم بمشكلة دار العطيش محل اقامة الهاربين من عائلة نمر ومن الضرائب،وحيث كان الخطر قائما ودائما من جهة الأحباش الذين اتضح أن بينهم وأولئك شبه اتفاق على ضرب قوات الحكومة والتقدم بعد ذلك الى جزيرة سنار لارجاعها الى حكامها السابقين . وقد أرسل محمد على أحمد باشا أبو ودان بنجدات من مصر لمساعدة خورشيد فى دفع هذا الخطر ، ولكن الأحباش لم يقوموا بالهجوم المنتظر ورجع خورشيد الى الخرطوم .

وكان رائد خورشيد فى أعماله مشورة معاونيه من الترك ، وعقد جمعيات المشايخ حيثما يحل للنظر فى شئون البلاد . ولهذا كان عهده (يناير ١٨٢٦ ـ أبريل ١٨٣٨) عهد استقرار الادارة والأخذ بأسباب العمران القائم قبل كل شيء على توجيهات للحكم صادرة من عاصمة واحدة للبلاد ، وهى الخرطوم .

وفي أواخر سنة ١٨٣٧ نزل خورشيد الى مصر للعلاج ، فحل محله احمد باشا أبو ودان (المأمور على الأقاليم السودانية) حتى يرجع ثانية · ولكن في أبريل سنة ١٨٣٨ ثبت أحمد حكمدارا على البلاد وتم نقل خورشيد باشا ·

وكان عهد أبي ودان استمرارا لعهد خورشيد · فقد شرع في تدبير الحكومة برأيه السديد مستعينا بالمشايخ الوطنيين ، وأبطل ما كان من تعدى الجند على الفلاحين ، ويرجع اليه الفضل في تقسيم البلاد الى مديريات وأقسام وأخطاط وضم العرب الرحل الضاربين في وديان كل مديرية اليها ، فانتظمت ادارة البـــلاد نتيجة لذلك وزادت العمارة وعم الرخاء ، « وصارت ايامه أحسن من أيام سلفه ، وان كانت أيام سلفه أيضــا حســنة في نفسها وأعظم مما قبلها بكثير » (٢٩) ·

واهم حادث تميزت به مدة حكمدارية أحمد باشا أبو ودان (ابريل ١٨٣٨ ـ اكتوبر ١٨٤٣) هو زيارة محمد علي للسودان · ويرى الدكتور شكرى (٣٠) في الظروف التي أدت الى هذه الزيارة أن الوقت قد حان بعد مضى خمسة عشر عاما تقريبا من الفتح أن يزور الباشا اقليما يعتبره من الأقاليم المصرية للتفتيش على شئونه · وفضلا عن ذلك فان التفكير فيما يجب أن يكون عليه الوضع في هذا الاقليم عند الفصل النهائي في المسألة المصرية كان على ما يبدو ومن أسباب هذه الرحلة · وان ما دفع محمد علي الى هذا التفكير هو تلك الظروف التي أحاطت بالعلاقات بينه وبين السلطان سنة ١٨٣٨ ، وما أصابها من توتر نتج عنه تعويل الباشا على اعلان استقلاله نهائيا عن السلطان ، وانه كان يستمد حقوق السيادة على السودان من تبعية باشــويته مباشرة للســلطان العثماني ، ولذلك كان من الطبيعي أن يمهد الوسائل لدعم هذه الحقوق في نطاق جديد يستند الى حق الفتح وحده لا التبعية للسلطان العثماني ·

ويغلب على الظن أن ذهب السودان ـ بما كان له من اهمية عند محمد على فى ذلك الوقت أكثر من أى وقت آخر ـ كان عاملا مهما فى قيامه بالرحلة. فقد كانت البعوث ترسل الى موطن الذهب فى أعالى النيل الأزرق مذ طرقتها حملة اسماعيل . وفى عهد خورشيد خرجت من الخرطوم اليها حملة كبيرة ضمت ألفا من جنود الجهادية ومهندسى المعادن روسيجر وبورياني . وكان محمد على يعول الكثير على نتائج أبحاثهما ، فلما أرسلا بها ـ كل منهما على حدة ـ اليه كان معدل الذهب المتحصل من كمية واحدة من الرمال عند روسيجر يزيد عل معدله عند بورياني عشرين مرة ، ولأجل الوقوف على الحقيقة صمم محمد على السفر الى السودان لتصير التجربة أمامه (٣١) . وقد أكد محمد على بنفسه هذا الغرض من الرحلة عندما كتب من الخرطوم الى من بمصر « أننا أقلعنا عن الاقامة فى الخرطوم ذاهبين الى فازوغلى المقصد الأصلى من اتياننا الى السودان » (٣٢) .

وقد وقف محمد على طويلا ، قبل أن يرجع الى مصر ، ليراجع ويستقصى ويقيم أخطاء ادارته فى البلاد وسنده فى ذلك المراجع المحلية من المشايخ والأعيان ، وكان من نتائج ذلك استدعاء عدد كبير من كبار الموظفين أمام لجنة تحقيق وارجاع البعض الى مصر (٣٣) . كما كان من نتائج زيارته عموما تثبيت أركان الحكمدارية وتثبيت مركز الخرطوم كعاصمة للبلاد .

ومن أعمال أحمد باشا أبو ودان ضم بلاد التاكه الى الحكمدارية وجعلها مديرية وتأسيس كسلا عاصمتها . وبعد رجوع الباشا الى الخرطوم راجت الاشاعات حول نيته فى فصل السودان عن مصر ووضعه تحت سلطان تركيا مباشرة على أن يكون هو واليا عليه من قبله ، وأنه على استعداد لمهاجمة محمد على من الجنوب للوصول الى هذا الغرض (٣٤) . وتروى الروايات الوطنية أن أحد زعماء السودان

قدم للباشا أمرا كان السلطان سليم قد أصدره حوالى سنة ١٥٢٠ بأن يكون السودان ولاية تابعة له رأسا . فكتب الباشا الى الصدر الاعظم في الأستانة يسأله عن حقيقة هذا الأمر (٣٥) .

وعندما وصلت هذه الاشاعات الى محمد علي أرسل الى الباشا بالرجوع الى مصر ، ولكنه تباطأ ، مما أقلق محمد علي وأكثر من المكاتبات الى مديري جرجا ودنقلة وبربر يسألهم فيها عن الباشا وتحركاته .

وطبيعي أن يخاف محمد علي من قيام أحد رجاله الأقوياء في بلاد بعيدة كالسودان ثم تنقطع عنه أخباره . ولقد كان محمد علي حساسا من هذه الناحية ، ولا يبعد أن يكون قد صمد الى ذهنه في ذلك الوقت أمر الحكمدار السابق خورشيد باشا . فان هذا الحكمدار كان قد مرض بالناصور في الخرطوم ، وكان أول علم محمد علي بمرضه في ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ . ثم بدأت مكاتبات طويلة بينهما حول العلاج في مصر . فبينما نجد محمد علي يأمره بالحضور اليها للعلاج تو علمه بمرضه ، بل يعين في ١١ شوال سنة ١٢٢٥ من سيحل محله في حكومة الخرطوم اذا بخورشيد يضرب صفحا عن الذهاب الى مصر ـ قائلا مرة بأنه عمل العملية في السودان ، ومرة اخرى بأنه مشغول باعمال كثيرة ، ومرة ثالثة بأشياء أخرى ... حتى فاضت الكأس بمحمد علي ، وكتب الى أحمد باشا أبو ودان ـ الحكمدار بالنيابة ـ في ٥ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ « بوجوب ابلاغ خورشيد انني أطلب اليه بصفة قطعية أن يحضر هنا عند وصول أمري ولو لم يكن مريضا ، وأن تبذل همتك لاقناعه بضرورة مغادرة البلاد الى مصر » (٣٦) . وهكذا لم يغادر خورشيد الخرطوم الا في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٤ ، أي بعد سنتين من بدء مكاتبات استدعائه الى مصر .

ويتضح من ذلك الى أى حد يمكن أن يبلغ القلق بمحمد على نتيجة تباطؤ أحمد باشا في الرجوع الى مصر · وهذا ما حمله على ارسال قوة بقيادة السنجق (داموس أغا) للقبض عليه والعودة به مسجونا الى القاهرة · وما كاد الباشا يسمع ذلك حتى شرب سما ومات لساعته (٣٧) ·

ويغلب على الظن أن الاشاعة التى طارت عن أحمد باشا لها نصيب كبير من الصحة ، فانه كان من القوة وبعد الشقة عن مصر مما يصعب معه اخضاعه اذا حاول ذلك الأمر · هذا علاوة على أنه كان محبوبا للغاية من كل الجند السود أخوته في السلاح منذ حروب الحجاز والموره ، لأنه كان يعمل دائما على صرف مرتباتهم بانتظام ـ وهو الأمر الذى لم يعرفوه عند غيره من الحكمدارين (٣٨) · ونضيف الى ذلك أنه لما كان قد بدأ حياته مملوكا فى بيت محمد على ، وتنقل في سلك الوظائف حتى وصل الى منصب وزير الحربية فانه لا يبعد أن ينقلب على سيده اذا كان لايزال محتفظا بعقلية المماليك ·

ومن الشواهد التى تعزز اتهام الباشا أن فرديناند فرن (٣٩) ـ وهو أحد الأجانب الذين صحبوه فى حملته على التاكه ـ يشير الى أن الباشا كان واسع الأطماع،وأنه أسر اليه بانه يزمع الاستقلال بالسودان ثم ضم الحبشة ودارفور اليه على الترتيب ، وأنه سوف يكون في موقف يساعده على فرض شروط الصلح على الأحباش وكذلك الانجليز اذا خفوا لمساعدتهم · ومما قاله الباشا أيضا لفرن انه لا يريد رؤية مصر ثانية مذ أصبح السودان وطنا له ، وهذا القول يصدق لدرجة كبيرة فقد كانت له مزارع واسعة فى الكاملين تضم خمسين ساقية ومصانع كبيرة للصابون والسكر والخمر والنيلة (٤٠) ·

وأخيرا مما يعزز أيضا اتهام الباشا ما ترتب على تدبيراته من توقف حركة النقل عموما بين مصر والسودان·وكان من بين ما تعذر

نقله الى السودان نتيجة لذلك مهمات الحكومة ومنها الجبخانة الخاصة بأسلحة الجند ، فهاهو ذا أحمد المنكلى باشا خليفته يشكو من « أنه عندما وصل الى كروسكو وجد حمولة نحو ألف جمل من الجبخانة ملقاة على الأرض وقد أخذ العطب يسرى اليها ، وقد فهم أن ذلك يرجع الى قلة ظهور الجمال حيث كانت أجرة الجمل تسعين قرشا فجاء أحمد باشا الحكمدار السابق وحمل حسن خليفة متعهد العتمور على جعل الاجرة ستين قرشا فقط » (٤١) • فهل يمكن أن يكون ما قام به الباشا ـ مع ما اتصف به من قوة وحزم وروية ـ أمرا متعمدا ومدبرا من جهته لقطع صلته بمصر؟ • قد يكون الأمر كذلك • وقد يقال ان فى هذا الاجراء مصلحة تجارية للحكمدار الذى كان يحتكر متاجر البلاد ، والذى كان يضمن بهذا النجاح فى منافسة تجار الخرطوم فى حركة نقل متاجره الخاصة الى مصر (٤٢) • ولكن هل يمكن أن نقبل ألا يراعى الحكمدار مصلحة حكومته لدرجة يعجز معها عن نقل جبخانة جنده الى الخرطوم ؟ • لا أظن أن ذلك مقبول •

وعند وفاة أحمد باشا فى سبتمبر سنة ١٨٤٣ ، وتفكير محمد على فى تعيين من يخلفه كان عليه أن يحتاط حتى يفقد من تحدثه نفسه بالقيام بمثل ما قام به أحمد باشا الفرصة ، فالغى منصب الحكمدارية ذا السلطات الواسعة ووزع السلطة فى البلاد بين المديرين وجعلهم مسئولين أمامه مباشرة • وقد انقسمت البلاد طبقا لهذا النظام الى ست مديريات كانت مديرية (الجهات العليا) بعاصمتها الخرطوم احداها (٤٣) ، وهى تمتد على النيل من شندى حتى ودمدنى ، كما تضم منطقة الجزيرة حتى ودمدنى والأقسام الشرقية للنيل الأزرق ومنطقة النيل الأبيض • ولعل محمد على أراد أن يعوض الضعف الذى أصاب الادارة بالقضاء على منصب الحكمدار فاختار المديرين من كبار الموظفين من رتبة اللواء (٤٤) •

اما بديل الحكمدار فى هذا النظام المركزى فقد عرف باسم (المنظم) . ويغلب على الظن أن محمد على لم يكن فى نيته أول الأمر تعيين رئيس مقيم فى الخرطوم ، فقد جاء فى احدى مكاتباته الى احمد باشا المنكلى (المنظم) « فقد رأينا أن نوفدكم الى هناك لتنظيم الوضع الجديد وتعودوا الينا بأسرة الباشا المتوفى ... فاذا ما بلغتم أمرنا هذا سارعوا الى الحضور الينا » (٤٥) . ولكن يبدو أن محمد على - مع ذلك - كان يرى أن حال البلاد لا يصلح دون قيام رئيس مقيم بها ، وياحبذا لو انتفع به فى استخراج الذهب منهـا ، ولذلك نجده يكتب الى المنكلى بعد أسبوع واحـد محددا واجباته بتنظيم ادارة البلاد طبقا للوضع الجديد ، وتوزيع الجند وعمال الحـكومة الموجـودين فى الخرطوم بالعدل والتســاوى على المديريات ، وملاحظة تعــاون المديريات فى سد النقص فى المال والجند ، فاذا أتم ذلك انتقل ومعه عدد كاف من الجند الى أعالى النيل الأزرق وشرع فى التنقيب عن الذهب واستقر هنــاك فى انتظار الأوامر (٤٦) .

ولكن مهمة المنظم لم تكن سهلة ، فان المديرين لم يعترفوا بأية رياسة له عليهم . وبلغ الأمر بمدير الخرطوم أن قطع عن حيواناته العليق المخصص لها من أساس استحقاقاته ، ورفض تنفيذ أوامره عندما طلب منه المرة بعد المرة ارسال بعض الأدوات اللازمة لعمال المناجم ، بل وأبى الذهاب اليه عندما استدعاه حسبما تقضى به شئون العمل (٤٧) . وأكثر من ذلك أن الخلاف بينهما بلغ درجة رفع معها الى لجنة الحقانية للتحقيق فيه (٤٨) . وقد ترك ذلك صداه القوى فى نفس محمد على الذى فقد أعصابه ، فنجده يكتب الى المدير « ... فياأيها الخنزير ، ان عملك هذا غباوة وقلة أدب ، ان أحمد باشا لا يطلب منك أن تعمل من أجله أى شىء ، وانما نحن أصحاب المصلحة فى هذا الأمر وسواه . فأرسل الأدوات فى الحال

اذا لم تكن قد أرسلتها ، والا فتأكد أننا سنخنقك هناك ، واياك ثم اياك ومعاندة الباشا فلابد من اطاعة أوامره جميعا » (٤٩) ٠

وقد لخص أحمد كاتب الشونه الوضع الادارى الجديد فى البلاد بقوله « ومن حين وفاة أحمد باشا (أبوودان) تضعضع أمر الحكمدارية واختل نظامها بسبب تفريق المديريات ٠٠٠ ، ولم ينتظم لأحمد باشا (المنكلى) حال ولا استقامت له أمور لأن كل مدير استقل بأمر مديريته ولم يذعن الى المنظم كل الاذعان » (٥٠) ٠

ومهما يكن أمر اللقب الذى لقب به أحمد باشا المنكلى فانه كان عليه أن يقوم بالدور الذى يقوم به كل حكمدار ٠ فاهتم بشئون الحكم والادارة فى البلاد ، ومن مظاهر ذلك توصيته بضم مديرية سنار الى مديرية فازوغلى ، وتقسيم مديرية دنقلة بسبب اتساعها الى مديريتين (دنقلة وبربر) ، وقيامه بتثبيت دعائم الحكم فى مديرية التاكه المنضمة حديثا الى البلاد ، وعمله على موازنة الدخل والمنصرف فى كل مديرية (٥١) ٠

وهكذا لمس محمد على أن اصلاح البلاد وتثبيت أركان حكومة الخرطوم لا يتم الا بارجـــاع الحكمدارية ، ولكن بشرط الا يكون الحكمدار فى قوة أحمد باشا أبو ودان ٠ ولذلك سحب محمد على المنكلى باشا وعين بدله خالد باشـا بلقب الحكمدار فى ديســمبر سنة ١٨٤٥ ٠ ويظهر أن محمد على لم تبرح ذاكرته قصة عدم انقياد المديرين (للمنظم) فنجده يشدد عليهم بوجوب الانقيـــاد لأوامر الحكمدار ويهددهم باحالة المخالف لهذا الأمر الى الحقانية (٥٢) ٠

وهكذا رجع الى الخرطوم رونقها عند وصول الحكمدار اليها فى يناير سنة ١٨٤٦ ، ورجوع الكثير من الجند والموظفين الذين كانوا قد انسحبوا الى المديريات عند اعلان المركزية فى الحكم ٠ وعاد

الحكمدار الى جولاته التفتيشية فى جهات البلاد ، مرة بالتاكه ، ومرة بجبال فازوغلي ومعدن قيسان ، ومرة بجهات كردفان ومعدن شيبون (٥٣) ٠

واستمرت حكمدارية خالد حتى ولى عباس باشا عرش مصر سنة ١٨٤٨ ٠ واذا كانت بعض المشاكل قد واجهته تو توليته ـ وعلى رأسها الأزمة الخطيرة التى أثارها الباب العالى بعد وفاة محمد على عندما أراد تطبيق (التنظيمات الخيرية العثمانية) (٥٤) تطبيقا كاملا على مصر ـ فقد رأى أن تقوية مسند الحكمدارية وتثبيت أركان حكومة الخرطوم مما يسهم فى حلها ، اذ كانت البلاد عند مجيئه تعج بمظاهر الفوضى والاضطراب ٠ ومن وسائله فى ذلك اشراك العنصر الوطنى فى تدبير شئون الادارة ، واختيار الأكفاء من الموظفين ـ ما أمكنه الاختيار (٥٥) ـ لمناصب الادارة ، وسحب خالد باشا الذى كان قد انتهز فرصة شيخوخة محمد على فتهاون فى ادارة البلاد واحتكر كثيرا من متاجرها لنفسه وعين محله عبد اللطيف باشا فى أكتوبر سنة ١٨٤٩ ٠

ومن وسائل عبد اللطيف باشا لتقوية حكومة الخرطوم اصدار أمره الى الموظفين بعدم الاشتغال بأعمال غير أعمالهم ، « وبواسطة ذلك صار كل كاين من كان من الخدم الموجودة الآن عارفين صواب الأشياء من خطاها ليس كالمدد السابقة » (٥٦) ٠ كما أنه طلب تعيين وكيل للحكمدارية ، وفصل مديرية دنقلة وبربر الى مديريتين كما كان عليه الحال قبل عهد خالد باشا لتسهيل ادارتها ٠

ولكن يعيب عهد عبد اللطيف أنه احتكر تجارة النيل الأبيض لنفسه ، كما احتكر تجارة الصمغ لحساب الحكومة مع أن عباسا كان قد أمر بالغاء كافة الاحتكارات ٠ وقد أدى ذلك الى شكوى القناصل الأجانب الى عباس من تلك الأمور ، كما تضمنت شكاواهم

تعدى عبد اللطيف على الأوربيين والرهبان الكاثوليك فى الخرطوم ، وظلمه وقسوته - اذ قتل احدى نساء بيته رميا بالرصاص ثم قذف بها فى النيل • وكان من بين ما أنهى به قنصل النمسا العام شكواه الى عباس قوله « ···· واذا رأيتم أن تتفضلوا باعادة نظر التفاتكم لما نعرضه فاننا نرى أن الرجل الذى لا يمتثل لأمر سيده ، ويدوس المروءة والانسانية تحت قدميه مثل لطيف باشا لا يليق أن يبقى قابضا على زمام الحكم فى هذه البلاد السعيدة المدة الطويلة ، والخير للحكومة أن تختار بدلا منه رجلا مجربا خبيرا معلوم الأطوار متمسكا بالصدق والأمانة منقادا للأوامر السنية ، وهو الأولى والأحق والأليق للحكومة أن توليه الاعتبار من غير شك ولا شبهة • وهذا ما لزم اشعاركم به » (٥٧) •

وقد انتهى الأمر برفع تلك الشـــكاوى الى مجلس الأحكام لنظرها (٥٨) ، وسحب عبد اللطيف باشا وتعيين جركس رستم باشا حكمدارا فى ديسمبر سنة ١٨٥١ • ولكن يبدو أن عباسا كان يخاف استبداد رستم بالأمر فى البلاد فأمر بانشاء مجلس للدعاوى بالخرطوم فى نفس الشهر الذى عين فيه • وهذا المجلس كان بمثابة محكمة عليـــا تساعد الحكمدار فى ادارة شئون البلاد ، وتراقب أعماله فى نفس الوقت • وهو يتكون من ثلاثة أعضاء ورئيس وعدد من العلماء للافتاء • وقد عمل عباس على مده بالقوانين واللوائح المعمول بها فى مصر ، كما ضمن اللائحة المنظمة لأعماله ما يضمن حسن العمل داخله والعدل فى أحكامه • وكان على رئيس المجلس أن يقوم مقام الحكمدار عند تغيبه خارج الخرطوم (٥٩) •

وعلاوة على ذلك أوفد عبـــاس - جريا وراء تقوية حكومة الخرطوم - لجنة الى الســـودان للنظر فى أحواله برياسة ميرى بك (٦٠) • ولكن الصعاب التى تواجه هذه الحكومة كانت فى الواقع

اكبر من مجلس الدعاوى وهذه اللجنة . وقد بسـطها الحكمدار اسماعيل ابو جبل باشا (يونيو ١٨٥٢ - أبريل ١٨٥٣) الذى خلف رستم باشا بعد وفاته في تقريره القيم الذى أرسل به الى عباس (٦١) . وجاء في هذا التقرير قيام ثورة في جبـال تقلى بكردفان ، واغارة الدينكا على مديرية سنار ، وحدوث صدام بين قبيلتي الشكرية والضبانية بجوار الحدود الحبشية ، ونشاط نمر واهله المقيمين على هذه الحدود في جمع الهاربين حولهم - وخاصة من مديرية بربر وطن نمر الأصلي - للزحف بمساعدة الأحباش على جهات التاكه ، وعجز حكومة الخرطوم عن فرض سيطرتها الكاملة على منطقتي جبال الفونج بالجزيرة وجبال قيسـان بأعالى النيل الأزرق ، وفشلها في وقف سيل الهاربين من مديرية التاكه الى منطقة مصوع وسواكن التي اصبحت ملجأ لهم (٦٢) .

ولقد كان من راى الحكمدار أن في تقوية حكومة الخرطوم المخرج من كل الصعاب،وأن هذا الأمر لا يكون الا بمد الحكمدارية بمزيد من الجند « حيث أن ادارة الأمور على هذه الحالة عاقبتها فى الغالب حدوث أمور شائنة لا تتفق مع شرف الحكومة وصيتها ، منها أننا علمنا أن النواحي الداخلة في الحدود بجهة راشد والقضارف المجاور للحبشة تدفع للكاسه خراجا سنويا ... ، ومنها أن جريان الأحوال يدل على أن الايراد سيكون مصيره الانحطاط اذا لم نضمن تقوية الحكومة التقوية التامة » . وأخيرا ينهى الحكمدار تقريره بتحذير الخديو انه فى حالة ما اذا لم ير رأيه فلا مناص من ادارة الشئون على المنوال الذى كان في عهدى الحكمدارين السابق والأسبق حسبما تسير الأحوال والظروف ، « ولذلك قيدت عريضتى هذه فى سجل خاص فلم أطلع عليها أحدا ولا سجلتها فى سجلات الحكمدارية . فاذا شـملت الأمور التى أشرت اليها موافقتكم السـامية حصل المطلوب . وان لم تلق الموافقة فانى مضطر الى كتم ارادتكم السامية التى ستصدر سدا لباب اللغط الذى سيحدث فى هذه الديار » .

الى هذا الدرك وصل الحال بحكومة الخرطوم · ومع ذلك فان انشغال عباس بدفع الخطر عن مسند الولاية لم يترك له متسعا من الوقت والمال لاجابة الحكمدار الى مطالبه ·

ومما زاد الطين بلة أن الأمل المرجو من مجلس الدعاوى أصبح سرابا ولما يمض على حياته عام ونصف العام ، فقد ظهر فى كتابات الحكمدار الى القاهرة أن رئيس المجلس لم يرد أن يكون للحكمدار عليه أى اشراف حيث « أنه وحده الذى عينه مجلس الأحكام والمالية ، وان الحكمدارية منسوبة الى جهة أخرى » (٦٣) · أما رأى الحكمدار فى رئيس المجلس « فانه اذا أرسل من هو أهل وخبير فاننا لا نتحد معه فحسب بل نمتثل له ونخضع ، أما الاتحاد مع رجل غير خبير بنفع الحكومة ولا ضررها كالبك المومأ اليه يحصر فكره فى اثارة القيل والقال بدون مبرر فلا ينتج منه فائدة سوى احداث المضار » ·

وهكذا يتضح أنه بينما كان عباس يعمل على تقوية حكومة الخرطوم ــ الأمر الذى من اجله أنشأ مجلس الدعاوى أيام رستم باشا ومجلس دعاوى التجار أيام اسماعيل أبو جبل باشا (٦٤) ــ كان ازدواج السلطة فى الخرطوم بين الحكمدارية ومجلس الدعاوى مما زاد من صعوبات حكومتها ·

قد استدعى الحكمدار اسماعيل أبو جبل الى مصر لقيادة جيشها فى حرب القرم قبل أن تكمل حكمداريته سنة واحدة · وعين بعده سليم باشا صائب فى أبريل سنة ١٨٥٣ ، ولكن هذا الباشا بقى بالخرطوم متظاهرا بالمرض ولم يغادرها الى أية جهة بالحكمدارية حتى تم فصله فى مارس سنة ١٨٥٤ ، ولكنه قبل أن يرجع الى مصر اشار الى الوالى بصعوبات جديدة على راسها خلو بعض المديريات من المديرين وعدم امكان ادارتها (بالوكالة) (٦٥) · وخلفه على باشا سرى ارناؤط الذى لم يغادر الخرطوم الا فى زيارة قصيرة لسنار حتى يوم فصله ·

وفى عهد هذا الحكمدار الذى لم يطل أكثر من عشرة شهور (مارس ١٨٥٤ ـ ديسمبر ١٨٥٤) كانت جميع المخاطر والصعاب التى لم تصبها الحلول طوال عهد عباس قد تجمعت وأصبحت تهدد حكومة الخرطوم • وكان الحكمدار يرى ألا مخرج من هذه الحالة الا بفصل مديرية سنار وفازوغلى الى مديريتين ، وامداده بالمزيد من المديرين وضباط الجيش والموظفين وثلاثة معاونين على الأقل ، حتى يمكن البت فى الدعاوى والقضـــايا والتحقيقـــات التى بديوان الحكمدارية والمديريات (٦٦) •

وقد ظهر فى هذا الوقت خطر من صنف جديد ، فان ثلاثة من كبار الموظفين فى حكومة الخرطوم أبوا الاستمرار فى الخدمة ، ورفعوا الشكاوى الى الباب العالى مستنجدين به فى الرجوع الى مصر ، وقد أمر برجوعهم ، ولكن عباس باشا اعترض على ذلك بأنه ليس من المصلحة فى شىء أن تهمل ادارة السودان وتضيع الجهود والأموال التى بذلت فى ترقيته منذ الفتح حتى عهده ، فان هذا لو تم « لما يشين سمعة الجناب العالى الخديو ويحط من قدر ادارته ، وهو مما لا يجوز بحال قبوله أو السكوت عليه » (٦٧) • ولما لم يستجب عباس باشا الى طلب السلطان هرب أحد الموظفين ـ وهو محمد حسيب بك مدير بربر ـ الى سواكن • وبعد هروبه ضبط الحكمدار عدة مكاتبات صـــادرة منه الى رئيس مجلس الدعاوى ونائب القنصل النمساوى وأحد كبار التجار بالخرطوم • وكان رأى الحكمدار بعد اطلاعه على هذه المكاتبات أنه مادام هناك اتفاق بين المدير الهارب وقائمقام سواكن وبين رئيس مجلس الدعاوى والتـــاجر الكبير فان الأولين يمكنهما عن طريق الأخيرين بث بذور الشقاق والنفاق بين الموظفين والأهالى والعمل على فرارهم الى سواكن (٦٨) •

وعند وفاة عباس وتولية سعيد باشـــا العرش كان تبادل الاتهامات بين الحكمدار ورئيس المجلس مستمرا ، فقد اتهم رئيس

المجلس ومعه الأعضاء الحكمدار بتعاطى الرشــوة • والعجيب أن الحكمدار اعترف بذلك ، بل أضاف أن كل ما يأخذه من أى شخص يثبته فى دفتره ويعرضه على عباس باشا بعد بيان سبب أخذه (٦٩) • أما رأى هيئة المجلس فى ذلك ، وهوما أرسلوا به الى سعيد باشا ، فهو أنه من اللازم فى عهده الجديد أن يبدل الحكمدار من أطواره وسلوكه ويفتح صفحة جديدة فى ادارة البلاد (٧٠) • وقد انتهى الأمر بسحب الحكمدار وتعيين على باشا جركس محله فى ديسمبر سنة ١٨٥٤ •

وقد بدأ سعيد باشا عهده بتأمين الشيخ عمر ولد نمر ، اللاجىء الى الحدود الحبشية ، والسماح له ولأهله واتباعه بالرجوع لدياره « ليتم بذلك مراده ، وليطرق مسامعنا (مسامع سعيد) بعد هذا ثمار صداقته واجتهاده » (٧١) • كما امر بابطال العمل فى القلعة الكائنة بمديرية فازوغلى ، وكان العمل فيها تكأة لارسال من يراد ابعادهم الى تلك الجهة على عهد عباس (٧٢) • ولكن كان فى البلاد من المشــاكل ما كان فى حاجة الى حلول جذرية ، فقد كان على سعيد ــ مثلا ــ أن يجد وسيلة للقضــاء على تجارة الرقيق وحل مشكلة الضرائب ، اذ لم يتغير النظام الضرائبى فى البلاد منذ وضع فى الأيام الأولى للفتح فى الوقت الذى تغيرت فيه مظاهر النشاط فى الجهات المختلفة بالبلاد •

ولم تكن مشكلة السودان فى الواقع الا احدى مشاكل سعيد ، فقد كان يعــانى من امر توسيع الحقوق والامتيــازات التى كفلتها الفرمانات لمصر ، ومن الرغبة فى تعديل الوراثة حتى تصبح صلبية فى أسرة محمد على ، لمنع أى تدخل من جانب الترك فى شئون البلاد ثم الاستقلال بمصر اذا سنحت الفرصة •

ولهذه الظروف جميعا عزل سعيد باشا الحكمدار على جركس وأحل محله أخاه الأمير حليم باشا فى نوفمبر ١٨٥٥ ، على أن يكون

الحكمدار السابق وكيلا له ۰ وكان هدفه من ذلك أن يقوم الأمير بحل المشاكل المتخلفة من أيام محمد علي وعباس ، وتقوية حكومة الخرطوم وتوطيد سلطانها على البلاد ، واتخاذ الأهبة لاستقباله اذا دعته ظروف نضاله مع السلطان الى الانتقال بحكومته الى الخرطوم ۰ وكان سعيد يرى أن هناك من الأسباب ما يمكن أن يؤدى الى ذلك ، كما كان الباب العالى نفسه يرى فى ارسال حليم الى الخرطوم خطوة يمهد بها سعيد لسفره الى السودان واعلان استقلاله وانفصاله نهائيا عن تركيا (٧٣) ۰

وكان سعيد يؤمل الكثير فى أخيه ، وخاصة أنه هو الذى رجاه فى نيل هذه الوظيفة حيث أنه « خالى عمل وليس له فى تضييع وقته الا الصيد ولزوم البيت ۰۰۰ ، وأنه أحق بهذه الخدمة من عدة وجوه من غيره من سائر عبيد الدولة » (٧٤) ۰

ولم تطل اقامة حليم باشا بالخرطوم أكثر من أربعة شهور فحمى فيها شئون البلاد وأصلح المعوج منها بقدر الامكان ، وضم بعض المديريات الى بعضها لتقليل عددها حتى جعلها أربعا فقط (٧٥) ۰ ثم غادر الخرطوم الى مصر بسبب تسلط الوباء عليها وترك محله لعلى باشا جركس الحكمدار السابق ۰ وقد أدى رجوعه دون أن ينجز ما كان قد وضع الأمل فيه لانجازه الى تفكير سعيد باشا فى الذهاب بنفسه الى السودان ليضع الحلول لما يرى من مساوىء ، وخاصة أن دعاوى الأهالى قد زادت بدرجة كبيرة بعد انسحاب حليم باشا ، وكلها تشكو من أنه « لم يزل غير حاصل كمال التحرى فيها ممن هم مكلفون بذلك ، لعدم التجرد والتخلص من الانقياد لهوى النفس وميلها الى رعاية الخاطر » (٧٦) ۰ وهكذا تهيأت الظروف لزيارة سعيد للسودان ، لكى « يضع النظم التى تكفل عمران تلك البلاد والحوالى وتكون بها الرفاهية للرعايا والأهالى » (٧٧) ۰

وقد جاء في مجرى حديث سعيد باشا عند اجتماعه بقناصل الدول في اليوم السابق لسفره عزمه على ارجاع البلاد الى زعمائها الوطنيين اذا اتضح استحالة اصلاح أحوالها · وكان السبب في ذيوع رواية الاخلاء هذه هو فرديناند دى لسبس صديق سعيد الذى رافقه فى رحلته ، فقد قال ان سعيدا أسر بها اليه أثناء الرحلة ، ثم نقلها عن دى لسبس كثيرون (٧٨) ·

وفي الواقع ان هذه الرواية ليس لها نصيب من الصحة · وما قول سعيد فى اجتماع القناصل الا خاطر عابر ، فانه ما كان يدور بخلده أن يخلى السودان أو أن السودانيين يفيدون شيئا من ذلك ، وما كان يتخيل قط أنه عاجز عن الاصلاح · وعلاوة على ذلك لم يشر الى تلك الرواية بالمرة أحد من مرافقى سعيد فى الرحلة من القناصل وغيرهم ممن يهتمون بهذه الأمور ، ومنهم اباته باشا طبيبه الخاص وأخص أصدقائه (٧٩) · كما لم تشر اليها المكاتبات الرسمية ·

وأقصى ما أشير الى مسألة الاخلاء فى الروايات الوطنية أن سعيدا صمم على اخلاء مديرية سنار وما بعدها الى فازوغلى ، فراجعه الأهالى وما زالوا حتى عدل من عزمه ولكنه أخلى فازوغلى ، فبقيت كذلك الى أن تولى اسماعيل باشا فأعيد النظام المصرى اليها (٨٠) · ومع ذلك فان الوثائق الرسمية لا تشير الى أى اخلاء لمديرية فازوغلى ، بل انها تؤكد نية سعيد الخالصة فى اصلاح البلاد لا تركها · فما أن حل بها حتى تابع اصدار أوامره بالاصلاحات التى رآها ضرورية لتنظيم شئون الحكم والادارة ، وبعد وصوله الى الخرطوم بعشرة أيام أصدر فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ مرسومات أربعة تضمنت كل الاصلاحات المطلوبة (٨١) · وهذه الاصلاحات تهدف فى مجموعها الى تشجيع الزراعة والصناعة والتجارة فى

البلاد ، وابطال تجارة الرقيق ، وتنظيم القضاء ، وتخفيض الضرائب ، والغاء السخرة ، واطلاق المسجونين التى انتهت مدة سجنهم ، والغاء الاحتكار ، والعناية بالخدمة البريدية ، ومراعاة الأمن ، والمحافظة على هيبة الحكومة بين الأهالى ، وانشاء المجالس المحلية من رؤساء الأسر بالانتخاب ، وزيادة عمران البلاد على وجه العموم · كما كان من وسائل سعيد فى الاصلاح طرد الموظفين الذين ثبت اهمالهم ، وعلى راسهم حكمدار الخرطوم ورئيس مجلس الدعاوى ، والسير بهمة فى سودنة الوظائف ·

وكان من راى سعيد أن فرصة تنفيذ هذه الاصلاحات موانية اكثر فى حالة تفريق المديريات ، ومن أجل ذلك رجع الى مركزية الحكم وجعل المديريات الخمس مستقلة الادارة عن بعضها ، وهى سنار وكردفان والتاكه وبربر ودنقله · وهكذا « لم يعد اقتضى لابقاء ديوان الحكمدارية فيقتضى أنه بعد أن يعطى الى كل مديرية من الكشـــوفات والبيانات المقتضية يصـــير ارسال الدفاتر وكتاب الحكمدارية الى مصر ··· ، كما يصير الغاء مجلس الخرطوم واحضار أعضائه وكتابه الى مصر » (٨٢) ·

ومدير سنار أو الخرطوم فى هذا النظام المركزى الجديد هو أراكيل بك الذى كان تعيينه فى يناير ١٨٥٧ · ولكن اذا كان سعيد باشا قد اختاره لهذا المنصب لاعتقاده أنه الرجل الذى يدرك أهمية ما يريده الباشا من اصلاحات ومن ثم يعمل على تنفيذ ما جاء فى المرسومات الأربعة خاصا بمديريته فى اخلاص وأمانة (٨٣) ـ فقد فاته أنه مسيحى ، وهو الأمر الذى أدى الى فرار قبيلة الشكرية الى البطانة ، لعدم رضاهم بحـكم نصرانى عليهم وخوفهم من أن تلحقهم مهانة بذلك يستحيل معها أن تهدأ ثائرتهم ، فآثروا ـ تفاديا لما قد يقع ـ أن يفروا من وجهه · ولكن أراكيل استطاع بالسياسة والملاينة أن يقضى على الفتنة ، بل لقد نجح فى احداث انشقاق فى

صفوفهم بعد أن أذعن البعض وخضع وأصر البعض على معارضته (٨٤) ٠

وعند وفاة أراكيل بك بالخرطوم فى أكتوبر سنة ١٨٥٨ حل محله موسى بك حمدى ، وهو أحد كبار الموظفين بالخرطوم ، حتى عين حسن بك سلامة مديرا فى فبراير سنة ١٨٥٩ ٠ وقد بدت للمدير الجديد مذ وصل الى الخرطوم صعوبات الادارة فى المديرية ٠ وهى تتلخص فى جسامة اشغالها ، وخاصة بعد انضمام مديريتى سنار وفازوغلى ــ بما كان متأخرا بهما من الدعاوى والقضايا ــ اليها ، واحالة التحقيقات المتأخرة بديوان الحكمدارية ومجلس الدعاوى اللذين الغيا اليها كذلك (٨٥) ٠

وبقى سلامة بك مديرا للخرطوم حتى حل محله محمد بك راسخ فى يونيو سنة ١٨٦١ ٠

وفى الحقيقة لم يات حكم السودان على أساس المركزية بالنتائج التى رسمها سعيد باشا له ٠ وكان من آثار ذلك أن ضج الأهالى من المديرين عموما (٨٦) ، كما أبدى بعض المشايخ العصيان والتمرد عليهم لزوال هيبة الحكمدارية وتلاعب بعضهم الآخر بالأموال ٠ وشكا بعض الأهالى حالهم فى عرائض قدموها الى القاهرة ، ولم تلبث الشكاوى ان انهالت على الباشا انهيالا (٨٧) جعل تغيير سياسة المركزية فى حكم البلاد أمرا لازما اذا أريد الاصلاح ، حيث أنه قد ثبت أنه على الرغم من ضعف بعض الحكمدارين فان الخير الذى تناوله البلاد عند حكمها على النظام اللامركزى يفوق بكثير ما يمكن أن تناله مع النظام المركزى ، وهذا ما دعا اسماعيل باشا ــ وكان قائمقاما لعمه سعيد الذى كان مريضا ــ لارجاع الحكمدارية وتعيين موسى حمدى بك حكمدارا فى مايو سنة ١٨٦٢ ٠

وبتعيين موسى حمدى حكمدارا عاد الى الحكمدارية رونقها ، وعـــاد مديرو الأقاليم وفى صـحبتهم مشايخها الى الذهاب الى الخرطوم للتشاور مع الحكمدار فى كل ما يعود على الأهالى من خير ، وعاد الحكمدار الى الطواف فى البلاد والعمل على ارجاع الهاربين الى حدود الحبشة ٠ ولقد كان لأعمال موسى حمدى هذه صـدى طيب عند اسماعيل ، فأمل فى عودة الحكمدارية الى سابق قوتها على يديه ، وحصل له من البـــاب العالى على أعلى الرتب المدنية والعســكرية ، « حيث أن رضاء الأهالى عنه وسرورهم به حسب ما وصل الى سمع الخديو يستوجب سروره وارتياحه ، وأن مأمول الخديو دائما أن يجتهد فى اصلاح واعمار السودان » (٨٨) ٠

وفى عهد موسى باشا حمدى استبدل بمحمد راسخ بك مدير الخرطوم أحمـد بك أبو سن شيخ مشايخ الشـكرية ، بسبب « كسل واهمال راسخ بك فى أداء وظيفته واجتهاد ونشاط أحمد بك أبو سن من كبار مشايخ مديرية الخرطوم » (٨٩) ٠ وفى أواخر أيام موسى حمدى زادت أعباء حكومة الخرطوم ، لاتساع الحكمدارية بعد انشـاء مديرية جديدة هى مديرية البحر الأبيض والحاق مصـوع وسواكن وملحقاتهما بالسودان (٩٠) ٠

وعند وفاة موسى حمدى صدر الأمر بتعيين الحكمدار جعفر باشا صادق خلفا له فى مايو سنة ١٨٦٥ ٠ ولكن نظرا لاتســـاع الحكمدارية كما اتضحت فى أواخر أيام موسى حمدى رأى اسماعيل تقسيمها الى مناطق ثلاث يحكم كل منها حكمدار مستقل ، على أن يتعاون الحكمدارون الثلاثة فيما بينهم على المصالح المشتركة ، ويكون كل منهم مسئولا مباشرة أمام القاهرة ٠ وكانت حكمدارية الخرطوم تضم جزيرة سنار كاملة مع جهات البحر الأبيض الواقعة شرقيه وعين لها سليم باشا الجزائرلى ، وكانت الحكمدارية الثانية تضم التاكه ومصوع وسواكن وملحقاتهما وعين لها جعفر باشا صادق ،

وكانت الحكمدارية الثالثة تضم كوردفان ودنقلة وبربر مع جهات البحر الأبيض الواقعة غربيه وعين لها جعفر باشا مظهر (٩١) .

ولكن لم يقدر لهذا التقسيم أن ينفذ . ويبدو أن من أسباب ذلك امتناع حكمدار الخرطوم عن الذهاب الى السودان معتذرا بمرضه . فرجع اسماعيل ثانية الى حكم البلاد على أساس الحكمدارية الواحدة، وثبت جعفر باشا صادق حكمدارا وجعفر باشا مظهر وكيلا له (٩٢) . ولكن قبل أن يغادر الحكمدار القاهرة الى الخرطوم وصلت الى القاهرة أنباء قيام ثورة فى كسلا عاصمة مديرية التاكه قام بها الجند الجهادية السود المعسكرون فيها ، وأن وكيل الحكمدار عمر فخرى بك أسرع اليها ومعه جند الخرطوم . وكانت خطة اسماعيل للقضاء على الثورة أن يحاصرها ويقضى عليها بسرعة ، فارسل من القاهرة جيشين أحدهما بطريق النيل يقوده الحكمدار جعفر صادق والآخر بطريق البحر الأحمر وسواكن ويقوده وكيل الحكمدار جعفر مظهر (٩٣) .

وعند وصول جعفر مظهر الى سواكن تحرى كل شىء عن الثورة واسبابها ، وأرسل بها (جورنالا) الى الخديو (٩٤) . وكانت أبرز هذه الأسباب عدم تعود الجند النظام وطاعة الرؤساء بسبب ارسالهم لمدد طويلة الى البوادى والقرى لجمع الضرائب ، وعدم صرف الأجور اليهم بانتظام ، وغطرسة قادتهم الذين كانوا معتادين على رميهم بالألفاظ السيئة . هذا وتتفق الروايات الوطنية على تلك الأسباب (٩٥) ، ومن هذه الروايات واحدة تقول باصبع الانجليز الذين تمكنوا على يد رجل أمريكى يدعى أندروب - كان نزيلا فى دير للرهبان الفرنسيين فى سنهيت - من بذر دسائس كثيرة فى الحبشة والسودان كان منها تحريض جند الآلاى الرابع المقيم فى كسلا على الثورة (٩٦) . وعلى وجه العموم ، كان مما ساعد على قيام الثورة توافر المجال للفوضى على الحدود الحبشية المجاورة

للتاكه ، وأن قبضة الحكومة على مديرية فازوغلى أيام سعيد باشا كانت ضعيفة ٠

وعندما وصل جعفر مظهر الى كسلا وجد أن الثورة قد أخمدت بهمة جند الخرطوم وشرقى السودان ، ومساعدة أولاد الشيخ محمد عثمان شيخ الطريقة الختمية المقيمين بكسلا (٩٧) ، وبعض قبائل البدو من الهدندوه والحلانقة والحمران الذين استنجد بهم قائد قوات الجنود فى التاكه فلبوا نداءه وساروا فى جموع عظيمة واقاموا بالغابات المحيطة بالمدينة ، فأصبح الثوار محصورين بين جند الحكومة والأهالى فى داخل المدينة وعصابات البدو فى خارجها (٩٨) ٠

وفى الحقيقة ، لولا القضاء على ثورة التاكة لسقط السودان الشرقى فى أيدى الثوار ، وتهددت بشكل مباشر طرق التجارة بين سواكن وكسلا والخرطوم ٠ ويتضح خطر الثورة فى أنها كانت تضم ـ علاوة على الجند السود البالغ عددهم ثلاثة آلاف ـ حوالى اربعة آلاف من التكارنة ومرفوتى الجيش والعبيد المحررين والنهابين وغيرهم (٩٩) ٠

وقد نتج عن هذه الثورة الغاء الآلايات السودانية وابقاء (أورطة) واحدة منها فقط فى السودان ، وارسال باقى الجند الى الى مصر وتوزيعهم على الآلايات المختلفة بعد تسريح العجزة منهم ، على الا تضم (الأورطة) جندا من الدينكا ـ وهم الذين قاموا بالثورة ـ وان يعامل أفرادها بصرامة وينزع سلاحها من المدافع ٠ كما كان للثورة رد فعل عنيف فى القاهرة ، فقد أوفد الخديو اسماعيل شاهين باشا وزير الجهادية الى الخرطوم حتى يتمكن ـ بالتعاون مع الحكمدار ووكيله ـ من تقصى أسباب الخلل الذى أصاب

الأداة الحكومية ، « وليرى الحالة رأى العين ويصفها الى الخديو كما هي . وليعمل على اصلاح النواحي المختلفة » (١٠٠) ٠

وعند وصول جعفر مظهر وكيل الحكمدار من كسلا الى الخرطوم للاجتماع بمبعوث الخديو وافاه عزل الحكمدار لمرضه وتوليته مكانه بمقتضى ارادة تاريخها ديسمبر سنة ١٨٦٥ ٠ وكان أول برنامج له في الخرطوم استعراض عضلات الحكومة ، فاستعرض الجند الذين جاءوا برفقة الحكمدار ، ودعا الأهالي ونواب القناصل لرؤيتهم (١٠١)٠ وبعد ذلك بدأت مناقشة مشاكل الحكم والادارة مع شاهين باشا ، وعلى راسها اصلاح حال الجندية « ومسألة الأهالي المدينين بفوائد فاحشة للتجار الأوربيين » ، وكان من توجيهات الخديو في هذه المسألة أن تحل الحكومة محل الأهالي في تسديد ما عليهم على أن تسترد الدين على أقساط (١٠٢) ٠

ومع أن الثورة قد انتهت ومركز حكومة الخرطوم أقوى مما كان قبلها ، مما ساعد على هدوء الأحوال أيام الحكمدار جعفر مظهر ، وأعطاه الفرصة للعناية بعمران الخرطوم وتشجيع الحركة الفكرية والأدبية في البلاد ، والاهتمام بالتوسع في الجنوب في بحر الغزال وخط الاستواء — الا أنه كان من نتائجها احساس اسماعيل بالصعاب التي تواجه حكم البلاد من عاصمتها الخرطوم بعد أن أضيفت اليها مديرية البحر الأبيض وموانى وسواحل البحر الأحمر ، وما سوف يضاف اليها نتيجة لمأمورية صمويل بيكر في خط الاستواء ٠ ولذلك فصل السـودان الشرقي عن حكومة الخرطوم ، وسميت الحكومة الجديدة (بمحافظة البحر الأحمر) ، وتشمل محافظتي سواكن ومصوع ومديرية التاكه وباقي سواحل البحر الأحمر حتى بربرة آخر الحدود الخديوية (١٠٣) ٠ وبعد أربعة أشهر من ذلك قطعت مديرية بربر أيضا عن الحكمدارية واتبعت للمعية السنية رأسا لقربها من

مصر وعدم سلوك المديرين فيها مسلك الاستقامة وخراب سواقيها وتشتت أهلها وتخلف مبالغ جسيمة من الضرائب عليهم (١٠٤) .

والغالب على الظن أن شاهين باشا ـ مبعوث الخديو ـ قد أسر اليه بأن الخير كل الخير فى الفصل بين أجزاء البلاد المختلفة وزيادة اشراف القاهرة عليها ، ولما كانت تجربة المركزية أيام محمد علي وسعيد قد فشلت وأنه من الخطأ قياس الوضع الجديد فى البلاد بهذين العهدين بسبب ما لحكومة اسماعيل من امكانات التنظيم والادارة ـ فقد صار اعتناق القاهرة لمبدأ ادارة البلاد على النظام المركزى أمرا مقررا . ولذلك فما أن مرت على تجربة فصل بربر عن الحكمدارية ثلاثة عشر شهرا حتى ألغيت الحكمدارية وقسمت البلاد الى ادارات مستقلة تتبع القاهرة رأسا ، وهو الأمر الذى كان اسماعيل قد قرره وحاول تنفيذه فى مايو سنة ١٨٦٥ عند وفاة الحكمدار موسى حمدى ، ولكنه لم يتمكن من تنفيذه فى ذلك الوقت.

أما التقسيم الجديد فقد صدرت به ارادة فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ (١٠٥) ، وفيه انقسمت البلاد الى ست ادارات هى : قبلى السودان وتشمل مديريات الخرطوم وسنار (وهى سنار وفازوغلى) والبحر الأبيض ، وبحرى السودان وتضم مديريتى دنقلة وبربر ، ومديرية كردفان ، ومديرية التاكه وتمتد على حدود الحبشة وسواكن . وكان لكل مديرية من هذه المديريات الأربع مدير عام أو مدير عموم ، وقد عين ممتاز باشا محافظ البحر الأحمر مديرا عاما لقبلى السودان . وحسين بك خليفة مدير بربر مديرا عاما لبحرى السودان . أما محافظة عموم البحر الأحمر فقد ألغيت ، واستقل محافظ بمحافظة سواكن وآخر بمحافظة مصوع وملحقاتها (١٠٦) .

وقد كان لثـــورة التاكه آثار في غير الناحيتين العســـكرية والادارية • فمن ذلك أنه كان لها أثر فى سرعة الانتهاء من مد خط البرق بين الخرطوم والقاهرة فى يناير سنة ١٨٧٠ ، وفى زيادة تفكير الخديو فى ربط الخرطوم بخارج البلاد بالسكة الحديد • كما أن الضبطية القضائية التي أنشـــئت في الخرطوم فى عهد جعفر مظهر (١٠٧) كان مرد انشائها الى ازدياد الحاجة الى المحافظة على الأمن بعد أن سرح الكثير من الجند السود بعد الثورة ـ وما كان أكثرهم فى الخرطوم فى ذلك الوقت ـ وتدفق الكثير من الدناقلة من انحاء البـــلاد اليها للتوصل الى العمل فى زرائب الجنوب وبحر الغـــزال •

ويمثل ممتاز باشا فى محافظة البحر الأحمر ومديرية قبلى السودان ، وحسين بك خليفة فى مديريتى بربر وبحرى السودان ـ فى الواقع ـ طبقة جديدة من الحكام كان نشاطها يصرخ بتعمير البلاد ورفاهية أهلها ، ووسيلة ذلك العناية بالزراعة ـ وزراعة القطن بالذات ـ وتحسين سلالات الضأن والبقر ، وحفر الترع ، وتعمير السواقى ، وتشجيع الأهالى على ذلك •

ولكن لا تفتأ التجربة الادارية فى البلاد الا أن تثبت أن للحكم المركزى عيوبه ، مع أن حكم البلاد على مستوى مديرى العموم قد أثمر هذه المزايا العديدة الا أنه كان يتضمن فى نفس الوقت نقاط ضعاف • ويتضح ذلك فى هروب بعض أهالى بربر الى مديريتى الخرطوم وسنار وبعض أهالى هاتين المديريتين الى مديرية التاكه ، وفشـــل مديرى بحرى السودان وقبلى الســـودان فى اعادتهم الى أوطانهم مع ما بذلا من محاولات كبيرة وتبادلا من مكاتبات كثيرة • ومما ساعد على تعثر هذه المحاولات أن المشايخ الذين نزل الهاربون عندهم ماطلوا فى اعادتهم بدعوى أن دخلهم من الضرائب سيتأثر بذلك • وقد كان لذلك آثار وقفت حجر عثرة فى سبيل عمران

بعض الجهات وبربر بالذات ـ التي بلغ عدد الهاربين منها خمسة آلاف شخص (١٠٨) ٠

ونضيف الى ذلك أن العبء الواقع على مدير قبلي السودان كان كبيرا ٠ فقد كان يشرف على الادارات المختلفة في الخرطوم مثل الترسانة ومصلحة الصحة وادارة التلغراف ، هذا عدا اشرافه على مديريي الخرطوم وسنار وكذلك مديريتا البحر الأبيض وبحر الغزال الداخلتان تحت الطاعة حديثا ، وكلها ، عدا الخرطوم ، حدودهم متصلة بالقبائل وغير محددة كباقي المديريات ، وتلك القبائل لم وصلوا تحت الطاعة » (١٠٩) ٠ كما أن مجلس دعاوى الخرطوم الذى كان مخصصا للنظر في قضايا المديرية فحسب ، أسوة بمجلس كل مديرية مذ ألغى سعيد مجلس دعاوى السودان ، أصبح فى النظام الادارى الجديد مجلس استئناف ترفع اليه القضايا المستأنفة من مجلس دنقلة وبربر وكردفان والخرطوم وسنار والتاكه (١١٠) ٠ هذا علاوة على أنه يبدو أن الغاء الحكمدارية قد حمل بعض الموظفين والضباط على الاستهانة بمركز مدير عموم قبلى السودان ، لدرجة أنهم اجترءوا على سرقة خزنة مديرية الخرطوم (١١١) ٠

وأخيرا نضيف الى ذلك كله أن تلك المزايا الكبيرة التى توافرت لاقليمى قبلى وبحرى السودان كانت نتاجا شخصيا للقائمين على ادارتيهما أكثر منها حصادا للتقسيم الادارى الجديد فى حد ذاته ٠ وأن حكام السودان ليسوا دائما من هذا الصنف وأن هذين المديرين مع ذلك قد اتهما بعدم النزاهة في الحكم ، وقد رفعت الدعاوى فى حقهما من أجل ذلك الى الخديو ، فانتقلت من مصر لجنة تحقيق للنظر فيما نسب الى كل منهما ، واثبت التحقيق تحكم اقارب مدير بحرى السودان فى الأهالى واجترائهم على حقوقهم ، أما مدير قبلى السودان فكانت التهمة المنسوبة اليه الرشوة والاختلاس وخاصة فى

نصيب الحكومة من أموال القطن ، وكان قد عزل وأودع السجن في الخرطـــوم ، حتى اذا ما حضرت لجنة التحقيق اليهـــا كان قد توفي (١١٢) ٠

ولهذه الأسباب جميعا وضح فشل المركزية في اقامة حكم صالح في البلاد ، مع أن الدافع الى اتخاذها أصلا هو التوصل بأداة الحكم الى درجة من الكمال ٠ ولذلك فانه اذا كان اسماعيل باشا أيوب قد أعلن في أغسطس سنة ١٨٧٢ مديرا لقبلي السودان بعد عزل ممتاز باشا فانه لم يبق في هذا المنصب الا خمسة عشر شهرا أعلن بعدها حكمدارا للسودان في نوفمبر سنة ١٨٧٣ ٠ وربما كان فرمان سنة ١٨٧٣ الخاص بحصر وراثة عرش الخديوية في مصر وملحقاتها (السودان وقائمقامتي مصوع وسواكن) في فرع الخديو نفســـه عاملا حمل اسماعيل على اعادة الحكمدارية حتى يتفرغ الحكمدار الجديد لمراعاة أملاك الخديو الجنوبية في الوقت الذي ينفرد فيه الخديو بمصر ومشاكلها ٠

وهكذا رجعت ادارة البلاد الى نظام اللامركزية بعد أن ضاعت آثار ثورة التاكة التي كانت العامل الأول في تحويل تلك الادارة الى النظام المركزي على عهد الخديو اسماعيل ٠ وكان لابد من تقوية حكومة الخرطوم ، وخاصة أن عهد اسماعيل أيوب كان عهد التوسع والفتح في الجنوب ودارفور ٠ على أنه لما كانت جهـــات شرقي السودان قد اتسعت في ذلك الوقت لدرجة كبيرة بعد ضم زيلع وسواحل الصومال اليها ، ولما كانت مديرية خط الاستواء في طور التكوين فقد بقيت هاتان الجهتان خارج الحكمدارية وعلى علاقة مباشرة بالقاهرة ٠ وكانت جهات شرقي السودان تضم مديرية التاكة ومحافظات سواكن ومصوع وزيلع وملحقاتها ، أما خط الاستواء فقد أعلن مامورية سنة ١٨٧٤ عمل فيها غردون بين سنتي ١٨٧٤ ، ١٨٧٦ بعد انتهاء مهمة صمويل بيكر فيها ٠

ولقد كان لاتساع السودان هذا أثره الكبير أيام الحكمدار اسماعيل أيوب في تشكيل الادارات في مصر نفسها،فقد فصل ديوان الأشغال العموميه عن ديوان الجهاديه ـ وكان تابعا له ـ والحق بالداخلية كما كان سابقا ، وذلك ليتمكن ديوان الجهادية من تحمل العبء الكبير الذي ألقى عليه منذ نوفمبر سنة ١٨٧٥ حين تقرر أن ترفع كل مراسلات السودان اليه « لما في ذلك من المحسنات بواسطة حصر معلومات وحركات الادارة في مركز واحد » (١١٣) بعد أن كانت ترفع الى الجهات المختلفة في مصر طبقا لأوجه الاختصاص ، كما تقرر أن يعين بالديوان وكيل مختص بشئون السودان للنظر في تلك المراسلات .

وكان اسماعيل أيوب من الموظفين الذين عملوا بالسودان مدة طويلة وخبروه ، وظل يشغل منصب مدير عموم قبلي السودان ومنصب الحكمدار بنجاح كبير حوالي خمس سنوات حين عين غردون باشا حكمدارا في فبراير سنة ١٨٧٧ . وكانت حكمدارية غردون تضم كل السودان بحدوده الجغرافية المعروفة في ذلك الوقت ـ ماعدا جهات بربرة وزيلع وتجره وحكمدارية هرر بالاضافة الى الاشراف على مصلحة السكة الحديد السودانية (١١٤) . ولكن بعد اثني عشر يوما فقط ضمت اليها هذه الجهات أيضا (١١٥) . وهكذا نجد حكومة الخرطوم وقتئذ تشرف على السودان بحدود لم تعرف بهذا الاتساع من قبل ، وعلاوة على ذلك منح غردون سلطات مدنية وعسكرية لم تمنح لحكمدار قبله . وقد لفت الخديو نظره في فرمان تعيينه الى أمور مهمة على رأسها الغاء الرق وتحسين المواصلات .

وكان أول وصول غردون الى الحكمدارية عن طريق البحر الأحمر الى مصوع ، ليحاول حل مسائل الحدود المعلقة بين السودان والحبشة . وبعد وصوله الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ أبرق الى الخديو بمشروع لالغاء الرق في البلاد (١١٦) . وبعد أسبوعين

غادر الخرطوم الى دارفور للقضاء على ثورة الأمير هارون أحد أفراد بيتها المالك ، وكان قد علم بها عند أول نزوله بمصوع ، وقد عمل على حصرها فى نطاق ضـــيق بتخفيف الضرائب على الأهـــالى والاغداق على بعض كبارهم بالرتب والنياشين ووظائف الادارة ٠

وبعد رجوع غردون الى الخرطوم غادرها فى رحلة تفتيشية الى دنقلة ، فلما وصلت اليه الأخبار بحدوث اضطرابات على الحدود الحبشـــية السودانية رجع مسرعا الى الخرطوم ومنها الى الســـودان الشرقى حيث تمكن من تهدئة الحالة ٠ ولم يلبث ـ بعد رجوعه الى الخرطوم ـ أن خف الى القاهرة للاشتراك فى لجنة مهمتها البحث فى ايرادات الحكومة المصرية ، وكان الخديو يرجو أن يجد فيه العون على ذوى المطامع من دائنيه الأجانب ، ولكنه رجع الى الخرطوم دون أن يفلح فى هذه المهمة ٠

وبعد رجوع غردون الى الخرطوم مكث بها تسعة شهور كاملة لم يبرحها ، وأهم المسائل التى شغلته فى هذه المدة حركة سليمان الزبير فى بحر الغـــزال التى انتهت بقتل سليمان على يد جسى الايطـــالى ٠

وعندما علم غردون باقصـــاء الخديو اسماعيل عن العرش استقال ، حيث أنه ما كان يمكنه أن يتمتع بسلطانه ونفوذه فى عهد توفيق حينما انتقل النفوذ الى مجلس النظار ، مما يجعله غير قادر على تكييف نفسه طبقا للظروف الجديدة - وقد خلفه محمد رءوف باشا فى يناير سنة ١٨٨٠ ، وجاء فى فرمان توليته أن يحافظ على حدود البلاد ، ويتوخى العدل فى تقدير الضرائب ، ويقوم بارسال الميزانية السنوية للبلاد بعد الانتهاء من عملها الى مصر ، ويرجع فى الأمور المهمة الى القاهرة (١١٧) ٠

وأهم حادث دوى في البلاد أيام رءوف باشا هو قيام الثورة المهدية • ويجمع الكتاب الأجانب ـ وبخاصة الانجليز منهم (١١٨) ـ على أن أسباب تلك الثورة تتلخص في سوء الحكومة وظلم الحكام ، وفداحة الضرائب ومساوىء جمعها ، وتوقف الاصلاحات ، والعنف في ابطال تجارة الرقيق •

وهذه الأسباب ـ في الحقيقة ـ هي أسباب الثورات في كل مكان وزمان • أما عن الحكام فقد كان بينهم الصالح والطالح (١١٩) ـ كشأن البشر جميعا • والحكم الفيصل في هذا الأمر أن السودانيين قد انفعلوا بالحكم المصرى أيما انفعال بعد أن رأوا من وسائل الاصلاح ما لم يكن يعرفون من قبل فتغنوا بأفضاله (١٢٠) ، وأن الروايات الوطنية رددت الكثير مما يشرف بعض الحكمدارين كمديرين أفذاذ (١٢١) •

وكانت أوامر الولاة الى الحكمدارين وبخاصة أوامر تعيينهم ـ تأمرهم دائما بمراعاة العدل في كل ما يتصل بالسكان والعمل الجاد على تعمير البلاد ورفاهية أهلها (١٢٢) • وعند زيارة سعيد باشا للسودان خاطب مديرى المديريات المجتمعين في الخرطوم بالتأكد تماما بأنه اذا علم أن الأهالى قد أصابهم سوء من جانبهم أو من جانب المشايخ فسوف لا ينجو واحد منهم من عقابه ، وأن عليهم أن يسترشدوا بذلك في تصرفاتهم (١٢٣) •

وكان الحكمدارون يعملون جهدهم لتنفيذ أوامر الولاة (١٢٤)• ولقد وصلت رعاية مصالح الأهالى عند بعضهم درجة أدت الى بذل محاولات شاقة لاصلاح بعض العادات الاجتماعية المتأصلة فيهم • ومن ذلك أن الحكمدار أحمد أبو ودان سعى الى زيادة عدد سكان البلاد بالحض على الزواج فخفض مهور البنات وجعلها بين خمسة وسبعين قرشا ومائة وخمسين قرشا (١٢٥) ، وأن الحكمدار جعفر

مظهر ســـعى الى ابطال عادة الخفاض الفرعونى عند البنات وكان يقاضى النساء اللاتى يتولين اجراءها (١٢٦) ٠

ويرمى الكتاب الأجانب الادارة المصرية بالمغـــالاة فى تقدير الضرائب والقسوة فى جمعها (١٢٧) ، والواقع اذا اتفق مع هذا فى بعض الأحوال فانه لا يتفق معه فى أحوال كثيرة ٠ فقد راجع اسماعيل باشا التقديرات الأولى التى وضعت للضرائب عند ربطها على سكان سنار بعد الفتح مباشرة وأمر الجباة بجمعها بطريقة لا تجهدهم (١٢٨)، وجعل الحكمدار موسى حمدى لكل فرد سركيا سجل فيه ما ربط عليه من اموال وخصص للتحصيل أوقات معلومة (١٢٩) ، وعلاوة على ذلك كانت حكومة الخرطوم ذات بصيرة فكانت تراجع تقديرات (المباشرين) وتكافىء المجتهد منهم وتجازى المسىء (١٣٠) ٠

واحقاقا للحق يجب ألا نبرىء الأهالى من تلك الضجة التى دارت حول مسالة الضرائب ٠ فهم لم يتعودوا أى لون من الوان الادارة المنظمة ، وهم الفائزون دائما حيث كانوا قادرين فى تلك البلاد الواسعة على الفرار من الجباة (١٣١) ، الأمر الذى يجب عدم التهوين من خطره ــ كما يرى غردون ــ ماداموا لا يدفعون الا اذا قسروا على ذلك قسرا ، وحيث ثبت عدم جدوى الوسائل اللينة معهـم (١٣٢) ٠

أما ما قال به الكتاب الأجانب عن توقف الاصلاحات فى البلاد فهذا مالا يمكن قبوله ، فالعهد المصرى هو عهد التعمير الذى لم تر له البلاد مثيلا من قبل ٠ وما زيارة كل من محمد على وسعيد وبعثتى ميرى بك وشاهين باشا ــ فى أيام عباس واسماعيل على الترتيب ــ للبلاد الا قرائن مادية على عمل الخديويين الجاد فى سبيل تعمير البلاد ٠ وعلاوة على ذلك فان العهد المصرى هو عهد سيادة الأمن فى البلاد ، فالقبائل التى كانت قبل الفتح لا عمل لها الا الاغارة على

قوافل التجارة أصبحت بعد الفتح تعمل فى نقل المتاجر ، كما أن المســافر الأجنبى أصبح ينتقل بين أنحاء البلاد وحيدا ويستقبل بالترحاب فى كل مكان (١٣٣) ٠

ومع كل تلك المآثر كان لابد أن تجابه الحكم المصرى أخطاء وصعاب فى تلك البلاد الواسعة ، بسبب حاجتها الى المزيد من الجند والمال حتى يتم التوازن بين امكاناتها العسكرية ومطالب الادارة ، وبين الدخل والمنصرف ٠ كما أن بعد الشقة بينها وبين مصر جعل من الصعب اشراف القاهرة اشرافا كاملا على الادارة فيها (١٣٤) ٠ وهذا مما يوضح أن حسن نية الخديويين لم تكن كافية لضمان اقامة الحكومة الأبوية المطلوبة فى البلاد على الدوام ٠

ومع هذا كله يجب أن نقرر أن الســـودان باطاره الجغرافى المعروف يرجع الفضل فى تكوينه الى مصر وحكومة الخرطوم ، وأن دخول المصريين السودان هو فى الحقيقة أول محاولة لنشر المدنية بين سكان وسط افريقيا ، وأن الحكم المصرى ـ وان شابته الخشونة أحيانا ـ كان حكما ناجحا ، ويصـــدق هذا القول على كل جهات الحكمدارية ـ قريبها وبعيدها على السواء ٠ (١٣٥) والأهم من ذلك أن العهد المصرى هو عهد اشراك العناصر الوطنية فى الحكم والادارة ، والعهد الذى برزت فيه الشخصية السودانية الحاكمة لأول مرة فى تاريخها الحديث ٠

ويتضح مما سبق أن مساوىء الحكم المصرى ـ كما يقررها الكتاب الاجانب ـ لا يمكن أن تكون هى الأسباب الحقيقية لقيــــام الثورة المهدية ٠ وهذه الأسباب ـ فى الواقع ـ تتبلور فى العنف الذى صحب حركة القضاء على تجارة الرقيق فى البلاد على عهد الحكمدار غردون (فبراير ١٨٧٧ ـ يناير ١٨٨٠) ٠

وكانت انجلترا مهتمة بموضوع القضاء على تلك التجارة منذ عهد محمد علي • ومع أن كلا من محمد علي وسعيد قد أعلنا في الخرطوم ـ أثناء زيارتهما للبلاد ـ الغاء تلك التجارة فانهما لم يضعا هذا الأمر موضع التنفيذ • ولقد كان ضم مناطق أعالي النيل الأبيض وبحر الغزال ودارفور الى السودان على عهد اسماعيل مما أدى الى القضاء على تلك التجارة تقريبا في وسط السودان وانتقالها الى جهات شرقي السودان ، وهذا ما دعا اسماعيل الى العمل على ضم تلك الجهات أيضا ـ الأمر الذى انتهى منه سنة ١٨٧٥ • ومع ذلك كله كان تصدير الرقيق مستمرا من بعض البوغازات الصغيرة على ساحل البحر الأحمر والبعيدة عن النقاط العسكرية • ولما كانت انجلترا طوال عهد الخديو لم تتوقف عن المطالبة بضرورة اتخاذ اجراءات حاسمة للقضاء على تجارة الرقيق فقد دخلت مع الخديو منذ يوليو سنة ١٨٧٣ ـ في مفاوضات لتنظيم تلك الاجراءات ، الأمر الذى انتهى بابرام معاهدة الغاء الرق بين مصر وانجلترا في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ (١٣٦) • والاجراءات التى تضمنتها هذه المعاهدة للقضاء على تجارة الرقيق لا تخرج ـ في الواقع ـ عما كان يصدره الخديو الى الحكمدارين في هذا المجال ، والجديد فيها أنه صار للسفن الانجليزية الحق في تفتيش السفن المصرية في المياه المصرية كما كان للسفن المصرية نفس الحق قبل السفن الانجليزية •

وكانت اجراءات غردون في السنة الأولى بعد ابرام المعاهدة لا تغاير الأساليب التى كانت تتبعها حكومة الخرطوم من قبله في القضاء على تجارة الرقيق • فاذا كان شهر يوليو سنة ١٨٧٨ انقلب غردون الى القضاء عليها بعنف ليس له مثيل ، واقام من أجل ذلك نوعا من حكم الارهاب (١٣٧) • وقد امتدت ثورته حينئذ الى كبار الموظفين المصريين ، فأصبح يفصل ويسجن منهم من يشاء بحجة اشتراكهم في هذه التجارة •

ويرجع تحول غردون عن سياسة التقييد والقضاء التدريجى الى سياسة الالغاء العنيف الى أنه تنفيذا للمعاهدة تم تعيين الضابط البحرى الانجليزى (ملسكولم) للاشراف على هذا التنفيذ بوظيفة (مدير مصلحة الرقيق فى البحر الأحمر) • وفى شهر مارس سنة ١٨٧٨ قبض ملسكولم على بعض أفراد عائلة محافظ زيلع وسجنهم لاشتغالهم بتجارة الرقيق وأحال القضية الى الحكمدار غردون فى الخرطوم للتصرف • فما كان من هذا الا أن اطلق المسجونين لما رأى أن اجراء ملسكولم يهدد بقيام الاضطرابات فى كل الصومال بسبب ما لأسرة المحافظ من نفوذ • فاضطر ملسكولم الى الاستقالة من عمله ، ولم يســـع غردون ازاء ذلك الا أن يأخذ على عاتقه القيام بتنفيذ المعاهدة ، واعتبرته حكومته مسئولا عن الاجراءات الحاسمة الواجب اتخاذها من أجل ذلك (١٣٨) • ويضاف الى ذلك ما يمكن أن يكون من أثر عند غردون فى اعتناق فكرتى الالغاء العنيف لتجارة الرقيق وأن الأوان قد آن لطرد مصر من وسط أفريقيا ــ بعد أن تقابل مع رجالات الامبراطورية البريطانية فى القاهرة فى مارس سنة ١٨٧٨ ، وكان الخديو قد استدعاه اليها للاشتراك فى لجنة ألفت فى هذا الوقت للتحقيق فى المالية المصرية •

وقد ترتب على سياسة الالغاء العنيف أن قامت ثورات الزبير فى بحر الغزال والصباحى فى كردفان والأمير هارون فى دارفور ، وكلها قامت بتحريض من تجـــار الرقيق الكبار سادة الســـودان الحقيقيين (١٣٩) للأهالى الذين كانوا يعتقدون أن الرق من النظم التى تقرها عقائدهم الدينية ، الأمر الذى تعذر معه التوفيق بين اجراءات غردون القاسية وما درجوا عليه فى حياتهم الخاصة والعامة من أجيال طويلة •

وكانت ادارة غردون فوضى ، وتزدحم مكاتباته مع الخديو بما يعزز ذلك • فبينما يطلب رفت بعض الموظفين الكبار لعدم حاجة

الادارة اليهم لا يمضي وقت طويل قبل أن يطلب اعادتهم للخدمة لحاجة الادارة اليهم (١٤٠) . وبينما كان يتعاطى الرشوة (١٤١) نجده يطلب من الخديو « التصريح له بمحاكمة كل من يضبط متلبسا بتعاطيها من الموظفين كما يتراءى له » (١٤٢) . وبينما أولى مهام الحكمدار المحافظة على حدود الحكمدارية اذا به ـ ابتداء من يونيو سنة ١٨٧٨ ـ يطلب تباعا من الخديو اخلاء دارفور وبحر الغزال وشكا والرول ، ورفت مدير التاكه والاكتفاء بوكيل لها ، « لأن تصرف هذه المديريات غير نافع للميرى » (١٤٣) . ومع أن الحكومة قد وقفت في وجه غردون في محاولاته هذه الا أنه تمكن قبل مغادرته البلاد سنة ١٨٧٩ من اخلاء نصف أملاك مصر في خط الاستواء بحجة « ان حكم المصريين في هذه الجهات حكم قطاع طرق » (١٤٤) . وبينما كان من واجبات الحكمدار تنمية تجارة البلاد نجد غردون يعمل جهده لتحويل مجرى التجارة من مصر الى الهند ، ويفلح فعلا في تحويل تجارة مصوع وسواكن اليها ويصيب بعض النجاح في تعطيل التجارة بين الخرطوم وخط الاستواء (١٤٥) .

وعلاوة على ذلك أخذ غردون يتدخل في شئون الدين ، وكان يغرى البسطاء والسذج باعتناق المذهب الانجيلى ، ومنع الاحتفال بالمولد النبوى في احدى السنين ، وكان يجيز اقامة العاهرات بجوار الزوايا ويشجع ما يمس سنن الزواج في الشريعة الاسلامية (١٤٦) . وكان من اجراءات غردون في تنفيذ سياسته الاستعانة بطائفة من الموظفين الأوربيين ، وقد توسل الى ذلك بالضغط على الخديو ، فقد أشار له في أحد التلغرافات بأنه عند عدم اجابته الى طلبه « يصير تعيين أحد أخلافنا لادارة هذه الجهات » (١٤٧) .

ويتضح مما سبق عرضه أن الحكمدار غردون بدأ منذ شهر يوليو سنة ١٨٧٨ في تنفيذ خطة محكمة لتحطيم الحكم المصرى في

السودان . فلما كان عزل اسماعيل سنة ١٨٧٩ ومجيء ولده توفيق تراخت قبضة الحكومة لا في مصر وحدها بل في السودان أيضا . فاستشرت الفوضى في البلاد على عهد الحكمدار محمد رءوف ، وخاصة بعد عزل الكثير من الجند بدعوى انقاص النفقات مع طرح الربع من من رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين (١٤٨) .

واذا كانت الثورة المهدية قد قامت نتيجة مجموعة من العوامل الخاصة بطبيعة المجتمع السـوداني فيجب الا نقلل من أمر تعيين غردون حكمدارا ، اذ أن هذا الأمر في حد ذاته يعتبر العامل الأول في زعزعة ثقة الأهالي بالحكومة ، حيث أن تعيين مسيحي حاكما عاما قد قرن بين الحكومة المصرية والحكومات غير الاسلامية (١٤٩) . فاذا أضفنا الى ذلك وسائل غردون العنيفة في حكم البلاد وفقدان التعادل بين المستوى الثقافي والحضاري عند الأهالي ومطالب التغيير في الحكم والادارة ـ يتضح أي رد فعل أصاب الأهالي وزاد من زعزعة ثقتهم في الحكومة .

واذا كان الأهالي قد تحققوا من براءة حكومة الخديو مما يقترفه الموظفون الاوربيون (الكفار) من محاولات التغيير العنيفة فانهم لم يعفوها من الاتهام بالغفلة وضعف العزيمة بتعيينها لهم ، ودوت في أنحاء البلاد صيحة (الدين في خطر) ، فقد كان من غير المألوف أن يحكم النصراني مسلما . ومن هنا كان نداء المهدي بأن حكومة مصر أصبحت حكومة غير شرعية لا يحق لها الانابة عن خليفة المسلمين في حكم المسلمين في السودان .

وهكذا تجمعت العوامل التي أدت الى قيام الثورة التي وجدت في الامام محمد أحمد قلبها ولسانها ومخرجها الى حيز الوجود .

الهــــــوامش

(١) De Cadalvene, M. M. Ed. et De Brewery, J. : L'Egypte et La Nupie, I, pp. 104-111,
Pensa, H. : op. cit., p. 222.
Petherick, J. : op. cit., p. 127.
Cholu, A. : op. cit., p. 97.
Stewart, Lieut-Col. : Report on the Sudan, p. 9.

(٢) القبانى : منكراته عن الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ من ج ١ من كتاب السـودان لعبد الله حسين .

(٣) يعرف الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتبه عن السودان وبخاصه فى (الحكم المصرى فى السودان) ، وكذلك الدكتور مكى شبيكة فى (السودان فى قرن) بنظام الحكم على هذا الشكل بنظام اللامركزية ، وذلك باعتبـار أن الخرطوم هى العاصمة التى تنسب اليها اللامركزية والمركزية . ولكن لما كان السودان عند ولاة مصر لا يعدو أن يكون مديرية من مديريات مصر فليس للبلاد على هذا الأساس الا عاصمة واحدة وهى القـاهرة ـ حيث يقوم الوالى الذى تمتد ممتلكاته على مصر والسودان معا ، اما حكمدار الخرطوم فما هو الا ممثل الوالى ونائبه فى السودان . وهذا مما يحمل على نسبة المركزية واللامركزية الى حكومة القاهرة لا الخرطوم : فعندما تتركز السلطة فى القاهرة يصبح الحكم فى السودان مركزيا ، وعندما تتركز فى أيدى حكمدار الخرطوم يصبح لا مركزيا .

(٤) محفظة رقم ١٩ ـ الوثيقة رقم ١٨ سودان ، بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٣٦ .

(٥) Ropinson, A. E. : « The conquest of thl Sudan by the Wali of Egypt Muhammad Ali Pasha (1820-24) », JAS., part II, Vol. XXV, No. XCVIII, pp. 170-71.

(٦) محفظة رقم ١٩ بحر برا ـ الوثيقة رقم ٢٢ .

صورة محضر مجلس المشورة المنعقد يوم السبت الثامن من محرم ١٢٤٢ ـ البند الثالث ٠

(٧) دفتر رقم ١٠ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٢٤٧ ٠
بتاريخ ٢٩ شول ١٢٣٧ ـ الى سر عسكر السودان اسماعيل ٠

(٨) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٣ ٠

(٩) دفتر ١٠ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٥٨ ٠ بتاريخ ٢٢ ربيع اول ١٢٣٧ ٠

(١٠) دفتر رقم ٧ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٢٨٦ ٠ بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١٢٣٧ الى ابراهيم باشا بالسودان ٠

(١١) Robinson, A.E. : The conquest ..., part II, pp. 169-70.

(١٢) Palkme, I. : op. cit., p. 170.

(١٣) دفتر رقم ١٠ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٥١٣ بتاريخ ٨ جمادى الاخرة ١٢٣٨ الى الدفتردار بكوردفان ٩

(١٤) دفتر رقم ١٤ معية تركى ـ الوثيقة رقم ١٠٩ بتاريخ ٢٠ شوال ١٢٢٨ الى حاكم بربر ٠ وبحر مقرات هو النيل الازرق ٠

(١٥) دفتر رقم ١٤ معية تركى ـ الوثيقة رقم ١٣ ٠ بتاريخ رجب ١٢٣٨ ٠

(١٦) الجند الجهادية هم الجند المدربون على النظام العسكرى الجديد ، وكان دخولهم السودان لأول مرة فى عهد عثمان بك ٠

(١٧) أحمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٦ ٠

(١٨) نفس المصدر ، ص ٢٧ ٠

(١٩) دفتر رقم ٢٠ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٢٢ ٠ بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٤٠ ٠

(٢٠) احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ٢٧ ٠

(٢١) دفتر رقم ٢٠ معية تركى ـ البيورلدى رقم ٣٢٩ بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٤١ ٠

(٢٢) دفتر رقم ٢٤ معية تركى ـ الوثيقة رقم ٤٧٨ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة ١٢٤١ الى خورشيد اغا

(٢٣) دفتر رقم ١٠ معية تركي – الوثيقه رقم ١٠ بتاريخ ١١ محرم الى محو بك ·

(٢٤) دفتر رقم ٢٦ معية تركي – الوثيقه رقم ٦١ · بتاريخ ٤ جمادى الاخرة ١٢٤٢·

(٢٥) انظر ذلك التقرير في :

محفظة رقم ١٩ بحريرا – الوثيقة التركية رقم ٢٢ · صورة محضر مجلس المشورة المنعقد يوم السبت الثامن من محرم ١٢٤٢ ·

(٢٦) Op. cit., pp. 149-50.

(٢٧) دفتر رقم ٥٧ معية تركي – الوثيقة رقم ٥٥ بتاريخ ١٥ شوال ١٢٤٩ ·

(٢٨) دفتر رقم ٦٦ معية تركي – الامر الكريم رقم ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع أول ١٢٥١ الى خورشيد باشا ·

(٢٩) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٣٢ ·

وانظر ايضا شقير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ ·

(٣٠) مصر والسيادة على السودان ، ص ١٧ – ١٨ ·

(٣١) رفاعة رافع الطهطاوي : مناهج الالباب ··· ص ٢٥١ – ٢٥٥ ·

(٣٢) دفتر رقم ٢٢٤ صادر شورى المعاونة – الوثيقة التركية رقم ٣٠ بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٤ ·

(٣٣) Weygand, Le General : Op. cit., p. 148.
Pallme, I. : op. cit., pp. 30-31 & p. 48.

(٣٤) Robinson, A.E. : « The rulers of the Sudan since the Turkish occupation until the evacuation by the order of the khedive », JAS., Vol. XXIV, No. XCIII, p. 41.

(٣٥) محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ، ص ٢٤٠ ·

(٣٦) دفتر رقم ٢٢٣ – الارادة رقم – ورقة ٩٨ وجه ثاني بتاريخ ٥ ربيع اول ١٢٥٤ ·

(٣٧) محمد عبد الرحيم : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ ·

(٣٨) Robinson, A.E. : The rulers of the Sudan ..., p. 42.
Wingate, Sir R. : Wingate of the Sudan, p. 11.

(٣٩) African Wanderings, pp. 7-8.

(٤٠) J.W.C. : « The travels of Werne », SNR., Vol. II, No. I, 1919, p. 69.

(٤١) دفتر رقم ٢٦٩ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٢٦٤٢ بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٢٥٩ .

(٤٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٤٣) اما المديريات الخمس الاخرى فكانت : مديرية دنقلة وتمتد من حدود مصر حتى المتمة وشندي . ومديرية سنار وتمتد في الجزيرة جنوب واد مدني حتى حدود فازوغلي وكذلك في الاراضي الواقعة شرقي النيل الازرق في اقسام القصارف وراشد وعطيش والقلابات . ومديرية فازوغلي وتمتد على جبال الوتج واعالي النيل الأزرق . ومديرية التاكه وتتبعها قوزرجب والمناطق الممتدة من مصوع الى سواكن بما فيها البدو في تلك الجهة . ومديرية كردفان وتتبعها كردفان وتقلي : دفتر رقم ٢٦٩ معية تركي ـ وثيقة رقم ٢١٩٧ بتاريخ ١١ شوال ١٢٥٩ ارادة الى احمد باشا المنكلي .

(٤٤) نفس الدفتر ـ وثيقة رقم ٢٥٣٧ بتاريخ ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٩ .

(٤٥) نفس الدفتر ـ وثيقة رقم ٢١٤٣ بتاريخ ٥ شوال ١٢٥٩ .

(٤٦) دفتر رقم ٢٠٩ معاونة الاقاليم ـ وثيقة رقم ١١٥٨ ، بتاريخ ١١ شوال ١٢٥٩ .

(٤٧) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركي ـ وثيقة رقم ١٠٢٣ بتاريخ ١٥ ربيع الاول ١٢٦١ ارادة الى مدير الخرطوم .

(٤٨) نفس الدفتر ـ وثيقة رقم ٤٠٤٦ بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٦١ ارادة الى مدير الخرطوم .

(٤٩) نفس الدفتر وثيقة رقم ١٠٢٣ بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٦١ ارادة الى مدير الخرطوم .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٥١) دفتر رقم ٢٠٩ معاونة الاقاليم وثيقة رقم ١١٥٨ بتاريخ ١١ شوال ١٢٥٩ ارادة الى أحمد المنكلي .

(٥٢) دفتر رقم ٣٩٣ صادر المعية ـ وثيقة رقم ٢٨٤ ، بتاريخ ٢٨ ذي الحجة ١٢٦١ .

ويلاحظ في هذه الوثيقة أن المديريات اصبحت خمسا بعد ارجاع مديريتي بربر ودنقلة الى مديرية واحدة ، وكانت ستا ايام المنكلي .

(٥٣) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٥٤) التنظيمات الخيرية عبارة عن القوانين والانظمة التي تكفل امن رعايا الدولة العثمانية على اموالهم واعراضهم وارواحهم ، وتفرض رقابة دقيقة تحت اشراف حكومة الاستانة على كل شئون الحكم والادارة في انحاء الامبراطورية ، وتحصر مظاهر السلطة في يد الحكومة المركزية وعلى رأسها الباب العالي ، وقد صدرت في نوفمبر سنة ١٨٣٩

واذا نجح السلطان في تطبيق التنظيمات على مصر فانها تعود الى ما كانت عليه قبل اصدار فرمانات الوراثة سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، فتفقد بذلك وضعها الممتاز بين اقاليم الامبراطورية العثمانية وتصبح مجرد مقاطعة من مقاطعاتها ، وبالتالي يتهدد امر السودان وتبعيته لمصر . ولم يستطع عباس الخروج من هذه الازمة الا بفضل معاونة انجلترا له — انظر :

الدكتور محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ، ص ٤٠ — ٤٤ .
مصر والسيادة على السودان ، ص ٣١ — ٣٢ .

(٥٥) بعد تولية عباس مباشرة اصدر امرا بعدم تعيين مدير بالسودان تقل رتبته عن ميرالاى :

امين سامي : تقويم النيل المجلد الاول من الجزء الثالث ، ص ٢٤ .
ارادة للكتخدا في ٢٤ شوال ١٢٦٥ (٢ سبتمبر ١٨٤٩) .

(٥٦) دفتر رقم ٥٥ وارد المعية عربي ، الوثيقة رقم ١٧ . بتاريخ ١٠ جمادى الاول ١٢٦٧ من الحكمدار الى المعية .

(٥٧) محفظة رقم ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ١٠٢ . بتاريخ ٨ صفر ١٢٦٧ من اصطفان رسمي الى كاتب خديو . ومرفق بالوثيقة الكتب المرفوعة الى عباس من قنصل سرديقيا العام بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٠ ، وقنصل فرنسا العام بتاريخ ٩ ديسمبر ، ووكيل قنصل انجلترا العام بتاريخ ٢١ يونيو ، والقنصل للنمسا العام بتاريخ ٢٨ نوفمبر .

(٥٨) دفتر رقم ٦٢٠ صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٥٥ بتاريخ ربيع الاخر ١٢٦٨ الى مجلس الاحكام .

(٥٩) انظر في تشكيل مجلس دعاوى الخرطوم .

دفتر رقم ٤٨٠ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٤٩ أصلية ؛ ٣٩٢ مسلسلة بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٢٦٨ ٠

دفتر رقم ١٤٤ وارد معية عربي ـ الوثيقة رقم ٢٠٦ بتاريخ ١٨ شعبان ١٢٧٠ ٠

وانظر في عمل عباس على مده بالقوانين واللوائح :

دفتر رقم ١٠٣٦ صادر نظارة المالية الى الدواوين ـ الوثيقتان رقم ٧٦٧ ، ٧٨٥ المرسلتان الى رئيس المجلس بالخرطوم بتاريخ ٦ ، ٩ ربيع الاخر سنة ١٢٦٨ على الترتيب ٠

وانظر اللائحة المنظمة لأعمال المجلس في :

دفتر رقم ٦٢١ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ١٨٠ ٠ بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٦٨ الى حكمدار السودان ، دفتر رقم ٦٢٩ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٦٥٨ ٠ بتاريخ ٢ ذي القعدة ١٢٦٨ إلى مدير الجهادية ٠

هذا وقد عين رئيس المجلس نائبا للحكمدار بعد وفاة رستم باشا : دفتر رقم ٣٦٠ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٢٢٦٣ بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٦٨ الى رئيس مجلس الخرطوم ٠

(٦٠) شقير : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٦١) انظر هذا التقرير في : محفظة رقم ١٨ بحر برا ـ الوثيقة رقم ١١٨ بتاريخ ٧ ذى الحجة ١٢٦٨ الى الجناب العالي ٠

(٦٢) كان محمد على قد ضم منطقة مصوع وسواكن الى السودان فقلت مشاكل حكام التاكه الادارية ٠ ولكن السلطان استرد هذه المنطقة بعد وفاة محمد على ، فرجعت مشاكل الهاربين من مديرية التاكه اليها الى صورتها التى كانت عليها قبل الضم ٠

(٦٣) محفظة رقم ٢ مجلس الاحكام ـ الوثيقة رقم ٢٥ بتاريخ ٧ شعبان ١٢٦٩ ٠

(٦٤) دفتر رقم ٩٦ وارد المعية عربي ـ الوثيقة رقم ١٦ بتاريخ ١٦ صفر ١٢٦٩ ٠

وكان الغرض من انشاء (مجلس دعاوى التجار) سرعة البت في دعاوى التجار بعد ان امتلأت بهم الخرطوم نتيجة اعلان حرية الملاحة في النيل الابيض ٠ وكان هذا المجلس يتكون من رئيس ومعه خمسة تجار أحدهم بالنيابة عن الاوربيين

والثانى عن المصريين والثالث عن السودانيين والرابع عن طائفة اليونان والخامس عن طائفة القبط . واستمر اهتمام سعيد باشا بهذا المجلس ومده بمجموعة من قوانين التجار المعمول بها فى مصر . وجاء فى (الحكم المصرى فى السودان) للدكتور شكرى ، ص ٦٦ ان اراكيل بك (أيام سعيد) هو الذى انشأ هذا المجلس . ولكن هذا المجلس فى الواقع كان موجودا منذ ايام عباس ، اما ما تم ايام آراكيل فهو امداده بمجموعة من قوانين التجار فى مصر . انظر :

دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى - الوثيقة رقم ١٨ . بتاريخ ١٢ ذى الحجة ١٢٧٣ . الى مدير الخرطوم .

دفتر ١٨٩٩ اوامر عربى - الوثيقة رقم ١٠٠ ، بتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٧٨ الى محافظ مصر .

(٦٥) المحفظة رقم ١ معية - الوثيقة رقم ٢٨٩ . بتاريخ ٢ ربيع الآخر ، ١٢٧٠ .

(٦٦) دفتر رقم ٦٥٨ وارد ديوان الكتخدا من مختلف الجهات .

وثيقة رقم ٢٢٩٩ بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٧٠ .

رسالة بدون رقم لارسالها بصورة مستعجلة من المرور الى كاتب الديوان الخديوى من على سرى حكمدار السودان - بتاريخ ١ رمضان ١٢٧٠ . محفظة رقم ٣ معية - وثيقة رقم ٢٩٥ مسلسل ، ١٤ أصلى بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٧٠ الى كاتب الديوان الخديو .

(٦٧) دفتر رقم ٦٢٨ ديوان الكتخدا - وثيقة رقم ١٨٢ بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ الى القبو كتخدا .

(٦٨) محفظة رقم ٢ معية - وثيقة رقم ٥٤٠ . ومع خطاب الحكمدار أربعة خطابات موجهة من مدير بربر الى كل من :

(أ) هجلن القنصل النمسوى بتاريخ ٢ شعبان ١٢٧٠ .

(ب) حضرة أخينا ابو على (وهو التاجر) بنفس التاريخ .

(ج) هجلن القنصل النمسوى بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٧٠ .

(د) عائلة فى الخرطوم ، بدون تاريخ .

واخيرا يرى الحكمدار فى نقل رئيس المجلس مديرا على كردفان « الوسيلة التى نقطع بها المخابرة بالكلية بينه وبين سواكن » .

(٦٩) محفظة رقم ٣ معية - وثيقة رقم ٣٣٣ . بتاريخ ١٩ ذى الحجة ١٢٧٠ ،

عريضة شكوى خاصة بسوء تصرفات الحكمدار من رئيس مجلس الخرطوم وأعضاء المجلس ·

(٧٠) نفس الوثيقة ·

(٧١) دفتر رقم ١٨٨٠ أوامر عربي ـ الوثيقة رقم ٩ بتـاريخ ١٧ محرم ١٢٧١ ، الى الشيخ عمر ولد نمر ·

(٧٢) دفتر رقم ٦٢٣ ديوان الكتخدا ـ الوثيقة رقم ٤٣ بتـاريخ ٢٢ محرم ١٢٧١ من الجناب العـالى الى الكتخدا ·

(٧٣) الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ٥٥ ،

مصر والسيادة على السودان ، ص ٢٤ ·

مصر والسودان ، ص ٨١ ·

Shukry, Dr. M.F. : The Khedive Ismail and slavery, pp. 18-21.

(٧٤) محفظة رقم ٩ معية ـ وثيقة رقم ٧١ بتـاريخ ٩ ربيع الأول ١٢٧٢ ·

وما جاء فى هذه الوثيقة يدحض ما قالت به بعض المراجع من أن تعيين حليم حكمدارا كان يهدف ابعـاده الى السودان · انظر :

Robinson, A.E. : The rulers of the Sudan. p. 44.

(٧٥) سرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ·

جعلت بربر ودنقلة مديرية واحدة ، وكردفان وجهاتها مديرية ، والخرطوم ونواحيها وسنـار مديرية ، والتاكه واطرافها مديرية ·

(٧٦) دفتر رقم ١٨٨٧ صادر أوامر ـ الوثيقة رقم ١ بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٧٣ أمر الى حكمدار السودان ·

(٧٧) محفظة رقم ٦ ديوان الجهادية ـ الوثيقة رقم ٥٠ · بتـاريخ ١١ ربيع الاول ١٢٧٣ الى ناظر الجهادية · وكانت زيارة سعيد للسودان بين نوفمبر ١٨٥٦ ، فبراير ١٨٥٧ ·

(٧٨) Lesseps, F. : « Soupenirs d'un voyage au soudan », Nouvelle Revue, 6 an, t. XXVI, pp. 495-96.

عن : الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ٦٠ ·

مصر والسودان ، ص ٨٨ ـ ٩٠ ·

وانظر أيضا :

Forbes, A. : Chinese Gordon, p 244.

(٧٩) Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Centrale, pp. 26-29 & pp. 47-54.

(٨٠) القباني : السودان المصرى والانكليز ، ص ١٤٢ ٠

(٨١) انظر هذه المرسومات في :

Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Centrale.

المرسوم الاول : ص ٢٩ ـ ٤١ ٠

المرسوم الثاني : ص ٤٢ ـ ٤٤ ٠

المرسوم الثالث : ص ٤٥ ٠

المرسوم الرابع : ص ٤٦ ٠

ولم يقف اهتمام سعيد بالاصلاح عند حد اصدار هذه المرسومات ، بل تابع ارسال الكتب الى المديرين يحثهم فيها على اتبـاع السياسة الاصلاحية الجديدة ٠

(٨٢) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى ـ الوثيقة رقم ٢٠ بتـاريخ ٢ جمادى الثانية ١٢٧٣ امر الى حكمدار السودان ٠

(٨٣) Lejean, G. : op. cit., p. 46.

Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Centrale, p. 48.

(٨٤) محمد عبد الرحيم : نفثات اليراع ، ص ١٨ ـ ١٩ ٠

شقير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢ ٠

(٨٥) دفتر رقم ١٩٥٩ قرارات المجلس الخصوصي ـ الوثيقة رقـم ٤٥ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة ١٢٧٥ ٠

(٨٦) تحكي انطباعات احمد كاتب الشونة عن هؤلاء المديرين مشاعر الاهالي نحوهم ٠ فاما اراكيل بك ، فقد انتظمت له الامور في الشهور الاولى من مدة حكمه حينما كان حكم البلاد شورى بينه وبين مشايخها ، ولكنه لم يلبث أن تباعد عنهم « فتفرقت اغلب المشايخ وكرهوا مقابلته واعتصم بعضهم بالجبال » ٠ اما حسن بك سلامة فكان جاهلا بامور السياسة والملك وليس خليقا للحكومة ٠ اما محمد بك راسخ فكان يبيع المناصب : المصدر السابق : ص ٣٥ ـ ٣٦ ٠

(٨٧) دفتر رقم ١٨٩٩ اوامر عربى ـ الوثيقة رقم ١٦ بتـاريخ ٢٠ رمضان ١٢٧٨ امر الى مديرية سـنار والخرطوم ، خاص بعرضحالات من الاهالي لعـدم نهو القضايا ٠

(٨٨) دفتر رقم ٥٢٦ معية تركي ـ الوثيقة رقم ١٨ بتـاريخ ٢ ذى القعـدة ١٢٧٩ ، ارادة الى حكمدار السودان ٠

وفي هذه الارادة يمنحه الخديو رتبـــة (روم ايل بكلر بكى) الرفيعـــة (وهي رتبـة مير أمراء اقليم الروم) وقطعــة من النيشــان المجيدى من الدرجة الثانية - وكان الخديو في شهر محرم من نفس السنة قد حصل له من الباب العالى على الباشوية ورتبــة الميرميران ٠

(٨٩) دفتر رقم ٥٢٦ قسم ثان ـ الوثيقة رقم ١٠ بتــاريخ ٨ شــعبان ١٢٧٩ الى حكمدار الســودان ٠

وكان أحمد بك أبو سن خير مثــال يحتذى فقد عمل مديرا للخرطوم عشر سنوات لم يقطعها أى اضطراب ، الامر الذى برهن على كفاءة السودانى الادارية ٠

وقد اهداه الخديو سيفا ذهبيــا اعترافا بنشاطه وكفاءته « وليكون شــارة علنية عن رضاه عنــه » ٠

دفتر رقم ٥٢٧ قسم ثان ـ الوثيقة رقم ٧ ٠ بتــاريخ ٢ رجب ١٢٨١ الى حكمدار السودان ٠

(٩٠) يرجع الاهتمام بانشاء مديرية النيل الابيض الى عهد سعيد ، لعــلاقة ذلك الأمر بموضوع القضاء على تجــارة الرقيق وقيام التجارة المشروعــة فى النيل ٠ وأول من أرسل الجند الى هذه الجهات وأقام المخافر فيها هو الحكمدار على باشــا جركس ٠ ودام اهتمام سعيد بها بعد ذلك ٠ فلما جاء اســماعيل وفى عهد الحكمدار موسى حمدى عين مامورا لتلك الجهات ومعـــه بعض الجند للتجول فى النيل ، ولكن مازال الحكمدار بالخديو حتى وافق على اقامة المديرية وتعيين مدير لها فى جمادى الاولى ١٢٨١ هـ (سبتمبر ١٨٦٤ م) ٠

اما مصوع وسواكن ، فقد كانت مساعى اسماعيل على أن يكون الحاقهما بمصر بصفة دائمة لا بصفة مؤقتة كما كان فى عهد جده محمد على ٠ وقد تبودلت كثير من المكاتبــات بين اسماعيل والسلطان فى هذا الموضوع ٠ وكان هادى اسماعيل فى طلبه فرار عربان التاكه اليهما ، وأن هذين الميناءين متصلان تجاريا ببقية السودان ، وأن تجارة الرقيق المطلوب القضاء عليها تجد فيهما رواجا ومنفذا ٠

انظر موضوع ضم سواكن ومصوع وملحقاتهما الى السودان أيام اسماعيل فى :

Douin, G. : op. cit., III, 1 re partie, pp. 268-85.

(٩١) دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى ـ وثيقة رقم ١ بتــاريخ ٩ محرم ١٢٨٢ ارادة صادرة الى حكمدار جزيرة ســنار ٠

(٩٢) نفس الدفتر ، ص ٦٦ · بتاريخ ٢٤ المحرم ١٢٨٢ ارادة صادرة الى حكمدار السودان ·

(٩٣) دفتر رقم ٥٣٩ معية تركي ، ص ٨٠ بتاريخ ٢٨ ربيع الاول ١٢٨٢ ارادة لجعفر باشا وكيل الحكمدار · وانظر ايضا :

Robinson, A. E. : The rulers of the Sudan, p. 46.

Douin, G. : op. cit., III, 1 re partie, pp. 194-97.

(٩٤) انظر : دفتر رقم ٥٥٨ معية تركي قسم أول ـ ص ١٥ · بتاريخ ٢ جمادى الاخرة ١٢٨٢ ·

وانظر ايضا :

Douin, G. : op. cit., III, 1 re partie, p. 184.

(٩٥) محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ، ص ١٩٩ ·

(٩٦) القباني : السودان المصرى والانكليز ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ·

(٩٧) دفتر رقم ١٥ صادر تلغرافات ـ التلغراف العربى رقم ٤٤٧ · بتاريخ ٢٠ ربيع ثان ١٢٩٠ من المعية الى مدير دنقلة وبربر ·

(٩٨) محمد عبد الرحيم : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ·

وهكذا اثمرت الحكومة الابوية بانضمام البدو المحيطين بكسلا الى الحكومة ·

(٩٩) انظر جورنال جعفر باشا مظهر في : دفتر رقم ٥٥٨ معية تركي قسم اول ـ ص ١٥ ·

(١٠٠) نفس الدفتر معية تركي ـ الوثيقة رقم ١٧ بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٨٢ ارادة صادرة الى حكمدار السودان · انظر بعثة شاهين باشا أيضا في :

Douin, G. : op. cit., II, 1 re partie pp. 226-31.

(١٠١) محمد عبد الرحيم : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ·

(١٠٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركي ـ الوثيقة رقم ٢٣ بتاريخ اخر ذى القعدة ١٢٨٢ ارادة صادرة الى حكمدار السودان ·

(١٠٣) دفتر رقم ١٩٣٠ عربي ـ ص ١٢٠ · بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٨٧ ، أمر صادر لمحافظة البحر الاحمر ·

(١٠٤) نفس الدفتر ص ١٨٩ بتاريخ ٧/جمادى الآخر ١٢٨٧ أمر صادر للمالية .

(١٠٥) دفتر رقم ١٩ تركي ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب ١٢٨٨ ارادة لرئيس المجلس الخصوصي .

عن : امين سامي : تقويم النيل مجلد ٢ ، جـ ٣ ، ص ٩٥٨ .

(١٠٦) بعد تقسيم السودان على هذا النظام بشهور ستة فقط رجع الخديو ثانية الى ضم محافظتي سواكن ومصوع تحت ادارة واحدة « لما في ذلك من الانتظام في الادارة وحصرها » :

دفتر رقم ١٩٣٩ عربي ـ الوثيقة رقم ٨٦ بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٨٩ أمر الى محافظ سواكن ومصوع .

(١٠٧) دفتر رقم ٥٥٨ قسم ثان ـ الوثيقة رقم ٩ بتاريخ ٢٣ شوال ١٢٨٣ ، ارادة الى حكمدار السودان .

(١٠٨) دفتر رقم ١٨٤٩ معية ـ الوثيقتان رقم ٦ ، ١٣ ، بتاريخ ١٦ شوال ، ١٦ ربيع أول سنة ١٢٨٨ على الترتيب ، من حكمدارية السودان الى المعية .

(١٠٩) دفتر رقم ١٨٦٤ معية عربي ـ الوثيقة رقم ٣٦ بتاريخ غاية ذي القعدة ١٢٨٩ من مدير عموم قبلي السودان الى المعية .

(١١٠) دفتر رقم ٧٨ عربي ـ الوثيقة رقم ٦١ بتاريخ ٧٧ ذي الحجة ١٢٨٨ قرار المجلس الخصوصي .

اما قضايا محافظتي سواكن ومصوع فكانت تستأنف الى مجلس استئناف مصر « لقربهما لمصر عن الخرطوم » .

(١١١) دفتر رقم ١٩٤٨ معية عربي ـ ص ٣٧ ، بتاريخ ٢٦ ذي القعدة ١٢٩٠ امر الى حكمدارية السودان .

(١١٢) تقرر الروايات الوطنية بما لا يدعو للشك أن ممتازا كان يرتشى ـ انظر : أحمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء هامش ، ص ٢٠٥ .

وهناك من يدافع عن ممتاز بأن ما أصابه من اشاعات كان نتيجة للدسائس المدبرة ضده ، وأنه كان يتزعم هذه الحركة مجلي بك الشامي وكيل مديرية

الخرطوم وصنيعة إسماعيل صديق المفتش الذي كان عدوا للشاز ، لخشى ازدياد نفوذه لقدرته على حل مشاكل السودان المالية والادارية .

انظر : مرهنك : المصدر السابق ، ج ۲ ، ص ۳۱۷ .

الشاطر بوصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص ٢٧٤ ـ ٧٦ .

(١١٣) دفتر عربى بدون رقم ـ ص ١٦٧ .

بتاريخ ١٠ شوال ١٢٩٢ ، أمر كريم للجهادية .

عن : امين سامى : تقويم النيل مجلد ٣ من ج ٢ ، ص ١٢٦٥ .

(١١٤) دفتر رقم ١٨ اوامر عربى ـ الوثيقة رقم ٣ بتاريخ ٤ صفر ١٢٩٤ . أمر الى غردون باشا .

الوقائع المصرية رقم ٦٩٨ الصادرة بتاريخ الأحد ١٢ صفر ١٢٩٤ (٢٥ فبراير ١٨٧٧) .

(١١٥) نفس الدفتر ـ الوثيقة رقم ١٩ . بتاريخ ١٦ صفر ١٢٩٤ . أمر الى غردون باشا .

الوقائع المصرية رقم ٦٦٩ الصادرة بتاريخ الاحد ١٩ صفر ١٢٩٤ (٤ مارس ١٨٧٧) .

(١١٦) سوف ينفذ هذا المشروع ضمن معاهدة ستعقد بهذا الخصوص بين مصر وانجلترا فى ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ .

(١١٧) مرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

(١١٨) انظر على سبيل المثال :

Churchill, The Rt. Hon. W.S. : The River War, pp. 10-13.
Mac Michael, Sir H. : The Anglo-Egyptian Sudan, p. 42.
Mac Michael, Sir, H. ; The Sudan, p. 34.
Wylde, A.B. : op. cit., pp. 149-50.
Duncan, J.S.R. : The Sudan, a record of achievement, p. 21.

(١١٩) Peel, S. : op. cit., p. 144.

(١٢٠) ظهر ذلك فى قولهم (الترك علمونا الحديث ولبسونا القميص) ، وقولهم (فتاوى يالقاضى السلاوى اللى عرب الشجر اصبح تركاوى) :

محمد أحمد الجابرى : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

ويعجب المتحدث فى القول الاخير بما اصاب البدو فى الصحراء من تقدم

على يد الترك ، ويرجو من الشيخ السلاوى قاضى الخرطوم أن يرشده الى كيفية حدوث ذلك الامر .

(١٢١) من ذلك أنه عند مغادرة خورشيد باشا البلاد الى مصر (صعب ذلك على الاهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع) . اما أحمد أبوودان (فقد تمهدت الحكمدارية فى أيامه ، ونمت المواشى وزادت الارزاق) . اما موسى حمدى (فقد استبشرت به الرعية وايقنوا بحصول الراحة والأمنية) . اما جعفر مظهر (فقد اقر جميع الاحكام بالعدالة))

احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ـ ٣٩ .

(١٢٢) جاء ـ على سبيل المثال ـ فى امر محمد على الخاص بمنح خورشيد لقب حكمدار السودان (واجعل نصب عينيك الاهتمام ببسط العمران والرفاهية فى هذه الاقاليم كالاقاليم المصرية) :

دفتر ٦٦ تركى ـ الامر رقم ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع أول ١٢٥١ .

وجاء فى امر عباس لسليم باشا صائب عند تعيينه حكمدارا (واحفظ الرعية من أنواع التعدى والاختلال ، وابسط لهم بساط العدل على التمام كقوله عليه افضل الصلاة والسلام « العدل ان دام عمر » وكقوله « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ») :

دفتر ١٠١ عربى ـ الامر رقم ١٢٢ بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٩ .

(١٢٣) Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Centrale, p. 41.

(١٢٤) فى مجال شكوى الحكمدار عبد اللطيف الى الرحالة بايارد تيلر من عدم انقياد الاهالى لاوامر الادارة اكد له انه لو حاول ان يشتد عليهم قليلا فانه فاقد منصبه لا محالة :

Taylor, B. : op. cit., p. 391.

(١٢٥) سعد ميخائيل : السودان بين عهدين ، ص ٢٠٦ .

(١٢٦) شقير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(١٢٧) انظر على سبيل المثال :

Casati, Major G. : op. cit., pp. 19-20.

Martin, P.F. : op. cit., p. 93.

(١٢٨) احمد كاتب الشونة : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(١٢٩) نفس المصدر : ص ٢٦ .

(١٣٠) في عهد خورشيد باشا عزل المباشر بشارة البولطي وارسل الى الترسانة عقابا له لتقصيره في التقدير الصحيح للضرائب على الاهالى :

احمد كاتب الشونة : نفس المصدر ، ص ٢٩ .

محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ، ص ٢٣٩ .

(١٣١) Wingate, Sir R. : Wingate of the Sudan, p. 25.

(١٣٢) Wilson, C.R. : Chapters from my official life, p. 197.

(١٣٣) Murray, T.D. : & White, A.S. : Si Samuel Baker, A Memoir, p. 285.

(١٣٤) Muskau, Prince P. : op. cit., III, p. 200.

(١٣٥) Wingate, Sir R. : op. cit., p. 11.

الدكتور محمد صبرى : مصر في افريقية الشرقية : هرر وزيلع وبربره ، ص ٤٥ ، ٤٩ ـ ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٧١ ـ ٧٥ .

(١٣٦) انظر هذه المعاهدة في :

امين سامى : تقويم النيل مجلد ٣ من جـ ٣ ، ص ١٤٨٥ ـ ١٤٨٧ .

وانظر مجهودات اسماعيل للقضاء على تجارة الرقيق في السودان في :

الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ، ص ١٦٨ ـ ٢٢٠ .

Gessi R. Pasha : op. cit., pp. 3-7.

Stewart, Lieut. Col. : Report on the Sudan, pp. 22 f.

(١٣٧) القبانى : السودان المصرى والانكليز ، ص ٩ .

Hill, G.B. : op. cit., p. 319.

(١٣٨) الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ، ص ٢١٠ ـ ٢١٢ .

الدكتور محمد صبرى : الامبراطورية السودانية ، ص ٧٥ .

Sabry, Dr. M. : Le Sudan Egyptien, p. 54.

Sabry, Dr. M. : L'Emjire Egyptien sous Ismail et l'ingerence Anglo-Francaise (1863-79), p. 405.

(١٣٩) Chaille Long, Col. C. : My life in four continents, I pp. 78-79.

L'Egypte et ses provinces perrues, p. 188.

(١٤٠) دفتر ٤٦ وارد تلغرافات ـ التلغراف العربي الشفرة رقم ٤٠٠ بتاريخ ٢٢ جمادى الاولى ١٢٩٤ .

دفتر ٣٥ صادر تلغرافات ـ التلغراف العربي الشفرة رقم ٤٠ بتاريخ ١٥ يناير ١٨٧٨ ارادة الى غردون باشا .

(١٤١) Forbes, A. : Chinese Gordon, p. 167 .
De Bovet, Mlle Marie-Anne : Le General Gordon, p. 86.
Lawrence & Elisabeth Hanson : Gordon, The story of a hero, p. 139.

(١٤٢) دفتر ٤٨ وارد تلغرافات ـ التلغراف العربي الشفرة رقم ٩٦ . بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٩٤ .

(١٤٣) دفتر ٥٠ وارد تلغرافات ـ التلغرافات العربية الشفرة ارقام : ١٤٥ ، ٢٣٩ ، ٦٤١ . بتاريخ ٢٧ يونيو ، ١٥ اغسطس ، ٨ نوفمبر سنة ١٨٧٨ .

(١٤٤) Hill, G. B. : op. cit., p. 349.
« Editorial Notes », JAS. : Vol. XXIV, No. XCIII, Oct. 1924, p. 56.

(١٤٥) القباني : المصدر السابق ، ص ٣٧ ـ ٤٠ .

(١٤٦) نفس المصدر : ص ٥٣ ، ١٥١ .

(١٤٧) دفتر رقم ٥٠ وارد تلغرافات ـ التلغراف العربي الشفرة رقم ٢٠٤ ، بتاريخ ١٤ يوليو ١٨٧٨ .

(١٤٨) القباني : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(١٤٩) Chaille Long, Col. C. : L'Egypte et ses provinces perdues, p. 186.
Pensa, H. : op. cit., p. 238.

الفصل السابع

نهاية الخرطوم

قيام الثورة المهدية وقرار اخلاء السودان ـ بعثة غردون ـ حصار الخرطوم ـ تحصينات الخرطوم ـ الخرطوم من الداخل أثناء الحصار ـ حملة الانقاذ ـ سقوط الخرطوم ـ مسالة تفكير المهدى فى فداء عرابى بغردون ـ المدينة لم تسقط بسبب الخيانة ـ قيام ام درمان عاصمة المهدى ٠

جهر محمد احمد بدعوته في جزيرة أبا في مايو سنة ۱۸۸۱ في عهد الحكمدار محمد رءوف باشا . ولكن لم يلبث أن (هاجر) الى جبال تقلي بكردفان وفيها انتصر أوائل ديسمبر سنة ۱۸۸۱ على مدير فاشوره في جبل قدير . وعندما ارسل الحكمدار الى القاهرة يطلب المدد كان رأيها أن القوة العسكرية في السودان كافية ، وأن الحالة فيه تستدعي زيادة اشرافها عليه ، ومن أجل ذلك صدر في ۲۱ فبراير سنة ۱۸۸۲ أمران عاليان ، يقضي الأول بجعل السودان كله حكمدارية واحدة وانشاء نظارة له والثاني بسحب محمد رءوف وتعيين عبد القادر باشا حلمي حمكدارا لعموم السودان وناظرا على الاقاليم السودانية وملحقاتها (۱) .

وعندما غادر محمد رءوف الخرطوم في ٤ مارس سنة ۱۸۸۲ قام جيجلر باشا مدير عام البرق بعمل الحكمدار في الأسابيع التسعة التي سبقت وصول عبد القادر الى المدينة ، وفي تلك الفترة حارب جيجلر دعاة المهدى في منطقة الجزيرة بنجاح ، كما أرسل حملة كبيرة بقيادة الشلالي باشا مدير سنار لضرب المهدى في كردفان .

وعند وصول عبد القادر حلمي الى الخرطوم في ۱۱ مايو عمل جاهدا على ارجاع الثقة بالحكومة الى نفوس الأهالي (۲) ، فارسل المدد الى كردفان ، وبدأ في تحصين المدينة ورتب عسسا لحراستها ، واخذ في جمع عدد من الارقاء وأنشا ثلاثة طوابير منهم ، وبالجملة فقد جمع في الخرطوم قوة كبيرة تقدر بعشرة آلاف جندى . وبعد ذلك عمد عبد القادر الى ضرب دعاة المهدى في الجزيرة والنيل الأبيض ، وتمكن بقوة السلاح والحرب النفسية من القضاء على المخاطر التي كانت تهدد الخرطوم من هاتين الجهتين .

ولكن أمر الثورة في كردفان كان مختلفا جد الاختلاف • فبعد هزيمة حملة الشلالى باشا في جبل الجرادة ـ والتى وصل خبرها الى عبد القادر بعد شهر واحد من وصوله الى الخرطوم ـ سقطت حاميات كردفان الواحدة تلو الأخرى ، وأصبحت باره والأبيض المدينتين الوحيدتين الخاضعتين للحكومة ، الأمر الذى حاول معه عبد القادر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ فك الحصار الذى ضربه المهدى حولهما دون جدوى ، ومنذئذ وضح له عدم جدوى الصدام مع المهدى دون أن يأتيه المدد من القاهرة • وفى أواخر ديسمبر أبرقت اليه الحكومة المصرية بارسال المدد وعلى رأسه هيئة من ضباط أركان الحرب الانجليز برياسة كبير منهم •

وبينما كان عبد القادر يحارب أتباع المهدى فى الجزيرة أصدر الخديو أمرا فى ٢٢ يناير سنة ١٨٨٣ بالغاء نظارة السودان وارجاع الحكمدارية ثانية على أن يقوم فيها علاء الدين باشا حكمدار سواحل البحر الأحمر بعد فصل عبد القادر عنها (٣) • وفى اليوم التالى أبرق الخديو الى عبد القادر بوقف جميع العمليات الحربية وجمع القوات العسكرية فى الخرطوم وانتظار الضباط الانجليز الذين وكل اليهم قيادة حملة كردفان •

وفى منتصف فبراير وصلت القوات المصرية الى سواكن • ولكن الواجب الذى كان عليها القيام به أصبح أكثر صعوبة بعد سقوط باره فى ٥ يناير وسقوط الأبيض بعدها بأسبوعين ، فلم يعد هو رفع الحصار عن هاتين المدينتين كما كان مقررا عند طلب المدد من مصر • بل أصبح طرد المهدى من عرينه فى كردفان •

وفى ٤ مارس وصلت القوات المصرية الى الخرطوم وعلى رأسها القائد الانجليزى الجنرال هكس الذى استلم قيادة القوات العسكرية

فى البلاد من عبد القادر . وفى ٢٥ مارس أعلن فى الخرطوم تعيين علاء الدين باشا حكمدارا وسليمان نيازى باشا قائدا عاما .

وقبل التقدم الى كردفان قام الجنرال هكس بتنظيف منطقة الجزيرة وضفاف النيل الأبيض من دعاة المهدى . ومع أن رجالات الانجليز في القاهرة قاموا بمحاولات لاثناء حكومة الخديو عن ارسال حملة كردفان لضعف امكاناتها التى ابرق بها هكس اليهم — الا أن الحملة مع ذلك سـارت فى طريقها وهى محمـلة بكل مؤهلات الفشـل (٤) ، فلقيت حتفها فى شـيكان بالقرب من الأبيض في ٤ نوفمبر .

وكانت لهزيمة الحملة آثار كبيرة منها تسليم دارفور وبحر الغزال للمهدي واتجاه الثوار بعد ذلك الى مديرية خط الاستواء وشد أزر الثورة في شرق السودان — وكانت قد بدأت فيه منذ منتصف يونيو سنة ١٨٨٣ . ومن هذه الآثار أيضا اعطاؤها سياسة انجلترا تجاه المسألة السودانية شكلها النهائى ، فاذا كانت انجلترا قبلها تدعي عدم مسئوليتها عن شئون السودان وأن حملة هكس توجيه مصرى بحت (٥) فى الوقت الذى تقبض فيه على كل شىء فى القاهرة وتتدخل فى شئون السودان بشكل غير رسمى — وهو الأمر الذى من أجله يحمل كرومر وبعض كبار الساسة الانجليز حكومتهم جريرة عدم القيام بأى مجهود لمنع مسير الحملة (٦) — فقد أصبح تدخلها بعد تلك الهزيمة رسميا ، وأصبحت تملى سياستها المرسومة على مصر التي كان عليهـا أن تنفـذها طالما هى داخـلة في دائرة مسئوليتها (٧) . وقد تحددت هذه السياسة في مطالبة مصر باخلاء السـودان .

ولكن مصر لم توافق على سياسة الاخلاء ، وكانت خطتها تقوم على ارسال النجدات الى الخرطوم والعمل من أجل ذلك على فتح

طريق سواكن ـ بربر ، ولهذا فقد عمدت الى ارسال حملة الى سواكن ـ راس هذا الطريق ـ بقيادة بيكر باشا وزميله الفريق الزبير باشا رحمت الذى كان يقود قوات من البدو (٨) · وقد رحب الانجليز بخطة مصر لتامينها طريقهم البحرى الى الهند ، وان اعترضوا على استخدام الزبير ·

وبعد ذلك بحثت مصر الكيفية التى تحصل بها على النجدات اللازمة لارسالها الى الخرطوم ، وكانت وجهتها أن تستعين بجند السلطان ، ولكن الحكومة الانجليزية اشترطت أن تتحمل الخزانة التركية ـ لا المصرية ـ أجورهم ، مما أدى الى فشل العملية · وكان رأى ممثل انجلترا فى مصر في خطوة الحكومة المصرية أنها لا تود بحق استخدام هؤلاء الجند لأسباب على رأسها أن المفاوضات مع السلطان على أساس أن تتحمل تركيا تكاليف الجند فاشلة لا محالة. وانما هى تستخدم هذا الاقتراح للضغط على الحكومة البريطانية حتى تسمح باستخدام الجند الانجليز ، وان الطريق الوحيد المؤدى الى حمل الحكومة المصرية على الموافقة على سياسة الاخلاء أن تصر الحكومة البريطانية على اتباع تلك السياسة ، وأنه لابد من ارسال ضابط انجليزى كبير ـ بعد تزويده بسلطات واسعة ـ لاخلاء السودان وتأسيس نظام ادارى فيه يلائم حالته (٩) ·

وفى ٢ يناير سنة ١٨٨٤ أعلنت الحكومة المصرية آخر ما فى جعبتها لحل مشكلة النجدات واقترحت تسليم شواطىء البحر الأحمر والسودان الشرقى الى السلطان حتى يتسنى لها الاحتفاظ بوادى النيل والخرطوم (١٠) · ولكن لما كان هذا الاقتراح يتعارض مع مصالح انجلترا فى شواطىء البحر الأحمر فقد أصرت فى ٤ يناير على وجوب قيام الحكومة المصرية باخلاء الخرطوم ـ حيث أنها لا تعتقد أن فى مقدرتها الدفاع عنها ـ والتزامها باتباع نصائحها · وهكذا أصبح على الحكومة المصرية ان تقبل النصيحة البريطانية باخلاء

السودان أو تستقيل ، فاستقال شريف باشا بلا تردد ، ورفض رياض باشا تأليف الوزارة . وأخيرا ، وفي ٧ يناير قبل نوبار باشا الوزارة على أساس سياسة الاخلاء ، وسار في تنفيذها فعلا تو توليه الـوزارة .

وهكذا أصبحت مهمة (الاخلاء) تكليفا انجليزيا ، وكان على انجلترا أن تبحث عمن سيقوم بتنفيذها على أن يكون انجليزيا ، ومن أجل ذلك عرقلت ارسال عبد القادر باشا حلمي القائد الواسع الخبرة بشئون السودان والذي وقع عليه اختيار وزارة نوبار (١١) . وقد اختير للمهمة الجنرال غردون الذي يرجع استخدامه دون غيره الى فريق دعاة الامبراطورية والاستعمار ، وهم الأقلية القـــوية في وزارة جلادستن في ذلك الوقت (١٢) .

ولقد كان (الاخلاء) في الواقع واجهة يختفي وراءها مآرب هذا الفريق وغردون في اسقاط السودان في جيب انجلترا بأي طريق . وحتى عملية الاخلاء - كما جاءت في التعليمات الصادرة الى غردون - لونت باللون الذي يجعل منها مهمة استشارية تقريرية بحتة لا تتعدى ذهاب غردون الى سواكن للتقرير عن حالة البلاد وكيفية اجراء الاخلاء ثم عودته بعد ذلك على أن العملية كانت تتضمن في نفس الوقت قيام غردون بالاخلاء فعلا ، وهذا العمل التنفيذي بذلت محاولة للفه في الغموض فصب في عبارة فيها أمر الى غردون بأن يقوم علاوة على كتابة التقرير بما قد تطلبه منه الحكومة المصرية من مهام (١٣) ، ومع أن هذه العبارة تبدو للشخص العادي عبارة مصلحية لا تحمل اى معنى خاص الا أنها في الواقع قد غيرت طبيعة التعليمات تماما . وقد سلك فريق الاستعمار في الوزارة بالتعليمات هذا الشكل حتى لا تثير عند جلادستن اى اعتراض عليها ، حيث أنه كان أكثر الوزراء أملا في عدم الاشتباك بالمسألة السودانية ، وحيث كان قد هيىء له أن تولى نوبار الوزارة قد آذن بالوصول الى أمله ، ومما ساعد هذا

الفريق في حيلته أن معلومات جلادستن في الأمور الخارجية كانت ضحلة وقليلة لانصرافه الى الأمور الداخلية ، وهذا مما جعله يعهد بالأمور الخارجية الى وزير خارجيته جرانفل (١٤) ٠

غادر غردون وساعده الكولونيل ستيوارت لندن في طريقهما الى السودان يوم ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ ٠ وفي القاهرة منح الخديو غردون فرمانين : يعينه في الأول حاكما عاما على البلاد ويكلفه باعادة الأمن اليها ، ويخاطب في الثاني الأعيان باستقلال البلاد واقامة حكومات وطنية فيها وسحب الجند وكل من يود الانسحاب من الوطنيين من الخرطوم ٠ وكان على غردون أن يعلن كلا الفرمانين على الأهالي طبقا للظروف التي يراها ملائمة لذلك ٠ وقد غادر القاهرة وتعليمات المهمة واضحة في ذهنه ، كما كان متأكدا تماما من نجاحه في تنفيذها (١٥) ٠

وعند وصول غردون الى بربر في ١١ فبراير أرسل الى المهدى رسالة يعلنه فيها سلطانا على كردفان ويطلب منه توطيد علاقته مع حكومة السودان ٠ كما أعلن أهالي بربر بمضمون فرمان الخديو الخاص بعزم الحكومة على اخلاء البلاد واعادتها الى مشايخها الوطنيين ٠ وقد اقترف غردون خطأ كبيرا بذلك الاعلان الذى كان من نتيجته اسراع الأهالي الى الانضمام للمهدى بعد أن تركتهم الحكومة ، وكان هذا الخطأ في رأى غردون نفسه (١٦) والكثيرين من رواة سيرته قدامى ومحدثين (١٧) الضربة المميتة التي قضى بها غردون مقدما على مهمته ٠

وعند وصول غردون الى الخرطوم في ١٨ فبراير بشر الأهالي بعهد جديد من التسامح والعدل وان كان لاعلانه اعطاء القوانين الخاصة بالقضاء على تجارة الرقيق نتيجته السيئة عندهم ، فقد تأكدوا منه أن الحكومة مقدمة فعلا على اخلاء البلاد (١٨) ٠

وأهم موضوع شغل بال غردون فى الأيام الأولى من وصوله هو تنظيم حكومة الخرطوم ، فقد أرسل فى اليوم الأول من وصوله الى بيرنج فى القاهرة فى طلب الزبير ليكون على رأس تلك الحكومة لأنه الرجل القادر على مناوأة المهدى ، ولأن انسحابه من الخرطوم دون تعيين خلف له سيكون بمثابة الاشارة لانتشار الفوضى فى كل انحاء البلاد ، كما ضمن الرسالة ضرورة اعلان انجلترا لسيادتها على تلك الحكومة ـ وهى سيادة اسمية لا تحتاج الى بذل المال والجند بل الى تعضيد أدبى من انجلترا ، وهو الأمر الذى نجحت تجربته فى حكومة افغانستان (١٩) .

وقد اعترضت الحكومة على تعيين الزبير ، وفزع جلادستن لمجرد تفكير غردون فى اقامة حكومة فى الخرطوم قائلا ان هذا الأمر ليس من تعليماته (٢٠) . وقد شرح بيرنج لحكومته أن اقامة حكومة فى الخرطوم خير ضمان لنجاح اخلاء البلاد ، وأنه اذا كانت حكومة الملكة لا ترضى بان يرأس الزبير حكومة الخرطوم وترفض اعطاءها التعضيد المادى والأدبى مع أنها فى الواقع المسئولة عن كل الاجراءات التى تدبر للسودان ـ فعليها أن تمنح غردون وحكومة الخديو الحرية الكافية لعمل ما يريانه للخروج بالمسألة السودانية الى بر الأمان (٢١) . وقد ردت الحكومة بالقطع بعدم ارسال الزبير ، وأنه ليس عندها مانع من تعيين خلف مسلم آخر لغردون فى الخرطوم اذا كان هذا الأمر ضروريا ـ على أن يتم ذلك بعد موافقة السلطان (٢٢) . وأثر فريق دعاة الامبراطورية واضح فى رد الحكومة ، فهو يريد اطالة أمد بقاء غردون فى الخرطوم حتى يبت فى تعيين خلف له وتضطر الحكومة ـ لسبب أو لآخر ـ الى التدخل ، وخاصة عندما تزداد الصعاب أمام غردون .

وفى ذلك الوقت كانت الصعاب تتزايد حول الخرطوم مما حمل غردون فى نهاية فبراير على طلب ارسال مائتين فقط من الجنود الى

أسوان لما لذلك من تأثير كبير على الثوار عند وصول خبر مجيء تلك القوة اليهم ومعه الكثير من المبـــالغة مما يحسن من مركزه فى الخرطوم • وفى الأيام الأولى من شهر مارس كان غردون يتوقع أن يقطع الثوار طريق الانسحاب من المدينة الى بربر ويحطموا أسلاك البرق الممتدة بينهما (٢٣) • ولما كان ـ وحالته هذه ـ قد قطع الأمل فى ارسال الزبير اليه ، وفي حمل الحكومة على فتح طريق سواكن ـ بربر واعتناقها مبدأ انقاذ الجند المصريين بالمراكز الداخلية فى البلاد • فقد أبرق الى بيرنج يوم ٩ مارس باستقالته وعزمه على الانسحاب جنوبا الى خط الاستواء وبحر الغزال وضم هاتين المديريتين الى الكنغو البلجيكى على أن يكون هو نائب الملك عليهما • ولكن بيرنج أمره بالبقاء فى الخرطوم حتى يعرض الأمر على حكومته •

وفي ١٣ مارس حزمت الحكومة أمرها فى مسألة بعثة غردون برمتها ، وكان قرارها رفض قبول الاستقالة وارسال الزبير أو اية قوات عسكرية الى غردون ، وان عليه اقامة حكومة الخرطوم الوطنية، فاذا وجد أن تحقيق ذلك متعذر فليخل الخرطوم ويسحب حاميتها الى بربر (٢٤) • وعبثا حاول بيرنج تغيير موقف الحكومة عندما بين لها أن مسائل سحب الحاميات وارســـال الزبير واقامة حكومة الخرطوم كلها مرتبطة لا يمكن فصل احداهما عن الأخرى (٢٥) •

ولقد كانت هزيمة الجنرال بيكر فى موقعة التب (فى ٤ فبراير) ـ بما ترتب عليها من سقوط تكواكن وطوكر فى يد عثمان دقنه وتحرج الأمور في شرق السودان وتهديد طريق الخرطوم عبر بربر بشكل مباشر ـ داعية للحكومة الى ارسال السير جراهام الى سواكن على راس جيش قوى تمكن من هزيمة الثوار فى واقعة التب (فى ٢٩ فبراير) • وقد جدد ذلك الآمال فى امكان نجاح جراهام فى التقدم ببعض قواته فى طريق بربر للمحافظة عليه مفتوحا ، وهو الأمر الذى يؤازره كل الخبراء العسكريين الانجليز فى القاهرة•

ولكن الخسارة الجسيمة في الأرواح التي أصابت قوات جراهام والثوار على السواء في موقعة تماى (في ١٣ مارس) أدت الى اصدار الحكومة قرارا بتوقف جراهام عن التقدم في طريق بربر .

وهكذا أصبح على غردون أن يحل مشاكله في الخرطوم دون أن يأتيه عون خارجي ، وفي ذلك الوقت قطعت أسلاك البرق بين الخرطوم وبربر (في ١٢ مارس) . وأخذ الثوار يعملون في جد للاحاطة بالخرطوم من جميع لجهات ، ووصل رد المهدى (في ٢٢ مارس) على رسالة غردون وفيه يرفض طلبه بتعيينه سلطانا على كردفان بل ويعرض عليه أن يعينه مديرا كسائر المديرين الذين عينهم في المديريات التي خضعت له . وقد أدت تلك الظروف مجتمعة الى اعتناق غردون منذ أواخر مارس لسياسة جديدة تدور حول تحدى المهدى وأعوانه . واذا كان قد ظهر في رسائل غردون منذ يوم ٢٦ فبراير عبارات خاصة (بتحطيم المهدى ، وطلب ارسال الجند) فانه أصبح يؤمن منذ أواخر مارس أن الصدام مع المهدى أصبح أمرا واقعا لا محالة ، وان عليه الا يضيع وقتا في الاستعداد لذلك ، ويكفيه مكوثه في الخرطوم حتى ذلك التاريخ دون أن يخطو خطوة واحدة للقيام باخلائها من الجند والأهالى .

ومع ذلـــك فقد فكر غردون في ١٣ أبريل أن يفـــلت من الخرطوم . فناقش الكولونيل ستيوارت ومستر باور نائب القنصل البريطاني في أى الطريقين أكثر أمنا وضمانا لانسحابهم : طريق بربر أم طريق خط الاستواء . وكان من رأى غردون أن الطريق الأخير أكثر ضمانا (٢٦) . ولكن فكرة الانسحاب على أية حال لم تنفذ بعد أن تأكد غردون من أن اصطحاب حامية الخرطوم والأهالى يجعل الانسحاب بهذا الطريق أمرا غير ممكن ، كما تأكد له أن طريق الشمال قد أغلق عليه برا وبحرا بانضمام القبائل الضاربة

فى شمال الخرطوم وشمالها الشرقى الى الثورة بعد توقف العمليات العسكرية لحملة جراهام (٢٧) ٠

وهكذا بقى غردون فى الخرطوم مدعيا أن شرفه يحرم عليه التخلى عن الحامية والأهالى ، ومعتبرا نفسه منذ يوم ٢٢ مارس فى حالة حرب مع المهدى ودفاع شرعى عن اهالى الخرطوم ٠

واول العمليات العسكرية التى اشتركت فيها حامية الخرطوم مع الثوار فى يوم ١٦ مارس عندما حاولت فك الحصار المضروب حول حامية حلفاية الواقعة شمال الخرطوم بتسعة أميال ، ولكنها هزمت ٠ وقد ترتب على ذلك اقتراب الثوار من ضفة النيل الأزرق الشـــمالية فى مواجهة الخرطوم ورميهم المدينة بمقذوفاتهم النارية التى كانت تسقط على السراى ، وكان زعيم الثورة فى تلك الجهة الشيخ العبيد بدر الذى جمع حوله القبائل الساكنة شرقى الخرطوم وتمكن من سد الطرق الموصلة بينها وبين الشمال ٠ وعلاوة على ذلك ظهر الفكى المصطفى على الضفة الغربية للنيل الأبيض ، وزحف بقبائل الجموعية والجميعات والفتيحاب تجاه نقطة أم درمان وعسكر هناك ٠ وقد وصلت الجراة بالثوار أن أغار الشيخ مضوى عبد الرحمن وقتئذ على أرباض الخرطوم ونهب الماشية التى كانت ترعى جنوب المدينـــة ٠

وفى أبريل سنة ١٨٨٤ قدم محمد الخير الى بربر ودنقلة حاكما من قبل المهدى وهاجم ـ وهو فى طريقه الى بربر ـ شندى فسقطت فى يده ، ثم دخل بربر فى أواخر مايو ٠ وهكذا أغلق تماما طريق مواصلات الخرطوم بالشمال ٠

وفى ذلك الوقت قدم أبو قرجة الى النيل الأبيض معينا من قبل المهدى أميرا على البحرين الأزرق والأبيض وفى نيته الزحف

على الخرطوم من جهة القطينة ، ولكنه بدلا من ذلك خف سريعا لنجدة ود البصير داعية المهدى فى الجزيرة الذى كان يحاصر وقتئذ قوات الحكومة بقيادة صالح بك الملك عند فداسي (٢٨) • ومع ان صالح بك تمكن من هزيمة ابى قرجة الا أن هذا ومعه ود البصير ارغماه على التسليم بعد أن عجزت الخرطوم عن امداده بالنجدات لتعذر تقدمها برا . ولصعوبة سير السفن فى النهر فى ذلك الوقت •

وقد ترتب على سقوط فداسي قطع الطريق بين الخرطوم وسنار المدينة الكبيرة الباقية على النيل الأزرق فى أيدى قوات الحكومة . واخذ ابو قرجة وود البصير فى الاستعداد للزحف على الخرطوم وحصارها من ناحية الجنوب • وقد عسكر أبو قرجة فى قرية الجريف على بعد اربعة أميال فقط جنوب الخرطوم . وشاد بها تجاه خط دفاعها اثنتى عشرة طابية مزودة بالمدافع . وانضم اليه دعاة المهدى فى الجهات المحيطة بالمدينة فزادت بذلك قوته لدرجة كبيرة • وفى أوائل مايو كانت اول تجربة لأبى قرجة مع حامية الخرطوم عندما هاجم خط دفاعها ، ولكنه رد بخسارة كبيرة ، فعاد الى معسكره وأخذ يوالى اطلاق النار على خط الدفاع بعد ذلك دون ان يجسر على الاقتراب منه •

وهكذا تم للثوار حصار الخرطوم من جميع الجهات فى أبريل سنة ١٨٨٤ ، ووضح عجز غردون عن فك الحلقة التى ضربت من حوله وتوشك أن تخنقه ، وقطع بينه وبين العالم الخارجى ــ وان تسنى له ــ بين الحين والحين ــ ارسال الرسائل الى بيرنج فى مصر والتى كان يحكى فيها أحواله •

ولم يكن بيرنج ــ فى الواقع ــ يفلت آية فرصة لمساعدة غردون فى محنته • فهو لم يسكت على قرار الحكومة فى ١٣ مارس بتجميد وضع غردون فى الخرطوم • وكان رأيه انه مادام ارسال

الزبير أصبح غير موضوع ، والطريق بين الخرطوم وبربر قد قطع ، وانتصار جراهام في شرق السودان لم يترتب عليه فتح سواكن - بربر - فقد أصبح من الضروري تدعيم هذا الانتصار بمظاهرة عسكرية تتحرك صوب بربر والوصول الى تسوية مع القبائل المقيمة بين الخرطوم وهذه المدينة ، حيث أنه اذا لم يتم ذلك فسوف تنشأ بلا ريب مشكلة ارسال حملة الى الخرطوم لانتزاع غردون منها (٢٩) . وهذه هي الاشارة الأولى من بيرنج الى توقع ارسال حملة لانقاذ غردون .

ولقد كانت الحكومة في ذلك الوقت تود عمل أى شيء لمساعدة غردون بشرط ألا يكون هذا الشيء العمل على فتح طريق سواكن - بربر . ومن أجل ذلك نجدها تستفهم من بيرنج عن الامكانات التى يمكن بها شد أزر غردون معنويا فى الخرطوم (٣٠) . ولكن كان رأى بيرنج - ومعه قادة جيش الاحتلال في مصر - أن المشكلة الآن أصبحت هي كيفية اخراج غردون وستيوارت من الخرطوم علما بانهما لن يقبلا العودة دون اصطحاب الحامية والأهالى ، ومن أجل ذلك فان حل المشكلة لا يكون الا باستعمال جزء من جيش جراهام فى فتح طريق سواكن - بربر حتى يتسنى سحب هذا الجمع الكبير (٣١) . وقد ردت الحكومة على ذلك بأن آمرت جراهام فى ٢٩ مارس بمغادرة سواكن بجنده حتى تقفل باب المناقشة والأمل فى فتح هذا الطريق .

ومع ذلك لم يتوقف بيرنج عن العمل لانقاذ غردون ، ففى منتصف أبريل أرسل الى حكومته بامكان ارسال حملة تركية الى السودان عن طريق دعوة أصحاب الملايين من الانجليز والأمريكيين الى الاكتتاب فى تكاليفها (٣٢) مادامت الخزانة التركية عاجزة عن الوفاء بتلك التكاليف . ولكن الحكومة لم تكن ترى هذا الرأى ، حيث أن ارسال الجند الترك على أى شكل من الأشكال - فى

رأيها ـ فيه قلب لسياستها الخاصة بفصل السودان عن مصر ومنح أهله الاستقلال ! . كما أنها لم تكن تشارك بيرنج الرأى في أن ارسال حملة لانقاذ غردون أصبح أمرا لا مفر منه ، وانه يجب عليها عدم اضاعة أي وقت في اعداد ترتيبات هذه الحملة التي يجب أن تكون على أهبة التحرك بمجرد ارتفاع مياه النيل (٣٣) .

وكل ما انفجرت عنه جعبة لندن في موضوع الانقاذ ـ بعد أن رفضت عرضا للحكومة المصرية بارسال قوة من الجيش المصرى الجديد الى بربر ـ أن طلبت من بيرنج في النصف الثاني من أبريل بأن يقوم للتو بابلاغ غردون بالحرص على احاطتها باستمرار بالأخطار القائمة والمتوقعة على الخرطوم ، وارشادها عن القوة اللازمة للمحافظة على طريق انسحابه من حيث عددها والوقت المناسب لتقدمها وأفضل طريق لهذا التقدم ، وأخبارها بسبب بقائه في الخرطوم والغرض منه (٣٤) !! .

ويرجع السبب في صدور هذا القرار الذى تتضح فيه المماطلة والتسويف الى أن جلادستن كان في ذلك الوقت القابض على أعنة الحكومة . ولذلك فشلت مخططات فريق دعاة الامبراطورية في الوزارة في اغاثة غردون ، وضاعت معها الجلبة التي أثارتها الصحافة والرأى العام والملكة وكان هذا الفريق قد تمكن من جذبهم جميعا وراءه . كما تمكن جلادستن أيضا من الصمود لهجمات المعارضة العنيفة في مجلس العموم (٣٥) معتمدا في ذلك على أن عدم وصول أخبار من غردون ليس معناه أن حالته سيئة ، بل العكس هو الصحيح فان الأخبار القليلة التي تسربت الى مصر من غردون نفسه تدل على أنه يستطيع الصمود للحصار عدة أشهر أخرى (٣٦) ، كما كان من رأى جلادستن أنه اذا جاز أن غردون عاجز عن الانسحاب مع حامية الخرطوم والموظفين فما الذى يمنعه من الانسحاب بمفرده مادامت المهمة الوحيدة للحملة المطلوب ارسالها هي انقاذه . وهكذا كان آخر

المطاف بتفكير جلادستن الى أن غردون قد تعمد عدم الانسحاب عندما كان هذا الانسحاب ممكنا حتى يرغم الحكومة على ارسال حملة اليه (٣٧) . ومما أكد تلك النتيجة عنده ما نشرته صحف لندن في ذلك الوقت من وصول رسالته الى بيرنج من غردون تفيد أنه سوف يبقى في الخرطوم أطول مدة ممكنة ، فاذا استطاع قمع الثورة فعل والا فسينسحب الى خط الاستواء تاركا لحكومته وصمة عار لا تمحى لاهمالها انقاذه وانقاذ الحاميات في داخل البلاد (٣٨) .

وهكذا قر قرار الحكومة على عدم ارسال حملة الى غردون وتركه لمصيره اذ أنه « كان ينفذ سياسة من وضعه هو نفسه فالحكومة من جانبها ترى أنها متحللة من أية مسئولية تجاهه ، كما ترى أنه يجب ألا تبذل دماء الانجليز ولا أموالهم في سبيل انقاذ جندي واحد مهما كان مركزه مادام قد رفض مع سبق الاصرار تنفيذ تعليمات مهمته » (٣٩) .

ومع أن انتباه الرأى العام والصحافة قد انصرف بعد ذلك عن حملة الانقاذ نتيجة ظهور أمور داخل البـــلاد استحوذت على كل انتباههما ـ الا أن الاصرار على ارسال الحملة جاء فجأة من ناحية اللورد هارتنجتون زعيم فريق دعاة الامبراطورية والاستعمار فى الوزارة عندما هدد بتقديم استقالته ، فقد كان يعتبر نفسه المسئول الأول عن ارسال غردون الى الخرطوم ، ويرى أن مسألة غردون ترتبط بشرفه وشرف وعوده ، وأنه اذا لم ترسل حملة لانقاذه فسيقضى على كرامته شخصيا (٤٠) . ولكن لما كان هارتنجتون على حد رأى ستراتشى (٤١) « بطيئا فى الحركة والتفكير والادراك والبت برأى ما فى أية مسألة ، وأكثر بطئا عند تنفيذه رأيا صمم عليه » فقد تأخر فى تقديم الاستقالة حتى آخر يوليو بعد أن ضيع شهورا ثلاثة كاملة فى الجرى وراء جلادستون علّه ينجح فى حمله على الموافقة على ارسال الحملة ، ولكن بدون جدوى .

ولم يكن جلادستن بقادر على قبـــول استقالة هارتنجتــون الشخصية الثانية بعده في حزب الأحرار وصاحب النفوذ الهائل فى البلاد ، فقد كان معنى قبولها سقوط الحكومة مما أدى بالحكومة الى التقدم فى ٥ أغسطس الى البرلمان باعتماد المبلغ اللازم لارسال حملة الانقاذ (اذا دعت الضرورة ذلك) ، وأقر البرلمان الاعتماد · وفى ٢٦ أغسطس عين اللورد وولزلى قائدا للحملة ، وهو شريك هارتنجتون في ارسال غردون الى الخرطوم ، وكان يرى فى نفسه الرجل الأول القادر على قيادة الحملة لعلها تنقلب على يديه من انقاذ بطل الى فتح السودان والحاقه بالممتلكات البريطانية · وفي ٩ سبتمبر وصل اللورد وولزلى الى القاهرة ، وبذلك أصبحت حملة الانقاذ حقيقة واقعة ·

وبينما ذلك فى لندن كانت الخرطوم تقاسي حصار الثوار لها من جميع الجهات منذ شهر أبريل · وكان أعتى المحاصرين أبو قرجه الذى كان يقيم فى معسكره في قرية الجريف ويوالى اطلاق النار على خط دفاع المدينة · ولذلك ما ان ارتفعت المياه في النيل الأزرق فى شهر اغسطس حتى سارع غردون الى توجيه قوة كبيرة من حامية الخرطوم تحملها السفن تحت قيادة الضـــابط الســـودانى أميرالآلاى محمد على بك حسين لمهاجمة معسكر أبى قرجه ، وقد تم النصر للقائد فى ٣٠ اغسطس · وفى آخر أغسطس تقدم محمد على بك الى الحلفاية شمال الخرطوم وطرد الثوار منها · وقد ترتب على هذه الانتصارات أن ابتعد الثوار عن ضفة النهر وفك الحصار عن الخرطوم ·

وبعد ذلك تقدم محمد على بك الى أم ضبان قرية الشـــيخ العبيد بدر التى انسحب اليها الثوار بعد هزيمتهم فى الحلفاية ، وتقابلت الحملة مع الثوار فى العيلفون وهزمتهم فى اليوم الرابع

من سبتمبر . وفي اليوم التالى تقدمت الحملة ناحية الشرق لمقابلة الشيخ العبيد فى أم ضبان بعد أن غرر بها بعض جواسيس الشيخ الذين أوهموها أن الشيخ يقيم فى قريته فى عدد قليل من أتباعه ، وبينما هى متقدمة ناحية القرية انقض عليها الثوار من غابة تعترض الطريق وأفنوها ولم ينج منها الا مائتان من الجنود .

وكانت هزيمة محمد على بـك ضربة قاضـية على حامية الخرطوم ، اذ خسرت الحامية خمسة آلاف جندى من رجال الآلاى السودانى الأول وهم جند الخرطوم وأكثرهم دربة ، كما ضجت منازل المدينة بالعويل بعد أن لم يرجع اليهـا أحد من المتطوعين المرافقين للحملة والبالغ عددهم خمسة آلاف متطوع . وقد أيقن غردون بعد أم ضبان بسوء العاقبة ، فلو لم تكن الهزيمة لاستمر فى توجيه قواته أيام الفيضان للضرب هنا وهناك ولتمكن — نتيجة لذلك — من جمع كثير من الأقوات والماشية ، وهو الأمر الذى كان يقوم به المتطوعون المرافقون للحملات وكان له أطيب الأثر عند أهالى المدينـة .

واكثر ما تأكد لدى غردون بعـد هزيمة أم ضبان ان نجاته ونجاة جميع من بالخرطوم أصبحت متوقفة على ارسـال حملة الانقاذ . وبخاصة أن الأخبار التى وصلت الى الخرطوم فى ذلك الوقت تفيد أن الأمير عبد الرحمن النجومى وصل الى ضفة النيل الأبيض الغربية جنوب الخرطوم وانه بسبيل نقل جنده الى الضفة الشرقية لالقاء الحصار حول المدينة ، وان ابا قرجة لحق به بعد هزيمته فى الحريف ، وأن المهـدى فى طريقـه من كردفـان الى المدينة كذلك .

ولما كانت أخبار انجلترا قد انقطعت عن غردون ، وبالتالى كان يجهل قرار حكومته الخاص بارسال حملة الانقاذ فقد انتهز فرصة

ارتفاع مياه النيل وأرسل احدى سفنه المسلحة من الخرطوم الى مصر وعليها الكولونيل ستيوارت وقنصلا انجلترا وفرنسا وقليل من الجنـد وحمل ستيوارت معه مجموعة من اليوميـات والوثائق والأوراق التي تبرر بقـاء غردون في الخرطوم حتى ذلـك الوقت وشدة حاجته الى ارسال حملة الانقاذ ، وكان على ستيوارت أن يرفع هذه الأوراق الى الحكومتين المصرية والانجليزية ، كما حمل أيضا « عريضة استرحام الى السلطان العثماني وقع عليها كل بالغ من سكان الخرطوم يسأله فيها ارسال الحملة على أن تقوم حكومة الخرطوم بتسديد نفقاتها بعد عودة الاستقرار الى البلاد » (٤٢) . وأكد غردون على قنصل فرنسا بذل أقصى جهده لدى حكومته حتى لا يقف حملة القراطيس المصرية من الفرنسيين حجرة عثرة في طريق أي مشروع يعود بالفائدة على انقاذ الخرطوم .

وغادرت السفينة الخرطوم في اليوم العاشر من سبتمبر ، وفي منطقة المناصير غربي أبو حمد ارتطمت بصخرة أتلفتها ، فانتقل ستيوارت ومن معه الى جزيرة قريبة من مكان الحادث ، ولم يلبث شيخ المنطقة أن قتل ستيوارت ومن معه بعد أن احتال عليهم حتى انتقلوا الى قريته القريبة من ضفة النهر (٤٣) .

ومذ غادر ستيوارت والقنصل البريطاني الخرطوم فقد غردون أقدر مستشاريه ، كما أصبح الانجليزي الوحيد بالمدينة . والغالب على الظن أن ستيوارت كان قد أرسل مع غردون ليراقب تصرفاته وليساعده،على تنفيذ سياسة معينة في السودان لا شك أنها فصله عن مصر والحـاقه بالممتلكات البريطانية . وكان في سلوكه مع غردون ما يقول بذلك ، فقد كان دائما يزن تصرفات غردون ويعمل على تصحيحها ، ولم يكن يجيز له التصرف في أي شيء قبل أن يناقشه الحساب فيه (٤٤) .

وتقرر بعض المصادر وبخاصة الرسمية منها أن هدف بعثة ستيوارت كان استعادة بربر (٤٥) ، ولكن هذا لا يتفق مع الواقع حيث ان مجموع ركاب السفينة لم يكن يتعدى الأربعين شخصا بمن فيهم الجند وعدد من التجار الأجانب • وقد فكر غردون فعلا فى استعادة بربر نظرا لأهميتها فى مواصلات الخرطوم بالشمال ، وهيأ لذلك حملة كبيرة فى أواخر أغسطس بقيادة أمير الآلاى محمد على بك • ولكن بينما الحملة على وشك مغادرة الخرطوم الى مقصدها اذا بها تحول جهدها الى طرد الثوار الذين كانوا قد استقروا فى ذلك الوقت جنوب الخرطوم ، ولم تلبث العمليات العسكرية أن استطالت أمامها وانتقلت من نصر الى نصر حتى قضى عليها تماما فى واقعة أم ضبان •

والأمر شبه المؤكد فى مسالة بعثة ستيوارت أن هذا قد فر من الخرطوم بعد أن لمس أنها واقعة لا محالة بعد تلك الواقعة • اما ما تقرره سائر المصادر من أن غردون قد أمره بالسفر فهذا ما ينكره غردون نفسه (٤٦) •

ولقد كانت بعثة ستيوارت آخر سهم فى كنانة غردون بعد أن أطبق عليه الثوار (٤٧) • ولذلك وقع خبر مقتله عنده موقعا سيئا • أما المهدى فقد وقف بعد اطلاعه على الأوراق التى كانت فى حوزة ستيوارت ـ وكان الكثير منها باللغة العربية ـ على حقيقة الحال داخل الخرطوم وموقف انجلترا من نجدة مبعوثها ، مما شد من ازره وشجعه على تشديد الحصار حول المدينة • وكان المهدى قد انتدب قبل ذلك ـ ومذ سمع بهزيمة أبى قرجة فى الجريف ـ الأمير عبد الرحمن النجومى لقيادة عمليات حصار الخرطوم من ناحية الجنوب وحشد سائر قوى الثوار فى المنطقة لخدمة ذلك الغرض ، وما وافى منتصف أكتوبر حتى كان هذا قد مكن لقواته على الضفة

الشرقية للنيل الابيض وأتم تنظيم الجبهة التى تواجـه خط دفاع الخرطـوم ٠

وقد قسم النجومي قواته الى ثلاثة معسكرات وعين قائدا لكل معسكر ٠ أما المعسكر الأول فكان فى الجريف بالقرب من النيل الأزرق حيث أصلحت الطـوابى القـديمة وأقيمت بعض الطـوابى الجديدة ٠ وكان المعسكر الثانى بالقرب من النيل الأبيض حيث حفرت الخنادق وأقيمت المتاريس ٠ ويقوم المعسكر الثالث فى نقطة الوسـط بين هذين المعسـكرين وفيه مركز قيادة النجومي ، كما اقيمت فيه طوابى قوية للمدفعية تبعد عن مرمى مدافع السـفن المسلحة السابحة فى النيلين الأزرق والأبيض ٠

وكان الخط الدفاعى الذى يمتد جنـوب المدينة (٤٨) من تاسيس عبد القادر باشا حلمى الذى بدأ فى اقامته فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ ٠ وهو يبعد عنها بحوالى نصف كيلومتر الى كيلومتر ونصف حتى لا تصل نيران الثوار اليها ، وكان عند مغادرة عبد القادر للخرطوم يتكون من خندق يحيط بالمدينة فى شكل قوس ويمتد بين النيلين ولكن طرفيه ينتهيان فى العراء بعيدين عن ضفتيهما ٠ وطول الخندق أثناء الفيضان ـ عندما كانت مياه النيلين تغطى طرفيه ـ ٥٩٠٠ ياردة وبعد نزول المياه ٦٧٠٠ ياردة ، وعمقه ثمانية أقدام ، واتساعه عند سطحه الخارجى سبعة عشر قدما وعند القاع عشرة فقط ٠ وجانباه منحدران بشـكل عمودى ٠ وقد رميت الأتربة الناتجة عن حفر الخندق وراءه من ناحية المدينة فتكون منها جسر غير محدد الجوانب عرضه عند قاعدته عشرون قدما وعند رأسه أربعة عشر قدما وارتفاعه سبعة أقدام (٤٩) ٠ ولقد كانت خطة عبد القادر أن يستمر فى حفر الخندق طولا وعمقا حتى يصبح قناة تحيل مدينة الخرطوم الى جزيرة حصينة (٥٠) ، بل لقد فكر فى الاستفادة من

هذه القناة فى الربط بين النيلين جنوبى الخرطوم بالسفن ورى الحدائق التى تكتنفها (٥١) ٠

ومن أجل ذلك عبأ عبد القادر قوى المدينة ووجهها لتحقيق خطته ، كما عمل على توفير حراسة قوية لخط الدفاع بسحب الجند من النقاط الواقعة على النيل الأبيض فى فاشودة والكوه والدويم وغيرها من النقاط البعيدة ، وهو الأمر الذى سيتمكن معه – عند اتمامه – من جمع عشرين ألف جندى فى المدينة ٠ ولكن المهدى خاف من نتائج ذلك العمل فاوعز الى ابن المكاشفى داعيته فى الجزيرة بمهاجمة مدينة سنار قصد ايقافه ٠ ولما هزم ابن المكاشفى استعان المهدى ببعض الدناقلة من سكان الخرطوم فى رفع الشكاوى الى الجنرال هكس مدعين أن الحكومة تجبرهم وعبيدهم على حفر الخندق ٠ وأن الاستمرار فى ذلك سيوجد الشحناء بين الحكومة والأهالى من ناحية وبين المصريين وغيرهم من السكان من ناحية أخرى٠ وقد اضطر عبد القادر ازاء ذلك الى أن يشدد الحراسة داخل المدينة ليفوت على الدناقلة خطتهم ، وقسم المدينة الى أربعة قطاعات كانت تقطعها الدوريات ليل نهار ٠ خاصة وقد خيف أن يكون هناك اتفاق بين الدناقلة والمهدى على أن يقوموا بالثورة داخل المدينة فى الوقت الذى يتم فيه الهجوم عليها من الخارج (٥٢) ٠

ومع ذلك فقد توقف العمل فى الخندق عندما تمكن المهدى من رشوة أحد مهندسى الحكومة الذى رفع الى هكس تقريرا بأن متابعة العمل يعرض المدينة لخطر الغرق وبخاصة القسم الغربى منها (٥٣) ، وهو مخزن الخضراوات والفاكهة فى المدينه ٠ وقد تم هذا فى نفس الوقت الذى غادر فيه عبد القادر البلاد ٠

ولكن زيادة المخاطر حول الخرطوم بعد سفر عبد القادر أدت الى الاحساس بأهمية خط الدفاع ، فقام حسين سرى باشا وكيل

الحكمدارية ومعه الكولونيل كوتلجن ـ أحد الضباط بهيئة اركان حرب الجنرال هكس ـ بمد الخندق من ناحية الغرب بطول قدره ١٥٣٠ ياردة ، كما قام باصلاح خط عبد القادر وزرع الخندق والجانب الخارجي للجسر برؤوس الحراب ، وانتهيا من ذلك العمل في يناير سنة ١٨٨٤ (٥٤) ٠

وعند وصول غردون الى الخرطوم في الشهر التالى اتجه تفكيره الى ترك خط الدفاع ، لأن حامية المدينة كانت في ذلك الوقت ثمانية آلاف من الجنود القليلي التدريب وهم أقل من العدد اللازم لحراسة الخط ، ولوجود ضعف كبير فى الخط يظهر في عدم ارتكاز طرفيه على ضفتى النيلين ، ولافتقاد السبل لمده من طرفه الغربى حتى النيل الأبيض بسبب انسياب مياهه أثناء الفيضان واحالتها المنطقة المحيطة به لمدة طويلة الى مستنقع موحل زلق ، وزيادة على ذلك كان غردون يرى عدم حاجته أصلا الى الخط بسبب سياسة السلم التى انتهجها تجاه المهدى واعترافه بسيادته على أقطار السودان الغربى وكان يؤمن بأن هذا لا شك مرحب بها ٠ ومن أجل ذلك فقد حاول هدم الخط ، ولكن الأهالى أعيانا وموظفين وأجانب منعوه ، فاكتفى بسحب عدد كبير من حراسه الى داخل المدينة ونقل الكثير من مدافعه الى دار الصناعة ٠

ولم تلبث الأيام ان أثبتت لغردون أنه كان واهما ، فقد رفض المهدى عرضه السلمى ، ولم يرض دعاته فى الجزيرة بسياسة المهادنة التى دعاهم اليها ، ولم يقبل عوض الكريم أبوسن زعيم قبيلة الشكريه مركز المدير الذى عرضه عليه غردون بعد أن علم أنه قد جاء الى الخرطوم بلا جند ، ورجع ستيوارت ومعه أعيان الخرطوم مذعورين من رحلتهم فى النيل الأبيض بعد أن هاجمهم الثوار عند الدويم ـ وكان غردون قد أرسلهم للتمكين لسلطة

الحكومة فى تلك المنطقة ، فذعر الأهالى ورجا الكثير من كبار التجار مغادرة المدينة الى القاهرة ٠

لذلك كله انقلب غردون الى تقوية دفاعات المدينة ، فوزع الجند بين خط الدفاع والقلاع المحيطة بها ، وأرسل قوة كبيرة من المشاة والمدفعية الى قلعة أم درمان ، وضم الى الحامية عددا كبيرا من المتطوعين العبيد جمعه من تجار المدينة ووجهائها ومن (مرافيت الجيش) ومن سكان سلامة الباشا ، وجمع أرادى جديدة من الباشبوزق من الأهالى ، ونظم العمل بين القيادات المختلفة داخل المدينة ، وزاد من عدد العاملين فى مصانع الذخيرة ودار الصناعة ٠

واهم ما قام به غردون فى تلك الفترة تهيئة خط الدفاع لأن يلعب دوره كاملا ، وقد عمل الأهالى الى جانب الجند لبلوغ هذا الهدف ٠ فدعم الجسر هنا وهناك بالحجارة التى توافرت بعد هدم دار الصناعة القديمة فى غربى المدينة ، وأقيم فوقه فى بعض الأماكن حائط من الطين به مزاغل ارتفاعه حوالى خمسة أقدام وعتبة مرتفعة عرضها من أربعة أقدام الى أربعة عشر قدما كان الجند يقفون عليها دون ما دراوى مبنية تحميهم من اشعة الشمس ــ وان كانوا فى معظم الأحيان يحتمون تحت رواكيب من صنع أيديهم (٥٥) ٠ كما زيد عرض الخندق بمقدار قدمين ، وعمق فى بعض المناطق وبخاصة فى منطقة الوسط المواجهة لمركز قيادة الأمير النجومى ، ورمى فى قاعه بكل عائق تطاولت اليه يد غردون ، وأكمل حفره من ناحية النيل الأزرق حتى أشرف على ضفته ٠ أما من ناحية النيل الأبيض فقد ظل الخندق منتهيا فى العراء وبعيدا عن الضفة ٠ وكان طول الخندق أثناء انخفاض المياه فى النيل حوالى تسعة كيلومترات . وفى وقت الفيضان حوالى سبعة فقط ٠

وبالخط أربعة أبراج بكل برج مدفعان أو ثلاثة ٠ أما البرج الأول فيشرف على المنطقة الخالية من التحصين فى الطرف الغربى

من الخط . ويليه الى الشرق برج آخر يعرف بطابية الكلاكلة (٥٦) ، وفيه قيادة القسم الغربى من الخط ، والقائد هنا أمير الآلاى حسن بك البهنساوى المصرى . ويأتى بعد ذلك برج ثالث يعرف بطابية المسلمية (٥٧) ، وفيه مركز قيادة اللواء فرج باشا الزينى قائد القسم الأوسط من الخط والقائد العام لكل قواته ، وهذه الطابية هى أقوى طوابى الخط اذ أنها فى الحقيقة جملة طوابى ، وكانت تواجه الطوابى التى أقامها الأمير النجومى جنوبهـــا وفيها مركز قيادته . والى الشرق يوجد برج آخر يتعاون مع طابية برى فى حراسة القسم الشرقى من الخط .

وتقع طابية برى (٥٨) على بعد حوالى مائة متر من النيل الأزرق عند انخفاضه ، وفيها مركز قيادة القسم الشرقى والقائد هنا هو أمير الآلاى نجيب بك بطراق . وهى اقرب الى القلعة منها الى الطابية ، وتضم عدة مبان حصينة يلتف حولها خندق (٥٩) . وقد قوى غردون من بنائها ورفع جدرانها وفتح فيها المزاغل وزاد من حاميتها ، وأصبحت بالاضافة الى حفرة الخندق من الناحية الشرقية حتى ضفة النيل الأزرق سدا منيعا أمام قوات الأمير أبى قرجة فى الجـــريف .

وبالخط ثلاث بوابات تقوم واحدة منها بالقرب من كل طابية . ففى الشرق جنوب طابية برى توجد بوابة برى . وفى الجنوب الغربى من تلك البوابة وشرق طابية المسلمية نجد بوابة المسلمية . والمدخل الثالث ـ وهو بوابة الكلاكلة ـ الى الغرب على بعد مائتى ياردة شرق طابية الكلاكلة . وليس ببوابتى برى والكلاكلة قناطر . ولكن هناك قنطرة ببوابة المسلمية تمد فوق الخندق وقت الحاجة وبعد تصريح قائد عام الخط . والبوابات من الحديد ، وأضخمها بوابة المسلمية التى كانت أكثر من بوابة واحدة ، كما يقوم الى جوار بوابة الكلاكلة من ناحية المدينة حصين يحميها (٦٠) . وكانت بوابتا

برى والكلاكلة مغلقتين منذ هزيمة هكس ، ولم يكن يسمح لأحد من الأهالى بمغادرة المدينة الا بعد الحصول على تصريح بذلك من الضبطية ، ولكن عند وصول غردون الى المدينة أمر بفتح جميع البوابات ، ولم يلبث أن أمر بغلقها جميعا عند اشتداد الحصار ٠

وبالاضافة الى خط الدفاع كانت هناك عدة قلاع تشارك فى الدفاع عن المدينة ٠ وقليل هو المعروف عن طبوغرافية تلك القلاع ، لأنها كانت قد خربت قبل وصول كتشنر الى الخرطوم سنة ١٨٩٨٠ وان كانت تبز طوابى الخط بناء وتسليحا وتزويدا بالجند ٠ وهذه القلاع هى قلعة أم درمان وقلعة الشمال وقلعة المقرن ٠

وتبعد قلعة أم درمان عن ضفة النيل الأبيض الغربية المواجهة لنقطة مقرن النيلين بحوالى كيلومتر ، وقد أنشأتها حملة هكس عند أول وصولها الى أم درمان ٠ وهى عبارة عن معقل كبير مربع الشكل تعلوه أربعة أبراج تتجه نحو الجهات الأصلية ويحيط به خندق مرتفع يتصل طرفاه بالنيل الأبيض ، وبداخل هذا الخندق خندق أصغر محفور فى مكان أكثر ارتفاعا ، وحفر هذين الخندقين كان ضرورة حتمها العمل على منع الاقتراب من القلعة من الشمال والجنوب وضمان وصول الامداد من الخرطوم الى القلعة عبر النيل الأبيض (٦١) ٠ وكانت مياه النيل أثناء الفيضان تصل الى الخندق الصغير حيث يمكن للسفن الرسو عنده وعند وصول غردون زاد من قوة المعقل ، كما شاد طابية فى جزيرة توتى فى مواجهته ليتعاونا معا مع قلعة المقرن على حراسة مدخلى النيلين الى الخرطوم ٠ وفى يونيو سنة ١٨٨٤ ظهرت جزيرة بين نقطة المقرن وقلعة أم درمان ، كما انحسرت المياه عن ضفة النيل الأبيض الغربية لمسافة كبيرة ، فارسل غردون بعض الجند الى الجزيرة والضفة كما أرسل بعضهم الى جزيرة توتى لاحكام الحراسة حول نقطة المقرن والقلعة (٦٢) ٠ وقد سحب الجند عند الفيضان ولم يعد غردون الى ارسالهم بعد ذلك

بسبب اشتداد الحصار ، وكان كشف الجناح الشرقي من القلعة على هذا الشكل من العوامل التى ستساعد على سقوطها ٠

أما قلعة الشمال فترتكز بحافتها الجنوبية على الضفة الشمالية للنيل الأزرق فى مواجهة الطرف الشرقي لمدينة الخرطوم ٠ وقد بدت اقامتها ضرورية عند أول وصول غردون ، اذ كانت غارات الشيخ العبيد على تلك المنطقة لا تنقطع فى هذا الوقت المبكر ٠ وهى تتكون من بناءين من الآجر تفصل بينهما مسافة طولها ستون قدما ، واحد هذين البناءين وهو البناء الغربى كان قصرا لراسخ بك مدير الخرطوم ٠ وكل بناء من طابقين تقطع المزاغل جدرانه الخارجية ، كما يحيط بهما معا من الشمال والشرق والغرب جسر وخندق ٠ والقوة العادية للقلعة سبعمائة جندى ، وعند اشتداد الحصار فى أكتوبر سنة ١٨٨٤ زاد غردون تلك القوة الى الضعف (٦٣) ٠

أما قلعة المقرن (٦٤) فتقوم فوق مرتفع صناعى من الأرض قبالة قلعة أم درمان ٠ وهى عبارة عن سور ضخم مربع الشكل تقطعه المزاغل ويشرف من عل على منطقة مقرن النيلين ، وتوصل اليه سلالم من الطين ٠ ولا يلتف حولها خندق لعدم الحاجة اليه لأنها تقوم فى حمى النيلين ، علاوة على أن الخندق يمتلىء بالماء أثناء الفيضان ٠

ولقد كان موضع القلعة مثار خلاف بين المراجع المختلفة ٠ وقد حدد هيك (٦٥) هذا الموضع ـ اعتمادا على بعض المسودات التى نسبها للجنرال غردون ـ عند النهاية الغربية لخط دفاع الخرطوم على الضفة اليمنى للنيل الأبيض ٠ بينما حدده بوررللى بك (٦٦) على نفس الضفة ولكن الى الشمال من النهاية الغربية لخط الدفاع بميلين ٠ وقد حدد سلاتين باشا (٦٧) الموضع على الضفة الجنوبية للنيل الأزرق فى مكان يقع بين الطرف الغربى لمدينة الخرطوم

ونقطة مقرن النيـــلين وان كان أقرب الى تلـــك النقطة • ونقل ونجت (٦٨) ـ فيما أخرج من خرائط لمنطقة الخرطوم ـ موضع القلعة عن سلاتين •

والمكان كما حدده سلاتين ونجت من بعده هو المكان الصحيح للقلعة • وان لفي أقوال شاهدي العيان من الضباط وغيرهم ممن يعتد برواياتهم ما يؤكد صحته (٦٩) • ولا يمكن قبول رأى هيك وبوررلى ، لأن القلعة كما حدد مكانها كل منهما تكون عرضة لانسياب مياه النيل الأبيض اليها أثناء الفيضان ، كما أن الخريطة التى نشرها بوررلي وحدد فيها مكان القلعة قام برسمها مجلس عسكرى فى القاهرة أثناء محاكمة أميرالآلاى البهنساوى بك وهدفه أن يثبت بكل الطرق أن الخرطوم قد سقطت عن طريق الخيانة والاتفاق بين هذا الضابط والثوار على تسليمهم القسم الغربى من خط الدفاع بما فيه القلعة • ويرجع الســـبب فى الخطأ الذى وقع فيه كل من هيك وبوررلى الى أن القلعة كانت تقع فعــلا على ضـــفة النيل الأبيض الشرقية أثناء الفيضان عند اكتساح مياهه لمنطقة المقرن ووصولها اليها ، فاذا وصل الفيضـــان الى أقصاه ارتفعت مياه الأزرق أيضـا والتفت مياه النيلين عند أقدام القلعة •

وقد استعان غردون فى تقوية تحصينات المدينة بسلسلة من العوائق على رأسها الاسلاك العائقة والألغام • وقد مدت الأسلاك العـائقة خارج خط الدفاع وعلى بعد مائة ياردة منه ، كما مدت سلسلة قوية من الطرف الشرقي للخندق الى الضــفة الشـــمالية للأزرق عبر النيل وربطت فيها عدة قوارب محملة بالمتفجرات(٧٠)• وزرعت الألغام خارج الأسلاك العائقة ، وبخاصة أمام القسم الغربى من خط الدفاع وشمال قلعة الشمال وقلعة أم درمان وفى جزيرة توتى ، واستخدمت فى صنعها فوارغ طلقات المدافع وأوانى الماء الفارغة التي تركها الجنرال هكس بكثرة فى أم درمان ، وواجهت

غردون فى صناعتها صعاب على رأسها قلة البارود اللازم لتعبئتها ، وكان الكثير منها يفسد بسبب رطوبة الحقول التى تزرع فيها ، وكانت وسيلة الثـوار فى تفجيرها ســوق الأبقــار نحوها لتدوسها (٧١) ٠ وامام الألغام نثرت كتل صغيرة مســتديرة من الحديد تبرز منهــا ثلاثة أطراف قصــيرة حادة كيفما رميت على الأرض ٠ وعلى خمسمائة ياردة بعد ذلك رمى بكل ما يمكن الاستغناء عنه ويصلح لأن يكون عائقا كالمسامير وقطع الحجارة وغيرها ٠

وكانت المواصلات السلكية تربط بين السراى وخط الدفاع والقلاع المختلفة ، فهناك خط منها يمر تحت الماء ويربط بين قلعة الشمال وقلعة برى وخط آخر يربط قلعة أم درمان بالخرطوم ٠ كما كان هناك مركز للاشارة عند نقطة المقرن لتبادل الاشارات مع قلعة أم درمان ، فاذا جاء الفيضان انتقل الى قلعة المقرن ٠ وكان سقف السراى مركز مهم لملاحظة نقاط الحراســة فى خط الدفاع وقلعة الشمالة ٠ ومن أجل ذلك ركب غردون عليه منظارا ، كما كان قويا لدرجة انه أقام فوقه مدفعا كبيرا يرد به على العدو عبر النيل الأزرق بعد أن اقترب من ضفة هذا النيل فى الشهور الأخيرة من الحصار (٧٢) ٠

وقد لعبت مصانع الذخيرة ودار الصناعة دورا كبيرا فى امداد الحامية بحاجتها من الذخائر والأسلحة والعوائق ، كما أن دار الصناعة وفرت لغردون هيئة مدربة لزرع الألغام ٠ وكان عبد القادر حلمى قد نقل مخازن الذخيرة ومصــانعها من شرق المدينة الى دار الصناعة ، وعند اشــتداد الحصــار نقلها غردون ثانية الى داخل المدينة ــ المخازن فى دار الارسالية الكاثوليكية والمصانع فى منزلين غير بعيدين عنها ٠

وقد قامت دار الصناعة بدور كبير فى المحافظة على الكفاءة الدفاعية للســفن المســلحة على الدوام ٠ وعند بدء الحصــار كانت

قوة غردون في البحر تتركب من عشر سفن مسلحة كانت تقوم يوميا بمسح المنطقة المحيطة بالخرطوم لمسافات بعيدة • وكانت خمس من تلك السفن تقوم بحراسة المدينة ليلا ، اثنتان موقفهما عند الطرف الشرقي لخط الدفاع ومثلهما عند الطرف الغربي وواحدة بجوار قلعة المقرن • ويرجع الفضل الى هذه السفن في الانتصارات التى حازتها حامية الخرطوم على الثوار في الحلفـــاية والجريف والعيلفون ، وتنظيف ضفاف النيلين من الثوار ، ومعرفة أخبار العالم الخارجي عند اشتداد الحصار حول الخرطوم ، والضرب هنا وهناك بغية جمع ما يمكن جمعه من الحبوب والماشية للمدينة المحاصرة ، ونقل المزيد من القوت من سنار مركز المقاومة على النيل الأزرق (٧٣) • ومن اجل ذلك اهتم غردون ـ ايما اهتمام بسلامة هذه السفن ، فغطى جوانبها بالواح ضخمة من الأخشـــاب الصلبة ، وقام بهدم منازل الذين غادروا الخرطوم الى المهدى وجمع أخشابها وقصر استعمالها على حاجة السفن منها ، كما ضمن احتياطيا من القوت لرجال كل سفينة لا يقل عن سبعة آلاف أقة من الخبز الجاف يحتفظ بها في مخزنهـــا (٧٤) •

وعلى وجـــه العموم كان الدفاع عن الخرطوم يجرى طبقـــا للاستراتيجية العسكرية السليمة ، وكان عدد رجال الحامية سبعة آلاف وخمسمائة ثلثهم من الجند النظاميين المصريين والزنوج ـ عدا نحو الف من المتطوعين ، أما عدد المدافع فيساوى ما عند الثوار في كل القطاع المحيط بالمدينة ان لم يزد قليلا (٧٥) •

ومن خطط غردون في الدفاع عن المدينة محاولة القبض على دعاة المهدى في المنطقة المحيطة بها • فقد حاول استقدام الشيخ العبيد بدر الى الخرطوم بدون جـدوى • وأرسل مدير الخرطـوم للقبض على ابن البصير في الحلاوين وتم ذلك فعلا ، ولكن هذا تمكن من الافلات بعد رشوة المدير • وحاول أن يفك أسر صالح

باشا الملك بعد هزيمته في معركة فشاسي ، وارسل ولده اليه لعله ان لم ينجح في ذلك يتعرف على خطط الثوار (٧٦) ٠

وعند وصول الأمير النجومي الى جنوب الخرطوم شجع ذلك الثوار على استرداد ما كان بيدهم من مواقع ، فاستردت جماعة الشيخ العبيد الحلفاية ، وتقدمت جماعة منهم الى ضفة الأزرق التي لم يكن بيد الحكومة عليها الا قلعة الشمال ، وبدأ الثوار في تصويب مقذوفاتهم النارية من كل صوب على المدينة ٠ ولم تلبث أن اكتملت الصورة النهائية لحصار الخرطوم عندما وصل المهدى الى جنوب قلعة أم درمان يوم ٢٤ أكتوبر حيث أقام معسكره في قرية أبى سعد ٠ وفي أوائل نوفمبر هجم المهدى على القلعة فرد بخسارة جسيمة ، ولكنه تمكن بعد ذلك من الاحاطة بها وبناء عدة طوابى على ضفة النيل الأبيض كانت مقذوفاتها تسقط على الخرطوم ٠

وبينما ذلك ، كان غردون يعاني صعابا ومخاطر جمة ٠ فمنذ معركة أم ضبان لم يعد يجرؤ على ارسال جنده خارج خط الدفاع وان كان لم ينقطع عن ارسال سفنه المسلحة في النيل الأزرق أثناء الفيضان ، وبخاصة الى مدينة سنار للحصول على الأقوات ، فاذا تصدى لها الثوار على الضفة اشتبكت معهم دون ان ينزل الجند اليهم ٠

وقد حاول غردون جهده في ذلك الوقت أن يسبغ على الحياة داخل الخرطوم الروح العادية ، فكان يحتفل بالمناسبات الدينية ، ويستعرض الجند في (الميدان) ، ويأمر فرقة الموسيقى العسكرية بالعزف في الحكمدارية في أمسيات الجمع والآحاد ٠ ولرفع معنويات السكان أمر كبير الصاغة بصياغة (مداليات الحصار) ، ووزعها على الجند والضباط وباعها للقادرين من الأهالي ، ورصد المبالغ المتجمعة من ذلك لشراء الذرة للفقراء ٠ كما نشر بين الأهالي ـ قبل أن يصل

اليه خبر حملة الانقاذ ــ أن عبد القادر باشا حلمي العسكري القدير في طريقه الى السودان على رأس جيش كبير ·

ولــكن كل ذلــك كان أكبر من طاقة غردون ، فقد كانت مسئولياته لا تحصى بعد أن فقد الكثير من كبار الموظفين ذوى الخبرة في نكبة هكس ، علاوة على أن طبيعة الحالة داخل الخرطوم كانت مما لا يمكن اخضاعها بسهولة لمجريات الحياة العادية · واذا كان قد استعان برجال من جميع الأصناف والطبقات فان دقة الموقف داخل المدينة ــ الى جانب شيء في خلقه ــ جعله لا يثق فيهم ، مما أدى الى كثرة التغيير والتبديل بين الموظفين والمستشارين ·

وكانت متاعبه من السكان عديدة · وكان قد غادر منهم المدينة عدة آلاف مذ اندلعت الثورة ، وزاد العدد عند الحصار ، ولم تتوقف هجرتهم الا في الشهور الأخيرة منه لأسباب خاصة بالأمن · وكان عددهم قبل قيام الثورة سبعين الفا ، وعند وصــــول غردون الى الخرطوم ــ في شهر فبراير سنة ١٨٨٤ ــ ستين الفا ، وفي يونيو حوالى خمسين ألفا (٧٧) ، وفي سبتمبر أربعة وثلاثين ألفا·وتجب ملاحظة ان هذا النقص الدائم كان مصدره قبل كل شيء نزوح الأهالى من الوطنيين الى الثوار وبخاصة الزنوج (٧٨) ، اذ لم يتمكن من مغادرة المدينة من غيرهم الى القاهرة الا حوالى ألف أسرة ، بسبب قلة المراكب الشراعية اللازمة لنقلهم الى بربر وقطع غردون معونة الرحيل عنهم (٧٩) ·

وقد أصاب فريق الترس قصب السبق في مجال لفظ سكانه · وكان على غردون أن يشدد الرقابة عليهم ، وخاصــة أن طبيعــة المنطقة وراء الترس مما يساعد على الانتقال السهل بين المدينة وبرام درمان وبالعكس عبر النيل الأبيض ، الأمر الذى زاد من خطر سكان

الفريق بعد وصول المهدي الى برأم درمان • كما أصبحوا عبئا ثقيلا على غردون بعد أن هجروا أراضـــيهم الزراعية لتعرضها لقذائف مدفعية الثوار •

واذا كان ســكان ســلامة الباشا ـ وفيهم أكبر عدد من بين العاملين بالأعمال البسيطة فى المدينة والفقراء ـ قد أغرقوا همهم أيام الحصار الأولى فى بيوت (المريسة) التى تملأ حيهم ـ فانه ما ان تقدم الحصار حتى أصبحوا من المتعطلين وصاروا عبئا ماديا وعقليا على غردون الذى كان عليه أن يجد حلا لمشـــكلة غذائهم وآذانهم الصــاغية للاشاعات ، وخاصـــة أن تطرف حلتهم ناحية الجنوب واقترابها من خط الدفاع أكثر من أية جهـــة أخرى فى المدينة مما يحتم عليه ذلك •

أما الدناقلة سكان حلة المراكبية فخطرهم واضح فى مجاورة حلتهم للادارات الحكومية والمخازن والثكنات ، وفى قرابتهم للمهدى• وقد غادر عدد كبير منهم المدينة أيام الحصار الأولى ، ومن كان منهم فى تجارة خارجها حينئذ لم يرجع اليها • وقد أدى تحطيم غردون لمنازل هؤلاء لحاجة سفنه لأخشابها الى زيادة حقدهم عليه ، فكان منهم اقل عدد من المتطوعين فى الحامية ، واكبر عدد نكس عن تقديم القروض والأقوات للحـكومة عنـدما دعت الجميع لذلك ، ومثيرو الأراجيف المتشبثين بالاقامة فى المدينة مع خلوهم من العمل • ومن أجل ذلك كانوا يكونون نسبة كبيرة من الجماعة التى ارسلها غردون فى أواخر ديسمبر الى المهدى ـ عندما زادت حدة المجاعة فى المدينة ـ وبلغ عددها خمسة آلاف فرد •

وكان الاوروبيون فى المدينة مصدر متاعب لغردون أيضا • فقد كان عليه أن يكبح جماح بعضهم ممن كانوا يدعون العلم بكل شيء ويحاولون فرض آرائهم عليه ، ويفتح عينيه على بعض التيارات

التى ناص فيها بعضهم بعد أن رأوا فى الثورة والحصار نهاية للحكم المصرى وبالتالى مجالا للاحتكاك بالمصريين ، ويقف موقفا حاسما من المستغلين منهم وبخاصة الموردين الحكوميين • واذا كان منهم من رأس اللجان المختلفة لبحث مشاكل المدينة ، وقدم عبيده للحكومة لضمهم للجند وكون العسس الليلى ، وعمل فى المخابرات ــ فان هذا لم يمنع من أن تصل علاقة غردون بهم الى درجة كبيرة من السوء فى الفترة الأخيرة من الحصار (٨٠) ، وخاصة أن القناصل كانوا يعدونه مسئولا عن سلامتهم وسلامة رعاياهم منذ طلبوا منه فى ٩ مارس مساعدتهم فى الذهاب الى بربر دون أن يلبى طلبهم لعجزه عن اجابته (٨١) •

وقد حاول غردون أن يعتصم بالجند من الوطنيين عن متاعبه ، فأرضاهم لدرجة كبيرة وقلد فرج باشا الزينى ــ وهو زنجى ــ مركز القيادة فى الحامية ، كما جعل من خشم الموس باشا الشايقى قائدا عاما للقوات غير النظامية • وكان الزنوج مخلصين ، ولذلك ضم غردون منهم عددا كبيرا الى الحامية • وكان الجند غير النظاميين مصدر متاعب دائما ، وخاصة عند اشتداد المجاعة منذ أواخر ديسمبر ، مما حمل غردون على المحافظة ــ بقدر الامكان ــ على صرف تعيين معقول لهم فى الوقت الذى خفضت فيه تعيينات الجند النظاميين لدرجة كبيرة •

ومتاعب غردون مع كبار الموظفين ظهرت أكثر ما ظهرت فى دعوتهم ــ ومعهم كثير من الأعيان ــ للتسليم للمهدى ، وكان بعضهم وعلى رأسهم شيخ الاسلام والقاضى ــ على اتصال به • ولكن الخطر كل الخطر جاء من حيث لم يكن يتصور غردون ، فقد ظهر فى المدينة تشكيل سياسى عرف (بالجمعية الوطنية) كان يضم عددا كبيرا من الموظفين وغيرهم من المثقفين • وكان رئيس الجمعية أحمد أفندى العوام المبعد عن مصر بعد الاحتلال البريطانى بسبب ولائه

للعرابيين • وكانت الجمعية ترى فى ثورة المهدى ثورة بديلة للثورة العرابية • ومن هنا اتفقت نظرتها معها فى ضرورة القضاء على الانجليز وحكومة الخديو التى خضعت لهم ، وفى أهمية تكوين رابطة قوية داخل الخرطوم تعمل للثورة وضـــد تدبيرات غردون لاخمادها ، ومن أجل ذلك أعلنت حربا شعواء على غردون الذى كان من محاولاته فى تفريق جموعها دعوته رئيسها اليه وتلويحه له بالرتبة العالية والمنصب الكبير ، ولكن العوام رفضهما وسجل فى نشرة الجمعية الأسبوعية تجربة غردون معه ، مما زاد من حقد غردون عليه ، ومازال يتربص به حتى اتهمه باشـعال النـار فى مخزن الذخيرة ، وكان منزل العوام بالقرب منه ، وانتهت المسرحية باعدام العـــوام (٨٢) •

ولم يفت موت العوام فى عضد الجمعية ، فقد استمرت فى الاتصال بالثوار (٨٣) ، وكانت الظروف داخل المدينة ــ وعلى رأسـها مشـكلة الغـذاء ــ خير معين لها فى نشر دعاياتها وتنفيذ سياستها • ففى ذلك الوقت توقف نشـاط سـوق الخرطوم ، وأصيب التجـــار بالأضرار نتيجة لذلك • ومن بقى منهم بالمدينة ولم يغادرها أخفى المتاجر ليتسنى له بيعها بثمن أعلى ، أو ليقصرها على حاجة عائلته ــ وبخاصة الأقوات منها • على أن بعض الأثرياء منهم كان يقدم الأقوات والقروض للحكومة • ولكن كلمـــا تقدم الحصار حول المدينة قل ما بيد التجار من الأقوات وأصبح البحث عنها عملا حكوميا ، هذا فى الوقت الذى فرغت فيه الخزانة الا من القليل الضرورى اللازم لأجور الجواسيس وحاملى الرسائل • وقد توسل غردون لحل مشكلاته بتهدئة خاطر من كان يسأله من التجار استرداد أمواله بمنحه الرتب والنياشين، كما أصدر فى آخر ابريل أوراقا نقدية من فئات مختلفة وقابلة للتعامل على أن يتم صرفها بعـد القضـاء على الثورة من خزانة الخرطـوم أو القاهرة ، ووجد غردون صعوبة فى حمل الأهالى على تداولها ، ولم تحل العقدة الا بعد

ان تعامل بها التجار المصريون فتبعهم التجار الآخرون • ومع ذلك فلم يخل الأمر من تقليدها على يد بعض الشخصيات المثقفة في المدينة ، كما عمل بعض التجار على تخفيض قيمتها ، الأمر الذي ترتب عليه قيام دوريات قوية للتجول في المدينة بحثا عن هؤلاء التجار ولوقف الصدام الذي كان يحدث بينهم وبين الجند بسبب ذلـــك •

وكلما تقدم الحصار حول المدينة أمعن الأهالي والتجار في اخفاء الذرة في حفر بمنازلهم ، وزاد عدد الجوعى ، وقامت اللجان الحكومية بالبحث عن الذرة ، فاذا وجدت منه شيئا تركت بعضه لأصحابه ووزعت الباقي بنسب معينة بين الجند وفقراء المدينة • وبلغ عدد من كانت الحكومة تلتزم باطعامهم من الفقراء في شهر اغسطس ثلاثة آلاف • وقد زاد هذا العدد بعد ذلك ، في الوقت الذي نضبت فيه الأقوات • ومع أن بحدائق المدينة الكثير من نخيل البلح الا أن ثماره كانت وقفا على العلماء الفقراء الذين كانت خدمتهم ضرورية حينئذ ، اذ كانوا يقودون حملات التشـــكيك في دعاوي المهدية ويداومون على قراءة القرآن ودعاء العلي القدير لنصرة الحـــامية •

ولقد كان لكل ما سبق صداه في ادارة المدينة التي كانت عند مجيء غردون تحكم على مستوى المديرية • وكانت (الضبطية) قد ألغيت قبل ذلك ، ولكنهـــا أعيدت عندما قام اليونان في المدينة بمظاهرة احتجاجا على سوء معاملة المدير لأحد الموردين الحكوميين منهم ـ وكان قد اغتصب بعض حق الحكومة في الذرة ـ وكان واجبها الضبط والربط داخل المدينة • وبعد حادث مقتل العوام والصدام مع (الجمعية الوطنية) عين محافظ للمدينة واجبه رئاسة المخابرات وأعمـــال التجسس لمعرفة المتصـــلين بالثوار • وأصبحت

مهمة المدير بعد ذلك تقتصر على توفير الطعام للجند والمحافظة على مصنع الذخيرة ومخازنها لضمان امداد الحامية بما تحتاج اليه منها بانتظـــام .

وقد ابتدأ غردون منذ آخر سبتمبر ـ بعد أن علم بايفاد حملة لانقاذه ـ في ارسال سفنه المسلحة من الخرطوم الى الشمال لمقابلتها وتوصيل كتبه وتعليماته الى قائدها يحثه فيها على سرعة التقدم الى الخرطوم قبل أن تسقط ، وفى اشاعة الاشاعات عن قوتها الكبيرة واقترابها من المدينة . وكان يفتعل بعض الأحداث الصغيرة ليؤكد ذلك تشجيعا للجند والسكان على مداومة المقاومة (٨٤) .

واول علم السكان بمجيء الحملة فى يوم ٢١ سبتمبر ، فكان يوم أفراح وزينات . ولكن سير الحملة كان بطيئا ، فاذا كان البرلمان الانجليزى قد وافق على الاعتمادات الخاصـــة بها فى ٥ أغسطس فان اللورد وولزلى قائدها لم يصل الى القاهرة الا فى ٩ سبتمبر ، بسبب ما عرف فى ذلك الوقت (بحرب الطريق) ، فقد حدث خلاف بين القواد العسكريين على اجدى الطرق لتقدم الحملة الى الخرطوم (٨٥) . وكان من راى وولزلى أن طريق النيل هو أنسب الطرق ، وهو الطريق الذى أخذ فعلا .

وبدات الحملة في الوصول من القاهرة الى وادى حلفا فى شهر سبتمبر ، ولكن وولزلى لم يصلها الا فى ٥ أكتوبر . وأخيرا ـ وبعد سبعين يوما من ذلك التاريخ ـ وصل وولزلى الى كورتي بعد أن اكتمل بهما شمل الحملة . وسبب هـذا التاخير ان وولزلى كان يرى انه لابد ـ الى جانب ارسال الحملة الرئيسية بطريق النيل ـ من تقدم طابور سريع من كورتي عبر صحراء بيوضه الى المتمة على النيل ، ومن هنه تأخذ قوة صغيرة من الطابور طريقها الى الخرطوم بالنيل . وهذا الاجراء يتمشى مع ما جاء فى كتب غردون الى قائد

حملة الانقاذ (٨٦) ، كما يتفق مع رأى وولزلى الذى كان يعتقد ان ظهور الانجليز عند الخرطوم ربما يحمل المهدى على رفع الحصار عنها والتقهقر الى كردفان٠ولكن وولزلى عندما أخذ فى تهيئة طابور الصحراء اصطدم بمشكلة العثور على الجمال اللازمة له ، والتى كان من أسبابها اعتقاد بعض قبائل دنقلة أن الحملة جاءت الى السودان من وراء ظهر الخديو لامتلاكه ، ممـــا وسع من ميدان البحث عن الجمال حتى امتد الى مصر وضيع كثيرا من الوقت ٠

وهكذا لم يخرج طابور الصـــحراء من كورتى فى طريقه الى المتمة الا فى آخر ديسمبر ٠ أما الحملة الرئيسية فقد أخذت طريق النيل الى شندى ، وقد استقل المشاة فيها القوارب فى حين سار الفرسان وجند المدفعية على الضفة حيالهم ٠ وتقدم الطابور ضاربا فى الصحراء ، واستولى على آبار (الجقدول) يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٥ ، ثم اتجه نحو آبار (أبو طليح) وسط ظروف قاسية ، وكان خبره قد وصل الى المهدى فارسل لملاقاته أكثر من جيش تحت قيادة أكثر من أمير ، ولكن الأمير على ود حلو كان الســباق فى الوصول الى أبى طليح فاحتلها قبل وصول الطابور اليها ، ولكنه هزم عندها فى معركة كبيرة يوم ١٧ يناير ، وتقدم الطابور بعد ذلك الى المتمة ٠ وفى ٢١ يناير التقى الطابور برسل الخرطوم الذين كانت تحملهم أربع سفن مسلحة ، وكان غردون قد أرسلهم منذ حوالى أربعة أشهر للمرابطة فى مياه شندى وتنسم أخبار الحملة ٠ وعلم الجنرال ولسن قائد الطـابور من كتب غردون أن الخرطـوم بالكاد قادرة على المقاومة حتى عيد الميلاد (٨٧) ، فانفصل بقوة من الجند تعدادها حوالى مائتين وخمسين من بينهم عشرون من الانجليز وليس بينهم أحمد من المصريين كما جاء فى كتب غردون (٨٨) ، وركب سفينتين مبحرا الى الخرطوم صباح يوم ٢٤ يناير ، فوصل بالقرب منها صباح يوم ٢٨ يناير بعد أن تعرض للنيران طوال

الطريق ، وطالع المدينة بمنظاره وتأكد من سقوطها ، فعاد أدراجه الى المتمة ٠

وبينما حملة الانقاذ تشق طريقها الى الخرطوم كان الثوار قد أحاطوا بها تماما ٠ وكان الأمير أبو عنجة يهاجم قلعة أم درمان بمدافعه ، فلما عجز عن اخضاعها تحول هم المحاصرين الى الخرطوم واخذوا يضربونها بالمدافع من الطوابى المقامة حولها فى الجنـــوب والشمال عبر النيل الأزرق وفى الغرب عبر النيل الأبيض ٠

وقد حاول غردون الاستعانة بالسفن فى فك الحصار المضروب حول قلعة أم درمان ، فارسل فى ١٢ نوفمبر اثنتين منها الى ضفة النيل الأبيض لمســاعدة حاميتها على ذلـــك ، ولكن فشـــلت العملية (٨٩) وتمكن الثوار من الاستيلاء على الضـفة بين القـلعة والنهر ، واقاموا عليها طوابى لمدفعيتهم ، فقطع بين الخرطوم والقلعة تماما واحكم الحصار حول الأخيرة ٠

وكانت الأقوات قد قلت لدرجة كبيرة فى المدينة فى شهر ديسمبر ، فكفت الادارة يدها عن البذل للفقراء والأهالى عموما ٠ فاذا كان أواخر هذا الشهر لم تكن هناك تعيينات للجند ، وبدأ الناس فى الموت جوعا ٠ وقد تحايل غردون على تخفيف الأزمة بارسال خمسة آلاف من الأهالى الفقراء الى المهدى ، وتخفيض تعيين الجندى الى الربع ٠ ومع ذلك فقد حاولت الحامية جهدها لزحزحة الثوار القائمين جنوب خط الدفاع بقصد الوصول الى القرى الواقعة فى تلك الجهة حيث كان يتوقع العثور على الذرة ، ولكن بدون جـــدوى ٠

وفى اليــوم الخامس من ينـاير سنة ١٨٨٥ اصبحت المدينة خالية من أى طعام ، فصرح طبيب الحامية بتناول الصمغ بعد خلطه بما قد يعثر عليه من الذرة ، وعثرت لجـان البحث المختصـة على ستين اردبا منه فى بيوت الأهالى ٠ وفى اليوم العاشر ـ بعد أن

فرغ الصمغ من المدينة ـ سمح الطبيب بتناول قلب أشجار النخيل بعد قطعها ، مما أضعف الجند لدرجة كبيرة ودفعهم الى ترك نقاط حراستهم الى المدينة بحثا عن الطعام • وفى اليوم الخامس عشر اتجه الأهالى والجند الى تنـــاول لحوم الحمير والكلاب والجـلود الجافة • وبعد ذلك بيومين أصبح الجند عاجزين حتى عن حمل أسلحتهم ، ووقفوا كالخشب المسندة وراء خط الدفاع في انتظار ما تسوقه الأقدار •

وكانت الأقوات هى مشكلة حامية أم درمان أيضا ، ففى آخر ديسمبر أبلغت الحامية غردون أن القوت الذى لديها لا يكفيها أكثر من ثلاثة أيام • ولما لم يكن بالخرطوم من القوت ما يمكن نقله اليها فقد فكر في سحبها الى الخرطوم ، ونظمت العملية على أساس أن تخرج الحامية الى الضفة فى الوقت الذى تصل فيه اليها سفينة مسلحة ، ولكن فشلت العملية واضطر غردون الى اصدار أمره الى قائد القلعة بالتسليم ، الأمر الذى تم فى ٥ يناير •

وفى اليومين الثانى والثالث لســـقوط القلعة عرض المهدى التسليم على غردون الذى رفضه لأنه كان يتوقع وصول حملة الانقاذ بين ساعة وأخرى • واذا كان صبر الأهالى والحامية قد نفد بعد أن أصبحوا جميعا على يقين من أن حملة الانقاذ ما هى الا خدعة كبيرة الا أنه ما أن أصبح يوم ٢٠ يناير حتى وصلت الى المدينة أخبار معركة (أبو طليح) ، فعاد الأمل الى النفوس • وفى ٢٣ يناير انتشرت اشاعة أن الحملة على مسافة قصيرة من المدينة • ولكن هذه الآمال انهارت أمام حركة هائلة كانت تدق ضفتى النيل الأبيض جنوب المدينة ، فقد لوحظ انتقال أعداد كبيرة من الثوار من الضفة الغربية الى الشرقية ، فجمع غردون مجلسا من الأعيان لمناقشة امكانات الدفاع ، وكان رأى القائد العام أن التسليم هو أسلم الطرق لحفظ دماء الأهالى والحامية ، ولـكن غردون أصر على المقاومة الى آخر رمـــق •

وكان لهزيمة (أبو طليح) أثر كبير فى خطط المهدى تجاه الخرطوم • فقد كانت خطته قبلها أن يستمر الحصار حتى تسلم المدينة جوعا ، أما بعدها فقد اختلفت آراء أمراء المهدى بين الهجرة الى كردفان (٩٠) ووجوب دخول الخرطوم قبل وصول طلائع حملة الانقاذ اليها ، فاذا تم ذلك اتجهت العمليات نحو الحملة • وكان الرأى الأخير هو الغالب ، وخاصة بعد أن هرب الى المهدى فى ١٩ يناير صنجقان من الباشبورق أطلعاه على ما تقاسيه المدينة من الجوع وعلى الجهة الخالية من التحصين من خط الدفاع مما يلى النيل الأبيض •

وفى عصر ٢٥ ينـــاير انتقل المهدى من ضفة النيل الأبيض الغربية الى الضفة الشرقية ، وبشر الثوار بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه الليلة • وقسم المهدى مقاتلته الى قلب وجناحين : وكان الجناح الأيمن بقيـادة أبى قرجه وعليه الهجوم على خط الدفـاع مما يلى النيل الأزرق ، والجناح الأيسر بقيادة محمد نوباوى شيخ قبيلة بنى جرار وعليه الهجوم على الخط مما يلى النيل الأبيض وقد قدم المهدى اليه أحد الصنجقين كمرشد ، والقلب بقيادة الأمير عبد الرحمن النجومى وعليه الهجوم على نقطة الوسط من الخط • وقبل فجر يوم ٢٦ يناير بســاعة هجم الثوار على الخط هجوما شـــاملا ، فى الوقت الذى كانت فيه مدفعيتهم على ضفة الأبيض تصوب قنابلها الى مضيق البحر لمنع أية سفينة من الابحار ناحية الشـــمال •

وقد تمكنت الميسرة من دخول المدينة والالتفاف حول الطرف الغربى من خط الدفاع ، ولم تجد مقـــاومة الجند المنهوكي القوى فانهاروا ، وهرب أميرالآلاى حسن بهنساوى قائد المنطقة • ولم يلبث القائد العام فرج باشا الزينى — بعد أن لمس عدم جدوى المقاومة — أن أمر بفتح بوابة المسلمية ، وفر منها ومعه الكثير من الجند •

وأحاط الثـــوار بخــط الدفــاع من جميع الجهـــات ، وسقطت الخرطـوم ٠

وبعد دخول المدينة مباشرة اتجه الثوار الى السراى وقتلوا غردون وقطعوا راسه وذهبوا به الى المهدى دليلا على النصر المبين . وتقرر معظم المراجع أن المهدى غضب حينذاك غضبا شديدا مستنكرا قتل غردون ، حيث أنه كان قد أمر الأنصـــار ليلة الهجوم على الخرطوم بالمحافظة على حياته (٩١) ٠ فما هى الدوافع التى تكون قد دفعت المهدى الى اصدار هذا الأمر ؟ ٠

تتردد المراجع بين دوافع مختلفة منها : عزم المهدى على ضم غردون الى جيشه ليكون عونا له على (الكفار) بعد أن وجد فى تدبيراته الدفاعية ما بهره (٩٢) ، ومجرد التعرف عن طريقه على نوايا الانجليز تجاه السودان (٩٣) ، وانقاذ الموقف به بتسليمه الى حملة الانقاذ حالما يحتدم هجومها مادام غرضها الوحيد هو انقاذ غردون ــ الأمر الذى كان المهدى يعرفه عن طريق جواسيسه ورسله فى القاهرة (٩٤) ٠ على أن الدافع الذى أجمعت عليه كثير من المراجع هو أن المهدى كان يريد « فداء أحمد عرابى بغردون » ، وأنه ضمن هذا الأمر خطبته فى الأنصار ليلة اقتحام الخرطوم ٠ وكان أحمد عرابى فى يد الانجليز مذ غادر مصر الى منفاه فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ ٠

ويرى البعض فى مكاتبات المهدى الى غردون (٩٥) دليلا على صحة صدور أمر المهدى بالابقاء على حياته ٠ ففى هذه المكاتبات يقول المهدى لغردون انه سمع عنه كل خير وثناء ، ولمس فيه كل فضل ، كما عرض عليه اقتراحات تدور حول مغادرة الخرطوم بسلام وتسليم المدينة ٠

ويرى البعض أيضا أن عدم معرفة قاتل غردون على وجه التأكيد حتى الآن (٩٦) ـ مع أهمية الحادث عند السودانيين ـ برهان على أن جمهور السودانيين عاجز عن تحمل تبعة تحطيم أمر المهدى بالابقاء على غردون ·

ولكن يرد على هذا كله بأن أمر المهدى بالمحافظة على حياة غردون غير مؤكد ، وأن قصة (الفداء) لم تكن ـ فى الواقع ـ بنت ليلة اقتحام الخرطوم حيث أن مدير دنقلة كان قد أبلغ الجهات المسئولة في مصر منذ يوليو سنة ١٨٨٤ « بأن المسموع عن الخرطوم ان العدو محاصرها ، وأن المهدى مؤكد على جيوشه المحاصرين لها ضبط غردون باشا حيا لاجعاله أسيرا مقابلة أسر الانجليز الى عرابى » (٩٧) · وهذا مما يفيد بأن قصة الفداء ليس لها ظل من الحقيقة ، وخاصة وقد خلت منها منشورات المهدى ، ولم يأت لها ذكر فى الروايات الشفوية الوطنية التى تزخر بكثير من الحوادث التى تقل أهميتها بكثير عن تلك القصة ·

وكان سقوط الخرطوم مؤذنا بسقوط النقاط التى كانت لاتزال تقاوم فى البلاد ـ وهى سنار وكسلا (٩٨) ـ وانهيار الامبراطورية المصرية في السودان · كما كان له دوى كبير فى مصر وانجلترا وأوربا · ورأت فيه بعض الصحف الألمانية بداية النهاية للامبراطورية البريطانية (٩٩) · وعندما علمت ملكة انجلترا بالخبر أرسلت الى جلادستن تلغرافا توبخه فيه · وقد حاول جلادستن فترة من الزمن أن يحمل مجلس العموم على الاعتقاد بأن الخرطوم سقطت بالخيانة ليدفع عن نفسه مغبة التأخر فى ارسال حملة الانقاذ ، ولكنه انتهى فى نهاية الأمر ـ واتفق معه فى ذلك الكثير من المعارضين ورجال حزبه على السواء ـ الى أن سبب النكبة يرجع أكثر ما يرجع الى أن الحكومة قد وقعت فى خطأ كبير عندما أرسلت غردون الى الخرطوم وهى لا تعرف انه آخر من يصلح للبعثة (١٠٠) ·

وفي الحقيقة لقد أثار فرار حسن بك بهنساوى وفرج باشا الزيني الاشاعات حول تواطئهما مع المهدى على تسهيل دخوله المدينة ، مما أدى الى محاكمة الأول في القاهرة عندما نجح في الهرب اليها في شهر أبريل سنة ١٨٨٧ بعد أن أمضى في الأسر عشرين شهرا . وكان كل جندى وضابط وموظف لاجىء من السودان يذهب الى وزارة الحربية بمجرد وصوله الى القاهرة لتسوية معاشه أو لاستلام رواتبه المتأخرة ، وكان على كل منهم قبل ذلك أن يتقدم الى (معاون عسكرية السودان) بالوزارة لاستجوابه عن سابق خدمته في السودان وكل ما يعرف عن الثورة والخرطوم وسلوك الجند أثناء الحصار . وقد أدلى بعض هؤلاء بأن حسن بك وفرج باشا سهلا للمهدى دخول المدينة ، ومن أجل ذلك تقرر احالة حسن بك في ٣٠ مايو سنة ١٨٨٧ الى المحكمة العسكرية العليا لمحاكمته بتهمة الخيانة (١٠١) .

وفي الواقع ان ما اتهم به القائدان لا يخرج عن حد الاشاعات التي ملأت المدينة في الفترة الأخيرة من الحصار — حين كان بها فعلا بعض الأفراد على اتصال بالمهدى ، وهو الأمر الذى تؤكده كافة المصادر والتقارير التي تعرضت لوصف حالة الخرطوم من الداخل منذ يوم ١٤ ديسمبر — وهو اليوم الذى انتهى فيه غردون من كتابة يومياته — حتى يوم سقوطها (١٠٢) . وقد تبينت المحكمة العسكرية هذه الحقيقة فحكمت ببراءة حسن بك (١٠٣) . وثمة دليل آخر على أن المدينة لم تسقط بالخيانة وأن فرج باشا الزيني برىء أن الثوار قتلوه حالما عثروا عليه بعد سقوط المدينة بثلاثة أيام .

وقد حاول البعض أن يلقي باللائمة على الجنرال ولسن على أساس أنه ضيع أربعة أيام جنوب المتمة قبل أن يأخذ طريقه الى الخرطوم ، وأنه لو كان قد وصل اليها قبل سقوطها لتغير مصيرها . ولكن هذا غير صحيح ، فلو افترضنا أن ولسن نجح في الوصول

الى الخرطوم فى ذلك الوقت فهل كان فى امكانه ان يمنع سقوطها بالقوة التى معه وعددها لا يتعدى المائتين والخمسين ؟ ٠

ان مصير الخرطوم قد تقرر – فى الواقع – فى النصف الأول من سبتمبر بعد هزيمة أم ضبان وفشل بعثة ستيوارت ، وأن حملة الانقاذ قد أرسلت (بعد الأوان) متأخرة شهرا أو شهرين على الأقل ، فلما وصلت الى السودان تحت هذه الظروف كان عليها أن تسابق الزمن حتى تصل الى الخرطوم بأسرع ما يكون وسط ظروف غاية فى الصعوبة سواء فى البر أو البحر (١٠٤) ، وهو الأمر الذى لم تطقه وتقدر عليه٠وقد حدد وولزلى – فى تقرير قدمه الى وزارة الحربية فى منتصف أبريل سنة ١٨٨٤ – يوم ١٥ نوفمبر كآخر يوم يمكن لغردون فيه الثبات ، ورتب على ذلك أنه يجب الا يتأخر تاريخ مغادرة الحملة لوادى حلفا عن آخر اغسطس حتى لا يتأخر وصولها الى بربر عن ٢٠ أكتوبر (١٠٥) ، ولكن الحكومة لم تكن جادة فى الأخذ بمبدأ ارسال الحملة ، حتى اذا أقرت ارسالها ضاع بعض الوقت بسبب الاختلاف على أى الطرق أنسب لتقدمها ٠ على أنه يجب ألا نفلت وولزلى نفسه من الاسهام فى تأخير تحركها ، اذ ضيع وقتا أكثر من اللازم فى الاستعداد لها ، ومع ذلك فان القوارب التى صنعت خصيصا لحملة النيل على الطراز الكندى لم تثبت صلاحيتها الكاملة فى النيل (١٠٦) ٠

عندما تأكد الجنرال ولسن وهو فى مركبه من سقوط الخرطوم عاد أدراجــــه الى المتمة ٠ وأرسل الخبر الى وولزلى فى كورتى ، فارسله هذا بدوره الى حكومته منتظرا تعليماتها التى صدرت بأن يعمل فى الحال على احتلال بربر وفتح طريق بربر – سواكن على ان يتم الزحف على الخرطوم بقصد سحق المهدى عند ارتفاع مياه النيل ٠ وفى ذلك الوقت كانت حملة النيل قد هاجمت الثوار فى ١٠ فبراير فى كريكان بالقرب من أبو حمد وهزمتهم ٠ اما طابور

الصحراء فقد رجع الى كورتي عندما أحس بعجزه الشديد عن مقاومة حملات الثوار التي كانت في طريقها اليه ، وكانت الأوامر التي صدرت اليه قبل ذلك أن يحتل المتمة ثم يتقدم شمالا للالتقاء بحملة النيل في بربر . فاذا كان منتصف مارس كانت حملة النيل قد لحقت به في كورتي بعد أن بقيت في كريكان أسبوعين في انتظار الأوامر . وفي آخر مارس غادر وولزلي كورتي الى القاهرة ليشرف بنفسه على الاستعدادات لاستئناف الزحف عند ارتفاع مياه النيل . ولكن في منتصف مايو أمرت الحكومة الانجليزية بالغاء عملية استرداد الخرطوم برمتها وجلاء القوات العسكرية عن دنقلة ، لتتفرغ لمعالجة النزاع الذي تشب في ذلك الوقت بين انجلترا وروسيا في افغانستان .

عندما دخل الثوار الخرطوم نزل خليفة المهدي عبد الله التعايشي في سراي الحكومة ، وسكن سائر الأمراء في بيوتها الكبيرة، واستمر أمين بيت المال شهرا يجمع الأموال والذهب والفضة ويجبر السكان على اظهار المخبا منها . وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٨٥ ـ وكان يوم جمعة ـ زار المهدي الخرطوم وصلى في مسجدها ، ثم رجع الى معسكره في أبي سعد والمشاورة دائرة بينه وبين أهل شواره على جعل الخرطوم عاصمة للملكه ، وكلهم موافقون على هذا الرأى ماعدا الخليفة التعايشي الذي كان من رأيه أنه مادامت لم تعرف بعد عاقبة أمرهم مع الحملة الانجليزية فان الاقامة في الخرطوم تتضمن خطرا جسيما ، حيث أنه ربما تضطرهم الظروف للتقهقر أمامها الى كردفان في الوقت الذي يكون فيه النيل بينهم وبينها . ومازال التعايشي يقيم العقبات ليمنع المهدي من سكنى المدينة ، وبقى هذا مدة مترددا يقيم أسبوعا في الخرطوم وأسبوعا في معسكره (١٠٧) .

وفى أوائل شهر مارس قر قرار المهدى ، وأمر بنقل معسكره الى أم درمان • وفى صبيحة ذات يوم ركب ناقته وأطلق خطامها ، فسارت حتى القت رحلها بمكان مرتفع شمال قلعة أم درمان ويبعد عن ضفة النهر بحوالى كيلومتر • فضربت أطناب الخيام فيه واقيمت الاكواخ من البوص ، وسور مكان المسجد بالشوك ، وصنعت للمهدى مقصورة فيه من الواح الزنك ونقل منبر الخطابة الذى كان فى الحكمدارية اليها • وهكذا دوى بين الأنصار قيام (البقعة الطاهرة الشريفة) ـ وهو اسم كان يطلق على كل معسكر للمهدى ، وانتقلوا جميعـــا من الخرطوم بعـد أن هدموا منازلها للاستعانة باخشابها فى اقامة العاصـمة الجـديدة • وهكذا كانت نهاية (الخرطوم) عاصمة الحكم المصرى وبداية (أم درمان) عاصمة دولة المهدى •

وقد دامت دولة المهدى حتى سنة ١٨٩٨ ، حين قررت انجلترا اعادة فتح السودان على اسس جديدة مؤداها أن السيادة المصرية على البلاد قد انتهت بسقوط الخرطوم ، وان للفتح الثانى مقومات جديدة من أهمها ما يجب أن يكون لانجلترا من مركز سيادى فى البلاد (١٠٨) • وقد كان ما أرادته انجلترا ، وابتدأ السودان ـ منذئذ ـ عهدا جديدا تحت نوع من الحكم فريد كان لانجلترا فيه الغنم ولمصر الغرم ، كما تسنى لانجلترا أن تعمل على تحقيق حلم سيسيل رودس فى ربط القاهرة بالكاب والســيطرة على طرق المواصلات بينهما (١٠٩) • على أن العلامة الكبيرة التى ميزت هذا العهد الجديد هى اعادة بناء (الخرطوم) • واذا كانت معالم الحكم المصرى فى السودان قد تبددت فى الوقت الحاضر فكفاه أن أعطى السودان عاصمته وحاضرته •

اولا : قائمة باسماء حكمدارى السودان فى العهد المصرى ٠

رقم	الاســم	تاريخ التعيين		المرجع		ملحوظــات
		بالسنة الهجرية	بالسنة الميلادية	الدفتر	ص	
١	عثمان بك	جمادى الآخرة ١٢٣٩	فبراير ١٨٢٤	١٦ تركى	١٦٤	حاكم لسنار
٢	محو بك	شوال ١٢٤٠	مايو ١٨٢٥	٢٠ تركى	٢٠	حاكم لسنار
٣	على خورشيد باشا	جمادى الآخرة ١٢٤١	يناير ١٨٢٦	١٩ تركى	٢٥٤	أول من تلقب بحكمدار
٤	احمد باشا ابو ودان	صفر ١٢٥٤	ابريل ١٨٣٨	٢٢٣ عابدين	٩٧	
٥	احمد باشا المنكلى	شوال ١٢٥٩	اكتوبر ١٨٤٣	٢٦٩ تركى	بدون رقم	كان يلقب بالمنظم وليس بحكمدار ٠
٦	خالد باشا	ذو الحجة ١٢٦١	ديسمبر ١٨٤٥	٣٩٠ تركى	٥٨١	
٧	عبد اللطيف باشا	ذو الحجة ١٢٦٥	اكتوبر ١٩٤٩	تركى بلا نمرة	٢	
٨	رستم باشا	ربيع اول ١٢٦٨	ديسمبر ١٨٥١	٤٨٠ تركى	١٨٨	

رقم	الاسم	تاريخ التعيين		المرجع		ملحوظات
		بالسنة الهجرية	بالسنة الميلادية	الدفتر	ص	
٩	اسماعيل باشا حقى ابو جبل	رمضان ١٢٦٨	يونيو ١٨٥٢	محفظة ذوات	٢٢٢	
١٠	سليم باشا صائب	رجب ١٢٦٩	ابريل ١٨٥٣	٤٨٦ تركى	٣٣٢	
١١	على باشا سرى	جمادى الآخرة ١٢٧٠	مارس ١٨٥٤	٤٨٦ تركى	٧٢٨	
١٢	على باشا جركس	ربيع اخر ١٢٧١	ديسمبر ١٨٥٤	١٨٨٠ عربى	٧٧	
١٣	الامير محمد عبدالحليم	ربيع اول ١٢٧٢	نوفمبر ١٨٥٥	١٨٨٣ عربى	٣	
	اركيل بك	جمادى الاولى ١٢٧٣	يناير ١٨٥٧	١٨٨٦ عربى	٣٢	مديرون للخرطوم
	حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥	فبراير ١٨٥٩	٥١٠ تركى	٢٩٢	وليسوا حكمدارين بعد
	محمد بك راسخ	ذو الحجة ١٢٧٧	يونيو ١٨٦١	١٨٩٤ عربى	٨١	الغاء سعيد للحكمدارية

رقم	الاسم	تاريخ التعيين بالسنة الهجرية	تاريخ التعيين بالسنة الميلادية	المرجع: الدفتر	المرجع: ص	ملحوظات
١٤	موسى باشا حمدى	ذو القعدة ١٢٧٨	مايو ١٨٦٢	٥٢١ تركى	١	
١٥	جعفر باشا صادق	محرم ١٢٨٢	مايو ١٨٦٥	١٩٣٤ عربى	١١	
١٦	جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢	ديسمبر ١٨٦٥	١٩٢١ عربى	٣	
	ممتـــاز باشا	رجب ١٢٨٨	سبتمبر ١٨٧١	١٩٤٢ عربى	١٨	مدير عموم قبلى السودان وليس حكمدارا
١٧	اسماعيل باشا ايوب	شوال ١٢٩٠	نوفمبر ١٨٧٢	١٩٤٧ عربى	٣٦	مدير عموم ثم حكمدار
١٨	غردون باشا	صفر ١٢٩٤	فبراير ١٨٧٧	عربى بلا نمرة	١٧	
١٩	محمد رءوف باشا	صفر ١٢٩٧	يناير ١٨٨٠	١٩٤٨ عربى	عدد ٢٢	حكمدار لعموم السودان
٢٠	عبد القادر باشا حلمى	ربيع اول ١٢٩٩	فبراير ١٨٨٢	المصرية الوقائع	فبراير ١٨٨٢	وناظر لها
٢١	علاء الدين باشا	صفر ١٣٠٠	يناير ١٩٢٢	٢ قيد الأوامر	١٢٧	

الهوامش

(١) الوقائع المصرية عدد ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ·

(٢) Nevinson : The Insurrection of the false pdophet, part I, pp. 7-8.

S.A. : group : Cairint — Class I-Box 3-piece 15.

(٣) عابدين : دفتر قيد الاوامر رقم ٢ ، ص ١٣٧ ـ امر رقم ١ فى ٢٢ يناير ١٨٨٣ ·

(٤) الدكتور عبد الرحمن زكى : يوميات عباس بك ص ٩٣ ـ ٩٥ . ص ١٢٥ ـ ١٣٦ ·

(٥) من ايرل جرانفل الى مستر كارتريت فى ٧ مايو سنة ١٨٨٣ :

F.O. : 78/3550 No 99.

(٦) Cromer, The Earl of : op. cit., I, pp. 385-86.

Childers. S. : life and correspondence of the Right Hon. Hugh C. E. Childers (1827-96), II, pp. 179-89.

Lyall, Sir A. : The life of Marquis of Dufferin and Ava, II. pp. 54-55.

(٧) Morely, J. : The life of William Ewart Gladestone, II, p. 386.

(٨) صورة ما تحرر من رياسة مجلس النظار لنظارة الحربية والبحرية فى ٢٠ صفر سنة ١٣٠١ (٢٠ ديسمبر سنة ٨٣) رقم ٢٢٨ :

SA. : Cairint, Class I, Box 3, Piece II.

(٩) من بيرنج الى ايرل جرانفيل فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣)

F.O. : 78/3560, No. 642.

(١٠) Blue Book, No. I, Year 1884, p. 173.

(١١) كان عبد القادر حلمى قد استعد فعلا للقيام بالمهمة ، وفى ١١ يناير قدم تقريرا عنها جاء فيه أن عملية الاخلاء تحتاج الى ما بين سبعة اشهر وسنة وذلك لاخلاء ٢١٫٠٠٠ جندى ، ١١٫٠٠٠ من اهالى الخرطوم :

Allen, B. M. : Gordon and the Sudan, p. 224.

(١٢) كان على رأس هذا الفريق داخل الوزارة هارتنجتون وزير الحربيــة ، وخارجها اللورد ولزلى الذى كان صديقا حميما لغردون •

(١٣) من ابريل جرانفل الى كل من بيرج وغردون فى ١٨ يناير ســنة ١٨٨٤ •

F. O. : 78/3696 No. I.

(١٤) الدكتور محمد مصطفى صفوت : « بحث فى الجلاء الانجليزى عن مصر وبعثة سير هنرى درمندولف » : من المجلة التاريخية المصرية – المجلد الثانى – العدد الأول مايو سنة ١٩٤٩ ، ص ٨٤ – ٨٥ •

(١٥) Colvin, Sir A. : The Making of Codern Egypt, p. 67.
Graham, Sir G. : Last Words with Gordon, p. 4.

(١٦) Hake, A.E. : The Journals of Major-Gen. C. G. Gordonat Kh., p. 217.

(١٧) Gordon, H. : op. cit., p. 340 & p. 348.
Ohrwalrer, Fr. J. : op. cit., p. 138.
Wortham, H.E. : Gordon, An Intimate Portrait, pp. 286-87.
Beatty, Charles : His Country was the world, A study if Gordon of Khartoum ; p. 241.

(١٨) Hake, A.E. : Gorron In China and the Soudan, p. 254.
Archir, Thomas : The War In Egypt and the Soudan, III, p. 129.

(١٩) برقية غردون الى بيرنج بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ والملحقة ببرقية بيرنج الى جرانفل بتاريخ ١٩ فبراير :
F. O. 78/4149 No. 209.
وانظر ايضا :
Morely, J. : op. cit., II, p. 395.

هذا وقد التقى غردون بالزبير باشا فى القاهرة وطلب اصطحابه الى الخرطوم ، ولكن رجالات الانجليز فى مصر رأوا أن فى اجابة طلب غردون الموت المحقق لاحدهما بسبب ما بينهما من ضغائن منذ قتل غردون سليمان بن الزبير •
Blunt, W.S. : Gordon At Khartoum, p. 519.

(٢٠) Morely, J. : op. cit., II, p. 398.

(٢١) من بيرنج الى ايرل جرانفل فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ :
F.O. 78/4194 No. 178.

(٢٢) من جرانفل الى بيرنج فى أول مارس سنة ١٨٨٤ :
F.O. 78/3662 No. 132.

كانت حجة الحكومة في عدم ارسال الزبير خطره على غردون من ناحية ، وخطره على مصر فى حالة انضمامه الى المهدى من ناحية أخرى ، علاوة على انه سوف يرجع الى تجارة الرقيق عند عودته الى الخرطوم ٠ والواقع أن الحكومة كانت تخاف رجحان كفته على المهدى وهذا مما يفوت عليها ما تدبره للبلاد ٠

(٢٣) حاول غردون جهده ليبقى طريق الشمال مفتوحا ، وكان من وسائله فى ذلك احسانه على عمده العمراب ببربر بالرتبة الثانية وطلبه منه العمل على عدم انضمام الاهالى فى منطقة نفوذه الى الثوار ٠

محفوظات حكومة السودان : من غردون الى ابراهيم بك الأمين عمدة العمراب فى ٩ مارس سنة ١٨٨٤ :
Griup : Cairint, classe, Box 3, piece 18.

(٢٤) من ايرل جرانفل الى بيرنج فى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ ٠
F.O. 78/4194 No. 142.

(٢٥) من بيرنج الى ايرل جرانفل فى ١٤ مارس سنة ١٨٨٤ :
F.O. 78/4194 No. 217.

(٢٦) Pimblette, g. M. : Story of the Soudan War, p. 185.

(٢٧) Shibeika, Dr. M. : British policy in the Sudan (1882-1902), pp. 247-48.

(٢٨) تقع فداس على ضفة النيل الأزرق بحذاء المسلمية ٠ وكان صالح المك ـ الذى شاهد اكثر وقائع الجزيرة مع عبد القادر حلمى ـ قد استقر فى مدينة سنار بعد رجوع عبد القادر الى الخرطوم ٠ وعند وصول غردون أرسل اليه يستقدمه بجنده ليزيد من قوة المدينة ٠ وبينما هو فى طريقه الى الخرطوم تصدى له ود البصير عند فداس ٠

(٢٩) من بيرنج الى جرانفل فى ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ ٠
F.O. : 78/3668 No. 315.

(٣٠) من ايرل جرانفل الى بيرنج فى ٢٢ مارس سنة ١٨٨٤ :
F.O. 78/3662 No. 179.

(٣١) من بيرنج الى ايرل جرانفل فى ٢٤ مارس سنة ١٨٨٤ ٠
F.O. 78/3669 No. 350.

(٣٢) من برقية غردون الى بيرنج فى ٨ ابريل والتى تضمنتها برقية بيرنج الى جرانفل فى ١٨ ابريل ١٨٨٤ ٠
F.O. 78/3671 No. 440.

(٣٣) من بسيونج الى ايرل جرانفل فى ١٤ ابريل سنة ١٨٨٤ :
F.O. 78/3671 No. 422.

(٣٤) من مذكرة جلادستون عن انقاذ غردون فى ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٤ والملحقة
ببرقية ايرل جرانفل الى اجرتون بالقاهرة فى ٢٢ ابريل .
F.O. 78/3683 No. 218 A.

(٣٥) Churchill, The Right Hon. W.S. : Lord Randolph Courchil, p.p. 283/84.
Lady Gwendo en Cecil : Life of Robert Marquis of Salisbury, III, (1880-86), pp. 101-103.

(٣٦) Cromer, the Earl of : op. cit., I, p. 549 & p. 551.

(٣٧) Chirol, Sir V. : Eifty ylars in a vhanging world, p. 41.

(٣٨) Cromer, the Earl of : op. cit., I, p. 555.
S rachey, L. : op. cit., p. 268.

(٣٩) ومما زاد من حساسية جلادستن لسياسة الضغط على الحكومة التى يزاولها غردون خوفه من ان يكون هناك اتفاق بين فريق دعاة الامبراطور بالوزارة وبين غردون على ممارسة هذا لتلك السياسة التى كان هو نفسه المقصود بها :
Buchan. J. : Gordon at Khartoum. p. 70.
Fitzmaurice, Lord E. : the Life of Granville Goerge Leverson Gower (Second Earle Granville) 1815-1891, 11, p. 387.
Morley, J. : op. cit., III, p. 156.

(٤٠) S'rachey, L. : op. cit., p. 281.
Ballard, Brig. Gen. C.R. : Kitchener, p. 41.

(٤١) Op. cit., p. 278.

(٤٢) ابراهيم فوزى باشا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٤٣) انظر فى بعثة ستيوارت :
ابراهيم فوزى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ ــ ٣٧٠ .
Ballard. Brig. - Gen. C.R. : op. cit, pp. 44-46.

ويغلب على الظن ان حادث السفينة كان مدبرا وان بعض بحارتها كانوا متصلين بالثوار ، ويعزز ذلك ان السفينة كانت تسير فى منطقة سهلة الملاحة .
Ballard, Brig. - Gen. C.R. : op. cit., p. 44.
Gordon M.A. : Letters of General C. G. Gorron to his sister, p. 289.

(٤٤) Allen, B.M. : op. cit., p. 297.

سجل غردون نفسه ان ستيوارت قد رافقه ليكون بمثابة المربية التى عليهـا ان تمنع طفلها من القيام بأى عمل معيب :

Blunt, W. S. : op. cit., p. 81.

ومما يقطع بمركز ستيوارت الكبير فى بعثة غردون انه كان الوحيد فى الخرطوم الذى فى امكانه ان يرسل ويستقبل اية برقية بالشـفرة حيث انه كان يحتفظ برموزها ، وقد وصل الحال بغردون الى حد العجـز عن حل رموز البرقيات التى وصلته بعد سفر ستيوارت واخذه معه رموز الشفرة :

Wilson, Col. Sir Charles W. :
From Korti To Khartoum, p. 289 è p. 291.

Maurice, Maj. - Gen. Sir F. & Arthur, Sir G. : The life of Lord Wolseley, p. 192.

(٤٥) Ibid : p. 187.

(٤٦) Hake, A.E. : The Journals of Major-Gen. C.G. Gordon at Khartoum ; p. 193.

(٤٧) كان اخر من استغاث غردون بهم الخديو السابق اسماعيل ، فقـد أرسل اليه خطابا بتـاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٤ وصله فى منفاه بنابلى بايطاليا فى ابريل سنة ١٨٨٥ .

Grant, J. : Cassell's History of the War In The Sudan, V, pp. 110-111.

(٤٨) انظر وصف تحصينات مدينة الخرطوم فى :
مذكرة ستيوارت فى ١٢ فبراير سنة ١٨٨٣ والملحقة بخطاب مالت الى ايرل جرانفل فى ٦ مارس ٨٣ :

F.O. 78/3553. No. 71.

Sarafield-Hall, E.G. : A Brief account of the siege and fall of Khartoum, pp. 1-6.

Sandes Lieut-Col. E.W.C. : The Royal Engineers In Egypt and the Soudan, pp. 130-39.

(٤٩) Nevin son : The Insurrlction of the false prophet, part I, p. 9. (SA.)

وليس بمدينة الخرطوم الآن من اثر يدل على خط سير خط الدفاع : ويمتد هذا الخط على اطراف مدينة الخرطوم الحالية من الشرق الى الغرب مبتدئا من شرق كوبرى النيل الازرق مباشرة ، ثم مارا باقصى الطرف الشرقى لشـارع

الجامعة ثم اقصى الطرف الشرقي لنقطة التقاء شارع رقم ١٧ بشارع بيكر ، وبعد ذلك ينبعج الى الجنوب الغربي ليمر خلف ثكنات (توفيق مباشرة ثم بشارع رقم ٤٤ بالخرطوم رقم ٢ ثم بشارع الصناعات ويكمل بعد ذلك امتداده ناحية الغرب خارج مدينة الخرطوم حتى النيل الأبيض ٠

(٥٠) اول من فكر في جعل مدينة الخرطوم جزيرة للأغراض الدفاعية :الحكمدار موسى حمدي :

Hake, A.E. : The Journals of Maj. - Gen. C.G. Gordon. p. 326.

Hake, A.E. : op. cit., p. 327.
Dujarric, G. : L'etat Mahdiste du Soudan, p. 73.

(٥١) القباني : السودان المصري والانكليز : ص ٤١٢ ٠

(٥٢) Hake, A.E. : op. cit., p. 323.

(٥٣) القباني : المصدر السابق ، ص ٤١٢ ٠

(٥٤) Wingate, Major F.R. : Mahdiism and the Egyptian Sudan, p. 107.
Power, F. : Letters From Khartoum, p. 67 & p. 69.

(٥٥) Wingate, Major F. R. : op. cit., p. 568.
Sanres. Lieut., — Col. E.W.C. : op. cit., p. 136.

(٥٦) يقوم مكان هذه الطابية الآن في شارع نيويلد (الحرية) ـ المؤدي الى ديوم الخرطوم جنوب تقاطع خط السكة الحديد بقليل ٠ وقد عرفت الطابية بهذا الاسم لأن البوابة المجاورة لها كانت طريق اهالي قرية الكلاكلة القريبة من النيل الابيض وغيرها من القرى في تلك الجهة الى الخرطوم ٠

(٥٧) يقوم مكان هذه الطابية الآن عند قنطرة المسلمية وثكنات توفيق ٠ وقد عرفت بهذا الاسم لأن البوابة المجاورة لها كانت طريق الوصول بين مدينة المسلمية وغيرها من المدن الواقعة جنوب الخرطوم وبين الخرطوم ٠

(٥٨) يقوم مكان هذه الطابية الآن عند الطرف الجنوبي لكوبرى النيل الأزرق الذي يربط بين مدينتي الخرطوم والخرطوم بحرى وعرفت هذه الطابية بهذا الاسم نظرا لوقوعها قريبة من قرية برى المحس ٠

(٥٩) Power, F. : op. cit., p. 198.
Sandes, Lieut-Col. E.W.C. : op. cit., p. 134.

(٦٠) Sandes, Lieut. — Col E.W.C. : op. cit., pp. 137-39.

(٦١) Hake, A.E. : op. cit., p. 321.

(٦٢) Wingate, Major F.R. : « The Siege and fall of Khartoum », SNR., 1930, p. 22.

(٦٣) Hake, A.E. : op. cit., p. 266.
Borelli-Bey : La chute de Khartoum, 26 Janvier 1885. Procés du Colonel Hassan-Behnassaoui, Juin-Juillet 1887, p. 158.

(٦٤) يمكن تحديد مكان تلك القلعة فى الطرف الغربى لقرية المقرن ومحل الثلاثة منازل او الاربعة الاخيرة من هذا الطرف ، وذلك قبل انتقال القرية فى الاربعينات الى مكانها الحالى الواقع الى الجنوب الغربى من مكانها الاول ·

(٦٥) Hake, A.E. : op. cit., in the map under the title « Khartoum 1884 ».

(٦٦) Borelli-Bey ; op. cit., in the map under the title « ha Chute de Khartoum ».

(٦٧) Slatin, R.C. Pasha : Fire and sword in the Sudan, in the map under the title « Khartoum and Omdurman ».

(٦٨) Wingate, Majod F.R. : Mahdism and the Egyptian Sudan..
Wingate, Major F.R. : « the siege and fall of Khartoum. » S.N.R. 1930. the maps in the two works are under the title « Ghartoum an denvirons ».

(٦٩) Wingate, Major F.R. : Mahdism ..., pp. 196-96.
Sandes, Lieut.-Col. E.W.C. : op. cit., p. 135.

(٧٠) Wingate, Major F.R. : « the Siege and Fall of Khartoum », SNR., 1930, p. 15.

(٧١) Hakl, A.E. : op. cit., p. 5. & p. 183 & p. 391.
Power, F. : op. cit., p. 108.
Wingate, Major F.R. : « the Siege and Fall of Khartoum », pp. 13-14 & p. 55.
Sandes, Lient. — Col. E.W.C. : op. cit., p. 139.

واول من استعمل الالغام والعوائق عموما الحكمدار عبد القادر باشا حلمى ·

(٧٢) Hake, A.E. : op. cit., p. 222 & p. 265 & p. 271.

(٧٣) اكبر عملية قامت بها السفن بنقل القوات الى الخرطوم عندما قامت بلخرتان ومعهما ثمانية من القوارب تحت قيادة اللواء نصحى باشا بنقل كمية كبيرة من الذرة وهدايا اهالى مدينة سنار الى الخرطوم وكان ذلك مما يفرج كرب اهالى المدينة المحاصرة لدرجة كبيرة ، وقد تمت هذه العملية فى سبتمبر سنة ١٨٨٤ .

Wingate, Major F.R. : op. cit., p. 36 & pp. 41-42.

(٧٤) Ibid : p. 13.

(٧٥) حصل الثوار على الاسلحة النارية بما فيها المدافع من الحملات الحكومية التى هزموها وبخاصة حملة الشلالى باشا فى جبل الجراد بكردفان وحملة هكس فى شيكان وحملة محمد على بك حسين فى ام ضبان وحملة صالح باشا الملك فى فداسى • وعند دخول المهدى الابيض استولى على عدد كبير من المدافع •

اما العاملون على المدافع فى جيش الثوار فكانوا من الجند الاسرى الزنوج والمصريين كما كان من بين المصريين بعض الضباط الكبار أيضا •

(٧٦) القبانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٧ ـ ٦٨ •

Wingate, Major F.R. : op. cit., p. 17.

ومن روايات للأستاذ محمد عبد الرحيم بام درمان (زيارات متعددة فى سنتى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) •

(٧٧) يقدر اللواء نصحى باشا العدد فى شهر يونيو بثلاثة واربعين الفا • فى حين يقدره البرديني بك التاجر الكبير بالمدينة والعالم ببواطن الامور ومستشار غردون بستين الفا بما فيه الجند :

Wingate, Major F. R. : op. cit., p. 22.

(٧٨) يقدر القبانى عدد من غادر الخرطوم من الزنوج الى الثوار سنة ١٨٨٤ باربعين الفا : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ •

(٧٩) القبانى : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ ـ ٦٧ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ •

(٨٠) القبانى : المصدر السابق ، ص ٤٢٠ ـ ٢١ ، ٢٨٩ ـ ٩٠ ، وانظر ايضا :

Wingate, Major F. R. : op. cit., pp. 18-19.

Power, F. : op. cit., p. 101.

(٨١) Blue Book, Egypt No. 12, for 1884., p. 161.

(٨٢) انظر فى الجمعية الوطنية بالخرطوم :

القبانى : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ـ ٧٣ ، ص ٢٩٠ ـ ٩٤ ، ص ٢٤٨ ٠

مرهنك : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٨٤ ٠

ابراهيم فوزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ ـ ٦١ ٠

وبعد سقوط الخرطوم وقعت أوراق العوام فى يد المهدى ، فوجد بعضها يحمل قصائد فى مدحه وتصديقا لدعوته وحضا على رفع العصيان على الحكومة وكان من بين تلك الاوراق كتاب للعوام فى مدح المهدى سماه (نصيحة الخاص والعـام فى ذكر المهدى عليه السـلام) ٠

وقد اظهر المهدى الاسف لقتل العوام وأمر بطبع القصائد والنصيحة ٠

(٨٣) كان أول اتصال للجمعية بالمهدى قبيل وصول غردون الى الخرطوم فى فبراير ١٨٨٤ ٠ لقد حذرته الجمعية من خديعـة غردون له عندما أبرق اليـه وهو فى طريقه الى الخرطوم بتعيينه سلطانا على كردفان :

القبانى : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ٠

(٨٤) من تلك الاحداث : عثور السكان على بعض أوراق الجرائد فى شوارع المدينة تفيد أخبارها اقتراب الحملة وأن عددها خمسة عشر الفا من الشياطين الحمر ، ووصول برقيات تؤكد ذلك ، ولصق الاعلانات فى الشوارع التى تعلن وصول الحملة الى جهة معينـة ، وتأجير عدد من المنازل فى شارع النيل لاقامة ضباط الحملة ، والاتفاق مع المقاولين لتنظيمها ورشها وانارتها ، بل قيام غردون بعمل ترتيبـات انتقاله من السراى الى مبنى الحكمدارية ليتيح اقامة طيبة لقائد القوات البريطانية فيها ٠

(٨٥) من أحسن التقارير فى هذا الموضوع ما قام بتسجيله أحد ضباط جيش الاحتلال فى مصر ، فقد عد فى هذا التقرير سبعـة طرق توصل الى الخرطوم مبينا مزايا ومساوىء كل طريق ٠ وكان من رأيه أن طريق سواكن ـ بربر هو أجدى الطرق لتقدم الحملة :

Leverson, Captain J.J. : The Relief of Khartoum.

SA. : group : Cairint, Class : 1, Box : 3, piece 17.

(٨٦) Maurice, Maj. — Gen. Sir F. & Arthur, Sir G. : op. cit., p. 195.

(٨٧) Wilson, Col. Sir Charles W. : From Korti to Khartoum, p. 111.

(٨٨) Ibid., p. 293 & pp. 306 - 307.

كان غردون والكولونيل ستيوارت ومستر باور نائب القنصل الانجليزى يصفون الجندى المصرى بالجبن على عادة الانجليز عند نظرتهم اليه نظرة سياسية :

Power,. F. : op. cit., p. 111.

وعلى هذا الاساس كانت تعليمات غردون الى قائد حملة الانقاذ أن يمنع المصريين فى السفن التى أرسلها اليه من أن يصحبوه الى الخرطوم · على أن هذا الامر لم يمنع غردون أثناء نوبة حق من أن يقرر أن المصريين ليسوا جبناء بل راغبين عن القتال لاعتقادهم بانهم انما ارسلوا الى السودان للقضاء عليهم لانهم من بقايا جيش عرابى :

Hake, A. E. : The Journals of Major-Gen. C. G. Gordon ..., p. 43.

(٨٩) Brehier, L. : L'Egypte de 1798 a 1900, p. 237.

(٩٠) Brehier, L. : op. cit., p. 238.

(٩١) ابراهيم فوزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ ·

شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، جـ ٤ ، ص ٤٠٧ ·

وانظر أيضا : Slatin, R. C. Pasha : op. cit., p. 210.

(٩٢) Ohrwalder, Fr. J. : op. cit., p. 157.

(٩٣) Wingate, Major F.R. : op. cit., p. 80.

(٩٤) Dicey, E. : The Story of the Khedivate, p. 384.

(٩٥) ارسل المهدى الى غردون فى يناير سنة ١٨٨٤ ثلاثة كتب تضمنتها مجموعة المنشورات الموجودة بمكتبة جامعة الخرطوم · وجاء فى الكتاب الثانى منها « ··· فان اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك ··· » وجاء فى الكتاب الثالث « ··· وان اردت ان تجتمع على الانجليز فلوصلك اليهم ··· ولقد جاء فى جوابك الذى ارسلته الينا انك قلت ان الانجليز يريدون ان يفدوك بعشرين الف جنيه ··· وانت ان قبلت نصحنا فيها ونعمت ، والا ان اردت ان تجتمع على الانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم ··· » ·

(٩٦) بينما تجمع معظم الروايات على ان قاتل غردون هو محمد ود نوباري نجد روايات أخرى توزع تلك المسئولية بين أسماء أخرى ، بل نجد واحدة لاتريد أن تحمل التبعية لعرب النيل قاطبة ـ حيث أنهم أبعد ما يكونون عن تحطيم أمر المهدي وتقول بأن جماعة من (الباركيين) أتباع عثمان دقنــة ـ وهم فرع من الهندوي ومن بجة شرقي السودان ـ هم قتلة غردون ـ انظر :

ابراهيم فوزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ·

محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء ، ص ١٧ ·

Neufeld, û. : A prisoner of the Khaleefa, p. 302.
Slatin, R.C. Pasha : op. cit., p. 209.
Walkley, C.E.J. : op. cit., SNR., part II, 1936 p. 78.
Theobold, A.B. : The Mahdiya, p. 121.

(٩٧) محفظة السودان رقم ٢ ملف رقم ٢/٢/ وثيقة رقم ٢/٢/٤ بتاريخ ١ رجب ١٣٠١ ·

(٩٨) سقطت سنار في أغسطس ١٨٨٥ ، وكسلا في سبتمبر من تلك السنة ·

(٩٩) Necinson, H. W. : Fire of life, p. 31.

(١٠٠) Magnus, Philip : op. cit., p. 326.
Lary Gwendolen Cecil : op. cit., III, p. 98.
Chirol, Sir V. : op. cit., p. 55.

(١٠١) انظر قصة المحاكمة بما ارتبط بها من ملابسات واتهام ودفاع في :

SA. : Group : Cairint, Class I, Box 14, Piece 86.
& Borelli-Bey : La Chute de Kharotum, 26 Janvier 1885.
Proces du Colonel Hassan-Behnassaoui, Juin-Juillet 1887. Paris et le Caire, 1893.

ويمكن مطالعــة جميع ما كتب عن حالة الخرطوم قبل سقوطها فيما دونه الجند والضباط المصريون اللاجئون من السودان عند استجوابهم في وزارة الحربية ، والذي جمع في محفظة نقلت من القاهرة الى الخرطوم بعد الفتح الثـاني · انظر :

SA. : group : Gairint, Class Box 10, piece 52.

انظر هذه التقارير فيما يلي على الترتيب ·

ومن أهم التقارير في هذه المحفظة تقرير حمد بك حسونة احد اعضاء مجلس الخرطوم (ورئيس المخبرين السرية بها) وقت الحصار ، وفيه وصف لسلوك

بهنساوى بك والزينى باشا عند سقوط المدينة واتهام لهما بالتواطؤ مع المهدى ، والادعاءات المقامة ضد حسن بك عند محاكمته ·

(١٠٢) من هذه التقارير تقرير الماجور كتشنر مدير المخابرات فى ذلك الوقت ، ومذكرات البرديني بك التاجر الكبير وصديق غردون ومستشاره والعالم بدقائق الاحوال فى المدينة اثناء الحصار ، وتقرير وضعته لجنة من ضباط وموظفى الخرطوم برياسة اللواء لصحى باشا ـ قائد المراكب المسلحة ـ اخر سنة ١٨٨٥ بعد أن نجحوا فى الوصول الى القاهرة ، وتقارير عديدة محفوظة بمحفوظات حكومة السودان ·

Arthur, Sir G. : Life of Kitchener, I, pp. 116-24.

Wingate, Major F.R. : Mahdiism ..., pp. 163-72.

Wingate, Major F.R. : « The siege and fall of Khartoum », SNE., Vol. XIII, part I, 1930, pp. 1-80.

SA. : Group : Cairint, Class 1, Box 8, Piece 38.

A. : Group : Cairint, Class III, Box 3, Piecl 12/1.

(١٠٣) Borelli-Bey : op. cit., p. 25 & p. 134 & p. 217.

(١٠٤) Colville, H. E. : History of Sudan Campaign, I, p. 61.

Count Gleichen : With Camel corps up the Nile, p. 175.

Grant, J. : Cassell's history if the War in the Sudan, II, p. 2.

MacMichael : The Sudan, pp. 46-47.

(١٠٥) Maurice, Maj. — Gen. Sir F. & Arthur, Sir G. : op. cit., p. 177-87.

(١٠٦) Wingate Sir R. : « The siege and fall of Khartoum », SNR ..., p. 57.

(١٠٧) ابراهيم فوزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥ ·

(١٠٨) Hyslop, J. : Sudan Story., pp. 19-20.

(١٠٩) Stanton, E A. : « The Anglo-Egyptian Suran ».

JAS., Vol. XI, No. XLIII, April 1912, p. 269.

William. R. : « The Cape to Cairo railway », JAS., Vol. XX, No. LXXX, July 1921, pp. 241-58.

Pritchard, H.L. : Sudan Campaign, p. 260.

الملاحق

اولا ـ قائمة باسماء حكمدارى السودان فى العهد المصرى

ثانيا :مصادر الرسالة :

١ ـ الروايات الشفوية

٢ ـ الوثائق

٣ ـ المخطوطات

٤ ـ المراجع العربية

٥ ـ المراجع الافرنجية

اولا : قائمة باسماء حكمدارى السودان فى العهد المصرى ٠

رقم	الاسم	تاريخ التعيين هجرية	تاريخ التعيين ميلادية	ملحوظات
١	عثمان بك	جمادى الآخرة ١٢٣٩	فبراير ١٨٢٤	حاكم لسنار
٢	محو بك	شوال ١٢٤٠	مايو ١٨٢٥	حاكم لسنار
٣	على خورشيد باشا	جمادى الآخرة ١٢٤١	يناير ١٨٢٦	اول من تلقب بحكمدار
٤	احمد باشا ابو ودان	صفر ١٢٥٤	ابريل ١٨٣٨	
٥	احمد باشا المنكلى	شوال ١٢٥٩	اكتوبر ١٨٤٣	كان يلقب بالمنظم وليس بحكمدار ٠
٦	خالد باشا	ذو الحجة ١٢٦١	ديسمبر ١٨٤٥	
٧	عبد اللطيف باشا	ذو الحجة ١٢٦٥	اكتوبر ١٨٤٩	
٨	رستم باشا	ربيع اول ١٢٦٨	ديسمبر ١٨٥١	
٩	اسماعيل باشا حقى ابو جبل	رمضان ١٢٦٨	يونيو ١٨٥٢	
١٠	سليم باشا صائب	رجب ١٢٦٩	ابريل ١٨٥٣	
١١	على باشا سرى	جمادى الآخرة ١٢٧٠	مارس ١٨٥٤	
١٢	على باشا جركس	ربيع اخر ١٢٧١	ديسمبر ١٨٥٤	
١٣	الأمير محمد عبد الحليم	ربيع اول ١٢٧٢	نوفمبر ١٨٥٥	
	اراكيل بك	جمادى الاولى ١٢٧٣	يناير ١٨٥٧	مديرون للخرطوم

رقم الاسم	تاريخ التعيين هجرية	تاريخ التعيين ميلادية	ملحوظات
حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥	فبراير ١٨٥٩	وليسوا حكمدارين بعد
محمد بك راسخ	ذو الحجة ١٢٧٧	يونيو ١٨٦١	الغاء سعيد للحكمدارية
١٤ ـ موسى باشا حمدى	ذو القعدة ١٢٧٨	مايو ١٨٦٢	
١٥ ـ جعفر باشا صادق	محرم ١٢٨٢	مايو ١٨٦٥	
١٦ ـ جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢	ديسمبر ١٨٦٥	
ممتاز باشا	رجب ١٢٨٨	سبتمبر ١٨٧١	مدير عموم قبلي السودان وليس حكمدارا
١٧ ـ اسماعيل باشا ايوب	شوال ١٢٩٠	نوفمبر ١٨٧٣	مدير عموم ثم حكمدار
١٨ ـ غردون باشا	صفر ١٢٩٤	سبتمبر ١٨٧١	
١٩ ـ محمد رءوف باشا	صفر ١٢٩٧	يناير ١٨٨٠	
٢٠ ـ عبد القادر باشا حلمى	ربيع اول ١٢٩٩	فبراير ١٨٨٢	حكمدار لعموم السودان وناظر له
٢١ ـ علاء الدين باشا	صفر ١٣٠٠	يناير ١٨٣٣	

ثانيــا ـ مصــادر الرســالة

١ ـ الروايات الشــفوية

لما كانت كثير من صور الحياة في المنطقة المحيطة بمقرن النيلين الأبيض والأزرق قبل الفتح المصرى للسودان ، وفى هذه المنطقة وفى مدينة الخرطوم فى العهــد المصرى قد تغيرت ولم تدون بعد فقد استعنت ببعض الرواة الثقات ذوى الخبرة الشخصية فى موضوع بذاته فى استجلاء الحقيقة حولها . وقد كنت أقوم بسماع رواية بعينها من أكثر من واحد منهم ، ثم أخضعها بعد ذلك للمناقشة والتجريح طبقــا لقواعد البحث العلمى حتى أصل الى الحقيقة أو أقترب منها بالقدر الذى تسمح به الامكانات العلمية .

وقد استفدت من هذه الروايات أكثر ما استفدت فى الفصول الثانى والثالث والسابع فى الموضوعات الآتية على الترتيب : تاريخ المنطقة المحيطة بمقرن النيلين قبل الفتح المصرى ، وطبوغرافية مدينة الخرطوم فى العهد المصرى ، وما كانت عليه خطوطها الدفاعية أثناء الثورة المهدية .

وقد اعتمدت فى الموضوع الأول على المشــــايخ : عبد الله عبد الرحمن من أم درمان وحفيد الشيخ الأمين الضرير شيخ الاسلام فى العهد المصرى ، وابراهيم عبد الرزاق من حلة خوجلى والموظف بمكتب النشر بوزارة المعارف ، ويوسف النور القاضى بأم درمان ، والطيب ابراهيم سليمان شيخ حلة الكلاكله ، ومحمد العوض أحمد خليف من حلة الرميلة ، وعبد الرحيم محمد أحمد من حلة الصبابى والموظف بوزارة المعارف ، كما اعتمدت على كثير من أهالى جزيرة توتى من بينهم البشير فضل ومحمد بر . وقد ساعدنى فى التعرف على تاريخ المحس فى منطقة مقرن النيلين كثير من المشايخ على رأسهم ابراهيم صديق ومحمد المشرف القاضيان السابقان ، وأحمد

علي الاحيمر شيخ جزيرة توتي السابق ، وعبد الرحمن جميل الله ٠ وتتضح أهمية روايات هؤلاء المشايخ في أن الأول هو ناشر طبقات ود ضيف الله ، والثاني معروف بعلمه واطلاعه ، أما الأخيران فقد استقيا معلوماتهما من الشيخ أحمد ابراهيم عمدة توتي الأسبق الذي عاصر عهود الحكم المصري والمهدية والحكومة الانجليزية في السودان وأكبر وأدق راوية في عهده ٠ وهؤلاء المشايخ من سكان جزيرة توتي وحلة خوجلي ٠

وقد اعتمدت في استقصاء ما كانت عليه طبوغرافية مدينة الخرطوم في العهد المصري على المشايخ : أحمد أبو سن من معمري توتي ، وابراهيم سوار الذهب من حلة بري والموظف بتفتيش الري المصري بالخرطوم ، وعثمان الطاهر ومحمد نور عثمان وصديق عمر ودجوله والمنصور محمد الصديق ودحضرة من حلة شمبات ، وأحمد بابكر موسى والحسين وني والسيد حامد ومحمد البادي وسالمين سعيد من حلة الجريف غرب ، ويس جمعة العظيمي وطاهر حسن أبو معلا من الخرطوم ٠

وقد اعتمدت في موضوع خطوط المدينة الدفاعية أثناء الثورة المهدية على الأستاذ محمد عبد الرحيم من أم درمان صاحب المؤلفات في تاريخ السودان والراوية الأول بلا منازع لتاريخ المهدية ، وعمر الخليفة من أم درمان وهو الابن الأكبر للخليفة التعايشي ، وأمير الآلاي عبد الله الأمير اسماعيل من أم درمان وابن أخي الخليفة التعايشي ، والأستاذ المبارك ابراهيم رئيس تحرير مجلة (هنا أم درمان) والمهتم بالمسائل السودانية والموظف بوزارة الشئون الاجتماعية ، والشيخ نور الله علي من معمري حلة الحماداب ٠

هذا وقد استعنت في غير الموضوعات السابقة بآخرين من المشايخ العارفين بموضوعات معينة ٠ ومن هؤلاء على سبيل المثال

عبد العزيز الزبير من الخرطوم بحرى وأكبر انجال الزبير باشـــا وحمت الذى علمت منه الكثير عن تجارة الخرطوم فى العهد المصرى ، والشيخ أحمد أبو سن من جزيرة توتى الذى أفاض فى موضوع مجتمع الخرطوم .

٢ ـ الوثـــائق

(أ) فى دار المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بعابدين :

١ ـ دفاتر ومحافظ المعية (عربى وتركى) .

٢ ـ دفاتر لاتلغرافات المتبادلة بين الخديو فى مصر وحكام السـودان .

(ب) فى دار المحفوظات الانجليزية بوزارة الخارجية بلندن :

Public Record Office (F.O.) :

F.O. 78 Egypt : Official Correspondence between the British Consult General in Cairo and the Foreign Office in London (1882-1885).

(جـ) في دار محفوظات حكومة السودان بالخرطوم :

١ ـ مراسلات المهدى ومكاتباته ٠

٢ ـ الوثائق الخاصة بمجموعة Cairint (Cairo Intelligence Dept.

وهذه الوثائق خاصة بالحكم المصرى فى السودان ، ومعظمها يتعلق بفترة المهدية ٠ وقد نلقت من القاهرة الى الخرطوم بعد الفتح الثانى ٠ وهذه الوثائق هى :

رقم	رقم الوثيقة	التاريخ	دفتر	صندوق	الموقع
١	خطاب ارسله غردون باشا وقت حصار الخرطوم الى عمدة العمراب بمديرية بربر يطلب منه فيه عدم الانضمام واهله الى الثوار ٠	مارس ١٨٨٤ ٠	١٨	٣	١ الأرشيف العام
٢	قرار مجلس النظار المصرى بصرف النظر عن ارسال الزبير باشا رحمت على راس حملة الى سواكن لتامين طريق سواكن بربر ٠	ديسمبر ١٨٨٣	١١	٣	١

رقم	رقم الوثيقة	التاريخ	دفتر	صندوق	الموقع
٣	تقارير عن سقوط الخرطوم	١٨٨٥ ١٨٩٠	٣٨ ١٢/٩	٨ ٣	١ ١١١
٤	التقارير الخاصة باستجواب من تمكن من الجند والضباط والموظفين المصريين من الهرب من الخرطوم بعد سقوطها والوصول الى مصر حيث تم استجوابهم فى وزارة الحربية عما يعرفونه عن حالة الخرطوم فى الايام الاخيرة من الحصار وكيفية سقوطها • وعدد هذه التقارير ثمانية واربعون تقريرا •	١٨٨٦ ـ ١٨٩٠	٥٢	١٠	١
٥	الدوسيه الخاص بمحاكمة حسن بك بهنساوى قائد القسم الغربى من خط دفاع الخرطوم، والمتهم بالتسليم للثوار وقت هجومهم على المدينة •	مايو ـ يوليو ١٨٨٧	٨٦	١٤	١

٢ ـ المخطـــوطات

(أ) فى الخرطـــوم :

١ ـ فى دار محفوظات حكومة السودان :

Compilation Matters for the Blue Nile Handbook, Vol. 1
(Group : Civsec « Civil Secretary » — Class : 57 Reports File No. 122) :

A) Notes On the Population of Khartoum Province : (File : X/362/B/12).

B) Notes on the Population of Blue Nile Province : (File : X/362/B/13).

٢ ـ فى مكتبة محافظ مدينة الخرطوم :

Handbook of Khartoum Province, compiled by E. G. Sarsfield Hall C.M.G. Governor Khartoum Province, assisted by E. J. N. Wallis District Commissioner Omdurman. (1935).

٣ ـ فى المكتبة الشرقية والافريقية بجامعة الخرطوم :

Stanton, E. A. E. : The Sudan : Memorandum on the re-occupation (1906).

وكان ستانتن مديرا للخرطوم وتمت كتابته لهذا المخطوط .

٤ ـ فى دار محفوظات تفتيش الرى المصرى بالسودان :

دوسيه خاص « بمقابر الحكام القدماء (القباب) » ، تحت رقم ١٩ ـ ١/٢٥ .

٥ ـ مخطوطان للاب الياس تونيولو المدرس بمدرسة الارسالية الكاثوليكية بالخرطوم :

بحرى (كلية كومبونى) ، وهما :

١/ الرسالة الكاثوليكية لافريقيا الوسطى .

٢/ الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الأجناس البشرية التى قام بها مرسل الرسالة الكاثوليكية لأفريقيا الوسطى (١٨٤٦/١٨٩٨) .

(ب) فى دار الارساليات الكاثوليكية بفيرونا بايطاليا :

وقد تضمنت محفوظات هذه الدار ، شأنها فى ذلك شأن سائر المحفوظات بدور الارساليات الكوثوليكية بايطاليا ، كثيرا من مراسلات المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم الى رياساتهم فى ايطاليا . وقد تضمنت هذه المراسلات تاريخ الارسالية الكاثوليكية بالخرطوم، كما غطت نواحى عديدة من نواحى الحياة فى السودان فى العهد

المصرى • وقد تمكنت من الاطلاع على المراسلات المختارة الآتية بعد أن قام الأب الياس تونيولو بترجمتها الى اللغة الانجليزية :

a) A Better from Fr. Luigi Montouri, in 1843.
b) A Letter from Fr. Beltrame, G., in 1853.
c) A Letter from Fr. Dal Bosco, in 1858.
d) A Letter from Fr. Rolleries, B., in 1881.

وقد تضمنت كل رسالة من تلك الرسالات وصفا طيبا لمدينة الخرطوم فى السنة التى أرسلت فيها

e) Massaia, Cardinal G. : « Through the Sudan, 1851 » in : My 35 Years as a Missionary in Upper Ethiopia.
f) Fr. Beltrame, G. From Sennar to Beni Shangul, 1854-1855.
g) Fr. Carcereri, S. : From Suakin to Berker, 1876.
h) Fr. Martini, G. : To Gedaref, Gallabat and Fazughli, 1876.

وقد تضمنت تلك التقارير نواحى عديدة عن السودان ، وقد أشير اليها فى صلب الرسالة عند التعرض للموضوعات التى تعرضت لها •

٤ ـ المراجع العربية

١ ـ أحمد احمد بدوى
رفاعة الطهطاوى بك •
القاهرة •

٢ ـ احمد امين (الدكتور)
زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ٠
القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٣ ـ احمد عزت عبد الكريم (الدكتور)
تاريخ التعليم فى مصر ـ الجزء الأول ٠
القاهرة ١٩٤٥ م ٠

٤ ـ احمد كاتب الشونة وآخرون
تاريخ ملوك السودان ، نشر الدكتور مكى شبيكة ٠
الخرطوم ١٩٤٧ م ٠

٥ ـ الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس)
صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر دوزى ودى خوية ٠
ليدن ١٨٦٦ م ٠

٦ ـ أركل (أ ٠ ج ٠)
مقترحات لبعض طرق البحث العلمي فى السودان ، من مطبوعات الجمعية التاريخية السودانية ٠ ترجمة ثابت حسن ثابت وعبيد عبد النور ٠
الخرطوم ١٩٤٧ م ٠

٧ ـ بـــراوت
تقرير ورد لديوان الجهادية يتضمن « نتيجة الأعمال الكشفية التى أجراها فيما بين الخرطوم والأبيض بولاية كردفان » ٠

تعريب عمر أفندى رشدى بكباشى أركان حرب · من جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، السنة الثالثة ، الجزء الأول من المجلد الأول ·

مصر ١٨٧٦ م ·

٨ ـ بـــكر Abbreviations

مادة (بقط) فى دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد الرابع · ترجمة عبد الحميد يونس وابراهيم زكى خورشـــيد وأحمد الشـــنتناوى ·

٩ ـ ينهولا (الدكتور ف · بك)

كتاب مصر والجغرافيا ، وهو خلاصة تاريخية عن الأعمال الجغرافية التى أنجزتها العـــائلة المحمدية العلوية بالديار المصرية · تعريب أحمد زكى ·

القاهرة (بولاق) ١٨٩٢ م ·

١٠ ـ بوركهـــارت (جون لويس)

رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان · ترجمة فؤاد اندراوس ·

القاهرة ١٩٥٩ م ·

١١ ـ بورنج (الدكتور سيرجون)

تقرير بورنج · من كتاب « بنـــاء دولة مصر محمد على (السـياسة الداخلية) » للدكتور محمد فؤاد شـــكرى وعبد المقصــــود العنانى وسيد محمد خليل ص ٣٦١ ـ ٧٤٧ ·

القاهرة ١٩٤٨ م ·

١٢ ـ بوصيلى (الشاطر)
تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل ـ القسم الأول (حتى ١٩٠٦) ٠
عطبرة ١٩٥٠ م ٠

١٣ ـ بوصيلى (الشـــاطر)
معالم تاريخ سودان وادى النيل ٠
القاهرة ١٩٥٥ م ٠

١٤ ـ البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى أبو العباس ، ت ٢٧٩ هـ ـ ٨٩٢ م) فتوح البلدان ، القسم الأول ، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد ٠
القاهرة ١٩٥٦ م ٠

١٥ ـ التونسى (محمد بن السيد عمر)
كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ٠
باريس ١٨٥٠ م ٠

١٦ ـ الجابرى (محمـد أحمـد)
فى شأن الله ، أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ٠
القاهرة ١٩٤٨ م ٠

١٧ ـ ابن خلدون (عبـد الرحمن بن محمـد ، ت ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ حـ٢ ، ٥ ٠
مصر ١٢٨٤ هـ ٠

١٨ ـ الدمشقى (شمس الدين أبو عبد الله محمد أبو طالب ، ت ٧٣٩ هـ ـ ١٣٣٨ م)

كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر
بطربورغ ١٨٦٥ م ٠

١٩ ــ سامى (أمين باشا)

تقويم النيل ، حـ٢ ، حـ٣
القاهرة ١٩٢٨ م ، ١٩٣٦ م ٠

٢٠ ــ سرهنك (اسماعيل باشا)

حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى ٠
القاهرة ١٣١٤ هـ ٠

٢١ ــ سعد ميخـــائيل

السودان بين عهدين : اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ ٠
المنيـــا

٢٢ ــ سـليم حســـن

مصر القديمة ، الجزء العاشر ٠
القاهرة ١٩٥٥ م ٠

٢٣ ــ سليم قبودان (البكباشى)

الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض الصادر بها امر ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطه البكباشى سليم قبودان ٠
نقلها من الفرنسية الى العربية محمد مسعود ٠
القاهرة ١٩٢٢ م ٠

٢٤ ــ السـنـدوبى (حســن)

أعيان البيـــان من صبح القرن الثـــالث عشر الهجرى الى

اليـــوم .
القاهرة ١٩١٤ م .

٢٥ ـ شاروبيم (ميخائيل بك)
الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ، الجزء الرابع .
القاهرة ١٨٩٨ م .

٢٦ ـ شبيكة (الدكتور مكي)
السودان في قرن (١٨١٩ ـ ١٩١٩) .
القاهرة ١٩٤٧ م .

٢٧ ـ ابن شداد (القاضي بهاء الدين ، ت ٦٣٢ هـ)
كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية
والمحاسن اليوسفية .
مصر ١٣١٧ هـ .

٢٨ ـ شقير (نعـــوم)
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ثلاثة أجزاء .
مصر ١٩٠٤ م .

٢٩ ـ شكري (الدكتور محمد فؤاد)
الحكم المصري في السودان (١٨٢٠ ـ ١٨٨٥) .
القاهرة ١٩٤٧ م .

٣٠ ـ شكري (الدكتور محمد فؤاد)
مصر والسيادة على السودان ، الوضع التاريخي للمسألة .
القاهرة ١٩٤٧ م .

٣١ ـ شكرى (الدكتور محمد فؤاد)

تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٨٢٠ ـ ١٨٩٩) ٠

القاهرة ١٩٥٧ م ٠

٣٢ ـ شينى (مرجريت)

موجز لتاريخ السودان الى سنة ١٥٠٠ ميلادية ، تعريب ثابت حسن ٠

من مطبوعات مصلحة الآثار السودانية (رسالة متحف الآثار نمرة ١) ٠

الخرطوم ٠

٣٣ ـ صبرى (الدكتور محمد)

مصر فى افريقيا الشرقية : هرر وزيلع وبربره

القاهرة ١٩٣٩ م ٠

٣٤ ـ صبرى (الدكتور محمد)

الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر (واطلسها)

القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٣٥ ـ ضيف الله (محمد ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ، ت ١٢٢٤ هـ)

كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ٠

نشر الشيخ ابراهيم صديق احمد ٠

مصر ١٩٣٠ م ٠

٣٦ ـ طلعت (محمـود)

غرائب الزمان فى فتح السودان ، الكتاب الأول ٠
القاهرة ١٣١٤ هـ ٠

٣٧ ـ الطهطاوى (رفاعة بك رافع)

مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ٠
القاهرة ١٩١٢ م ٠

٣٨ ـ طوسون (الأمير عمر)

تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها الى ضياعها ، ثلاثة أجـــزاء ٠

القاهرة ١٩٣٧ م ٠

٣٩ ـ عابدين (الدكتور عبد المجيد)

تاريخ الثقافة العربية فى السـودان من نشأتها الى العصر الحـــديث ٠

القاهرة ١٩٥٣ م ٠

٤٠ ـ عابدين (الدكتور عبد المجيد)

ميلاد سوبا ، من أعمال الجمعية التاريخية الســودانية ، المجلد الأول ـ الجزء الثانى ٠

الخرطوم ٠

٤١ ـ عبد الرحمن زكى (القائمقام)

يوميات عباس بك معاون حكمدار عموم السودان ٠

القاهرة ٠

٤٢ ـ عبد الرحيم (محمد)

ـ نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع الجزء الأول .
الخرطوم .

٤٣ ـ عبد الرحيم (محمد)

محاضرة عن العروبة في السودان

القاهرة ١٩٣٥ م .

٤٤ ـ عبد الرحيم (محمد)

النداء في دفع الافتراء .

القاهرة ١٩٥٢ م .

٤٥ ـ عبد المجيد (الدكتور أمين عبد العزيز)

التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التى قامت عليها ، ثلاثة أجزاء .

القاهرة ١٩٤٩ م .

٤٦ ـ عثمان حمدالله

سهم العروبة ـ الجزء الأول : حول التاريخ وقبائل العرب في السودان .

الخرطوم ١٩٤٩ م .

٤٧ ـ على ابراهيم عبده (الدكتور)

المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) .

القاهرة ١٩٥٨ م .

٤٨ ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد)
نهر النيل ـ الطبعة الثانية .
القاهرة ١٩٤٨ م .

٤٩ ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد)
السودان الشمالي : سكانه وقبائله .
القاهرة ١٩٥١ م .

٥٠ ـ فخرى (الدكتور أحمد)
« مؤلف إركل عن الخرطوم »
فى المجلة التاريخية المصرية ـ عدد مايو ١٩٤٩ ـ
ص ٢٠٧ ـ ٢١٥ .

٥١ ـ فوزى (ابراهيم باشا فوزى)
السودان بين يدى غردون وكتشنر ، جزءان .
القاهرة ١٣١٩

٥٢ ـ القبانى (الشيخ محمود)
السودان المصرى والانكليز .
الاسكندرية ١٨٩٦ م .

٥٣ ـ القبانى (الشيخ محمود)
« مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان »
فى كتاب : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية
لعبد الله حسين ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ ـ ١٥٤ .
القاهرة .

٤٢ ـ عبد الرحيم (محمد)

ـ نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع الجزء الأول .
الخرطوم .

٤٣ ـ عبد الرحيم (محمد)

محاضرة عن العروبة فى السودان

القاهرة ١٩٣٥ م .

٤٤ ـ عبد الرحيم (محمد)

النداء فى دفع الافتراء .

القاهرة ١٩٥٢ م .

٤٥ ـ عبد المجيد (الدكتور أمين عبد العزيز)

التربية فى السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التى قامت عليها ، ثلاثة أجزاء .

القاهرة ١٩٤٩ م .

٤٦ ـ عثمان حمدالله

سهم العروبة ـ الجزء الأول : حول التاريخ وقبائل العرب فى السودان .

الخرطوم ١٩٤٩ م .

٤٧ ـ على ابراهيم عبده (الدكتور)

المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) .

القاهرة ١٩٥٨ م .

٤٨ ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد)
نهر النيل ـ الطبعة الثانية ٠
القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٤٩ ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد)
السودان الشمالى : سكانه وقبائله ٠
القاهرة ١٩٥١ م ٠

٥٠ ـ فخرى (الدكتور أحمد)
« مؤلف أركل عن الخرطوم »
فى المجلة التاريخية المصرية ـ عدد مايو ١٩٤٩ ـ ص ٢٠٧ ـ ٢١٥ ٠

٥١ ـ فوزى (ابراهيم باشا فوزى)
السودان بين يدى غردون وكتشنر ، جزءان ٠
القاهرة ١٣١٩

٥٢ ـ القبانى (الشيخ محمود)
السودان المصرى والانكليز ٠
الاسكندرية ١٨٩٦ م ٠

٥٣ ـ القبانى (الشيخ محمود)
« مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان »
فى كتاب : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية لعبد الله حسين ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ ـ ١٥٤ ٠
القاهرة ٠

٥٤ ـ القبانى (الشيخ محمود)

« ذكريات الطفولة فى السودان »
فى كتاب : التربية فى السودان للدكتور أمين عبد العزيز عبد المجيـــد ، الجـــزء الثـــالث (مجـــلد الوثائق) ، ص ٢٦ ـ ٣٢ .

القاهرة ١٩٤٩ م .

٥٥ ـ القلقشندى (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ ـ ١٤١٨ م)

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، الجزء الثانى .
القاهرة ١٩١٥ م .

٥٦ ـ كركوكو (محمد مهرى)

رحلة مصر والسودان .

مصر ١٩٤١ م .

٥٧ ـ لجنة التاريخ القبطى

تاريخ الأمة القبطية ، الحلقة الثانية : خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر .

القاهرة ١٩٣٢ م .

٥٨ ـ محمد رؤوف باشـــا

« تقرير يتعلق بمدينة هرر ومحيطها ، وهو تقرير عن المشى من ميناء زيلع الى مدينة هرر » . وفى جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، السنة الثالثة ، الجزء الأول من المجلد الأول .

القاهرة ١٨٧٦ م .



٥٩ ـ محمد مختار وعبد الله فوزي

« نبذة في وصف مدينة زيلع » ، استخرجها يوزباشي أركان حرب سليمان أفندي طاهر من التقرير المحرر من كل من بيكباشي أركان حرب محمد أفندي مختار وصاغقولا أغاسي أركان حرب عبد الله أفنـــدي فوزي بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٨٧٥ . في جريدة أركان حرب الجيش المصري ، السنة الثالثة ، الجزء الأول من المجلد الأول .

القاهرة ١٨٧٦ م .

٦٠ ـ محمد مصطفى صفوت (الدكتور)

« بحث في الجـــلاء الانجليزي عن مصر وبعثـة سيرهنري درمندولف » .

في المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني العدد الأول ، مايو ١٩٤٩ ـ ص ٧٧ ـ ١١٤ .

٦١ ـ مختار (اللواء محمد)

كتـــاب التوفيقات الالهامية في مقـارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية .

القاهرة ١٣١١ هـ .

٦٢ ـ مسعد (الدكتور مصطفى محمد)

امتداد الاسلام والعروبة الى وادى النيل الأوسط (مملكة علوة) .

في مجلة الجمعية المصريه للدراســـات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ . ص ٦٩ ـ ٩٩ .

٦٣ ـ مسعد (الدكتور مصطفى محمد)
الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى •
القاهرة ١٩٦٠ م •

٦٤ ـ المسعودى (على بن الحسين بن على ابو الحسن ت ٣٤٦ هـ ـ ٩٥٦ م) •
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثالث •
نشر دى مينار ودى كورتل •
باريس ١٨٦٤ م •

٦٥ ـ مقار (الدكتور نسيم)
اليكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل •
القاهرة ١٩٥٨ م •

٦٦ ـ المقريزى (تقى الدين أحمـــد بن على ، ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، طبعة المليجى •
مصر ١٣٢٤ هـ •

٦٧ ـ المقريزى (تقى الدين أحمـــد بن على ، ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م)
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ـ القسم الأول •
نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة •
القاهرة ١٩٣٤ م •

٦٨ ـ نور الدايم (الشيخ عبد المحمود)

ازاهير الرياض فى مناقب العارف بالله تعالى الأستاذ الشيخ أحمد الطيب ٠

الخرطوم ١٩٥٤ م ٠

٦٩ ـ الوقائع المصرية

الأعـــداد : ٣٢٠ ، ٣٤٢ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٢٦ ، ٨٢٣ ، ١٤٧٢ ، ١٤٩٥ ٠

٧٠ ـ ونجت (الماجور ف ٠ ر ٠)

فهرست تاريخ الحوادث فى السودان من سنة ١٨٨١ الى ١٨٨٩ ٠

تعريب نجيب ابكاريوس ٠

مصر ١٨٩١ م ٠

٧١ ـ اليعقوبى (أحمـــد بن أبى يعقـــوب بن جعفر بن وهب بن واضح)

تاريخه ، الجزء الأول ٠

ليدن ١٨٨٣ م ٠

٧٢ ـ اليعقـــوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفـــر بن وهب بن واضح)

كتـــاب البلدان ٠

ليدن ١٨٩٠ م ٠

٥ ـ المراجع الافرنجيــه

SNR. : Sudan Notes and Records.

JAS. : Journal of the African Society.

NAV. : Nouvelles Annales des Voyages, de la Geographie, de l'Histoire et de l'Archeologie.

SA. : Sudan Archives.

PMG. : Pall Mall Gazette.

1. Abbate, Le Dr. O. : De l'Afrique Centrale, ou Voyage de S.A. Mohamed Said Pacha dans ses province du Soudan. Paris, 1858.

2.٢ Abbate, Le Dr. O. : Aegyptiaca. Le Caire, 1909.

a) Khartoum — Omdurman et la chute du Mahdisme, (p.p. 285-296).

b) Exposé Technique du Projet du Canal Abbas II, (p.p. 318-27).

c) Le Soudan sous le Regne du Khedive Ismail, (p.p. 348-79).

d) Khartoum Revue apres Cinquante ans, 1856-1906, (p.p. 380-403).

3. Abu Salih, Al Armani : The Churches and Monas-tries of Egypt and some Neighbouring Countries, ed. & tr. by B.T.A. Evetts with added Notes by A.J. Butler. Oxford, 1895.

4. Addison, F. : « A Christian site Near Khartoum », SNR., III, part II, 1930, p.p. 285-88.

5. Addison, F. : « Antiquities found near Gordon's Tree, Khartoum, Province »,
SNR., XIV, part II, 1931, p. 197.

6. Adler, E.N. : « David Reubeni ».
in : Jewish Travellers, (p.p. 251-328). Routledge. 1930.

7. Alford, H. &. Sword, W. : The Egyptian Sudan, Its loss and Recovery. London, 1898.

8. Allen, B.M. : Gordon and the Sudan. London, 1931.

9. Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Hears 1520-1527, ed. & tr. by Stanley (Hakluyt Society), Vol. LXIV. London, 1881.

10. Amici, F. : Essai de Statistique Generale de l'Egypte, Vol. I. Le Caire, 1869.

11. Archer, T. : The War in Egypt and the Soudan, 4 Vols London, 1886-1887.

12. Arkell, A.J. « Aoman Coins at Sennar », SNR., &V. 1932, p.p. 271-72.

13. Arkell, A.J. : Early Khartoum. Oxford, 1949.

14. Arkell, A.J. : A History of the Sudan, from the Earliest Times to 1821. London, 1955.

15. Arthur, Sir G. : Life of Lord Kitchner, Vol. I. London, 1920.

16. Artin, Y. Pasha : England In the Sudan. London, 1911.

17. Baker, Sir. S. W. : The Nile Tributaries of Abyssinia and the Sword Hunters of the Hammran Arabs. London, 1867.

18. Baker, Sir S. W. : The Albert N'Yanza : Great Basin of the Nile, and Explorations of the Nile Sources. London, 1872.

19. Baker, Sir S. W. : Ismailia : A Narrative of the Expedition to Central Africa, 2 Vols. London, 1874.

20. Baker, Sir S. =. : « How to relieve the Garrisons », P. M. G., Wed. January, 16, 1884.

21. Ballard, Brig. : Gen. C. R. Kitchner. London.

22. Beatty, Chalres : His Country was the World, A Study of Gordon of Khartoum. London, 1954.

23. Berlioux, E. F. : The Slave Trade In Africa, 1872. London, 1872.

24. Bermann, R.A. : The Mahdi o Allah : The Story of the Dervish Mohammed Ahmed, tr. from German. London & New York, 1931.

25. Bernard Holland, C. B. : The life of Spencer Comton : Eigth Duke of Devonshire, Vol. I, London, 1911.

26. Bloss, J.F.E. : « The Story of Suakin », part I : SNR., XIX, No II, 1936, p.p. 271-300.

27. Blunt, W. S. : Gordon at Khartoum. London, 1912.

28. Bonola, Le Dr. F. : L'Egypte et La ûeographie. le Caire, 1889.

29. Borelli Bey : La Chute de Khartoum ,26 Janvier 1885.
Procés du Colonel Hassan — Behnassaoul, Juin — Juillet 1887. Paris et le Caire, 1893.

30. Boulger, D. : The life of Gordon, Vol. I. London, 1896.

31. Brechier, L. : L'Egypte de 1798 à 1900. Paris, 1903.

32. Browne, W. G. : Travels in Africa, Egypt and Syria, 1792-1798. Lonon, 1799.

33. Brown, R. : The story of Africa and its Explorers. Vol. II. London, 1893.

34. Bruce, J. : Travels to discover the Source of the Nile, in the Years : 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 & 1773. Vol. VI. Edinburgh, 1805.

35. Buchan, J. : Gordon at Khartoum. London, 1934.

36. Buchta, R. : Die Oberin Nil — Lander Volkstypen und Landschaften Dargestellt in 160 photographien. Berlin, 1881.

37. Budge, E .A. W. : Cook's Handbook for Egypt and the Egyptian Sudan. London, 1906.

38. Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan : Its History and Monuments, 2 Vols. London, 1907.

39. Budge, 6.8.W. : A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. I. London, 1928.

40. Burckhardt, J. L. : Travels in Nubia. London, 1819.

41. Butcher, E. . : The Story of the Chutrch of Egypt, Vol. II. London, 1987.

42. Butler, Lieut. — Gen. Sir W.F. : Charles Goerge Gordon, London, 1920.

43. Cailliaud, F. : Voyage à Meroé, au Fleuve Blanc, au dela de Fazogl dans le midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis, Vols. II & III. Paris 1826.

44. Callots, Von E.F. : « Reise Durch Kush und Habesch », in : Zur Herrlichkeit Des Sudans by Lee Frobenius und Friedric F. Bieber (p.p. 114-314). Stuttgart, Berlin, Leipzig, 1923.

45. Casati, Major G. : Ten Cears In Equatoria, Vol. I. London & New York, 1981.

46. Chabat, G. : Les Villes. Paris, 1948.

47. Chaillé Lond, Col. C. : Centrall Africa : Naked Truths of Naked People. London, 1876.

48. Chaillé Long, Col. C. : Les Trois Prophets : Le Mahdi Gordon — Arabi. Paris, 1886.

49. Chaillé Long, Col. C. : L'Egypte et ses Provinces Perdues. Paris, 1892.

50. Chaillé Long, Col. C. : My Life in Four Continents, 2 Vols. London, 1912.

51. Chatayay, J.D.P. : « Notes on the History of the Fung », SNR, XIII, Part 11, 1930, p.p. 247-58.

52. Chataway, J.D.P. : « Archeology in the Southern Sudan.

1. Some Ancient Sites Near Roseires », SNR. XIII, Part II, 1930, 1930, p.p. 259-64.

53. Chelu, A. : Le Nil, Le Soudan, l'Egypte. Paris, 6891.

54. Childers, S. : Life and Correspondence of the Right Hon. Hugh C.E. Childers, 1837-96, Vol. II. London, 1901.

55. Chirol, Sir. V. : Fifty Years in a Changing =orld. London.

56. Christy, C. : « Sleeping Sickness » JAS., No. I , Oct. 1903, p.p. 1-11.

57. Churchill, The Rr. Hon. W.S. : Lord Randolph Churchill. London, 1907.

58. Churchil, The Rt. Hon. W.S. : The River War : An Account of the Recoquest of the Sudan. London, 1949.

59. olborne, Col. The Hon. J. : With Hicks Pasha in the Soudan. London, 188[illegible].

60. Colvile, H. E. : History of the Sudan Compaign, 2 Vols. London, 1899.

61. Colvin, Sir A. : The Making of Modern Egypt. London, 1906.

62. Combes, E. : Voyage en Egypte, en Nubie, dans les Deserts de Beyouda, des Bicharys, et sur les Cotes de la Mer Rogge, Vol. II. Paris, 1846.

63. Combe, E. T. : « Four Arabic Inscriptions from the Red Sea », SNR., XIII, Part II, 1930, p.p. 289-91.

64. Crabites, P. : Gordon, The Sudan and Slavery London, 1933.

65. Crawford, O.G.S. : The Fung Kingdom of Sennar. Gloucester, 1951.

66. Crofoot, J. W. : « A Local Nile Gauge », SNR. I, Part IV, 1918, p.p. 295-96.

67. Crobmer, The Earl of : Modern Egypt, 2 Vols. London, 1908.

68. De Bovet, Mlle. Marie-Anne : Le General Gordon. Paris, 1890.

69. De Cadalvene, lM.M. Ed. è De Brewery, J. : L'Egypte et la Nubie, Tome I, Paris 1841.

70. De Cosson, E.A. : The Cradae of the Blue Nile, Vol. II. London, 1877.

71. Deherain, H. : Le Soudan Egyptien sous Mehemet Ali. Paris, 1898.

72. Deherain, H. : « Le Soudan Egyptien de Mohamed Aly) Ismail Pacha »

dans : Histoire de la Nation Egyptienne, T. VI, p.p. 417 - 582, par Gabriel Hanotoux. Paris, 1936.

73. De Rivoyre, D. : Aux Pays du Soudan, Bogos. Mensah, Souakin. Paris, 1885.

74. Dicey, E. : The Story of the Khedivate. London, 1902.

75. Dickenson, Cap. F.A. : From Lake Victoria to Khartoum with Rifle & Camera. London, 1910.

76. Didier Charles : Cinquante Jours au Desert. Paris, 1857.

77. Didier Charles : « Khartoum » NAV., Année 1858, tome Deuxieme, p.p. 56-90.

78. Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt, 8 Study of Muhammad Ali. Cambridge, 1931.

79. Douin, G. Histoire du Regne du ûhedive Ismail, tome III (l'Empire Africain) :

    1. ede partie (1863-69) le Caire, 1936.

    2.۲ e partie (1869-73) le Caire, 1938.

    3. e partie (1874-76) fascicule A. le Caire, 1941.

    3. e partie (1874-76) fascicule B — le Caire, 1941.

80. Douin, G. : « Histoire du Soudan Egyptien ». Tome I : La Penetration, 1820-22. Le Caire, 1944.

81. Driault, E. : La Formation de l'Empire de Mohamed Ali de L'Arabie au Soudan (1814-1323). Correspondance des Consuls de France en Egypte. Le Caire, 1927.

82. Dufton, H. : Narrative of a Journey through Abyssinia in 1862-63. London, 1867.

83. Dujarric, G. : L'Etat Mahdiste du Soudan. Paris, 1901.

84. Duncan, J.S.R. : The Sudan, A Record of Achievement. ondon, 1952.

85. Editorial Notes : J8S., Vol. XXI, No LXXXI, Oct. 1921. p.p. 57-66

86. Editorial Notes : JAS., Vol. XXIV,, No. XCIII Oct. 1924. p.p. 53-66.

87. Edwards, F. A. : « The Foundation of Khartoum », SNR., V, Part III, 1922, p.p. 157-161.

88. English, G. B. : Narraive of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of his Excellence Ismael Pasha. London, 1822.

89. Fitzmaurice, Lord E. : The Life of Granville George Leverson Gower, Second Earl. Granville (1815-1891), Vol. II. London, 1905.

90. Forbes, A. : Chinese Gordon. London, 1886.

91. Fothergill, E. : Five Years in the Sudan, London, 1910.

92. Fox, F. W. : « The Fertility of the Soudan », in : Russell, H. : The Ruin of the Soudan, p.p. 343 - 51. London, 1892.

93. Fuller, F.W. : Egypt and the Hinter land to the Reopening of the Sudan. London, 1903.

94. Gesi, R. Pasha : Seven Years in the Soudan. London, 1892.

95. Gilbert, P. : L'Afrique Inconnue : Recits et Aventures de Voyageurs Modernes au Sudan Orientale. Paris, 1862.

96. Gleichen, Count : With the Camel up the Nile. London, 1888.

87. Gleichen, Captain Count : Handbook of the Sudan. London, 1898.

98. Gleichen, Lieut. Col. Count : The Anglo Egytian Sudan : A Conpendium prepared by Officers of the Sudan Government, 2 Vols. London, 1905.

99. Gordon, H. W. : Events in the Life of Charles George Gordon, from Its Beginning to Its End. London, 1886.

000. Gordon, A.M. : Letters of General C.G. Gordon to his Sister. London, 1902.

101. Graham, Sir G. : Last Words with Gordon. London, 1887.

102. Grant, J. A. : A Walk across Africa, or Domestic Scenes from my Nile Journal. London, 1864.

103. Grant, J. A. : Khartoum as Isaw it in 1863. Edinburgh, 1885.

104. Grant, J. A. : C'assells History of the War in the Sudan, 6 vols. London.

105. Gwendolen Cocil, Lady : Life of Ropert Marquis of Salisbury, Vol. III, (1880-86). London, 1931.

106. H. W. : Something new out of Africa. London, 1934.

107. Hake. A.E. : The Stor yof Chinese Gordon, 2 Vols. London, 1884-85.

108. Hake, A.E. : Gordon in China and the Soudan. London, 1896.

109. Hake, A.E. : The Journals of Major-Gen. C.G. Gordon, C. B., at Khartoum. London, 1898.

110. Hall, H. R. : Handbook for Egypt and the Sudan. 11th. edition. London, 1907.

111. Hamilton, J. : Sinai, the Hedjaz, and Soudan. London, 1887.

113. Heug in, M. Th. V. : Reise in des Gebiet des Weissen Nil und Seiner, Westlichen Zufliisse in den Jahren 1862-64. Leipzig und Heidelberg, 1869.

114. Hill, G. B. : Colonel Gordon in Central Africa, 1874-79. London, 1881.

115. Hill, R. : A Biographical Dictionary of the Anglo, Egyptian Sudan. Oxford, 1951.

116. Hill, R. : Egypt in the Sudan, 1820-81. Oxford, 1959.

117. Hillelson, S. : « Historical Poems and Traditions of the Shukriya »,
ENR., III, 1920, p.p. 33-75.

118. Hillelson, S. : « Divid Reubeni, an Early Visitor to

119. Hillelson, S. : « David Reubeni's Journey »,
SNR, XVIII, 1935, p.p. 153-54.

120. Hoskins, G.A. : Travels in Ethiopia above the Second Cataract of Nile. London, 1835.

121. Hurst, H. E. : A Short Account of Nile and its Basin. Cairo, 1985.

122. Hurst, H.E. & Phillips, p. : The Nile Basin, Vol. I. Cairo, 1931.

123. J. W. C. : « Travels of Werne »,
SNR., II, Part I, 1919, p.p. 68-72.

124. Jackson, H. C. : Tooth of Fire. London, 1912.

125. Jackson, H. C. : « The Mahas of Eilafun »,
SNR, II, Part IV, 1919, p.p. 285-88.

126. Jackson, H. C. : Osman Digna. London, 1926.

127. Jackson, H. C. : Sudan Days and Ways. London, 1954.

128. Jackson, H.C. :Behind the Modern Sudan. London 1954.

129. Jacolliot, L. : Les Chausseurs D'esclaves. Paris, (1890).

130. John of Ephesus : Ecclessiastical History, Part II, tr. by R. Payne Smith. London, 1860.

131. John, St. J. A. : Egypt And Nubia. London, 1845.

132. Johnston, Sir H. : The Nile Quest. London, 1906.

133. Johnston, K. : Stanford's Copendium of Geography and Travel, Africa. tr. by A.H. Keane. London, 1884.

134. Jomard, Edm. F. : « Etudes Geographiques et Historiques sur l'Arabic », dans :
Mengin, F. : Histoire Sommarie de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ; p.p. 402-512 Paris, 1839.

135. Junker, Dr. W. : Travels in Africa, 1875-1878. tr. by A.H. Keane. London, 1890.

136. Junker, Dr. W. : Travels in Africa, 1879-1883. tr. by A.H. Keane. London, 1891.

137. Krump, Theodore : Hoher und Fruchtbarer Palm-Baum. Augsburg, 1710. tr. in the : « Fung Kingdom of Sennar » by î.G.S Crawford. Gloucester, 1951.

138. Kumm, H. K. W. : Khont-Hon-Nofer : The Lands of Ethiopia. London, 1910.

139. Langley, M. : No Woman's Country : Travels in the Anglo-Egyptian Sudan. London, 1950.

141. Lejean, G. : Voyage Aux Deux Nils (Nubie-Kordofan-Soudan Oriental) executé de 1860 à 1864. 2 Vols. (text et atlas), Paris, (1865).

142. S Lepsius, Dr. R. : Letters from Egypt, Ethiopia, and Sinai, tr. by J. B. : Horner. London, 1853.

143. Leverson, Cap. J. J. · The Relief of Khartoum,

compiled by the War Office (Confidential).

S.A. : Group : Cairint-Class : 1 - Box : 3 - Piece : 17.

144. Leyden, J. : Historical Account of Discoveries and Travels in Africa, 2 Vols. Edinburgh, 1817.

145. Lormer, F.C.S. : « The Meghadib of El Damer », SNR., XIX, Part II, 1936, pp. 335-42.

146. Low, S. : Egypt in Transition. London, 1914....

147. Lyall, Sir A. : The Life of the Marquis of Dufferin and Ava, Vol. II. London 1905.

148. Maclean, W. H. : « The Planning of Khartoum and Omdurman ». in : The Royal Institute of British Architects, Town Planning Conference. London, 10-15 Oct. 1910. (p.p. 575-603).

149. MacMichael, H. A. : A History of the Arabs in the Sudan,, 2 Vols. Cambridge, 1922.

150. MacMichael, H. A. : « Old Kartoum »., SNR., VI, Part 1, 1923, p.p. 110-111.

151. MacMichael, Sir H. : The Anglo-Egyptian Sudan. London, (1934).

152. MacMichael, Sir H. : « The Coming of the Arabs to the Sudan ».

in : The AngloEgyptian Sudan from Within, edited by J.A. de C. Hamilton, p.p. 40-60. London, 1935.

153. MacMichael, Sir. H. : The Sudan. London, 1954.

154. Magnus, Phisip. : Gladstone : A Biography. London, 1954.

154. Magnus, Philip. : Gladstone : Biography. London,

155. Martin, P. F. : The Sudan in Evolution. London, 1981.

156. Maurice, Maj. — Gen. Sir F. & Arthur, Sir G. : The Life of Lord Wolseley. New Hork, 1924.

157. Melly, A. : Lettres d'Egypte et de Nubie. Londres, 1852.

158. Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Niles, Vol. II. London, 1851.

159. Middlton, D. : Baker of the Nile. London, 1908.

160. Millais, J. G. : Far Away up the Nile. London, 1924.

161. Morley, J. : The Life of William Ewart Gladstone, Vol. II. London, 1907.

162. Mouriez, P. : Histoire de Mehemet-Ali Vice Roi d'Egypte, t. II. Paris, 1858.

163. M'queen, J. : « The Nile Basin. »
Part II : Captain Speke's Discovery of the Sources of the Nile : A Review. London, 1864.

164. Murray, T. D. & While, A.S. : Sir. Samuel Baker, A Memoir, London, 1895.

165. Muskau, Prince P. : Travels and Adventures in Egypt with Ancodetes of Mohemet Ali, Vols. II & III. London, 1847.

166. Nadler, L. F. : « Fung Origins », SNR., XIV, 1931, p.p. 61-66.

167. Noufeld, F. : A prisoner of the Khaleefa. London, 1899.

168. Nevinson : The Insurrection of the False Prophet-4 Part, Compiled by the War Offiec (confidential). SA. Group : Cairint - Class : I - Box : 3 Piece : 15.

169. Nevinson, H. W. : Fire of Life. London, 1936.

170. Newbold, Sir. D. : « Extracts from his Letters,

172. Ohrwalder, Fr. J. : Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp., 1882-1892. London, 1892.
London, 1923.
1922-23 ».

171. Newman, Maj. E.W.B. : Great Britain in Egypt. SNR., XXVI, 1945, p.p. 229-89.

173. Pallme, I. : Travels in Kordofan, London, 1844.

174. Palmer, Sir. R. : The Bornu Sahara and Sudan. London, 1936.

175. Paul, A. : A History of the Beja Tribes of the Sudan. Cambridge, 1954.

176. Paul, B. : The Future of Egypt. London, 1884.

177. Peel, S. : The Binding of the Nile and the New Soudan. London, 1904.

178. Peel, Cap. W. : A Ride through the Nubian Desert. London, 1852.

179. Penn, A. E. D. : « The Ruins of Zankor ». SNR., XIV, 1931, p.p. 179-84.

180. Penn ,A. E. D. : « Traditional Stories of the Abdullah ». SNR., XVIII, 1934, p.p. 60-67.

181. Pensa, H. : L'Egyptien, Paris, 1895.

182. Petherick, J. : Egypt, the Soudan and Central Africa. Edinburgh and London, 1861.

183. Mr. & Mrs. Petherick : Travels in Central 8frica and Explorations of the Western Nile Tributaries, 2 Vols. London, 1869.

184. Pin blett, W.M. : Story of the Sudan War, from the Rise of the Revolt July 1881 to the Fall of Khartoum and Death of Gordon Jan, 1885. London, 1885.

185. Poncet, Charles : A Voyage to Ethiopia made in the Pears 1698, 1966 and 1700, describing Particularly that Famous Empire, as alsothe Kingdoms of Dongola, Sonnar, Part of Egypt, etc., with the Natural history of these Parts. Faithfully translated from the French Original. London, 1907.

186. Pocet, M. J. : Le Fleuve blanc, Notes Geographique et Ethnologiques et les Chasses à l'Elephant dans le Pays des Dinka et des Djour. Paris, 1858.

187. Power, F. : Letters from Khartoum written during the Siege. London, 1885.

188. Pritchard, H. L. : Sudan Campaign. London, 1889.

189. Prodhoe, Lord : « Extrait des Notes Ecrités Pendant Un Voyage du Caire au Sennar », NAV., tome deuxime de l'année 1837. p.p. 261-308.

190. Prout, H. G. : General Report on the Privince of Kordofan (Publication of the Egyptian General Staff). Cairo, 1877.

191. Quatremére, E. Memoires Geographiques et Historiques Sur l'Egypte et sur Quelques Contrées Voisins, Vol. II. Paris, 1811.

192. Reid, J. A. : « Some Notes on the Tribes of the White Nile »,
SNR., XIII, Part II, 1930, p.p. 194-209.

193. Reid, J.A. : Notes on the Tribes and Prominent Families of the Blue Nile (Sudan Government Memoranda No. 3). Khartoum, 1935.

194. Reisner, G. A. : « Outline of the Ancient History of the Sudan ». SNR. :
Part I, Vol. I, No. I, 1918, p.p. 3-15.
Part II, Vol. I, No. 2, 1918, p.p. 57-79.
Part III, Vol. 1, No. 4, 1918, p.p. 217-37.
Part IV, Vol. II, No. 1, -1919, p.p. 35-67.

195. Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, Red Sea, and Equator. (Compiled in the Intelligence Branch Quatremaster General5s Department, Horse Guards, War Office). London, 1884.

196. Robinson, A.E. : « The Fung Drum or Nehas », SNR., IV, 1921, pp. 211-12.

197. Robinson, A.E .: « British Consuls at Suakin », SNR., IV, 1921, p. 108.

198. Robinson, A.E. : « The Mamelukes in the Sudan », SNR., V, 1922, p.p. 88-94.

199. Robinson, A.E. : The Rulers of the Sudan from the Turkish Occupation Until the Evacuation by Order of the Khedive »,
J8S., Vol. XXIV., No. XCIII, Oct. 1924, pp. 39-49.

200. Robinson, A. E. : «Nimr, The Last King of Shendi», SNR, VIII, 1925, p.p. 105-118.

201. Robinson, A.E. : « The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt, Muhammad Ali Pasha (1820-24), JAS. : Part I, Vol. XXV, No. XcVI, Oct. 1925, p.p. 47-58.

202. Rollet, B. : Le Nil Blanc et le Soudan. Paris, 1855. Part II, Vol. XXV, No. CVIII, Jan. 1926, p.p. 164-182.

203. Royle, Ch. : The Egyptian Campaigns, 1882 to 1885. London, 1900.

204. Russell, H. assisted by W. Gattle : The Ruin of the Soudan. Cause, Effect and Remedy. London, 1892.

205. Russell, M. : Nubia and Abyssinia. Comprehending their Civil History, Antiquities, Arts, Religion, Litirature and Nature History. New York, 1869.

206. Sabry, tyo Dr. M. : L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et La Question d'Orient (1811-1849). Paris, 1930.

207. Sabry, Le Dr. M. : L'Empire Egyptian sous Ismail et l'Ingerence Anglo-Francaise (1863-1879), Paris, 1933.

208. Sabry, Le Dr. A. : Le Soudan Egypten (1821 - 1898). Le Caire, 1947.

209. Salt, H. : Voyage to Abyssinia. London, 2814.

210. Sandes, Lieut. - Col. E.W.C. : The Royal Engineers in Egypt and the Soudan. Ghatham, 1937.

211. Sarsfield-Hall, E.G. : A Brief Account of the Siege and Fall of Khartoum. Khartoum (1936).

212. Sartorius, E. : Three Months in the Sudan. London, 1885.

213. Schweinfurth, Dr. G. : The Heart of Africa, 2 Vols., tr. by Ellen E. Frever. London, 1878.

214. Schweinfurth, Dr. G. & others : Emin Pasha in Central Africa. London, 1888.

215. Shibeika, Dr. M. : British Policy In the Sudan (1882-1902). Oxford, 1952.

216. Shoemaker, M. M. : Islam Lands : Nubia, the Sudan, Tunisia and Algeria. New York and London, 1910.

217. Shukfy, Dr. M. F. : The Khedive Ismail and Slavery In the Sudan. (1803-1879). Cairo, 1938.

218. Shukry, Dr. M. F. : Gordon At Khartoum (1884 - 1885).. Cairo, 1951.

219. Slatin, R.C. Pasha : Fire and Sword In the Sudan, tr. by Col. F.R. Wingate. London, 1898.

220. Stanton, E. A. : « The Peoples of the Anglo-Egyptian Sudan ».
JAS., Vol. of 1902-190, No. VI, Jan. 1903, pp. 121-131.

221. Stanton, E. A. : « The Anglo-Egyptian Sudan ». JAS., Vol. XV, No. XLIII, April 1912, p.p. 261-74.

222. Stanton, E. A. : « Progress In the Sudan ».
JAS., Vol., XIII, No. LII, July 1914., p.p. 365-68.

223. Stead, W. T. (The Editor of P.M.G.) : « Chinese Gordon For the Sudan. » P.M.G., Wednesday, Jan., 9, 1884.

224. Stewart, Lieut. - Col. : Report On the Sudan. London, 1883 (Blue Book. Egypt No. II (1883).

225. Stewart, Lieut - Col. : « Lieut. - Col. Stewart's Description of Khartoum. » PMG., No. 7 (Extra) Saturday, February, 2, 1884.

226. Stigand, Mrj. C.H. : Equatoria : The Lado Enclave. London, 1923.

227. Strachy, L. « The End of General Gordon, » in : Eminent Victorians, p.p. 209-302. London, 1922.

228. Taylor, B. : A Journey to Central Africa. New York, 1854.

229. Thebold, A.B. : The Mahdiya : A History of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881-1899. London, 1951.

230. Tounsy, Le Cheik Mohammed Ibn Omar El : Voyage au Darfour, traduit de l'arabe par le Dr. Perron, publié par les soins de M. Jomard, l'appendice par le Dr. Perron (p.p. 386-87). Paris, 1845.

231. Toussoun, Prince O. : Memorandum On the Question of the Sudan. Alexandria, 1936.

232. Tremaux, P. : Voyage En Ethiopie, Au Soudan Oriental et dans la Nigritic, Vol. I. Paris, 1862.

233. Tremaux, P. : Le Soudan. Paris, 1862.

234. Trimingham, J.S. : Islam In the Sudan. Oxford, 1949.

235. Vossion, L. : Khartoum et le Soudan d'Egypte. Catalogue general des differents objets. Paris, 1890.

236. W. A. D. and J. W. C. : « Soap Making In the Sudan. » SNR., V, Part 4, 1922, p.p. 244-26.

237. Weddington, G. & Hanbury, B. : Journal of A Visit to Some Parts of Ethiopia. London, 1882.

238. Walkley, C.E.J. : « The Story of Khartoum. « SNR. :

Part I, Vol. XVIII, No. 2, 1935, p.p. 221-41.
Part II, Vol. XIX, No. 1, 1936, p.p. 71-92.

239. Ward, J. : Our Sudan : Its Pyramids and Progress. London, 1905.

240 .Werne, F. : Expedition to discover the Sources of the White Nile in the Years 1840, 1941. tr. by C.W. O'Reilly, 2 Vols. London, 1849.

241. Werne F. : African Wanderings or an Expedition from Sennar to Taka, Basa & Beni Amer, with a particular glance at the races of Bellad Sudan. tr. by J. R. Johnston, London, 1852.

242. Weygand, Le Gen. : Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, Vol. I. Paris, 1936.

243. White, A. S. : The Expansion of Egypt under Anglo-Egyptian Condominium. London, 1899.

244. Willcooks, Sir W. : L'Egypte dans Cinquante Ans. (Bulletin de la Societé Khediviale de Geographic du Caire, VE Sedie, Supplement 1903).

245. Williams, R. : « The Cape to Cairo Railway ». JAS., Vol. XX, No. LXXX, July 1921, p.p. 241-58.

246. Willis, C.A. : « Religious Confraternities of the Sudan. » SNR., IV, Part 4, 1921, p.p. 175-93.

247. Wilson, C.R. : Chapters from My official Life. London, 1916.

248. Wilson, Rev. C. T. and Felkin, R. W. : Uganda and the Egyptian Soudan, Vol. II. London, 1882.

249. Wilson, Col. Sir Charles W. : From Korti to Khartoum. A Journal of the desert march from Korti to Gubat, and of the ascent of the Nile in general Gordon's Steamers. London, 1886.

250. Wingate, Maj. F. R. : Events In the Sudan, For the Years 1881-89 Inclusive (Chronological Index). London, 1890.

251. Wingate, Maj. F. R. : Mahdiism and the Egyptian Sudan, Being an Account of the Rise and Progress of Mahdiism, and the Subsequent Events in the Sudan to the Present Time. London, 1891.

252. Wingate, Maj. E. R. : The Sudan, Past and Present. Woolwich, 1892.

253. Wingate, Maj. F.R. : « The Siege and Fall of Khar-Khartoum », SNR., XIII, Part I, 1930, p.p. 1-82.

254. Wingate, Sir R. : Wingate of the Sudan. London, 1955.

255. Wortham, H. E. : Gordon, An Intimate Portrait. London, (1933).

256. Wylde, A.B. : 83 to 87 in the Sudan, Vol. II. London, 1888.

257. W. S. : « Gordon's Tree » ; SNR., VIII, 1925, p. 237.

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

صدر في هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل في محكمة التاريخ،
د. عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤.

٢ ـ علي ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.

٤ ـ التيارات الفكرية في مصر المعاصرة،
د. محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى،
د. علية عبد السميع الجنزوري، ١٩٨٧.

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ١،
لمعي المطيعي، ١٩٨٧.

٧ ـ صلاح الدين الأيوبي،
د. عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.

٨ ـ رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية،
د. علي بركات، ١٩٨٧.

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د. محمد أنيس، ١٩٨٧.

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزي، ١٩٨٧.

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضي، ١٩٨٧.

١٢ ـ هدى شعراوي وعصر التنوير،
د. نبيل راغب، ١٩٨٨.

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصري للسودان: رؤية تاريخية،
د. عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩١.

١٤ ـ مصر في عصر الولاة، من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامي،
د. علي حسني الخربوطلي، ١٩٨٨.

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٨.

١٧ ـ القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني،
د. محمد نور فرحات، ١٩٨٨.

١٨ ـ الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية،
د. علي السيد محمود، ١٩٨٨.

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د. أحمد محمود صابر، ١٩٨٨.

٢٠ ـ دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩: المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي،
د. محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.

٢١ ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني جـ١،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٢ ـ نظرات في تاريخ مصر،
جمال بدوي، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني
جـ٢ ، إمام التصوف في مصر: الشعراني،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)،
د. لويس كامل، ١٩٨٩.

٢٥ ـ المجتمع الإسلامي والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بوين،
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى،
١٩٨٩.

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة،
د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٨٩.

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ١،
تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ٢،
تأليف : ألفريد ج. بتلر ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٩ ـ مصر في عهد الإخشيديين،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.

٣٠ ـ الموظفون في مصر في عهد محمد علي،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٠.

٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضي، ١٩٨٩.

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،
لمعي المطيعي، ١٩٨٩.

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الأفريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،
د. خالد محمود الكومي، ١٩٨٩.

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،
د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،
عبدالحميد توفيق زكي، ١٩٩٠.

٣٦ ـ المجتمع الإسلامي والغرب جـ٢،
تأليف : هاملتون بوين، ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠.

٣٧ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن،
تأليف : د. سليمان صالح، ١٩٩٠.

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني،
د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠.

٣٩ ـ قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠.

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨،
د. عبدالمنعم الدسوقي الجميعي، ١٩٩٠.

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة، رؤية عصرية،
د. رفعت السعيد، ١٩٩١.

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط ٢، ١٩٩٠.

٤٣ ـ رحلة في عقول مصرية،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩١.

٤٥ ـ الحروب الصليبية جـ١،
تأليف : وليم الصوري، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشي، ١٩٩١.

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧)،
ترجمة: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث،
د. لطيفة محمد سالم، ١٩٩١.

٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي،
د. زبيدة عطا، ١٩٩١.

٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٧٩)،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦-١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٣.

٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، في إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر،
د. إلهام محمد علي ذهني، ١٩٩٢.

٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي، ١٩٩٢.

٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩٢.

٥٥ - الحروب الصليبية جـ٢،
تأليف: وليم الصوري، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ١٩٩٢.

٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي: دراسة عن إقليم المنوفية،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٢.

٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.

٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة،
د. إبراهيم عبدالله المسلمي، ١٩٩٣.

٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،
د. عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.

٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٣.

٦١ - تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٣،
لمعي المطيعي، ١٩٩٣.

٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:
د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٤ - مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والافتراء: دراسة وثائقية،
د. محمد نعمان جلال، ١٩٩٣.

٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧)،
د. سهام نصار، ١٩٩٣.

٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي،
د. نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣.

٦٧ - مساعي السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، في إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٨ - الحروب الصليبية جـ٣،
تأليف: وليم الصوري
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ١٩٩٣.

٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١)،
د. محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤.

٧٠ - أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف : أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ط ٢، ١٩٩٤.

٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.

٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام ، ١٩٩٤.

٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.

٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ١ ، فى العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.

٧٥ - أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.

٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الإحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.

٧٧ - الحروب الصليبية جـ١ ،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د حسن حبشى، ١٩٩٤.

٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.

٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر،
تأليف : فريد دى يونج، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥.

٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.

٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥.

٨٢ - مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ - القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.

٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.

٨٦ - تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.

٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦)،
إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.

٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.

٨٩ - تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.

٩٠ - معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.

٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.

٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨).

د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤).

د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.

٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة).

إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠).

تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرءوف أحمد عمرو.

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية.

د. محمد سيد محمد.

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢.

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة.

أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد إبراهيم بكر، أ.د. إبراهيم نحمى، أ. د. فاروق القاضى، أصدها للنشر أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة.

اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى، اللواء/ محمد عبدالحليم، المقدم/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢

د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره

د. على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)

د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر والقضية الديمقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧.

د. أحمد فارس عبدالمنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).

د. سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.

تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.

١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.

سليم النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.

سليم النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.

د. البيومى إسماعيل الشربينى.

١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.

د. البيومى إسماعيل الشربينى.

١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى

د. محمد محمد الجوادى.

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)

د. عز الدين إسماعيل.

١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى

تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ - مذكراتي في نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.

١١٦ - أديب إسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد

١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨)
عبد الرازق إبراهيم عيسى

١١٨ - النظم المالية في مصر والشام
د. البيومي إسماعيل الشربيني

١١٩ - الطوائف في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس

١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي

١٢٢ - مصر للمصريين جـ ٩
سليم خليل النقاش

١٢٣ - السيد أحمد البدوي
د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن
د. محمد نعمان جلال

١٢٥ - مصر للمصريين جـ ٧
سليم خليل النقاش

١٢٦ - مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش

١٢٧ - مشكلات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨).
إبراهيم محمد محمد إبراهيم.

١٢٨ - منزل مصطفى.
بقلم/ جمال بدوي.

١٢٩ - الفن المسلم (وأثره في تطور الفن المصري) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ - تاريخ المسابقات الفنية في مصر (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.

١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليه ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبد الرءوف أحمد عمرو.

١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر جـ ١.
د. ماجدة محمد حمود.

١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر جـ ٢.
د. ماجدة محمد حمود.

١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني للقازدغلي.
بقلم/ عزت حسن أفندي القازدغلي
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغني.

١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة) (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغني الأشقر

١٣٨ - الإخوان المسلمون وجماعات التطرف الديني والإرهاب في مصر
السيد يوسف

١٣٩ - موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين
بقلم محمد قابيل

١٤٠ - سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥هـ / ١٨١١ - ١٨٤٩م
طارق عبد العاطي غنيم البحيري

١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك.
أماني أحمد نصار

١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن جـ ٢
أحمد شفيق باشا ط ٢، ١٩٩٩.

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة في القرنين الثاني والأول ق.م

د. منيرة محمد الهمشري

١٤٤ ـ كشوف مصر الأفريقية في عهد الخديوي إسماعيل

د. عبدالعليم خلاف

١٤٥ ـ النظام الإداري والاقتصادي في مصر في عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)

د. منيرة محمد الهمشري

١٤٦ ـ المرأة في مصر المملوكية

د. أحمد عبدالرازق

١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف ولماذا؟

د. رفعت السعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية

تأليف / د. سمير فوزي

ترجمة / نسيم مجلي

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية

في القرن الثامن عشر

حسام محمد عبد المعطي

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)

د. سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة

السيد يوسف

١٥٢ـ الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية

(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)

د. محاسن محمد الوقاد

١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)

د. علية عبد السميع الجنزوري

١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى

د. علية عبد السميع الجنزوري

١٥٥ـ عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر

(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)

د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية

الجزء الثالث

في العصر الإسلامي

د. سمير يحيى الجمال

١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية

الجزء الرابع

في العصر الإسلامي والحديث

د. سمير يحيى الجمال

١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية في مصر

(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)

د. محمد عبد الغني الأشقر

١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)

الجزء الأول

د. محمد فريد حشيش

١٦٠ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٧)

الجزء الثاني

د. محمد فريد حشيش

١٦١ـ السيف والنار في السودان

تأليف / سلاطين باشا

١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)

د. حلمي همام شام

١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية

المستشار / محمد سعيد العشماوي

١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧.

إعداد / د. عبدالعظيم رمضان

١٦٥ـ التعليم والتغير الاجتماعي في مصر

(في القرن التاسع عشر)

علي سليمان محمد الفهم

١٦٦ـ مذكرات مناضل سياسي (صفحة من تاريخ مصر)
السيد يوسف

١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. صفي علي محمد عبدالله

١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسري عبد الغني

١٦٩ـ مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفي علي محمد عبد الله

١٧٠ـ القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
مجدي عبد الرشيد بحر

١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية في مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت

١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الأول
تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الثاني
تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م
د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره في الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل

١٧٦ ـ الملاحة النيلية في مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية إزاء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر
د. سحر علي حنفي

١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩م)
د. عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ ـ الخلفية التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي

١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفي جمعة

١٨٤ ـ المنوفية في القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق

١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري
د. أحمد أحمد سيد أحمد

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/٧٢١٧

ISBN — 977 — 01 — 6668 — 5